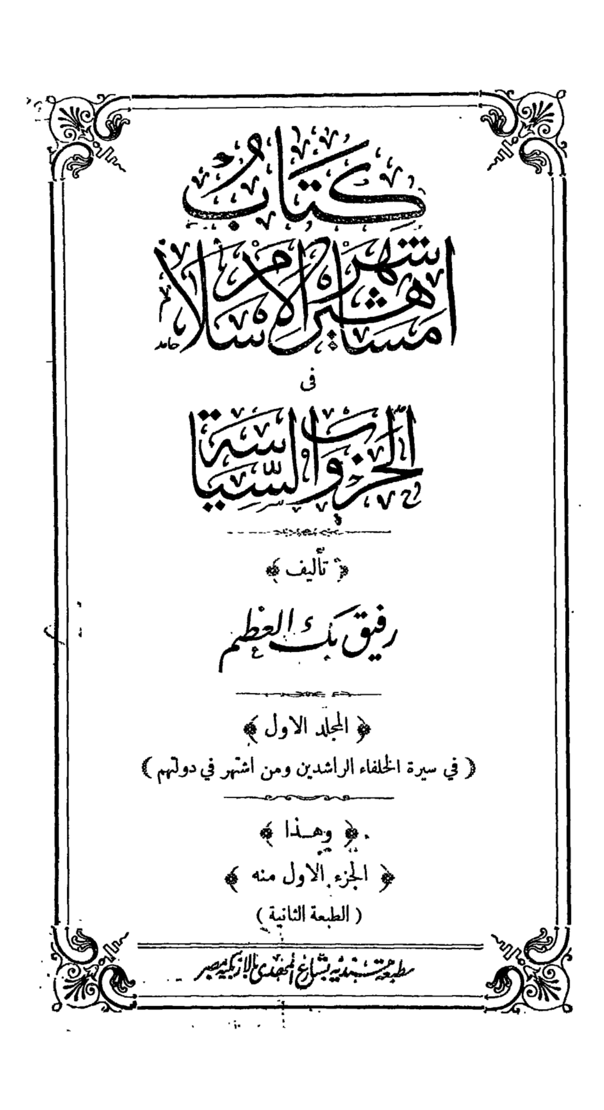




كتاب اشهر مشاهير الاسلام

فى

الحرب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

﴿ المجلد الاول ﴾

(في سيرة الخلفاء الراشدين ومن اشتهر في دولتهم)

﴿ وهذا ﴾

﴿ الجزء الاول منه ﴾

(الطبعة الثانية)

مطبعة هندية بشارع المهدى بالازبكية بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أفاض على الانسان من نور العقل ما شرف به على سائر المخلوقات . وجعل التفاضل بالعلم مرقاة للبشر آيتها العظمى (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فانتشروا في آكناف الارض يبتغون الى ذلك الوسيلة . ويتذرعون الى السبق في مضمار الحياة بالاعمال الجليلة . فشيدوا صروح المدنية فشادوا الممالك . فمنها الموجود ومنها الهالك . وصلى الله على سيدنا محمد اعظم البشر بلا مراء . ومؤسس الشريعة الاسلامية على دعائم الحرية والعدالة والاخاء . الذي دانت لدينه الامم . وتضاءلت دون جليل عمله شوامخ القمم . وعلى آله واصحابه الذين انتصروا للحق فنصروا شريعته الغراء . وخلفائه الذين اهتدوا بسنته فخضعت لهم الشعوب لا رهبة ولا رياء ﴿ اما بعد ﴾ فان الله سبحانه وتعالى منذ دحا الارض جعلها مضماراً تتسابق فيه الاحياء . وتتبارى فيه الاكفاء . والانسان ابن بجدتها . والسابق في حومتها . كل فريق منه يباري فريقاً . وكل امرئ ينتهج الى المجد طريقاً . فمن استمسك بعروة الجد استعلى . ومن استمهل عزيمة النفس ونى واسترخى . فكانت يده في هذا الوجود هي الدنيا . ويد السابق هي العليا . وبعيد الهمة يأبى الادنى . والغضاضة لا يرضاها الا ضعيف الحجى . ومن ثم كانت مراتب الناس في هذا الوجود بنسبة الاعمال . وخلائقهم سبب تفاوت الرجال . فرب شخص بعيد السمعة عظيم كبير . وآخر لا في العير ولا في النفير

ولم ارَ امثال الرجال تفاوتاً ... الى الفضل حتى عدَّ الف بواحد

بل رب شخص تقوم به الدولة وتسعد الامة وآخر تهلك به الدولة وتشقى

الناس وانما قامت الدول واتصلت بالشعوب اسباب السعادة بافذاذ من كل امة معدودين . وافراد من الرجال مشهورين . كبرت نفوسهم عن ان تخلد الى الدنايا وترضى بالحقير من الشهوات فطمحت بهم الى معالي الامور وانصرفت بهممهم الى غايات الكمال فنالوا بهذا حياة لا تفنى . وغادروا في الوجود آثاراً لن تزول

لم يخل من هؤلاء الرجال عصر من العصور ولا دولة من الدول لانهم اقطاب العالم الذين تقوم بهم اركانه. ودعامة الوجود الاجتماعي التي يشاد عليها بنيانه . وبالخاصة منهم رجال السياسة والحرب الذين رفعوا منار الدول ودوخوا ممالك الارض فانهم على قلة عددهم من كل قبيل . وندرتهم في كل جيل . لم يخل تاريخ كل امة من ذكرهم. ولم تمح عن صفحات الوجود آيات فخرهم. وللامم في تخليد ذكر أبطالها هؤلاء مذاهب من العناية تختلف باختلاف الازمنة والاقوام وقد بلغ بالاقدمين منهم كاليونان مثلاً ان أنزلوهم منزلة الآلهة ورفعوا لهم في هياكل العبادة الانصاب وأما أهل العصور المتمدنة فقد افردوا لافرادهم التواريخ تشهد لهم بجميل الذكر . وشيدوا باسمهم الآثار ليبقى مذكوراً بالتعظيم أبد الدهر

لو نقبنا عن هؤلاء الرجال في تاريخ كل أمة لوجدنا أعظمهم عملا . وأعلاهم كعباً . وأبعدهم همة رجال الاسلام الذين نبتت اصولهم في منابت الشيح والقيصوم . وأظلت فروعهم فارس والترك والصين والمغرب واوربا والروم . فدانت لهم أعظم دول الارض لذلك العهد واستخضعوا لسلطان حكمهم أشد الأمم صولة وأرقاهن قوة ومدنية كالفرس والرومان والغوط وغيرهم

ان ممن اشتهر في التاريخ ذكره وعظم في عهده أثره هنبال بطل قرطاجنة الشهير الذى ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم فاجتاز

اليهم جبال البرنيه بجيوش جرارة وجند كثيف لينازلهم في صميم بلادهم ويستنزل أقيالهم عن منصات مجدهم ومع هذا فأين هو من موسى بن نصير ومولاه طارق اللذين جاءآمن أقصى العربية الى أقصى المغرب فدوخا ممالك هنبال القديمة في افريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليل البالغ اثنى عشر الف مقاتل مضيق سبتة الى القارة الاوربية ففتحا مملكة الاندلس وقضيا على دولة الغوط بالدمار . بل اين هو من عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي اقتحم ماوراء البرنيه على عهد الخليفة هشام الاموي وانساح بجيشه القليل في احشاء المملكة الفرنساوية حتى بلغ بواتو وبورغونيا على مسافة الف ميل من جبل طارق فذعرت منه سكان الممالك الاوربية واستجاشت لقتاله وصدته الجنود الفرنساوية والكوكسون والغوط والجرمان حتى تمكنوا من ارجاع جيشه على ادراجه واوقفوا تياره الذي كاد يكتسح الممالك الاوربية بقوة عجاجة

اين نابليون الذي طبقت شهرته التاريخية الآفاق وعده الاوربيون من أشهر القواد في العالم لحروب طويلة اصلاهم نارها. واذاقهم شدة اوارها. لم تأت لدولته بفتح جديد. او خير عتيد. من قتيبة بن مسلم فاتح السند. وتركستان او عبد الملك بن مروان الذي تولى منصب الخلافة وقد تنازعتها اطماع الطامعين. واشرأبت الى التحزب والانقسام اعناق المسلمين . فبادر الى تلافي الخطب مبادرة الحكيم واستظهر على الشدائد ببعد النظر والرأي فذلل صعاب الامور وأرغم من خالفه من الناس على الطاعة . ثم بعد ان استصفى لنفسه الخلافة وأجرى امور الملك مجرى السداد والطمأنينة اطلق للجيوش الاسلامية عنان الفتح والغارة فجاست خلال الممالك وجابت شطوط المحيطين مرفوعة اعلام الظفر واثقة من نصر الله لها وحفوف عنايته بها

ومع ان هؤلاء الرجال واضرابهم كثير عددهم في الاسلام فان العناية باستقصاء اخبارهم وتتبع تواريخ حياتهم وافرادها بكتب خاصة تخليداً لذكرهم وتقديراً لقدر كل فرد منهم غير متوفرة عند المسلمين . ولا ملتفت اليها عند المؤرخين . اللهم الا ما اوردوه من اخبارهم مبذعراً في بطون التواريخ متفرقاً في كتب التراجم التي تكاد الاستفاضة فيها بذكر الرجال تقصر على ارباب القلم دون ارباب السيف

نعم قد عني بعض المؤرخين بافراد كتب خاصة بتاريخ افراد من رجال الاسلام كسيرة السلطان محمود الغزنوي وسيرة صلاح الدين وسيرة تيمورلنك الا ان الاحرى ببعض هذه السير ان تسمى كتب ادب لا كتب سير وتاريخ كسيرة السلطان محمود الغزنوي المشهورة بتاريخ العتبي وسيرة تيمور المسماة عجائب المقدور لالتزام مؤلفيهما طريق التقفية وتكلفهما السجع الممل للنفوس المخل باصول التاريخ وفضلاً عن هذا فان في المسلمين من رجال السياسة والحرب عدداً غير قليل لو افردت لكل واحد منهم سيرة خاصة او افردوا بتاريخ خاص لكان ذلك أبقى لذكرهم . وأظهر لشهرتهم . واقرب لتناول أخبارهم التي تكون داعية الاقتداء بهم . والاعتبار بجليل اعمالهم . فان لبعض النفوس ميلاً غريزياً الى حب الشهرة وسلوك مسالك الظهور فاذا عرف أربابها كيف ساد اسلافهم واشتهر عظماء قومهم ورأوا التنويه بشأنهم خاصة والاشارة الى انفرادهم بالشهرة واتصافهم بالفضائل ربما يدعوهم ذلك متى كانوا من زعماء الأمة وقادة الافكار والسياسة الى التشبه باولئك في جلائل أعمالهم وتدقيق النظر في سيرهم للوقوف على مواضع الاصابة ومظان الخطأ من أعمالهم والاخذ بما يصلح منها لزمانهم ومكانهم

عرف هذا الغربيون فلم يكتفوا بافرادهم التواريخ لرجالهم والعناية بالتنويه بشأنهم بل صنعوا لهم التماثيل تقام على قوارع الطرق وساحات المدن وشيدوا باسمائهم الآثار العظيمة كالمدارس والملاجئ ليكون ذلك ادعى لتوجيه الانظار اليهم. وأبقى بين الخاصة والعامة لجميل ذكرهم. كما انهم اجتنبوا في تراجم رجالهم استعمال التخيلات الشعرية وايراد الاستعارات والمجاز في الوصف ورص الالقاب الكثيرة رصاً تضيع معه صفات المترجم الفطرية . وتغمض على الناقد اوصافه الحقيقية. ليكون في بساطة الترجمة وقصرها على ايراد الحقائق في منشأ المترجم ومآثره في حال ظهوره وإبان نشأته تصوير لسيرة المترجم يمثله للمطالع في قالب الوجود حتى كانما هو يراه

ولعمري ان رجال الأمم العظام لخليقون بمثل هذه العناية جديرون باعظام الشأن . وتخليد ذكرهم على صفحات الزمان . ولما كان الاسلام قد أنجب كثيراً من امثال هؤلاء الرجال الذين ورد ذكرهم مشتتاً في بطون التواريخ متفرقاً في ثنايا الكتب والسير فقد نهضت بي عزيمة النفس واستفزني الولع برجال الاسلام الى ان استقصى اخبارهم واتتبع آثارهم وأفرد لمشاهيرهم في الحرب والسياسة تاريخاً خاصاً آتي به على أخبارهم وفتوحاتهم وسياستهم وأخلاقهم وكل ما يتعلق بتاريخ حياة كل فرد منهم على اسلوب مبتكر بديع الترتيب سهل على المتناول جامع للاوصاف التي تمثل حقيقة المترجم تمثيلاً لا يدع حاجة في النفس الى المزيد ولا يحوج المطالع الى الامعان في جمع مزيج الاخبار الى مقر الذاكرة من دماغه والعقل من فؤاده للوقوف على أغراضها . والتفريق بين جواهرها وأعراضها

هذا وقد أخذت على نفسي أن أطلق لها في كل مجال عنان القول وأرمي

بسهام الفكر الى كل غرض يبدو للنظر عساني ان ألم بشيء من الادواء الاجتماعية التي طرأت على المسلمين. واستطيع من اسداء النصح ما أخدم به في هذا العصر قومي الذين ما إخا لهم يردون نصيحة الناصحين . سيما اذا كانت مؤيدة بسيرة الصحابة معضدة بالتاريخ مستندة الى الدين

ولما وطنت النفس على مباشرة هذا العمل رأيت ان اقصر الاستقصاء والبسط في الكلام على اشهر مشاهير الاسلام خاصة وأورد في ختامه ملخصاً تاريخياً لمشاهير رجال الاسلام عامة يكون كفهرس تعلم منه ذواتهم ويرجع فيه الى ملخص تاريخهم

واني وان كنت عزمت على اجتناب الخوض في الفتن التي ثار ثائرها بين المسلمين في عهد الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية رضي الله تعالى عنهم اجمعين ولم أر بداً من ايراد ذكرهم مع الخليفتين السابقين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما لانهم جميعاً من دعائم الاسلام التي قامت عليها صروحه . واعضاد الدين الذين بان بهم صريحه . فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يعلق بذكره من هذه الفتن أثر في النفس الا ما كان فيه حجة بالغة يجري بها القلم او حكمة زاجرة يحتاج اليها العاقل . ويتعظ بها الجاهل . لهذا لا يؤخذ عليّ ما يُرَى من الاختصار في تراجمهم والاقتصار على ذكر بعض سيرتهم

وقد جعلت الكتاب اقساماً على ترتيب الدول الكبيرة ومن عاصرها مقدماً في الذكر الاقدم من الخلفاء والسلاطين ومن يليه وهكذا الى آخر الكتاب وأتبع كل خليفة او سلطان بذكر من قام في دولته . واشتهر من بين زمرته . من امراء الحرب والسياسة الذين اشتهر ذكرهم . وعظم في الاسلام أثرهم . والله المسئول ان يعصمنا من الخطأ ويفيض علينا روح النطق بالحق والصواب انه مجيب السؤال

﴿ القسم الاول ﴾

﴿ دولة الخلفاء الراشدين ﴾

هذه الدولة التي أسست مجد الاسلام ورفعت منار الدين الحنيف وبلغت خيلها شطوط المحيطين ونشأت على الخشونة في العيش والاعراض عن أعراض الدنيا والتعفف عما بايدي الناس هي الدولة الأولى التي كان بها فخر الاسلام والى خلفائها الاربعة تنتهي الشهرة في المجد الذي ليس فوقه مجد وانما قامت الدولة الاسلامية على أساس هم واضعوه . وأنجبت دول الاسلام من الرجال العظام من أنجبت بفضلٍ هم السابقون به وفتح هم فاتحوه . وقد قام في عصرهم الذي هو افضل العصور كثير من رجال الحرب والسياسة الذين أدهشت أعمالهم الباحثين في تاريخ الامم . وقضوا بعزائمهم الماضية على دولتي الروم والعجم . ومن أشهر مشاهيرهم الذين يشار اليهم بالبنان . ويعدون من افراد ذلك الزمان . في الحرب والسياسة خالد بن الوليد فاتح العراق العربي وقسم من الشام . وأبو عبيدة بن الجراح فاتح الشام . وعمرو بن العاص فاتح مصر . وسعد بن أبي وقاص فاتح العراق العجمي وهادم عرش الأكاسرة . والاحنف بن قيس فاتح خراسان . والمغيرة بن شعبة داهية السياسة . وقد عزمنا على أن نأتي على سيرتهم في دولة الخلفاء كل رجل منهم مع خليفته الا الاحنف والمغيرة فبما انهما خدما هذه الدولة الى نهايتها فسنأتي على ذكرهما بعد آخر الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم اجمعين

أبو بكر الصدّيق

(باب)

« حاله في الجاهلية »

(نسبه وأصله)

اسم أبي بكر رضي الله عنه عبد الله واسم أبي قحافة أبيه عثمان وكان اسم أبي بكر في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ولقبه عتيقاً لجمال وجهه ويقال لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له انت عتيق من النار كما ورد في حديث رواه الترمذي وسمي صديقاً لانه بادر الى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم . فهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة وينسب أبو بكر الى تيم قريش فيقال التيمي وهو في التعدد مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه يلتقي هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند مرة بن كعب وبين كل واحد منهما وبين مرة ستة آباء . وأم أبي بكر سلمى ابنة صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم وهي بنت عم أبي قحافة وتكنى أم الخير . وكان مولد أبي بكر لسنتين وأشهر من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم

شرفه

انتهى الشرف من قريش الى عشرة رهط من عشرة أبطن منهم أبو بكر الصديق وكانت اليه في الجاهلية الاشناق وهي الديات والمغرم ولما كان هؤلاء

الرهط الذين اليهم انتهت مكارم قريش في الجاهلية واتصلت بالاسلام منهم من صار من مشاهير الاسلام وستأتي ترجمتهم بعد فقد رأيت ان آتي هنا على بيان هذه المكارم وعامة من انتهت اليهم اكتفاء بها عن التكرار عند ذكر من يترجم منهم في هذا الكتاب فاقول

قال في العقد قال ابن المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي تسمية من انتهى اليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالاسلام عشرة رهط من عشرة أبطن

وهم هاشم . وأميـة . ونوفل . وعبد الدار . وأسد . وتيم . ومخزوم . وعدي . وجمح . وسهم . فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسقي الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الاسلام . ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش واذا كانت عند رجل أخرجها اذا حميت الحرب فاذا اجتمعت قريش على أحد اعطوه العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه . ومن بني نوفل الحرث بن عامر وكانت اليه الرفادة وهي ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج . ومن بني عبد الدار عثمان بن طلحة كان اليه اللواء والسدانة مع الحجابة ويقال والندوة أيضاً في بني عبد الدار . ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الاسود وكانت اليه المشورة وذلك ان رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه فان وافقه ولاهم عليه والا تخير وكانوا له اعواناً واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف . ومن بني تيم أبو بكر الصديق وكانت اليـه الاشناق وهي الديات والمغرم فكان اذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وان احتملها غيره خذلوه . ومن بني مخزوم خالد

ابن الوليد كانت اليه القبة والاعنة فاما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش واما الاعنة فانه كان على خيل قريش في الحرب . ومن بني عدي عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة في الجاهلية وذلك انهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً وان نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به . ومن بني جمح صفوان بن أمية وكانت اليه الايسار وهي الازلام فكان لا يسبق بامر عام حتى يكون هو الذي تسييره على يديه . ومن بني سهم الحرث بن قيس وكانت اليه الحكومة والاموال المحجرة التي سموها لآلهتهم . فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية يتوارثونها كابراً عن كابر وكان كل شرف من شرف الجاهلية ادركه الاسلام وصله لهم وقد رأيت مكانة أبي بكر من الشرف في قريش هذا فضلاً عن مكانته الخاصة عندهم واحترامهم له لكرمه وتفضله

﴿ صناعته ﴾

كانت قريش مع ما تمتُّ به من النسب وتحوزه من شرف المكانة عند العرب لما انها حامية البيت وصريح ولد اسماعيل لا يستنكف أشرافها من الاحتراف أو المتاجرة والاعتماد في الاسترزاق على عمل اليد ترفعاً عن الاتكال على فضلات العجز والاعتماد على تراث الآباء فكانت لكل رجل منهم صنعة يحترف بها . ونحن ذاكرون لك هنا حرف الصحابة الذين ستأتي ترجمتهم في هذا الكتاب فقط . فمنهم عمر بن الخطاب كان تاجراً ومنهم سعد بن أبي وقاص وكان يبري النبل . ومنهم عثمان بن عفان وكان بزازاً . ومنهم عمرو بن العاص وكان جزاراً وأما أبو بكر فكان بزازاً وله رأس مال كبير للتجارة قالوا انه يبلغ أربعين ألف درهم أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً معونة للنبي صلى الله عليه وسلم

على مصالح المسلمين والذي بقي عنده مازال يتجر به حتى مات رضي الله تعالى عنه وأرضاه

﴿ مكانته عند قومه وسيرته فيهم ﴾

كان ذا مكانة محترمة من قومه ومروءة واحسان وتفضل فيهم ولهذا قال له ابن الدُّغنّة يوماً انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر وتقري الضيف . وكان عالماً بالانساب وأخبار العرب رغاباً عن الدنايا عفيف النفس حرّم على نفسه شرب الخمر في الجاهلية . قال السيوطي أخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت لقد حرّم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية

اللهم ان امرأً ينشأ بين الاوثان حيث لادين زاجر . ولا شرع للنفوس قاهر . وهذا مكانه من الفضيلة واستمساكه بعري العفة والمروءة لجدير بان يتلقى الاسلام بملء الفؤاد . ويكون أول مؤمن بهادي العباد . مبادر باسلامه لارغام انوف أهل المكابرة والعناد . ممهد لهم سبيل الاهتداء بدين الله القويم الذي يجتث أصول الرذائل من نفوس المهتدين بهديه المستمسكين بمتين سببه «الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا» وأولهم أبو بكر

﴿ باب ﴾

(اسلامه وصحبته)

﴿ اسلامه ﴾

اختلف الرواة فيمن كان أول الناس اسلاماً فقال بعضهم انه عليّ وقال

بعضهم انه أبو بكر وقال بعضهم خديجة وقد أخرج ابن عساكر من طريق الحارث عن عليّ رضى الله عنه قال (أول من أسلم أبو بكر الصديق) ومما يؤيد انه أول الناس اسلاماً قول حسان بن ثابت رضي الله عنه

اذا تذكرت شجواً من أخي ثقة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية اتقاها وأعدلها الا النبي وأوفاها بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا

وقال السيوطي وجمع بين الاقوال بان أبا بكر أول من أسلم من الرجال وعليّ أول من أسلم من الصبيان وخديجة أول من أسلمت من النساء وأول من ذكر هذا الجمع الامام أبو حنيفة رضى الله عنه (وهو الصواب)

تجسم أبو بكر رضي الله عنه من الفضيلة وخلص جوهره من الدغل وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد وطهارتها من عمى البصيرة عن درك الصواب والمماراة في الحق فقامت لديه الحجة على الشرك وظهرت له محجة الرشد لاول وهلة من دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام الذي تفرس فيه الاستعداد الكامل للايمان فبادره بالدعوة فلم يتردد . وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد . لهذا قال عليه الصلاة والسلام (ما دعوت أحداً الى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبي بكر)

سبق أبو بكر بالايمان فكان له الفضل على السابقين بمتابعتهم له وسبقهم ببركة اسلامه الى نيل السعادة بالاسلام لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام (ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر الا ان يكون نبيّ) أخرجه عبد الرحمن بن حميد في مسنده وأبو نعيم وغيرهما من طرق عن أبي الدرداء . ولما كان أبو بكر محبباً سهلاً وكانت رجالات قريش تألفه فقد أسلم

منهم على يديه من بني أمية عثمان بن عفان . ومن بني عمرو بن كعب طلحة بن عبيد الله ومن بني زهرة سعد بن أبي وقاص . وغيرهم كثيرون

﴿ صحبته ﴾

صحب أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم من حين أسلم الى حين توفى خير صحبة وكان أحب رفيق اليه وأعز صاحب لديه حمل من أجل الرسول من قريش ما تنوء به العصبة اولو القوة ووقف أمامه موقف المدافع عن الحق الداعي الى الخير . صحبه يوم الهجرة وهو يبكي فرحاً بصحبته واستبشاراً بتخفيف اذى قريش عنه . ورافقه في الغار ثلاثاً وعينه من اجله لا تنام ولم يذق خوفاً عليه لذة الراحة حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تحزن ان الله معنا ليسكن اضطرابه ويأمن على نبيه وأنزل فيه قرآن (ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه)

علم أبو بكر ان لله عليه حقاً وان للايمان بكتابه شرطاً وهو الامتثال لما جاء به والعمل بما فيه وان الله سبحانه وتعالى يقول بهذا الكتاب (انَّ اللهَ اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بانّ لهم الجنّة) فسمح بماله في سبيل الاسلام وأنفقه على النبي عليه الصلاة والسلام وكان يشتري من ماله المعذبين على الاسلام . لانقاذهم من الآلام . كما كان يشتري على الاسلام ايضاً (١) حتى

---

(١) اخرج ابن جرير عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال كان أبو بكر يعتق على الاسلام بمكة فكان يعتق عجائز ونساء اذا أسلمن فقال أبوه أى بني أراك تعتق أناساً ضعافاً فلو أنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك قال أي أبت أنا أريد ماعند الله وأخرج الطبراني عن عروة ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه اعتق سبعة كلهم يعذب في الله اه

اثنى عليه الرحمن ونوّه به القرآن ومنه قوله تعالى (فأمّا من أعطى واتقى) الآية وقوله تعالى (وسيجنبها الاتقى) وقوله تعالى (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) الى آخر السورة كل هذه الآيات وغيرها نزلت في أبي بكر

سمح بنفسه فلم يترك مشهداً من مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا حضره ولازم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميه بنفسه ويقف في وجه الاعداء دونه

اخرج البزار في مسنده عن عليّ انه قال . اخبروني من أشجع الناس . فقالوا انت . قال اما اني ما بارزت احداً الا انتصفت منه ولكن اخبروني بأشجع الناس . قالوا لا نعلم فمن . قال (أبو بكر) انه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله عريشاً فقلنا من يكن مع رسول الله لئلا يهوى اليه احد من المشركين . فو الله ما دنا منا احد الا أبا بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوى اليه أحد الا هوى اليه فهو أشجع الناس . قال عليّ رضي الله عنه ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخذته قريش فهذا يجبأه وهذا يتلتله وهم يقولون انت الذي جعلت الآلهة الهـاً واحداً فو الله مادنا منا احد الا أبو بكر يضرب هذا ويجبأ هذا ويتلتل هذا وهو يقول . ويلكم أتقتلون رجلاً ان يقول ربي الله ثم رفع عليّ بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال أنشدكم الله امؤمن آل فرعون خيرأم أبو بكر . فسكت القوم فقال الا تجيبوني فو الله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة مثل مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم ايمانه وهذا رجل أعلن ايمانه

﴿ باب ﴾

(خلافة أبي بكر)

﴿كلام على الخلافة﴾

قبل الكلام على خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه نأتي بتمهيد مختصر في الخلافة الاسلامية فيه بيان يحتاج الى النظر فيه كل باحث في تاريخ الاسلام فنقول

انّ موازرة القوة للشرائع قاعدة كلية لا تتخلف سواء عن الشرائع الالهية . أو الاوضاع البشرية . وقد ترتب عليها قيام الدول في كل ملة من الملل لضرورة وجود الوازع الذي يزع الناس بالكتاب والميزان ويردهم ولو بالقوة الى حدود الشرع وذلك بدليل قوله تعالى فيمن سبق من الرسل أولي الشرائع (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وفيه الاشارة الى ملازمة القوة للدين ارهاباً للناس وكبحاً لجماح النفوس التي لا يقوّمها مجرد الارشاد واللين وهذه القوة انما تقوم بالوازع وأعوانه ومنهم تتألف الدولة

ومن المقرر انّ وظيفة الرسل هي تبليغ الشرائع وتقريرها بين الناس على وجه يجمع اليها شملهم ويتكفل بسعادتهم وبعد هذا لا يبقى من وظيفة الرسول لمن يخلفه في قومه الا حماية هذه الشرائع والحكم بينهم بما أنزل الله وسنه الرسول وهذه وظيفة يشترط فيها عندنا معاشر المسلمين الحرية

والعقل والعدالة والعلم ولا يشترط فيها شئ من النبوة بل النبوة رسالة الهية يتعلق بها تبليغ الدين ووضع أصول الدعوة وتقرير الشرائع وتلك رئاسة دنيوية تتعلق بها حماية الشرائع واقامة أركان الدين ولا تناسب بين الوظيفتين البتة لهذا تضافرت الاحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم على وجوب السمع والطاعة لكل من يتولى شيئاً من أمور المسلمين من أى قبيل كان بلا تخصيص بآل بيته الكرام عليهم السلام وأيد هذا سنته العملية فقد فارق هذه الدنيا الى الملأ الأعلى وليس لاحد من آل بيته أمر من أمور الناس أو ولاية من ولايات الاطراف ولما طلب منه عمه العباس أن يوليه عملا من الاعمال أبى عليه ذلك لئلا يظن بعده انه أراد بقاء الامارة فى بنى هاشم متصلة بالنبوة مع ان النبوة شئ والامارة شئ آخر

وقد علم هذا الحسن بن على رضى الله تعالى عنه لما تنازل عن الخلافة لمعاوية ابن أبي سفيان فقال (أبى الله أن يجمع النبوة والخلافة فينا) وحسب آل البيت شرفاً أن تكون النبوة فيهم

قلنا ان الخلافة رئاسة دنيوية باعتبار انها شئ والنبوة شئ آخر وانما قالوا انها رئاسة دينية وخلافة نبوية لما يتعلق بها من اقامة أركان الدين كما تقدم وهى بهذه المثابة لم تتجاوز عهد الخلفاء الراشدين وصارت بعد ذلك ملكا دنيوياً بحتاً اذ ترك الخلفاء أهم أصل من أصول الامارة وهى الصلاة بالناس التى استخلف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فكان خليفته على الامة فى الدين كما صار أميراً عليها فى أمور سياستها فى الدنيا ومن هنا اشتق اسم امارة المؤمنين اذ لا بد لكل أمة اجتمعت على دين أو أمر آخر من رئيس يضم شملها ويقيم أحكام شرائعها ويدبر سياسة ملكها لاسيما وان الاسلام جاء بقسمى السياسة والدين ولم يقتصر

على أصول التوحيد والعبادات لهذا كان وافياً بحاجات الدين والدنيا

من ثم كان أول مقصد من مقاصد المسلمين وأهل السابقة من المهاجرين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واجتماع المسلمين على كلمة التوحيد متجها الى وجوب نصب خليفة يجمع الأمة الاسلامية على كتاب الله وسنة رسوله ويأخذ بالقوّة على أيدى ذوى العبث بالنظام . الا انهم اختلفوا فيمن يولونه هذا الامر اختلافاً ليس فيه ما ينافى المصلحة الاسلامية بل غايته تمحيص الفكر ومحض النصيحة فيمن تجمع على تأميره كلمة الجمهور الاعظم من المسلمين ليكون أثبت قدماً فى الخلافة وأشد حجة على المخالفين فاختاروا لهذا المنصب الرفيع أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

علم هذا كله جمهور الصحابة والمسلمين فاختاروا للخلافة رجلا من غير بيت النبوّة ولو علموا خلافه لما عدلوا عن بيت النبوة البتة ولكان أولى الناس بهذا الامر العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم أو علي بن أبي طالب لسابقته فى الاسلام وكونه أقرب الناس من النبي عليه الصلاة والسلام نسبا وصهرا بعد العباس

هكذا كان أيضاً بعض بنى هاشم وبعض بنى أمية يتوقعون انه لا يعدل بعليّ كرم الله وجهه أحد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن لخصوصيات ومزايا له ترشحه للخلافة وتحملهم على الاعتقاد بترجيح انتخاب المسلمين له لذلك المنصب الرفيع لا لاعتقادهم بوجوب الخلافة لبنى هاشم والاّ لو صح عندهم شيءٌ من وجوب الخلافة لبنى هاشم لكان العباس رضى الله عنه أولى بها من عليّ لانه عم النبي صلى الله عليه وسلم ولمّا لم يكن الامر كذلك لم يتخلف عليّ عن مبايعة أبى بكر سوى ستة أشهر كما يقولون ثم بايعه بعدُ وهو أعظم الناس اعتقاداً بأهليته وطاعة

له وعوناً له على أمره

هذا اذا صح انه تخلف عن بيعته ولم يصح وانما وجد عليه وعلى عمر بن الخطاب لمّا حكما بحرمان فاطمة رضى الله تعالى عنها من ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه بالمدينة وفدَك وهى قرية بخيبر لما ثبت عند أبى بكر يومئذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا نورث ما تركناه صدقة انما يأكل آل محمد من هذا المال)حتى كان مما قاله يومئذ أبو بكر وانى والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت فى عهده صلى الله عليه وسلم . فوجدت عليه فاطمة وهجرته وهجره علىّ أيضاً الى أن توفيت فاطمة رضى الله عنها بعد ستة أشهر من بيعة أبى بكر وكان لعلىّ من الناس وجهة حياة فاطمة فلما توفيت استنكر على وجوه الناس فالتمس مصالحة أبى بكر فصالحه وربما وهم الرواة من هذا الامر انه لما صالحه بعد ستة أشهر بايعه أيضاً وسترى من الروايات الآتية ما يدل على ان علياً لم يتخلف عن البيعة الا قليلا والله أعلم

ولكن ما الحيلة وقد رزئ هذا الدين بشراذم من المنافقين انما دخلوا فى هذا الدين للتشويش على أهله لكن وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم على أحوالهم وهيبة الاسلام التى ملأت قلوبهم لم يمكناهم من بث الفتنة فى الدين فبثوها وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من طريق السياسة حتى نشأ عنها من الخلاف على الخلافة أمور رأى بعدُ منافقوا الاعاجم ومجوسهم الذين ابتز الاسلام ملكهم وثل عروش ملوكهم فما لهم أمره وساءتهم غلبة شأنه أن يتخذوها وسيلة لادخال الوهن على الاسلام وتعطيل حدوده وشعائره فخلطوا السياسة بالدين وضربوا بسلاحهما فى وجوه المسلمين فزعموا ان منصب الخلافة فرع من النبوّة لا يتخلف عن أصله .ولا يصح وضعه فى غير محله . واشترطوا فيه ما يشترط فى

النبوّة من العصمة وهي لا تكون على زعمهم الا فى عليّ وأهل بيته والآفلا امام يؤتم ولا جمعة تصح ولا حكم ينفذ . وهو عين التعطيل الذى رموا اليه يومئذ بسهم نفذ فى كبد المسلمين.وفرق وحدة المؤمنين .ولا يزال يتابعهم عليه الى الآن فريق الشيعة الذين أعماهم التقليد على غير علم بمن يقلدون . ولا فهم لحقيقة ما هم فيه من تعطيل أركان الدين مسترسلون . انتظاراً لامام موهوم ويوم معلوم

وامصيبتاه من هذه العقول التى لم تدرك الى الآن مرامى غرض السالفين ومهاوي ضلال الزنادقة الكاذبين الذين جعلوا مسئلة الامام المعصوم عقبة دون اقامة شعائر الدين .لن تزول من وجه الاسلام الى يوم الدين . ما دامت مدعمة باحاديث المهدي الموضوعة . واخبار الامامة المصنوعة . التى يدل على انها مكذوبة على الرسول مفتراة على أهل بيته الطاهرين ما أصاب المسلمين من جرائها من التفريق وما أصيب به الاسلام من الوهن وهذا شئ لا يرضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته كما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى لدينه ولو صح شئ منه لما ترك الله عباده الى الآن يتخبطون فى ظلمات الفوضى بلا امام معصوم والعصمة انما هى لله وللانبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله رحمة للعالمين ولن يرسل للبشر الائمة والسلاطين المعصومين كما يريد فريق المتخرصين من الشيعة . وهذا العالم البشرى على اختلاف الأمم والشعوب ما زال ولن يزال قائماً بمن يتولى شؤون الناس من الرؤساء والسلاطين وفيهم وثنيون وهم أعدل من ساس الممالك كملك اليابان الآن أو كسرى فى قديم الزمان . فاللهم نسألك هداية هذه العقول الزائغة وتأليف تلك القلوب المتفرقة انك مجيب السؤال

ولنرجع الى الكلام على خلافة أبى بكر رضى الله تعالى عنه ونبدأ من ذلك بذكر بيعته فنقول

﴿ بيعة أبي بكر ﴾

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو بكر غائبا فى أهله بالسنح فلما أتاه منعاه أقبل على الناس فوجدهم فى أختباط عظيم لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنهم المصدّق ومنهم المكذّب فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه وقبله وقال بأبى أنت وأمى قد ذقت الموتة التى كتب الله عليك ولن يصيبك بعدها موتة ابداً . ثم خرج الى الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال . أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قدمات ومن كان يعبد الله فان الله حيّ لا يموت . ثم تلا (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية فكأن الناس لم يعلموا ان هذه الآية فى المنزل لما أصابهم من الدهشة بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال عمر فما هو الا ان سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت الى الارض ما تحملني رجلاى . فاللهم ارزقنا قلوبا كهذه القلوب ملئت بالايمان وأشربت بحب الرسول حتى ما تصدق انه قد مات لدهشة أخذتها وحزن أصابها وأسى راعها وبلاء فاجأها ولما لم تطق حمل هذا كله زهلت لحظة كما يشرب الطير ثم ثابت الى نفسها . وعاد اليها وعيها . بآية تلاها أبو بكر كأنما المسلمون كانوا فى ذهول عنها وما هو الا ذهول الحزن ووقع أليم المصاب

وبينما كان الناس مشتغلين بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتجهيزه ودفنه جاء مخبر فاخبرهم باجتماع الانصار فى سقيفة بني ساعدة بقصد المفاوضة فى شأن الخلافة فأسرع اليهم أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين ليتداركوا هذا الامر قبل افتراق الكلمة فأتوا الانصار وقد اجتمعوا بالسقيفة يبايعون سعد ابن عبادة فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم وغلبوهم عليه وتكلم يومئذ أبو بكر فأدلى بالحجة وكان مما قاله

يا معشر الانصار انكم لا تذكرون فضلاً الا وأنتم له أهل .وان العرب لا تعرف هذا الامر الا لقريش . هم أوسط العرب داراً ونسباً قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدي عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح فكثر حينئذ اللغط بين الانصار وقال قائلهم منا أمير ومنكم أمير . ثم ان عمر لما رأى أن بعض الانصار ومنهم بشير بن سعد يرون رأى المهاجرين بجعل الخلافة في قريش وانّ الامر اذا أجل النظر فيه ربما صعب حله قام الى أبي بكر وقال ابسط يدك أبايعك فبسط يده فسبقه بشير فبايعه وبايعه عمر وسائر الناس

وتخلف عن بيعته عليّ وطلحة والزبير وبنو هاشم لما كانوا يتوقعونه من مصير الخلافة اليهم وعدم صرفها عنهم حتى كان مما قال يومئذ عقبة بن أبي لهب

ما كنت أحسب ان الامر منصرف عن هاشم ثم منهم عن أبي الحسن

ولما رأى بنو هاشم انحياز الناس الى البيعة لأبي بكر واتفاقهم على الرضا بخلافته لما ثبت عندهم من أن الخلافة غير النبوّة وان أبا بكر أحق الناس بها بعد ان أنابه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة بالمسلمين فى حال مرضه اقبلوا على بيعته وبايعه علي رضي الله تعالى عنه بعد أيام على الارجح لا بعد ستة أشهر وقد سبق الكلام على هذا فى أول الفصل ويؤيده ما رواه الرواة عن أبي سعيد الخدري انه قال فى حديث طويل انّ أبا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر فى وجوه القوم فلم يرَ الزبير فدعا بالزبير فجاء فقال قلت ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه أردت ان تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه

ثم نظر في وجوه القوم فلم يرَ علياً فدعا به فجاء فقال . قلت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته أردت ان تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه

وأخرج ابن عساكر عن على انه قال . لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر ان يصلي بالناس [1] واني شاهد وما أنا بغائب وما بي مرض فرضينا لدنيانا ما رضي به النبي صلى الله عليه وسلم لديننا . وأخرج الدارقطني فى الافراد والخطيب وابن عساكر عن عليّ رضي الله تعالى عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت الله ان يقدمك ثلاثاً فأبى عليّ الاَّ تقديم أبي بكر

هذا كله يدل على أن علياً رضي الله عنه لم يتردد عن بيعة أبى بكر الا قليلاً ويعضده أيضاً ان جماعة من بنى أمية منهم أبو سفيان بن حرب وخالد ابن سعيد أرادوه على الخلافة يومئذ فزجرهم زجراً وقرعهم تقريعاً

هذا ولما استقرت الخلافة لأبى بكر وذلك سنة احدى عشرة صعد على المنبر ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان اسأت فقوّمونى . الصدق أمانة والكذب خيانة . والقوىّ فيكم ضعيف عنديْ حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم قويّ عندى حتى آخذ له الحق

---

(١) أخرج الشيخان عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال مرض النبى صلى الله عليه وسلم فاشتد مرضه فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس قالت عائشة انه رجل رقيق القلب اذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس فقال مرى أبا بكر فليصل بالناس فعادت فقال مرى أبا بكر فليصل بالناس فانكن صواحب يوسف

إن شاء الله تعالى . لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . أطيعوني ما اطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا الى صلاتكم رحمكم الله

كلام يمثل معنى الرئاسة العامة في الاسلام تمثيلاً تستكن امامه القلوب التي أشربت حب العدل وتقصر عن التطاول الى نتائجه اعناق زعماء الحرية في كل أمة وجيل

كلام صدر عن اول خليفة في الاسلام يبشر الأمم بنزع اغلال الذل والاستعباد من اعناقهم وانتزاع قيود السيطرة الجائرة من أيديهم وأرجلهم

بل كلام يقرر صاحبه أول قاعدة للحكومة في الاسلام ويسجل الشقاء على من تسامح بها من المسلمين .فانا لله وإنا اليه راجعون.على ما كان بعد ذلك في المسلمين وما سيكون

﴿ انفاذه جيش أسامة بن زيد ﴾

لم يكن أمر البيعة اول عقبة قطعها المسلمون بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فانه لم يكد ينتشر نعيه في الآفاق . حتى ظهر النفاق واشرأبت من الامم المجاورة الاعناق . ومنع العرب الزكاة والمسلمون يومئذ في ارتباك عظيم لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم

كان النبي عليه الصلاة والسلام أعد قبل وفاته جيشاً وعليه مولاه أسامة ابن زيد لبعثه الى الشام فتأخر ذلك الجيش عن السفر بسبب مرضه ووفاته عليه الصلاة والسلام. ولما استقرت الخلافة لأبي بكر قال له الناس ان هؤلاء (يعنون جيش أسامة) جند المسلمين والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك فلا ينبغي ان تفرق جماعة المسلمين عنك فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه والذي

نفسي بيده لو ظننت ان السباع تخطفني لانفذت جيش أسامة كما امر رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو ثبات امام الاخطار واستصغار للخطب ومضاء عزيمة نافذ فى مثل ذلك الموقف الحرج الذي وقف به المسلمون لا تصدر الا عن مثل أبي بكر رضى الله تعالى عنه . ثم أمر بالتجهز وان يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف . فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة فى ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل

لما خرج الجيش الى معسكرهم وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان معه فى جيشه الى أبي بكر يستأذنه ان يرجع بالناس وقال ان معي وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله والمسلمين ان يتخطفهم المشركون

وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب ان أبا بكر خليفة رسول الله الا فأمضى فأبلغه عنا ان يولي أمرنا أقدم سناً من أسامة فخرج عمر بأمر أسامة الى أبي بكر فأخبره بما قال أسامة فاصرّ على ثبات رأيه واستمر فى مضاء عزيمته على انفاذ جيش أسامة وقال لعمر لو خطفتني الكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته

قال عمر فانّ الانصار تطلب رجلا أقدم سناً من أسامة. فأدرك أبو بكر من هذا ما يخالج ضمائر القوم من تأمير أسامة عليهم لما لم يزل فى نفوسهم من آثار الفخر الجاهلية والاستمساك بعرى التفاضل بالانساب فرأى ان يمحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل الا بالتقوى والاعمال وان يبدأهم

من ذلك بنفسه فماذا صنع ؟

خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وأشيعهم وهو ماش وأسامة راكب فقال له أسامة يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال والله لا نزلتَ ولا أركب وما عليّ ان اغبر قدميّ ساعة في سبيل الله . فلم يسع الانصار لما رأوا خليفة رسول الله ماشياً في ركاب اسامة الاّ السكوت ولم يبدر من احد منهم بادرة قط بل ساروا صحبة أسامة وابدوا ما عرفوا به من الاخلاص في الجهاد والذب عن حياض الاسلام والاستماتة في قتال الاعداء فرضي الله تعالى عنهم اجمعين

ولما اراد أبو بكر ان يرجع قال لأسامة ان رأيت ان تعينني بعمر فافعل فأذن له

امام أمره نافذ في جيوشه وسلطته مبسوطة على قواده احب استبقاء عمر بن الخطاب عنده ليستعين برأيه فلم يشأ أخذه من الجيش الا باذن قائده أسامة بن زيد تنبيهاً لمن فيه الى وجوب الطاعة لامره وعدم الحيد عن اشارته ما دام فيهم اميراً ولهم قائداً وقد كان في استطاعته ان يشافه الجيش بمثل هذا التنبيه لو لم يران يبدأهم بنفسه ويؤدب نفوسهم بأدبه وهيهات هيهات ان تلد الولاّدات مثل أبي بكر وعمر

هذا وقد أوصاهم أبو بكر قبل رجوعه عنهم بوصية قصارى ما يقال فيها ان الدول المتمدنة الآن مع حرصها على تخفيف بلاء الحروب ودعواها العريضة في خدمة الانسانية والانسان ، ومراعاة حقوق العمران ، لم تستطع واحدة منهن ان تقيد جيوشها بمثل مضمونها او يرتبطن جميعاً بقاعدة من قواعدها وها هي بنصها

لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الاّ للاكل . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً

ثم قال اندفعوا باسم الله وأوصى أسامة ان يفعل ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار وأوقع بقبائل من قضاعه وأغار على أُبنى موضع بناحية البلقاء (١) وغنم وعاد بعد اربعين يوماً وقيل بعد سبعين يوماً

﴿ باب ﴾

(الكلام على الردة)

« بحث في الردة »

ربما يتوهم متوهم من ايراد الكلام على أهل الردة على علاته ان الردة انما هى ارتداد العرب عن الاسلام الى الشرك كما توهم بعضهم في مناظرة جرت بيني وبينه من بضع سنين فى مجلة الهلال التى تطبع فى مصر والحال أن ردة العرب يومئذ لم تكن بهذه المثابة وانما اعتبرهم أبو بكر مرتدين لتركهم ركنا من اركان الدين وهو الزكاة . وللعلماء والمؤرخين مباحث بهذا الشأن احببت ان الخصها فى هذا الكتاب ليظهر بها معنى الردة يومئذ على وجهه الصحيح فاقول

« ١ » في الجنوب الغربى من الشام

رأى العرب ضعف المسلمين واضطرابهم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لا سيما لما بلغهم استفحال امر مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي فأخذوا يتناجون في الامتناع عن دفع الزكاة التي ثقلت عليهم وعدوها كالاتاوة التي لا تطيب نفس العرب بدفعها ولم تلبث ان فشت هذه القالة بينهم حتى أظهروا الامتناع وطردوا عمال الزكاة ولما انتهى الخبر الى أبي بكر رضي الله تعالى عنه جمع الصحابة للشورى فاختلفوا في هل يقاتل العرب على تركهم شيئاً من الدين كما لو قوتلوا عليه كله

(قال الشهرستاني في الملل والنحل) فقال قوم لا نقاتلهم قتال الكفرة وقال قوم بل نقاتلهم حتى قال أبو بكر لو منعوني عقالا [1] مما أعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ومضى بنفسه الى قتالهم ووافقه الصحابة بأسرهم وقد ادّى اجتهاد عمر في ايام خلافته الى ردّ السبايا والاموال اليهم واطلاق المحبوسين منهم

وفي سياق حكاية اقرار الصحابة على قتال أهل الردة بيان كاف في حقيقة تلك الردة التي قوتلوا عليها فقد نقل ابن شاكر في عيون التواريخ أن أبا بكر لما جمع الصحابة للشورى في قتال العرب يومئذ أشار عمر بعدم قتالهم فقال أبو بكر والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) في مشكاة المصابيح نقلاً عن النهاية ــ أراد بالعقال الحبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة لان على صاحبها التسليم وانما يقع القبض بالرباط وقيل أراد ما يساوي عقالاً من حقوق الصدقة اذا أخذ المصدّق أعيان الابل قيل أخذ عقالا واذا أخذ أثمانها قيل أخذ نقداً اه وقال المبرد في الكامل ان المصدق اذا أخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقالاً واذا أخذ الثمن قيل أخذ نقداً

لقاتلتهم على منعها . فقال عمر كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله[1] وأن محمدا رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه الا بحقها وحسابهم على الله)

فقال أبو بكر . والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال وقد قال الاّ بحقها . قال عمر رضى الله عنه فوالله ما هو الا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق اه

وذكر العلامة أبو الحسين عروة الحنبلي في رسالة البدع في الجزء العشرين من كتاب الكواكب[2] أن قتال الصديق رضى الله تعالى عنه لاهل الردة انما كان لمنعهم الزكاة فقط وأفاض في هذا البحث مبينا أن من ترك شيئاً من الدين يقاتل عليه كما لو قوتل عليه كله والزكاة من الدين فاجتهاد أبي بكر أداه لقتال العرب عليها اه

وفي حديث ابن مسعود الذى يقول فيه (وسيأتى بتمامه) فوالله ما رضي منهم الا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية . فاما الخطة المخزية فان يقروا بان من قتل منهم في النار . دليل على أن الردة لم تكن ردة عن الاسلام الى الشرك والا فما معنى اقرارهم على أن من قتل منهم في النار ولو كانوا على الشرك فهم في النار بالطبع انكروا أو أقروا

وانما حمل العرب على منع الزكاة استثقالهم لها وعدها كالاتاوة بدليل

(١) هكذا في الاصل ولم ترد في هذه الرواية وانما وردت في رواية حتى يشهدوا ان لا الخ (٢) هذا الكتاب موجود فى مكتبة دمشق الشام فى جامع الملك الظاهر وهناك اطلعت عليه وهي المكتبة التي عنى بجمعها من بقايا الكتب الموجودة فى المدارس القديمة المرحوم مدحت باشا لما اسندت اليه ولاية سورية سنة ١٢٩٥ وأحسن ما فيها هذا الكتاب والتاريخ الكبير للحافظ ابن عساكر في نيف وأربعين مجلداً

ما رواه المؤرخون من أن عمرو بن العاص مر عند منصرفه من جيفر على بلاد بنى عامر فنزل بقرة بن هبيرة وقرة يقدم قدماً ويؤخر أخرى ومعه عسكر من بني عامر فذبح له وأكرم مثواه فلما أراد الرحلة خلا به قرة وقال ياهذا ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة فان اعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع وان أبيتم فلا تجتمع عليكم . وكان عمرو من صناديد قريش ودهاتها فلم يعبأ بقوله بل أظهر لديه من الشهامة والشمم فوق ما ينتظر منه حيث قال له. أكفرت ياقرة وتخوفنا بالعرب فوالله لاوطئن عليك الخيل في حفش أمك وأحفاش بيت ينفرد فيه النفساء ثم قام وذهب

هذه حقيقة الردة فيمن لم يرتد حقيقة كمن شايع مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدى قد بسطناها ليكون القارئ منها على علم وهي وأن تكن بتلك المثابة الآ انها كانت تدل على شر عظيم يلحق بالمسلمين لو استفحل أمرها واستهين بشأنها ولكن نهض لها أبو بكر رضى الله تعالى عنه بعزيمته الماضية . وحكمته السامية . فجزاه الله عن الاسلام خير الجزاء

﴿ قتال أهل الردة ﴾

اعلم انه كما كان للمهاجرين والانصار فضل وسابقة في نصرة الاسلام ومظاهرة النبي عليه الصلاة والسلام حتى طأ من بهم من إشراف من ناواه. واستخذى من عاداه . فلعامة قريش أيضاً مثل هذا الفضل بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام فان قريشاً استقبلت بصدورها حوادث الردة المريبة ونيرانها المتأججة وأخذت على عاتقها استخضاع العرب وقد ارتدت قبائلها عامة أو خاصة الا ثقيفاً وقريشاً فاقتحمت رجالات قريش بالمهاجرين والانصار وثقيف وبعض الاحلاف ذلك الفجاج الذى يرتج بأهل الردة ارتجاجا .

وخاضت بخيلها من حروب القوم بحراً عجاجا . وممن عقد له يومئذ من رجالات قريش خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن العاص وخالد ابن سعيد والمهاجر بن أبي أمية ولم يلبث ان أطفأ أبو بكر نيران الردة بامثال هؤلاء الرجال حتى رمى برجال قريش أيضاً جيوش القياصرة وجنود الأكاسرة وتابعه على ذلك عمر بن الخطاب فكان من قوادها في استخضاع تلك الجيوش الجرارة وتدويخ تلك الممالك العظيمة الشاسعة التي شيدت فيها صروح الاسلام وذكر على منابرها اسم محمد عليه الصلاة والسلام . خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية ابن أبي سفيان وعياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهرى وسعد بن أبي وقاص واضرابهم من صناديد قريش ورؤسائها الذين ذللوا من الصعاب وقطعوا من العقاب ولاقوا من الاهوال ما لا يحلم بذكره الانسان ، ولا يدانيهم فيه من مشاهير العالم مدان ، كما سترى بعدُ الا انه يؤخذ على بعضهم تساهلهم في أمور الفتن العظمى حتى استشرى شرها ، وعظم على الأمة ضرها ، وهى شؤون وان كانت تحدث في كل قوم ، وتصاب بها الدول في كل عصر ، الا أن قريشاً كانت أولى في مثل عصرها الذي نزل فيه القرآن باطراح أسباب التخاذل والمزاحمة . والاخذ باسباب الحزم والتضافر . بعد اذ انتهت اليهم السيادة في الاسلام كما انتهت في الجاهلية ومع هذا فلا يسعنا نكران فضلهم على المسلمين بخدمتهم للاسلام في أيام الفتوح العظيمة وأما ما عداهذا فلهم فيه شؤون ربما فاتهم فيها الحزم أو قام لهم في مقامهم ذلك عذر وليست العصمة الا لله وللرسول ولله في خلقه شؤون

نعود الى ذكر قتال أهل الردة وذلك الموقف الحرج الذى وقف فيه

المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا ان الله منّ علينا بأبي بكر . أجمعنا على أن لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون وان نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى يأتينا اليقين فعزم الله لأبي بكر على قتالهم فوالله ما رضي منهم الا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية فاما الخطة المخزية فان يقروا بأن من قتل منهم في النار ومن قتل منا في الجنة وان يدوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم وانّ ما أخذوا منا مردود علينا واما الحرب المجلية فان يخرجوا من ديارهم

بلغ بعزيمة أبي بكر وعظيم رأيه بعد اذ رأي ما أصاب المسلمين من الغم ان آلى على نفسه ان لا يدع العرب يقر لهم قرار الا والسيف آخذ برقابهم والاسلام ضارب بينهم بجرانه وبينما هو يطاول في الامر انتظاراً لرجوع أسامة بجيش المسلمين أعجلته عبس وغطفان وأسد وطيء وكان بعضهم نازلا بذى القصة وبعضهم بالابرق فارسلوا اليه وفداً يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فردهم خائبين فرجعوا وأخبروا القوم بقلة المسلمين وضعفهم وقد غرتهم كثرتهم وأعماهم الجهل عن أنّ مع المسلمين قوة الايمان واليقين وفيهم من الصيد الصناديد وليوث الحرب الشجعان مثل عمر وعليّ وطلحة والزبير الذين لا يفل لهم حد ولا يدرك لهم جد

خشى أبو بكر بعد مسير الوفد من البيات فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود وأمرهم بملازمة المسجد خوف الغارة من العدو فما لبثوا ثلاثا حتى طرق العدو المدينة غارةً مع الليل وخلفوا بعضهم بذى حسى ليكونوا لهم رداً فوافوا ليلا الانقاب وعليها المقاتلة فمنعوهم وارسلوا الى أبي

بكر فخرج بالمسلمين على النواضح فردوا العدو واتبعوهم حتى بلغوا ذا حسى [1] فخرج عليهم الردء بانحاء قد نفخوها وفيها الحبال ثم دهدهوها [2] على الارض فنفرت ابل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم الى المدينة ولم يصرع أحد منهم

ثم خرج أبو بكر ليلا على تعبية فما طلع الفجر الا وهم والعدوّ على صعيد واحد فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف فولوا الادبار وأتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة وكان أول الفتح ووضع بها النعمان بن مقرّن فى عدد ورجع الى المدينة فطرقت المدينة صدقات نفر كانوا على صدقة الناس وقدم فى أثناء ذلك أسامة بن زيد بجيش المسلمين فاستخلفه أبو بكر على المدينة وجنده معه ليستريحوا ويريحوا ظهرهم ثم خرج فيمن كان معه فقام اليه عليّ والمسلمون وناشدوه الله ليقيم فأبي وقال والله لأواسينكم بنفسي وسار الى ذى حسى وذى القصة حتى نزل بالابرق فقاتل من به فهزمهم وغلب على بني ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين ثم رجع الى المدينة فلما اعتراح أسامة وجنده وكان قد جاءهم صدقات كثيرة تفضل عليهم بادر أبو بكر الى تسيير الجيوش الى أهل الردة

﴿ تسيير الجيوش الى أهل الردة ﴾

عقد أبو بكر لقتال أهل الردة احد عشر لواء

الأول عقده لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح ان أقام له

---

١ ذو القصة وذو حسى « أو ذو خشب على رواية البعض » اماكن قرب المدينة لجهة نجد وهي منازل القوم

٢ أي نفخوها والانحاء هي القرب

(٢) لعكرمة بن أبي جهل القرشي وسيره الى مسيلمة

(٣) المهاجر بن أبى أمية المخزومى القرشى وأمره بجنود العنسي في اليمن ومعونة الابناء على قيس بن مكشوح ثم يمضى الى كندة بحضرموت

(٤) خالد بن سعيد بن العاص القرشي و بعثه الى مشارف الشام

(٥) عمرو بن العاص القرشي وأرسله الى قضاعة

(٦) حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير وأمره باهل دبا

(٧) عرفجة بن هرثمة البارقى من الازد وأمره بمهرة

(٨) شرحبيل بن حسنة حليف بنى زهرة وأرسله فى أثر عكرمة بن أبى جهل واذا فرغ يلحق بقضاعة

(٩) معن بن حاجز السلمى وأمره ببنى سليم ومن معهم من هوازن

(١٠) سويد بن مقرّن من أوس و أمره بتهامة باليمن

(١١) العلاءبن الحضرمي حليف بنى أمية ووجهه الى البحرين

لما سير أبو بكر هؤلاء الامراء كتب لهم عهداً ستأتى صورته فى باب كتبه وخطبه وكتب لجميع المرتدين أيضاً كتابا وسيره مع الرسل وستأتى صورته أيضاً

﴿ باب ﴾

﴿ حروب الامراء مع أهل الردة وأخبارهم ﴾

﴿ طليحة الأسدى ﴾

هو طليحة بن خويلد الأسدي من بني أسد بن خذيمه وكان قد تنبأ

فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثر جمعه ومات النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ذلك فتبعه كثير من العرب عصبيةً لهذا كان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء ولما قصد مهاجمة المدينة أمدّ هذه القبائل بأخيه حبال فافترقوا فرقتين فرقة أقامت بالربذة وفرقة سارت الى ذى القصه ثم أوفدوا وفداً الى أبي بكر يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أبو بكر ذلك وجرى من أمرهم وأمر المسلمين ما تقدم قبل، ولما سار امراء المسلمين بالجيوش قصد خالد بن الوليد رضى الله عنه طليحة فهزمه وفرق جمعه وأسر منهم عيينة بن حصن الفزارى كما سيأتي تفصيل ذلك فى سيرة هذا البطل المغوار ان شاء الله

ولما تفرق هذا الجمع أقبل فُلّاً لهم الى امرأة اسمها أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر كانت سبيت فى مدة الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت لعائشه فاعتقتها فرجعت الى قومها ولما اجتمع اليها هذا الفلّ أمرتهم بالقتال فجاءها خالد ففلّ جمعها وقتلها

﴿ تميم وسجاح ﴾

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر على بطون بنى تميم ستة أمراء وهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما وقع اليهم الخبر بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم سار صفوان بن صفوان الى أبي بكر بصدقات بنى عمرو ووافى الزبرقان فاتبع صفوان بصدقات الرباب وهى ضبة بنت أدّ بن طابخة وعدىّ وتيم وعكل وثور بنو عبد مناة بن أدّ بصدقات عوف والابناء وكلها من بطون تميم ومنها قيس ابن عاصم ومالك بن نويرة فأما قيس فندم ولما أظله العلاء بن الحضرمي أخرج

الصدقات فتلقاه بها ثم خرج معه وأما مالك فتحير وتشاغلت تميم بعضها ببعض فقام من بقي على الاسلام في وجه من ارتد وبينما هم على اختلافهم اذ جاءتهم من الجزيرة سجاح بنت الحرث بن سويد بن عقفان التميمية وكانت ورهطها في اخوالها من بني تغلب في الجزيرة فادعت النبوة وجاءت تريد غزو أبي بكر فطلبت من مالك بن نويرة الموادعة فوادعها وردها عن غزو المدينة وحملها على غزو المسلمين من بني تميم فجاءهم أمر أعظم مما هم فيه لاختلافهم ففروا أمامها أما هي فسارت تريد المدينة حتى بلغت النباج قرية بالبادية فأغار عليها أوس بن خزيمة الهجيمي في بني عمرو من تميم وأسر بعض رجالها ثم تحاجزوا على ان يطلقوا أسراها وتطلق أسراهم وترجع فلا تجتاز عليهم فيئست بذلك من الذهاب الى المدينة وانقلبت تريد اليمامة وجرى لها مع مسيلمة امور لا محل لذكرها هنا ثم رجعت الى الجزيرة ولم تزل في تغلب حتى نقلهم معاوية عام المجاعة وجاءت معهم وحسن اسلامها واسلامهم

﴿ مالك بن نويرة ﴾

ندم بنو تميم كلهم على ما صنعوا وتراجعوا الى الاسلام وأدّوا الصدقة الاّ مالك بن نويرة فانه بقي متردداً بين الامرين واجتمع اليه قومه بالبطاح فسار اليه خالد بعد ان انتهى من امر طليحة فلما علم مالك بمسيره اليه أمر قومه فتفرقوا في المياه فبث خالد السرايا في أثرهم فأتي بجماعة منهم أسرى وفيهم مالك فأمر بقتلهم فقتلوا وسيأتي تفصيل هذا الخبر في سيرة خالد بن الوليد

﴿ مسيلمة وأهل اليمامة ﴾

كان مسيلمة ممن وفد مع قومه بني حنيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما رجع ومن معه الى منازلهم باليمامة ادعى مسيلمة النبوّة وانه

أشرك مع محمد بالامر واجتمع عليه بنو حنيفة وكانوا أربعين الف مقاتل ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث أبو بكر البعوث عقد لعكرمة ابن أبي جهل الى اليمامة كما تقدم وأمده بشرحبيل بن حسنة فلم يتربص ريثما يصله المدد بل تعجل ليكون له الفضل خاصة وتقدم فواقع القوم فنكب فكتب الى أبي بكر بالخبر فغضب عليه أبو بكر وكتب اليه لا أرينك ولا تراني فتوهن الناس امض الى حذيفة وعرفجة فقاتل أهل عمان ومهرة ثم تسير أنت وجندك تستبرؤن الناس حتى تلقى مهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت

وكتب الى شرحبيل بالمقام الى أن يأتيه المدد مع خالد بن الوليد فاذا فرغوا من مسيلمة تلحق بعمرو بن العاص تعينه على قضاعة . فلما رجع خالد من البطاح الى أبي بكر واعتذر اليه عما صنع بمالك وقومه فقبل عذره ورضي عنه وجهه الى مسيلمة وأوعب معه المهاجرين والانصار وعلى الانصار ثابت بن قيس بن شماس . وعلى المهاجرين أبو حذيفه وزيد بن الخطاب . وسار خالد للقاء مسيلمة فأمده أبو بكر بسليط ليكون رداً له لئلا يؤتي من خلفه فلما علم مسيلمه ومن معه بدنوّ جنود خالد خرجوا فعسكروا في منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفر اليهم عدد كثير

تقدم خالد وعلى مقدمته شرحبيل ولما كان على ليلة من معسكر بنى حنيفة التقى بسرّية منهم راجعة من بلاد بنى تميم وعامر لادراك ثأر لهم وعليهم مجاعة بن مرارة من سادات بنى حنيفة فأمر بهم خالد فقتلوا الا مجاعة فانه استبقاه لشرفه ثم سار خالد حتى التقى بجيش المرتدين في مكان يدعى بعقرباء وجرى بينهم قتال شديد بيعت فيه الارواح بيع السماء وأصيب

المسلمون بناس من ذوي البصائر والشرف وانتهى الامر بقتل مسيلمة وانهزام بنى حنيفة وسيأتي هذا الخبر مفصلا في سيرة خالد بن الوليد ان شاء الله تعالى فان هذا الموطن من مواطنه العظيمة فى حروب الردة

﴿ ردة أهل البحرين ﴾

كان أهل البحرين وهم قبائل من ربيعة قد وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم فى حياته وأسلموا فأمر عليهم المنذر بن ساوي فلما توفى عليه الصلاة والسلام كان المنذر مريضاً فتوفى عقبه فارتد أهل البحرين فأما بكر فتمت على ردتها وأما عبد القيس فراجعت الاسلام بهمة الشهم الجليل الجارود بن المعلى العبدي وكان جاء الى النبي عليه الصلاة والسلام وتفقه فى الدين وامتلأ قلبه بنور اليقين وعاد الى قومه عبد القيس فكان فيهم الى حين الردة فجمعهم لما قالوا لو كان محمد نبيا لم يمت وقال لهم: أتعلمون انه كان لله أنبياء فيما مضى . قالوا نعم . قال فما فعلوا قالوا ماتوا . قال فان محمداً قد مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله : فأسلموا وثبتوا على اسلامهم

هكذا تسعد الأمم بواحد وتشقى بآخر وليس بين الشقاء والسعادة الا عقبة لا يقطعها الا المخفون من الشهوات الغالبون على هوى النفس المالكون للارادة التى لا سلطان عليها من الشهوات ولا قائد لها من التقليد وانما هي مطلقة فى عالم الحس تتناول منه ما طاب وتنبذ ما خبث

فكما مني الاسلام بناس من المطلين الذين ران الهوى على قلوبهم، واستحكمت عادة الضلال والاضلال في نفوسهم، فأثاروا ثائرة الفتنة وأبو الا الاسترسال فيما وجدوا عليه أباءهم من الضلال فقد رزق ناساً على العكس من هولاء قد غلبت ارادتهم على الهوى، واستنارت بصائرهم بنور الهدى . فكانوا

للحق أنصاراً ، وللاسلام أعوانا ، وفيمن كان من هؤلاء فى أهل الردة فاهتدى به قومه وسعدت بالتمسك بعرى الاسلام عشيرته فكانت عوناً للمسلمين على المرتدين هذا الشهم أي الجارود بن المعلى العبدي وصفوان بن صفوان التميمى وعدي بن حاتم الطائى وأمثالهم من أهل البصيرة والرأى الذين أراد الله أن يضرب بهم وجوه المرتدين ، ويكونوا عوناً للمسلمين ، لتعلو كلمة هذا الدين ، ولو كره المشركون

لما اجتمع الى الجارود قومه من المسلمين واستمروا على الاسلام خرج اليه الحطم بن ضبيعة من بكر بن وائل ومعه جمع عظيم من المشركين والمرتدين ليستبيحوا حماه وينتقموا على زعمهم ممن جاراه فنزلوا على القطيف وهجر وحصروا أصحاب الجارود فارسل أبو بكر كما تقدم العلاء بن الحضرمي لاهل البحرين فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال الحنفى فى مسلة بنى حنيفة وقيس ابن عاصم المنقري فى قومه واتاه كثير من أهل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى اذا كان فى بحبوحتها نزل وأمر الناس بالنزول في الليل فنفرت إبلهم باحمالها فما بقى عندهم بعير ولا زاد ولا ماء فلحقهم من الغم ما لا يعلمه الا الله ووصى بعضهم بعضاً فدعاهم العلاء فاجتمعوا اليه فقال ما هذا الذى غلب عليكم من الغم فقالوا كيف نلام ونحن ان بلغنا غداً لم تحم الشمس حتى نهلك

حقاً انه لموقف يروّع القلوب ، ويستدعى اليأس من الحياة ، إبل نافرة بالزاد والماء ، وصحراء رملية تتلظى تلظي الرمضاء ، منقطعة عن العمران لا يعهد فيها الماء ولا يقطعها الا المزود بالكفاية توسطها المسلمون وهم لا زاد لديهم ، ولا ماء يبل صداهم ، فماذا يصنعون ؟

رحماك اللهم فانّ العلاء آلى ان لا تهلك هذه العصابة المسلمة في مثل

هذه الدهناء ما دام في سبيل الله سعيها، والى نصرة الحق قصدها ، فقال لهم: لن تراعوا أنتم المسلمون وفي سبيل الله وأنصار الله فابشروا فوالله لن تخذلوا : فلما صلوا الصبح دعا العلاء ودعوا معه فلمع لهم الماء فمشوا اليه وشربوا واغتسلوا فما تعالى النهار حتى أقبلت الابل تجمع من كل وجه فأناخت اليهم فسقوها

فكأن الله سبحانه وتعالى امتحن بهذه النازلة قلوباً لم تمكن منها اليقين وأسعفهم بعد الشدة برحمته ليوقنوا انه لا يتخلى من عباده المخلصين

ثم أرسل العلاء الى الجارود يأمره أن ينزل بالحطم مما يليه وسار هو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلي هجر فاجتمع المشركون الى الحطم الا أهل دارين واجتمع المسلمون الى العلاء وخندق كل على نفسه وكانوا يتراوحون القتال فاذا أمسوا رجع كل الى خندقه حتى اذا كان ليلة سمع المسلمون ضوضاء من ناحية المشركين فأرسل العلاء من يستعلم الخبر فجاء بأنهم سكارى فبيتهم المسلمون شر بيات ووضعوا فيهم السيف كيف شاؤا حتى هربوا وهم بين مقتول ومأسور وقتل زعيمهم الحطم ثم قصد فلهم جزيرة دارين في الخليج الفارسى وعبروا اليها في السفن فعبر خلفهم المسلمون وقاتلوهم هنالك فظفروا بهم وتم النصر للمؤمنين فكتب العلاء الى أبي بكر بالفتح

﴿ عمان ومهرة ﴾

لما أسلم أهل عمان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولى عليهم الاخوين جيفراً وعياداً ابنى الجلندي وكان قد نبغ في عمان ذو التاج لقيط بن مالك الازدي وكان يسمى في الجاهلية الجلندي وادعى بمثل ما ادعى من تنبأ وغلب على عمان مرتداً فتبعه كثير من أهلها فخانه ابنا الجلندي فعاذ بالجبال وبعث

جيفر الى أبي بكر فبعث اليه حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة كما تقدم الخبر عن هذا وأرسل في أثرهما عكرمة بن أبي جهل بعد هزيمته في اليمامة فلحقهما قبل أن يصلا عمان فلما قاربوها كاتبوا جيفراً فأتاهم وعسكروا بصحار عاصمة عمان أما لقيط فانه جمع جموعه وعسكر بدبا فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا شديداً كاد المسلمون ينهزمون فيه لولا أن الله منّ عليهم بمدد عظيم من بني ناجية وعليهم الخريت بن راشد ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان وغيرهم فاستظهروا بهم وهزموا المشركين ثم سبوا الذرية وقسموا الغنيمة وبعثوا الى أبي بكر بالخمس مع عرفجة وأقام حذيفة بعمان يسكن الناس

وأما مهرة فان عكرمة بن أبي جهل سار اليهم لما فرغ من عمان ومعه جمع من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد فاقتحم بلادهم فوافق بها جمعين من مهرة مختلفين أحدهما مع سخريت رجل منهم والثاني مع المصبح أحد بني محارب ومعظم الناس معه فالتمس عكرمة الحيلة بأن كاتب سخريتا فأجابه وأسلم وكاتب المصبح يدعوه فلم يجب فرأى أن يمحو ما لحقه من غضب أبي بكر لانهزام جيشه في حرب مسيلمة فقاتل المرتدين قتالا شديداً فانهزموا وقتل رئيسهم وأصاب المسلمون ما شاؤا من الغنائم فبعث عكرمة بالاخماس الى أبي بكر مع سخريت وأقام هناك يدبر الامور ويدعو الناس الى الاسلام حتى اجتمع الناس على ما يحب وضرب الاسلام بجرانه

﴿ ردة اليمن ﴾

لما فتحت اليمن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى عليها باذان الفارسي الذي كان عاملا للاكاسرة على اليمن ثم دان بالاسلام وكان مقره صنعاء فلما مات قسم النبي صلى الله عليه وسلم عمله على ولده شهر ونفر من

الصحابة منهم أبو موسى الاشعري وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم فثار عليهم رجل من عنس اسمه عبهلة ولقبه ذو الخمار وشهرته الاسود فادعى النبوة فأجابه بعض العرب ثم جرت معه أمور يطول ذكرها انتهت بقتله وأقام أصحاب الاسود يترددون بين صنعاء وعدن لا يأوون الى أحد وتراجع عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أعمالهم وبعثوا الى المدينة بالخبر وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما شاع خبر الوفاة ارتد قيس بن عبد يغوث وكاتب المنهزمين من جنود الاسود فاجتمعوا اليه وأراد أن يحتال في قتل كبار الابناء (وهم جماعة أصلهم من فارس واستوطنوا اليمن وهم الذين قتلوا الاسود العنسي) فهيأ لهم طعاما ودعاهم اليه فظفر بواحد منهم وهو دا ذويه ونجا الباقون وهما اثنان فيروز وخشنش [1] فطلبهما فامتنعا بقبيلة خولان فرجع قيس الى صنعاء فاستأثر بها وعمد الى عيالات الابناء فغرّ بهم وأخرجهم فلما علم بذلك فيروز استمد بني عقيل بن ربيعة وعك فساروا واستخلصوا عيالات الابناء التي سيرها قيس وقتلوا من معها من الرجال ثم انصرفوا الى فيروز فقاتل بهم قيساً ورجاله حتى هزمهم وفي غضون ذلك أتاهم المهاجر بن أبي أمية الذي عقد له أبو بكر لواء وسيره لقتال جنود العنسي ومعاونة الابناء وجاء على أثره عكرمة بن أبي جهل بعد ان انتهى من عمان ومهرة فساعدا الابناء على قتال جنود قيس بن عبد يغوث حتى انهزموا وأسر قيس وعمرو ابن معد يكرب الزبيدي الذي كان ارتد واتبع الاسود فسيراهما الى أبي بكر

كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه يتألف القلوب بالاناة ولا يتعجل بالعقوبة فلما وصل اليه قيس أنبه على ما فعل فأنكر أن يكون قارف من أمر داذويه

(١) وفي تاريخ الطبري جشيش

شيئاً ولم يكن هناك دليل ظاهر على قتله له لان القتل كان خلسة فتجافى له عن دمه وتجاوز له عن سوء عمله وقال لعمرو بن معد يكرب أما تستحي انك كل يوم مهزوم أو مأسور [1] لو نصرت هـذا الدين لرفعك الله . فقال لاجرم لأقبلن ولا أعود . ورجعا الى عشائرهما مؤمنين وكان لعمرو بن معد يكرب البلاء الحسن في فتوح نهاوند بعد ، وفيها استشهد على ما سترى

﴿ كندة وحضرموت ﴾

كان زياد بن لبيد الانصاري عاملا على كندة وحضرموت بالنيابة عن المهاجر بن أبي أمية الذي تولى هذا العمل من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما تأخر بالمدينة بسبب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم استخلف على عمله زياداً وكان قد ولي صدقات بنى عمرو بن معاوية من كندة بنفسه فقدم عليهم فوقع بينه وبينهم خلاف على بكرة وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً فطلبوا اليه استبدالها بغيرها فأبى وأغلظ على شيطان بن حجر وأخيه العدّاء فاستغاثا بحارثة بن سراقة بن معد يكرب فأقبل الى زياد وحل عقال الناقة وبعثها وقام دونها فأمر زياد شبابا من حضرموت والسكون فمنعوه وكتفوه وكتفوا أصحابه وأخذوا البكرة وتصايحت كندة وغضبت بنو معاوية لحارثة وأظهروا أمرهم وغضبت حضرموت والسكون لزياد وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء ولم تحدث معاوية شيئاً خوفاً على أسراهم ولم يجد أصحاب زياد سبيلا يتعلقون به عليهم وأمرهم زياد بوضع السلاح فلم يفعلوا ونهد اليهم ليلا فقتل منهم وتفرقوا

---

(١) كان عمرو قد انهزم من خالد بن سعيد بن العاص في أول ردته وأخذ منه خالد سيفه الصمصامة ولم يزل عنده حتى استشهد بالشام فصار الى بني العاص ثم الى بني أمية ثم الى بني العباس الى عهد الواثق حيث أمر بدفعه الى صيقلي ليسقنه فتغير

لما تفرق القوم اطمأن زياد من جهتهم فأطلق حارثة ومن معه ولم يتربص ريثما يصل اليه المهاجر بجيشه ليأمن غدرهم فلمّا رجع الاسرى الى أصحابهم حرضوهم على زياد ومن معه واجتمع منهم عسكر ونادوا بمنع الصدقة . ومن هذا يعلم ان كندة آخر من منع الصدقة بعد ردتهم الاولى مع الاسود العنسى وانما ألجأهم الى ما فعلوا الآن ما وقع بينهم وبين زياد من الخلاف

اجتمع الملوك الاربعة منهم ونزلوا المحاجر وهي احماء حموها ونزلت بنو الحرث بن معاوية محاجرها فنزل الاشعث بن قيس محجراً والسمط بن الاسود محجراً وأطبقت بنو معاوية على منع الصدقة الا الشهم الهمام شُرحبيل بن السمط وابنه فانهما قالا لبنى معاوية : انه لقبيح بالاحرار التنقل انّ الكرام ليلزمون الشبه فيتكرمون أن ينتقلوا الى أوضح منها مخافة العار فكيف الانتقال من الامر الحسن الجميل الى القبيح ومن الحق الى الباطل ألهم انا لا نمالئ قومنا على ذلك

فلله ما أسمى هذه النفوس وأشرف هذه الشيم وأعلا هذه المدارك وانما ساد المسلمون لا بكثرة وغلبوا على من غلبوا من الأمم لا بقوة عدد وعديد وانما هو برجال مثل هذين لم تضعف فى مواطن الشدة قلوبهم ولم تلفتهم عن الحق رغبة بأهل أو وطن أو رهبة من عدوّ ذي شوكة فاللهم ارزق المسلمين الآن امثال أولئك الرجال وغيّر حالهم الذي انتهوا اليه بأحسن حال انك مجيب السؤال

قال شرحبيل وابنه لقومهما ما قالا ثم انتقلا الى المسلمين ومعهما امرؤ القيس بن حابس وكان من حسن رأيهما وعظيم فضلهما وبعد نظرهما ان أشارا

على زياد ببيات القوم وقالا له انّ اقواماً من السكاسك والسكون قد انضموا اليهم وكذلك شداد من حضرموت فان لم تفعل خشينا ان تتفرّق الناس عنا اليهم . فاستحسن رأيهما وأجابهما الى تبييت القوم فطرقوهم فى محاجرهم وجاؤهم من خمسة أوجه وهم جلوس مكبون على نيرانهم فقتلوا الملوك الاربعة وقد كان لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فادركتهم لعنته وفرّ من قومهم من نجا من القتل وعاد زياد بن لبيد بالسبي واجتاز بالاشعث بن قيس فثارفي قومه واستنقذهم وجمع الجموع فكتب زياد الى المهاجر بن أبي أمية يستحثه فلقيه الكتاب فى الطريق فاستخلف على الجند عكرمة بن أبي جهل وتعجل فى سرعان الناس وقدم على زياد وسار الى كندة فالتقوا بمحجر الزبرقان فاقتتلوا فانهزمت كندة وخرجوا هراباً الى ملجأ لهم يسمى النجير وقد رموّه وأصلحوه وسار المهاجر فنزل عليهم وتحصنت كندة بالنجير فحصرهم المسلمون وقدم عكرمة فاشتدّ الحصار على كندة وتفرقت السرايا في طلبهم فذلوا وخشعوا وخاف من بالنجير من الامراء على نفوسهم فخرج الاشعث مع تسعة نفر فطلبوا من زياد ان يؤمنهم وأهليهم على أن يفتحوا لهم الباب فاجابهم الى ذلك وقال اكتبوا ما شئتم ثم هلموا الكتاب حتى اختمه ففعلوا ونسي الاشعث نفسه فأُخذوا وأُرسل مع السبي الى أبي بكر

لما قدم الاشعث المدينة أنبه أبو بكر وشدّد عليه النكير فلما خشى القتل قال أو تحتسب فيّ فتطلق إسارى وتقيلني عثرتي وتفعل بي مثل ما فعلت بامثالى وترد عليّ زوجتى (وقد كان خطب أم فروة أخت أبي بكر فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم أخرها الى ان يقدم الثانية) فان فعلت ذلك تجدني خيراً هل بلادي لدين الله فحقن أبو بكر دمه وردّ عليه أهله وأقام بالمدينة حتى فتح العراق

وكان له شأن ربما يمر معنا ذكره

﴿ كلمة في حروب الردة ﴾

انتهت حروب الردة على ما رأيت وثاب العرب الى السكون بعد ان علموا أنّ الاسلام يعلو ولا يعلى عليه وان المسلمين قوم نصروا الله والحق فنصرهم على أعدائهم ومكن لهم السلطان في الارض

لو علم العرب ما أُعد لهم بواسطة الاسلام من سعادة الدنيا والآخرة وكشف لهم الغطاء عن ذلك الملك العظيم الذي سيؤول اليهم والسلطان العميم الذي سيصبح بايديهم لما لعبت الاهواء برؤوسهم ، وأخذت الجاهلية الاولى بمجامع نفوسهم ، ولكن هو الدين دأبه ان يلقى من الناس عناداً ، ومن العقول القاصرة اعراضاً . حتى يتبين لها انه الحق فترضاه ، وانه سبيل الهدى والسعادة فتقصد اليه وتتوخاه ،

تبين معنا من أخبار الردة امور جديرة بالاعتبار حرية بامعان النظر لا نحب ان يفوتنا النظر اليها وبيان ما يستنتج منها وهي

(١) ان المرتدين منهم من توقف عن أداء الزكاة فقط وهم عامة العرب ومنهم من أرتد فعلا وهم بعض القبائل التي قام فيها المتنبئون الاربعة

(٢) ظهور دعوى النبوّة بين العرب حتى ادعاها اربعة رجال وامرأة من عهد الرسالة الى نهاية أيام الردة وهم الاسود العنسي في اليمن وطليحة فى أسد وغطفان ومسيلمة في بنى حنيفة وسجاح في اخوالها من بني بكر ورهطها من بني تميم ولقيط بن زرارة في عمان

(٣) انقسام معظم العرب في حروب الردة فبعضهم للاسلام وبعضهم عليه

(٤) سرعة التوفيق في انهاء حروب الردة

(٥) مصاحبة النصر للمسلمين في كل وقائعهم

فاما الامر الاول فهو يؤيد ما تقدم معنا في مقدمة الكلام على الردة من انها ليست على اطلاقها وانما هو اجتهاد من أبي بكر رضي الله تعالى عنه خالفه فيه كثير من الصحابة ثم لما رأوا أنّ المصلحة تؤيد وقتئذٍ ما ذهبَ اليه أبو بكر وافقوه على ما ارتآه ومع هذا فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ورأى ان هذه المصلحة زالت بزوال أسبابها وان بقاء من أسر من المرتدين فى حالة الرق مع انهم لم يكونوا ممن يجوز عليهم الرق عار على العرب محظور في الاسلام قال : انه لقبيح بالعرب ان يملك بعضهم بعضاً وقد وسع الله وفتح الاعاجم فاستشار الصحابة في فداء سبايا العرب ثم وضع الفداء ورد السبايا

واما الامر الثاني وهو فشو دعوى النبوّة بين العرب فهو عندي معجزة من معجزات النبوّة وقد حملها بعضهم على ترقي أفكار العرب قبيل ظهور الاسلام ولا دليل لهم على ذلك وانما هو الغرض يثير بالنفوس ثائرة البغضاء ويستل من بين الجوانح روح الحق فيعمى البصائر ويكشف ما تكنه من ذلك السرائر والا فأي باحث في التاريخ طلاب للحقيقة يقول ان فشو دعوى النبوة يومئذ منشأوه ترقي أفكار العرب مع ان هذه الدعوى انما فشت بعد ظهور الاسلام وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام لا قبيل ظهوره واذا ادعاها واحداً واثنان قبل البعثة فلان بعض الحكماء منهم كانوا يعلمون ببعثة نبي في العرب بشرت به الكتب السابقة فكانوا يترقبونها لانفسهم واما عامة العرب فقد كانوا كالصم البكم مستغرقين في عبادة الاوثان لا يعرفون معنى الرسالة ولا يسمعون باسم النبوة الا أهل الكتاب منهم كطيئ مثلا وهم أول من خذل مسيلمة وكان للاسلام نصيرا وللموحدين ظهيرا

والحقيقة التى يشهد بها التاريخ ويؤيدها العقل ان دعوى النبوة انما ظهرت في العرب بعد الاسلام حسداً للرسول عليه الصلاة والسلام وطلبا للرياسة وظنا من القائمين بهذه الدعوى ان مجرد الاعتصام بالقوة وجمع الجموع يكفي لتأييد دعوى النبوّة ثم التذرع بها للقبض على زمام السيادة مجاراة للرسول على زعمهم وحسب العاقل ان يفرق بين النبوة وبين التنبيء بما اقترن بهاتين من الحوادث يومئذ ومنها ان النبي محمدا عليه الصلاة والسلام ظل عشرين سنة يدعو الى الاسلام ومات ولم يجتمع لديه من المقاتلة ما اجتمع فى بضعة اشهر لمسيلمة الذي كان جيشه الذي قاتل به خالد بن الوليد أربعين ألفا باتفاق المؤرخين ومع هذا فقد سحق هو ودعواه وجيشه بصدمة واحدة من صدمات الاسلام كما سحق غيره من المتنبئين الذين حشدوا الجيوش وأعدوا العدة لمكافحة الاسلام فصدمهم بقوة رجاله القليلين وأرداهم . ومحاهم من الوجود في أقل من سنة ودعواهم .

وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد ظلت العرب تناصبه العداوة وتنازله ومن تبعه في ساحة القتال مدة رسالته كلها ومع هذا فقد كانت كلمته هي العليا والمسلمون على قلتهم هم الظافرون . فلم هذا ؟

لانه صلى الله عليه وسلم كان مؤيداً بمدد النبوّة الصحيحة والفيض الالهي العظيم الذي لا تغني عنه الجيوش الكثيفة ولا يقوم مقامه ترقي الافكار ولو انصف اولئك الناس وانعموا النظر في كثرة المتنبئين في عهد الرسالة وكثرة ما حشدوا وجنّدوا لتأييد دعواهم ثم انطفاء نارهم وانسحاق جندهم وانمحاق دعوتهم في تلك المدة القليلة واستمرار قوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم نامية مهيبة ودعوته قائمة منتشرة واتباعه في ازدياد حتى بلغوا الى هذا العهد

سدس البشر وضرب الاسلام بجرانه في معظم انحاء الارض لعدوا هذا كله معجزة من معجزات النبوة أراد الله بيانها للناس ليؤيد بها رسالة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ويظهر الباطل في جانب الحق ليميز بين الاثنين . ويعلم المعاند أن محمداً نبيّ الله حقاً بلامين. ولكن ما الحيلة (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)

وأما الامر الثالث وهو انقسام العرب في حروب الردة بين منتصر للاسلام وقائم عليه فهو من لطف الله تعالى الذي أراد به تأييد جانب المسلمين. وتعجيل الفتح المبين. وفيه دليل على ان الناس انما يصلحون بالرؤساء ويفسدون كذلك لانهم لرؤسائهم تبع . ولزعماء السيطرة عليهم مقلدون . فان كلمة من عديّ بن حاتم الطائي مثلا كفت لانحياز انجاد طيء وفرسانها لجانب المسلمين وقتالهم في صفوف الموحدين فان عدياً لما كان شهما يأبى النقيصة وقد سبق منه الايمان بدين الله القويم . وتوكيد العهد على مظاهرة المسلمين . بادر الى قومه لما انحازوا الى طليحة الأسدي ونصحهم على الوفاد بالعهد . وعدم الخروج عن الايمان فسمعوا له واطاعوا . ولما اشار به انصاعوا . حتى قيل يومئذ (كان عديّ خير مولود فى طيء واعظمه بركة عليهم) وذلك لتخلقهم بكريم اخلاقه . وتمسكهم بالاسلام اقتداء به . واتباعاً لنصيحته.

وكذلك ما كان من صفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر فى قومهما من تميم حتى اقتدوا بهما وأطاعوا اشارتهما فقاموا في وجه من ارتد من احياء تميم. وانحازوا مع ذينك الشهمين الى المسلمين.

وأما الامر الرابع . وهو سرعة التوفيق بانهاء حروب الردة . والامر الخامس وهو مصاحبة النصر للمسلمين . فانهما ولا ريب من نتائج حسن

اليقين عند المجاهدين وتجردهم لنصرة الاسلام تجرد من لا يرى الحياة الا بالموت ويرجو من ثواب الشهادة في اعلاء كلمة المسلمين، أكثر مما يرجو من متاع الدنيا ومكافئة المكافئين ، وحق لرجال باعوا نفوسهم في سبيل الدين واعزازجانب اخوانهم الموحدين ان تدك امامهم شوامخ الجبال ، لا صفوف الرجال ويستخذى لهم الملوك الكبار ، لا سكان القفار

ولا ينكر ما لأبي بكر رضي الله تعالى عنه من حسن الاختيار بمن ولاهم حروب الردة من القواد العظام الذين أمعنوا بجيوش المسلمين القليلة في أحشاء بلاد العرب وجابوا انحاءها القاصية حتى بلغوا مشارف الشام والجزيرة شمالا وشطوط البحر الهندي جنوباً والعراق العربي وخليج فارس شرقا وشطوط البحر الاحمر ومضيق باب المندب غرباً ولم تكن غيبتهم الا كما يغيب المرتاد للناجع ثم انقلبوا ظافرين وقد عمموا في جزيرة العرب دعوة القرآن ، وجمعوا سكانها على كلمة الايمان ،

وقد نتج عن هذا كله ان وقعت هيبة الاسلام في قلوب العرب وايقنوا انه الدين الحق الذي لا يفلح مناوئه ، ولا ينجح شانئه ، فاقبلوا بأجمعهم اليه ، وجمعوا كلمتهم المتفرقة عليه ،

باب

فتوحات أبي بكر

(تمهيد للفتح الاسلامي)

رأي أبو بكر رضي الله تعالى عنه أن لا يدع لبعض المنافقين الذين لا

يروق لهم سمو شأن الاسلام وقتاً لدس سموم الفتنة فى جسم تلك الأمة العظيمة التى جمعتها كلمة الاسلام وان يشغلهم مع الجيوش الاسلامية بالفتح تعميما للدعوة الاسلامية وبثاً لروح العدل والحرية بين الأمم فما هو الآن ولج بالعرب هذا الباب حتى انكفأوا على الأمم التي مزقت احشاءها سيوف الاهواء والاوهام، وقضي على مجدها القديم ظلم ارباب السيطرة على النفوس والاجسام، فلم يلبث أن وافاها المسلمون يحملون لفريق أهل الكتاب منها (قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً) ولفريق الصابئة ومن على نحلتهم من المشركين (الاسلام أو الجزية أو السيف)[1] حتى اشرأبت لعدل سلطانهم اعناق الناس . ودانت لدينهم الشعوب . وخضعت لسطوتهم الأمم فعمروا المسالك ، وشادوا الممالك ، ومصروا الامصار وكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون القسطاس ويأخذون من أنفسهم للمظلوم حتى يرضى ، كما يأخذون على يد الظالم

(١) قاعدة الجهاد وبث الدعوة فى الاسلام هي ان لا يقبل من مشركى العرب الا الاسلام وأما اهل الكتاب فالاسلام وان أبوا فالجزية وهي مايستعان به على اصلاح شأن الأمة وان أبوا فالسيف أى الحرب وهي منتهى درجات الدعوة وانما كانت الحرب مصاحبة للدعوة لحمايتها كما يفعل الآن وقبل الآن دول الافرنج في حماية المبشرين بالاساطيل والجند والعدة والعديد

وقد اختلف في المشركين من غير العرب أي المجوس هل يحاربون على الاسلام أو الجزية أم على الاسلام فقط والمشهور ان النبي صلى الله عليه وسلم قبل من المجوس من أهل هجر الجزية وأما العرب فلن يقبل منهم الا الاسلام وبهم نزل كثير من آيات الجهاد ومن ثم تعلم خطأ القائلين بقيام الاسلام بين الامم بالاكراه وهو لم يقم الا بالدعوة كما فصلنا ذلك في رسالتنا المسماة كيفية انتشار الاديان تفصيلا شافياً

حتى يحتذى ،

اما والله لن تبلغ أمة بالظلم والقوّة، وكثرة العديد والعدّة، ما بلغه المسلمون في ربع قرن من استخضاع الأمم بالعدل والايغال في احشاء الممالك بدعوة القرآن فليمسك المتخرصون ، ولينصف الغربيون ، فانّ سلطان الظلم اذا أسرع بسيفه الى الرقاب، فلا سلطة له على النفوس، وانما تملك النفوس، بالعدل، وتلتفّ الناس على القائم بالقسطاس، السائس بالرحمة، الباسط بساط الحرية والأمن، ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الاخيار ، وأنّى يجاريهم ساسة الممالك في هذا المضمار ، فجزاهم الله خير جزاء على ما تركوا من حسن الأثر للمسلمين، وبئس من غلبتهم الشهوات بعدُ فغيروا وبدلوا فكانوا من الخاسرين، وقذفوا بالأمة من حالق مجدها الى وهدة الذل المهين .

أجل ان أكثر ما فتح أولئك الفاتحون البواسل بالعدل لا بالسيف ، وبنصفة المغلوبين لهم لا بالحيف . ولما ثقلت على الأمم القديمة وطأة الاستعباد ، واستحكمت نفوس ساستهم شكيمة الظلم والاستبداد ، تلقوا المسلمين في الظاهر بالحرب ، وفي الباطن بالمسرة والحب ، ولا يسع المغلوب على أمره من مستبد قاهر الا أن يساق بعصاه كما سيق المحاربون لاهل الاسلام وهم مكرهون ، ولإدالة دولتهم من العرب متمنون، وأيّ شاهد على هذا أعدل من التاريخ الذي ينطق عليهم بالحق ولا يقول الاّ الصدق

روى البلاذري في فتوح البلدان انه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على اهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على أمركم فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحبّ الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم

ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود وقالوا والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص الآن نغلب ونجهد فاغلقوا الابواب وحرسوها . وكذلك فعل اهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا ان ظهر الروم واتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه والا فانا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد

واحزناه على ذلك العدل . قوم نشأوا فى مهد دولتهم ونشأت فى أحضانهم. ودانوا بدينها ودانت بدينهم. يغلقون فى وجهها الابواب. ويظاهرون عليها العدوّ ويقسمون على الوفاء للمسلمين ما بقى منهم عدد يقاوم دولتهم . وينكس أعلام سلطانهم . وهم ليسوا على دينهم . ولا من جنسهم . ولا من أهل لغتهم . هل مرقوا من الدين . وخانوا الدولة . وباعوا الوطن . وماتت فيهم طواطف العزّة .

كلاّ وانما هو العدل العدل . العدل الذى جمع بين الامير والمأمور والخادم والمخدوم والكبير والصغير فصيرهم فى شرعة الحق سواء وضمهم تحت راية الحرية والاخاء

شيء شاهده أولئك القوم من العرب وشهدوه . وذاقوا طعمه بعد ان لم يذوقوه . فحبّب اليهم دولة المسلمين بعد اذ أصبحوا من حقيقتها على علم . وقالوا لهم لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم

اللهم انك اذا حبّبت بسلطان الارض قوما فقد أذنت له ولهم بالسعادة، وأنزلت عليهم من سماء رحمتك روح السكينة ، وأفرغت عليهم لباس الأمن، وأردت له سعة السلطان ، ومكنت له فى الارض كما مكنت لانصار دينك يومئذ سلطانهم، وجعلت أعداءهم أعوانهم ، ومن استمسك بعروة كتابك الوثقى فان رحمتك قريب منه، وأنى يشتبه بأولئك غيرهم وأولئك قوم رضى الله عنهم

ورضوا عنه ،

من يصدق ان تلك القبائل البدوية التى نشأت على حب العصبية والتهالك على قتال بعضها بعضا والبعد عن معنى سياسة الأمم وحكم الشعوب ، والنفرة من مظاهر الحضارة ودواعى المدنية ، تنتهى اليها فى بضع سنين سياسة فارس والروم و رياسة آسيا وأفريقيا لولم ينزل اليها القرآن ، وتستنير بشريعة سيد ولد عدنان ،

لله ما أعظم فضل القرآن وما أسمى مقاصد الاسلام . بالامس كانت هذه القبائل مشهرة سيوفها على المسلمين والسمط بن الاسود الكندي والاشعث بن قيس فى محاجرها بقومهما من كندة يضربون بالسيوف فى وجوه المسلمين واليوم أحدهما الاشعث فى العراق يخوض بقومه غمرات الموت ويقتحم صفوف الفرس ، وينادى يا للاسلام ، والثاني في حمص يقسم منازلها على المسلمين ، وأهلها من ورائه يغلقون فى وجه دولتهم الابواب ، ويدفعون عنه جند الروم انّ هذا لمن العجب العجاب ،

أصبح العرب بعد تلك الهمجية المعروفة من قادة السيادة والحرب وأفضل من ساس الأمم فبات المغلوبون لهم ، الخاضعون لسلطانهم من الروم أحرض الناس على حكمهم ، وأرغبهم في شرعهم ، أفليس فى هذا كله ما يكف عن الاسلام ألسنة المخرّصين ؟ ويشهد بان الفتح الاسلامى كان خيراً و بركة على الناس أجمعين

لو قدر المسلمون قدر هذه النعمة وحافظوا على سنن السلف من الصحابة ولم يحد أمراؤهم عن صراط القرآن ، ويشاق بعضهم بعضاً بسيف الخذلان ، خدمةً للاهواء وانقياداً لغلبة الشهوات لما ازداد المسلمون الاّ مجداً ورقياً والاسلام الا انتشاراً وتعميما ولكن هي الاخلاق اذا فسد جوهرها والاهواء اذا

انفجرت ينابيعها صارت طوفانا اذا اندفع على البشر، لا يبقى ولا يذر، والنعم لا تدوم الا بالشكر، ولا تزول الا بالكفران، وحسبنا من هذا قوله تعالى في القرآن (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

﴿ فتح العراق ﴾

أول من حرك في نفس أبي بكر رضي الله تعالى عنه أمر العراق هو البطل الجليل المثنى بن حارثة بن ضمضم الشيباني من بكر بن وائل وهو ممن لم يتابع بكراً على ردتها وبقي وقومه على الاسلام وكان يغير على سواد العراق على رجال من قومه فبلغ أبو بكر الصديق خبره فسأل عنه فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري . هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد هذا المثنى بن حارثة الشيباني

والظاهر ان المثني بمجاورته لبلاد فارس وتوالي غارته على اطراف ملكهم من جهة العراق خبر حالهم ووقف على أمورهم وعلم اضطراب حبل دولتهم فقدم على أبي بكر ورغب اليه ان يستعمله على من أسلم من قومه ليغزو بهم أطراف فارس وسهل لديه أمرهم ورغبه بغزوهم فكتب له أبو بكر في ذلك عهداً وسار الى بلاده ثم ان أبا بكر رأى ان المثني وحده لا يقوم بالمهمة التي خالجت فؤآد أبي بكر وهي نشر راية الاسلام على ارجاء العراق ثم فارس فاستدعى اليه خالد بن الوليد المخزومي من اليمامة في المحرم من سنة اثنتى عشرة للهجرة وأمره بالمسير الى العراق وأن يبدأه من أسفله وكتب الى عياض بن غنم الفاتح الشهير الذي كان على يده فتح الجزيرة وقسم من ارمينيا بعدُ وأمره ان يأتي العراق من أعلاه ويسير حتى يلقى خالداً وأوصى أبو بكر خالداً وعياضا أن لا يضرا بفلاحي العراق وأهل السواد حرصاً منه رضي الله تعالى عنه على

منابع الثروة وعلماً بان العمران أمر لا تقوم بدونه الدولة. والفلاحة كما لا يخفى مصدر حياة الناس وتقدمها أساس عمران الممالك وانما هي قائمة بالفلاح فهو اولى الناس برعاية السلطان وحراسته من أذى الجند فما أبعد هذه الهمة وما أسمى هذا النظر . يبعث بالجند ليثلوا عرش الملوك ويستخضعوا جبابرة الاقوام ويدكوا صروح أولي السيطرة الظالمين ثم يبث فيهم روح الرأفة بالفلاحين ، والمحافظة على المستضعفين ، ليندرع فى نفوسهم احترام حقوق اهل الفلح الذين هم مصدر قوى الدولة ويرشدهم الى مبلغ عناية أرباب السلطان بالطبقة العاملة منهم ليحفظوا عليهم مصدر قوتهم ومنبت قوتهم وليعلموا أنّ أولى الناس برعاية الامير عامل يعمل بارضه ويشتغل لقومه ولنفسه فيكونوا من العاملين

وأوصاهما أيضاً ان لا يغزون معهما أحد ممن ارتدّ وذلك لضعف ثقته رضي الله عنه بأهل الردة بعد ما ظهر منهم ما ظهر من حرب المسلمين ولعله خشى من أن يكون في قلوب بعضهم ضغن على المسلمين فيبثون فيهم روح الفتنة ويفسدون عليهم أمر الفتح وهو احتياط وحذر لا يعجب من صدورهما من مثل أبي بكر لبعد نظره في العواقب وتأنيه في الامور ومع هذا فانّ عمر رضي الله تعالى عنه لما رأى حاجة المسلمين الى الجند أيام خلافته استنفر العرب للجهاد وأذن لعامتهم بالانضمام الى جيوش الفتح وكان لزعماء الردة منهم كطلحة الاسدي وعمرو بن معديكرب والسمط بن الاسود الكندى والاشعث بن قيس وأمثالهم البلاء الحسن فى فتوح الشام والعراق والاخلاص العظيم في اعلاء كلمة الاسلام ومعظمهم استشهد في أيام الفتوح وانما قويت ثقة عمر رضى الله عنه بالعرب لاتساع الفتوح وامتداد سلطان الاسلام ولأن في

توالى الجهاد شاغلا لاهل الفتنة عن الفتنة .ولعلّ ما أصاب المسلمين من بلاء التشيّع والتحزب والانقسام في خلافة عثمان رضي الله عنه وما بعده لمّا استقر أمر المسلمين في فارس والروم وأخلدوا الى الراحة من عناء الفتح كان لا يخلو من أصابع كثير من أولئك الذين حذرهم أبو بكر والله بالحقيقة عليم

لما سار خالد الى العراق كان معه من الجند عشرة آلاف واستقبله المثنى ابن حارثة بثمانية آلاف وبعد مسيره أمدّه أبو بكر بالقعقاع بن عمرو بطل المسلمين المغوار .فقيل له أتمدّه برجل واحد . فقال لا يهزم جيش فيهم مثل هذا . وكذلك أمدّ عياض بن غنم بعبد يغوث الحميرى وكتب الى المثنىّ بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة لخالد وكان مذعور بن عدىّ العجلىّ قد كتب الى أبي بكر يعلمه حاله وحال قومه من الاسلام والطاعة وحب الجهاد ويستأذنه بقتال الفرس فأمره ان ينضم الى خالد . وكذلك كان سويد بن قطبة الذهلى من بكر بن وائل يتربص في البصرة مجئ خالد ليكون وقومه معه على قتال الفرس . فحيّا الله هؤلاء الرجال الكرام . ورضي عن تلك النفوس الطاهرة . التي بيعت في سبيل الاسلام وأخلصت النية لهذا الدين الذي هيأ الله لاهله أسباب النصر لما نصروه . وأعزّهم لما أعزوه .

وقد اختلف المؤرخون فى أول بلد قصده خالد فقال بعضهم انه سار الى الأبلّة [1] وقال الدينوري في الاخبار الطوال انه سار الى الحيرة وان فتح الأبلة كان في عهد عمر بن الخطاب على يد عتبة بن غزوان. ولعلّها انتقضت فارسل

---

١ قال الدينورى في الاخبار الطوال « الموجود منه نسخة في المكتبة الخديوية طبع ليدن » لم يكن موضع البصرة يومئذ الا الخريبة وكانت الابلة مرقى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين اه

عمر عتبة لاخضاع أهلها اذ المشهور ان خالداً بلغ الحفير والكواظم عند مصب الفرات ودجلة في خليج العجم ثم عاد الى الأُبلّة ففتحها عنوة وخلف عليها سويد ابن قطبة وقال له. قد عركنا هذه الاعاجم بناحيتك عركة اذلتهم لك. ثم أتى الخريبة وكانت مكان البصرة الآن وهي منازل خربة بها مسالح لكسرى تمنع العرب من العيث فطردهم منها واستخلف فيها عامر بن قين من بني سعد بن بكر من بنى هوزان ثم تتبع شط الفرات فجاء بانقيا وبار وسماو آليس فصالحه أهلها على مال معلوم وعلى ان يكون أهل آليس عيونا له ثم سار الى الحيرة فناوش أهلها الحرب فخرج اليه أياس بن قبيصة الطائي من أشراف الحيرة وكانوا من أهل الكتاب فدعاهم (الى الاسلام أو الجزية أو الحرب) فقال له اياس مالنا بحربك من حاجة بل نقيم على ديننا ونعطي الجزية فصالحهم على الجزية واختلفوا في مقدارها فقال بعضهم انها كانت تسعين الفا وقال بعضهم مائة الف وروى البلاذري ان أهل الحيرة كانوا ستة آلاف رجل فالزم كل رجل منهم أربعة عشر درهما وزن خمسة فبلغ ذلك أربعة وثمانين ألفا تكون ستين وزن سبعة. وروى الطبرى انها كانت مائة وتسعين الفا ويؤيده ماجاء في كتاب عهد خالد لاهل الحيرة على ماسترى

وأهدى أهل الحيرة هدايا الى خالد على عادتهم مع الفرس فبعث بهامع خبر الفتح وما اجتمع لديه من الفيء الى أبي بكر فقبل الهدايا وعدها لاهل الحيرة من الجزية تعففا عما لم يأذن به الشرع وقطعا لدابر العادات الاعجمية التي كان يُحتال بها على سلب أموال الناس

هذا أول فتح بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فتحه أبو بكر خارج جزيرة العرب وقد رأيت انه لم ترق فيه نقطة من الدم في غير الابلة وفيه دليل على ارتياح اهل البلاد الى حكم المسلمين ومللهم من ظلم الفرس وتوقعهم

لاضطراب حبل دولتهم وزوال ملكهم وانما قوبل خالد بعد هذا بالحرب لدماء أصابها من النمر وتغلب واياد وغيرهم من نصارى العرب الذين امتنعوا عليه ثم استجاشوا جيوش الفرس طلباً للثار .

ثم ان خالداً بعد ان استخضع أهل الحيرة وقضى على دولة المناذرة التي كانت تحكم العراق من قِبَل الاكاسرة وقاعدتها الحيرة أخذ يتمم فتح العراق العربي فسار مصعدا جنوبا فافتتح الانبار الواقعة شرقي الفرات وبادقلى وعين التمر وقطربل الواقعة شرقي دجلة ولما وصل الى دومة الجندل التقى بعياض ابن غنم فجاءها عياض من أعلاها وخالد من أسفلها فافتتاحها عنوة . وكانت آخر حروب خالد في الفراض التى هي آخر تخوم العراق مما يلى الشام والجزيرة وكان كلما فتح فتحا وتوفرت لديه الغنائم يبعث بالخمس الى أبى بكر رضي الله تعالى عنه مع خبر الفتح حتى قال فيه أبو بكر (عجزت النساء ان يلدن مثل خالد) .

وسيأتي معنا بعض الكلام على حروب خالد في العراق فى سيرته ونورد كتبه التي كتبها الى الفرس بعد فتح العراق وجغرافيةُ البلاد التى افتتحها ان شاء الله

انصرف خالد بعد وقعة الفراض الى الشام واستخلف المثنىً بن حارثة الشيباني على جند العراق فاقام في الحيرة يرتب المقاتلة ويذكى العيون وكان ملك فارس يومئذ شهريران بن ازدشير فظن ان غياب خالد ربما يوهن جانب المسلمين فجهز جيشا عظيما بقيادة قائد يسمى هرمز فلاقاه المثني في بابل شرقي الفرات والتحمت هنالك الحرب بين المسلمين والفرس وكانت حربا شديدة انجلت عن هزيمة جنود الفرس ومات عقبها شهريران ملك فارس فعاد الاضطراب

في المملكة الى ما كان عليه واختلف الفرس فيمن يولونه أمر الملك اختلافا يؤذون بادالة دولتهم من المسلمين وينذر بالانحلال العاجل الذي يصيب الممالك عند بلوغها منتهى درجات الترف والنعيم واشتغالها بالسفاسف والاوهام دون الجد والحزم (واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)



باب

فتوح الشام

(تمهيد)

لما انتهى فتح العراق العربي وجاس المسلمون خلال ديار الفرس واستقر لهم في تخوم فارس الملك والسلطان واتخذوا بها الثغور يدخرون بها معدات القوة للاجهاز على ممالك الفرس ورأى أبو بكر ان الله سبحانه وتعالى منجز وعده الذي وعد المؤمنين (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) انصرفت همته الى الشام التي هي مركز التجارة بين الشرق والغرب ومدخر الخيرات التي أعدها الله للمسلمين

كانت الشام يومئذ تابعة لمملكة الروم تبعية أشبه بالاسمية وكان سلطان الروم هنالك في تقلص . ونفوذهم في اضمحلال . ومعظم ولاية الشام في أيدي العرب واليهم ترجع الامارة وعلى الملوك من بني غسان حراسة البلاد . ولم يكن لقيصر في باطن الامر على اهل الشام سوى الاتاوة . والنفوذ والسلطان انما كان للعرب الذين كانوا لا يميلون الى الروم ويودون اجلاءهم الى حيث نبت

بهم بقاع الغرب لما كانوا عليه من الظلم الذي يصاحب غالباً أواخر الدول الفاتحة الغريبة عن البلاد المخالفة لها في الجنس والعادة فلهذا ولأن الشام فى الحقيقة أشبه بجزء طبيعى من جزيرة العرب كانت الاسباب متوفرة لضم هذه البلاد الى سلطان المسلمين وطرد ذلك الفاتح الغريب العابث بنظام العدل المتعدي على حقوق الملك الطبيعى والاستقرار الثابت للعرب . يضاف الى هذا ان انضواء الامة العربية الى لواء الاسلام واجتماعها على كلمة الايمان أمر لا مندوحة عنه يومئذ بحكم الوحدة في الجنس واللغة التي تقضي بوحدة الدين والسلطان

وأنت ترى ان الشام بهذه المثابة كحق طبيعى للمسلمين وهى لما حكمت بالاسلام انما حكمت بالعرب أرباب هذا الحق وأصحاب البلاد لحكمين حكم الجوار واللغة وان لم تكن عامة وحكم الجنسية الشرقية والشرقي أولى بالشرق .

اذن فما أسخف عقول طائفة من الغربيين يدّعون حقاً قديماً فى البلاد يسمونه المسئلة الشرقية ولم يكن لاسلافهم فى الشرق الا ما يكون لكل فاتح غريب من السيادة الى حين . ثم يتقلص ظله . وينكمش الى وطنه . كما انكمش الرومان الى حيث نبت بهم بقاعهم وتقلص عن المشرق ظلهم (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

وحبذا لو حاكمنا الغربيون بهذه الدعوى الى مجلس العدل والمناقشة ، وولجوا بنا باب الانصاف في المناضلة ، اذن والله لأدلينا بالحجة ، وكنا فى جانب الحق ، وكانوا في جانب الباطل ، ولكنها القوّة تغلب كل حق وان كانت في نفسها حجة للمغلوب لا يستظهر بها الا اذا عادل خصمه واستعلى

على عدوه وأنى لنا هذا معاشر المسلمين الآن وليس فينا كأبى بكر واخوانه ومعاوية والخلفاء من بني عمه والمنصور واحفاده وعبد الرحمن الداخل واشبال اشباله وصلاح الدين وعزيمته والسلطان سليمان وأضرابه من آل عثمان الذين قضوا بعزائمهم على بقايا دولة الرومان فى الشرق

ذكرى تمزق الافئدة والقلوب وحال من ضعف البصائر وغلبة شهوات النفوس قد انتهينا اليه أفقدانا كل صبر ، وسلكا بعقول النابغين في الأمة من مذاهب الحيرة كل مذهب ، ودون اهتدائهم الى التخلص من شرك الحيرة وخروجهم بالأمة من وهدة هذا الضعف اسوار من شهوات الامراء وأئتلاف الامة لحكم الاستبداد الذي أوهن عقولها ، وذهب بآثار الشمم من نفوسها ، لا تزول الا بخلق جديد في الاسلام فقد استقلاله ، وقضي حب الذات على دوله ، فلم يبق له أمل بغير نفسه ، واعتماد الا على جده ، يهب هبة الغافل أيقظته الصيحة من كل مكان وأخذت بناصيته يد العدو وفى قول علي بن أبي طالب ما يشير الى هذا (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا) (١)

هذا الحق الذى يعظم وقعه في نفوس العقلاء . ويثقل سماعه على البسطاء . نقوله بحكم المشاهدة لما يحيط بنا من الوسط . والتحقق من حالة المسلمين وحكوماتهم . والنظر الى سنن الله في خلقه التي أبانها لنا القرآن وأيدها تاريخ الانسان - وما كان ربك ليهلك القري بظلم وأهلها مصلحون — ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون — ياداود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق — واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ـ ان تنصروا الله ينصركم ويثبت

---

(١) وفي الطبعة الاولى قلنا انه حديث وهو خطأ لزم اصلاحه هنا

أقدامكم - وتلك الايام نداولها بين الناس - الى غير ذلك من آيات البيان التي تثبت ان لله في خلقه سنناً لا تتخلف وللمعرضين عنها من عباده جزاء لا مهرب منه ومع هذا فانا نرجو أن تخلف ظنننا الاقدار ويخلق الله لهذا الأمة ما لم يكن في الحسبان فتعود على بدئها وتسترد بقوة العلم والعمل ذاهب مجدها وليس على المجد اذا عزم أن يتوقف . وكل سالك في طريق الى نهايتها يصير . وانما نصر الله المسلمين فى عهد أبى بكر ومن بعده بجدهم وسودهم على الامم بالغلبة على شهواتهم والاستظهار بقوة يقينهم والله ولي الصالحين

﴿ استدراك ﴾

ربما يظن ظان مما قدمناه في هذا التمهيد انا بالغنا في القول بسيادة العرب في سورية إبان الفتح وانهم كانوا حماة البلاد وأصحاب السلطة العظمى على قسم عظيم منها والحال ان ما ذكرناه من ذلك في هذه المقدمة انما هي حقائق تاريخية أوردناها على وجه الاجمال لهذا ودفعاً لخطأ الظن أو تهمة التشيع للعرب أحببنا أن نستدرك ما فات ببيان تاريخي لما تقدم فنقول

انّ قسما عظيما من سورية كان مأهولا يومئذ بالعرب فكان سكان القسم الجنوبي منها ومن حوران وما يليها من البلاد الواقعة في الجنوب الغربي وهي الكرك ومعان الى العقبة قرب البحر الاحمر كانت مأهولة بالعرب من غسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة وغيرهم وكانت عاصمة هذا القسم بصرى المدينة الشهيرة في حوران التي لم تزل آثار العظمة بادية على بقاياها الى الآن وكانت حاضرة الملوك من بني غسان

وكان قسم عظيم من الجزء الشرقي والشمالي الشرقي الممتد من غوطة

دمشق الى مدينة تدمر وما بعدها الى شط الفرات مأهولاً بالعرب أيضاً من بني غسان والنمر وبهراء وتغلب وغيرهم وعاصمة هذا القسم مدينة دمشق

فاما القسم الجنوبي وكونه كان مأهولاً بالعرب وفيه نشأت دولة بني غسان الشهيرة فمشهور لا حاجة فيه الى البيان

وأما القسم الآخر وكونه كان مأهولا بالعرب فالدليل عليه مارواه الطبرى وغيره من المؤرخين عن الفتح الذي فتحه خالد والبلاد التي مرّ عليها أثناء مجيئه من العراق الى الشام لنجدة المسلمين ومنه يستنتج انّ كل البلاد التي مرّ عليها يومئذ منذ أشرف على وادى الفرات حتى انتهى الى دمشق بلاد مأهولة بالعرب واليك البيان

لما قصد خالد بن الوليد الشام وقطع اليها المفازة أشرف منها على حدود سورية الشرقية في وادى الفرات وهو المعروف الآن ببلاد الزور وعاصمته الدير المعروف الآن بدير الشعّار وكانت كلها مساكن للعرب في بهراء والنمر وتغلب وغيرهم لم تزل الى الآن كذلك فاتى أرَك وهي واقعة بين تدمر والدير ومنها سار الى تدمر وهي على حدود البادية الشرقية وسار منها الى القريتين (ولم تزل معروفة الى الآن بهذا الاسم) ومنها سار الى دمشق (عن طريق القلمون الاسفل وهو الجزء الشرقي من العمالة المعروفة الآن بجبل قلمون ويسمون هذا القسم القلمون التحتي وهو طريق القوافل لهذا العهد من الشام الى العراق) فأتى خالد في طريقه على حوارين وقُصَم وكانت آخر ما فتحه من البلاد الواقعة في طريقه من شمال دمشق فقاتله اهلها وكانوا من بني مشجعة من قضاعة فظفر بهم ثم سار عنهم الى ثنية العقاب (التى تشرف على المرج المعروف الآن بمرج عذراء الواقع في الجهة الشمالية الشرقية من دمشق) ومنها انحدر

الى مرج راهط (وهو المرج المتصل بمرج عذراء ممتداً الى جهة الجنوب) فأغار على بني غسان فى يوم فصحهم فقتل وغنم وبعث بالاخماس الى أبي بكر

هذا ما أثبته الطبري بشأن البلاد التي مرّ عليها خالد وفتحها اثناء مجيئه من العراق الى الشام ومنه علمتَ ان آخر ما افتتحه خالد من جهة الشمال الشرقي عن دمشق (قُصَم) وأهلها من العرب من بني مَشجَعة وهو يدل على ان القلمون الاسفل وما يليه شرقا الى شطوط الفرات كان مأهولا بالعرب من النمر وتغلب واياد وبهراء وغيرهم [1]

وكذلك القسم الواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط قد كان مأهولاً ببني غسان . والظاهر ان دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل انها كانت تحت الحرث الغساني أحد ملوك بني غسان في عهد الفتح الاسلامي فهي اذن كانت عاصمة ذلك القسم العظيم الممتد منها الى الشمال والشرق حتى البادية والفرات ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان مأهولاً بالعرب

اذا تقرر هذا علمت ان لا مبالغة فيما قلناه من أن سورية كانت أشبه بولاية عربية كان النفوذ والسلطان فيها للعرب واليهم ترجع حماية البلاد وحراستها ولم يكن للروم فيها الاّ الاسم اللهم الاّ ما كان منها واقعاً في الجهة

---

(١) هذا الاستنتاج يصح فيما لوصح ما ذكره الطبري في تاريخه من أن خالد بن الوليد أتى القريتين ثم حوارين وبعدها قصم ومنها أتى ثنية العقاب فجعل قصم آخر الفتح الى جهة دمشق . وبعده كانت غارته على غسان في مرج راهط لكن ذكر ياقوت في معجمه أن قصم موضع بالبادية قرب الشام فاذا صح هذا ضعف استدلالنا على ان قلمون الاسفل كان مأهولاً بالعرب

الغربية والشمالية كفلسطين والاردن وحلب وانطاكية وما يليها فربما كانت سلطتهم عليها أظهر وكلمتهم أنفذ والله أعلم

﴿ بعث البعوث الى الشام ﴾

كان بَعْثُ أبي بكر البعوث الى الشام في أوائل سنة ثلاث عشرة بعد عوده من الحج وكان أول لواء عقده الى الشام لواء خالد بن سعيد بن العاص وقال ابن الاثير وتابعه عليه كثير من المؤرخين انه عزله قبل أن يسير بايعاز عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك لما في نفسه عليه من تربصه ببيعة أبي بكر كما تقدم الكلام عليه وأمره أن يكون بتيماء رِدأً للمسلمين وأن لا يفارقها وان يدعو من حوله من العرب وان لا يقاتل الا من قاتله فاجتمع اليه جموع كثيرة واتصل خبره بالروم فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام ثم جاءه ماهان بالجيوش ففرقهم ثم جمع له فقاتله فهزمه فكتب الى أبي بكر بذلك فاهتم لأمر الشام واستنفر العرب وجهز البعوث الى آخر ما ذكروه من خبره

هذا ما ذكره بن الاثير وغيره وروى البلاذري في فتوح البلدان عن أبي مخنف قال

لما عقد أبو بكر لخالد بن سعيد كره عمر ذلك فكلم أبا بكر في عزله وقال انه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب فعزله أبو بكر ووجه أبا أروى الدوسي لاخذ لوائه فلقيه بذي المروة فأخذ اللواء منه وورد به على أبي بكر رضي الله عنه فدفعه أبو بكر الى يزيد بن أبي سفيان فسار به معاوية أخوه يحمله بين يديه ويقال بل سلم اليه اللواء بذي المروة فمضى على جيش خالد وسار خالد بن سعيد محتسباً في جيش شُرَحْبيل اه

والذي يستنتج من هذه الرواية ان أبا بكر عقد لخالد بن سعيد ليكون ردأً للمسلمين لا ليغزو مع الامراء ثم بعد مسيره كلمه بشأنه عمر فعزله واستعاد لواءه فدفعه الى يزيد وسيره على أثر مسير الامراء. وروى الطبري في تاريخه عن سيف نحو هذه الرواية وروى ايضاً من طريق آخر ان أبا بكر لما عقد الالوية للامراء عقد لخالد بن سعيد فيمن عقد ولما كلمه بشأن عزله عمر أطاعه أبو بكر في بعض أمره وعصاه في بعض وأمر خالداً أن ينزل بتيماء وان لا يبرحها وان يدعو من حوله الى الاسلام ففعل واجتمع اليه جموع كثيرة فلما بلغ الروم ذلك جمعوا له فكتب الى أبي بكر بذلك فكتب له أن اقدم ولا تحجم فسار اليهم خالد فتفرقوا فكتب الى أبي بكر بذلك فكتب اليه أبو بكر. أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك. فسار فيمن كان معه فلقيه باهان بجيوش الروم فقاتله خالد فظفر به وهزم جنده وكتب الى أبي بكر يستمده فاهتم أبو بكر لامر الشام وجهز البعوث فتعجل خالد بالحرب قبل وصول الامراء فنكبه الروم فعاد الى المدينة مهزوماً فغضب أبو بكر عليه ثم استأذن أبا بكر وذهب متطوعاً في جيوش الامراء. وهذه الرواية توافق ما رواه ابن الاثير وتخالف رواية البلاذري وفي كلا الحالين فان يزيد بن أبي سفيان صار أميراً على جيش خالد بن سعيد كما يتضح ذلك من وصية أبي بكر له

لما استنفر أبو بكر المسلمين من أطراف البلاد العربية للجهاد أخذوا يفدون عليه من كل فج ويعسكرون بالجرف قرب المدينة ولما تكامل جمعهم وذلك في مستهل صفر سنة ثلاث عشرة عقد الالوية فعقد لواء لعمرو بن العاص وكان قد استدعاه من ولايته على صدقات سعد هزيم من قضاعة ووجهه الى فلسطين. وعقد لواء لشُرَحْبيل بن حسنة وكان قد وفد اليه من

العراق ووجهه الى الاردن . وعقد ليزيد بن أبي سفيان على جمهور من انتدب اليه فيهم سهيل بن عمرو وأشباهه من وجوه مكة وأشراف قريش ووجهه الى البلقاء وقال بعضهم الى دمشق . وعقد لابي عبيدة عامر بن عبدالله ابن الجراح الفهري ووجهه الى حمص . وكان العقد في بدء الامر لكل أمير على ثلاثة آلاف رجل فلم يزل أبو بكر يتبعهم الامداد حتى صار مجموعهم أربعة وعشرين الفا ؟

هذا هو الجيش القليل العدة النائي الديار الذي سار على بركة الله ليغزو الروم في عقر دارهم . ويجوس خلال ديارهم . ويزعزع اركان ملكهم . وينذر بتقلص سلطانهم . وينشر راية الاسلام على ربوع الشام وأسيا الصغرى والجزيرة وارمينيا وقد فعل فكيف وبماذا ؟

بقوّة العزيمة والصبر ، والاعتماد على الله في السر والجهر ، وعدم المبالاة بالحياة في سبيل اعلاء كلمة الدين ، ونصرة الاسلام ، والتعفف عما بأيدي الناس ، وانصاف المغلوب ، وحماية ماله ونفسه ، واطلاق الحرية له في عوائده ودينه ، ما دام يدفع للمسلمين جزأً من ماله ، يستعينون به على اصلاح حاله ، وتأمين بلده ، وتمهيد طرق الراحة والنظام لقومه ، ويكون له من الحقوق حينئذ ما للمسلمين ، وعليه من واجب المعونة وطاعة الامير والامانة في الجوار ما عليهم ، لا يضار في عرض ولا نفس ولا مال ، هذا اذا ختار البقاء على دينه ، ورضي باداء جزيته ، وأما اذا أسلم فالمسلمون كما في الحديث (تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليهم أقصاهم وهم يد على من سواهم)

ضف الى هذا ما يصاحب أولئك المجاهدين من حسن الرأي بمن يصاحبهم من رجال الاسلام وأقطاب السياسة والحرب يومئذ كعمرو بن العاص

وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهم أجمعين ومن ورائهم مثل أبي بكر يمدهم بالرأي . ويتابع اليهم النصائح . وحسبهم من وصاياه وصيته ليزيد ابن أبي سفيان التي تعجز أقطاب السياسة وتنفع قادة الجيوش وساسة الامم في كل عصر . وقد أوصاه بها لما شيعه ماشياً كما أوصى سائر الامراء

﴿ وصية أبي بكر ليزيد ﴾

اني قد وليتك لأبلوك وأجربك فان أحسنت رددتك الى عملك . وزدتك . وان أسأت عزلتك . فعليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك . مثل الذي يرى من ظاهرك . وان أولى الناس بالله أشدهم تولياً له وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً اليه بعمله . وقد وليتك عمل خالد (١) فاياك وعبية الجاهلية فان الله يبغضها ويبغض أهلها . واذا قدمت على جندك فاحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم اياه . واذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصلِّ الصلوات لأوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها . واذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به . ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علمك . وأنزلهم في ثروة عسكرك . وامنع من قبلك من محادثتهم . وكن أنت المتولي لكلامهم . ولا تجعل سرك لعلانيتك فيختلط امرك . واذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة . ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك . واسمر بالليل في أصحابك تأتك الاخبار وتنكشف عندك الاستار وأكثر حرسك وبددهم في عسكرك . وأكثر مفاجآتهم

(١) يريد خالد بن سعيد

فى محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن حرسه. فأحسن أدبه وعاقبه في غير افراط وأعقب بينهم بالليل وأجعل النوبة الاولى أطول من الاخيرة فانها ايسرهما لقربها من النهار . ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجنّ فيها ولا تسرع اليها ولا تخذلها مدفعاً . ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده . ولا تجسس عليهم فتفضحهم . ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم . ولا تجالس العباثين وجالس أهل الصدق والوفاء . واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس . واجتنب الغلول فانه يقرب الفقر ويدفع النصر . وستجدون أقواما حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له اه

﴿ ابتداء الفتوح ﴾

(بالشام)

علمنا مما سبق ان الجهاد مبنيّ على الدعوة وان المسلمين لا يبدأون أهل الكتاب بحرب ما لم يدعوهم الى خصلة من ثلاث (الاسلام أو الجزية أو السيف) أي الحرب وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كتب الى هرقل فى جملة من كتب اليهم من الملوك يدعوه الى الاسلام ففى رواية انه أجابه واسلم سراً وفى رواية انه لم يجبه ولما سار الامراء وكتبوا اليه يدعونه الى خصلة من الثلاث وقد كان وقتئذ بالقدس جمع اليه البطارقة وكبار القواد وشاورهم فى امر المسلمين وأشار عليهم بصلحهم فأبوا عليه الاّ الحرب وكان مما قال لهم (والله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم

نصفه مع بلاد الروم أحب اليكم من ان يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم) ولمّا لم يوافقوه على رأيه أخذ باعداد الجنود والعدة وأرسل لكل أمير جيشاً ليشغل كل طائفة من المسلمين بطائفة من قومه

وأما أمراء المسلمين فقد أوغلوا بجيوشهم في أحشاء البلاد فنزل أبو عبيدة الجابية . ونزل شرحبيل الاردن . ونزل عمرو بن العاص العربة من فلسطين . ونزل يزيد البلقاء . ومن ثم اختلف المؤرخون في كيفية ترتيب الوقائع فمن قائل ان أول وقعة كانت بين المسلمين والروم وقعة اليرموك ومن قائل غير ذلك والذي قال بالاول بني قوله على أن المسلمين لما تفرقوا فى البلاد وراعهم ما جمعه لهم هرقل من الجموع استشاروا عمراً فأشار عليهم بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك وكتبوا الى أبي بكر فأمده بخالد بن الوليد ولما وصل اليهم وجد الامراء متساندين فتأمر عليهم ثم هاجم جنود الروم وجرى بين الفريقين قتال شديد انتهى بانكسار الروم وبينما هم في اليرموك جاء الخبر بوفاة أبي بكر وتولية عمر رضي الله عنهما ومع الخبر أمر بعزل خالد وتأمير أبي عبيدة بن الجراح

مع ان امعان الامراء بجيوش المسلمين فى الجزء الجنوبي والجنوب الغربي من البلاد ووصول بعضهم الى الاردن قرب طبرية والبعض الآخر الى فلسطين ثم اختلاف المؤرخين في عزل خالد بن الوليد هل كان وهم على دمشق أم في اليرموك كل هذا يؤيد ان واقعة اليرموك انما كانت بعد وقائع كثيرة كواقعة مرج الصفر (على وزن سكر) وواقعة اجنادين التى بشّر أبو بكر بظفر المسلمين فيها بآخر رمق وواقعة العربة من فلسطين وغيرها وان المسلمين افتتحوا كثيراً من البلاد قبل اليرموك صلحا أو حرباً ويؤيد هذا

ما ذكرناه سابقاً نقلاً عن البلاذري من أن أهل حمص عاهدوا المسلمين على الوفاء لما انجلت حاميتهم عن حمص بقصد الاجتماع مع بقية الجيوش على اليرموك

وقد اتفق ابن الاثير والبلاذري على حصول وقائع للسلمين مع الروم قبل وقعة اليرموك وهي وقعة بصرى في حوران وداثن في فلسطين ومرج الصفر وغيرها

والظاهر من هذه الروايات أن الروم في ابتداء الامر لم يحفلوا بأمر المسلمين ولم يظنوا فيهم القوّة والجرأة على اقتحام عواصم البلاد والتغلغل في احشاء الممالك بجيشهم القليل وعدتهم الضعيفة وهو من سوء الرأي المبني على الكبرياء الباطلة والغرور المضر فانّ الاستهانة بالعدوّ مهما قلّ وهن في السياسة منشأوهُ ما يصيب عقول السياسة في الدول الهرمة من فقد قوة التجارب أو الاعراض عن مصالح الملك حبا بمصالح النفوس وشهواتها

قد مهدت سياسة الروم هذه للمسلمين ان يقتحموا بجيوشهم البلاد اقتحام المجربين في الحروب العارفين بمواضع الخطر الواقفين على عورات العدو الخبيرين بطرق البلاد فانهم أوغلوا في جنوب الشام على شكل مثلث متقارب الخطوط رأسه في البلقاء مع يزيد بن أبي سفيان مما يلي الحجاز وطرفاه الواحد في الجنوب الغربي في فلسطين وهو مع عمرو بن العاص والآخر في الجنوب والجنوب الشرقي في حوران وهو مع أبي عبيدة بن الجراح وفي الوسط بميلة الى الغرب أيضاً شرحبيل بن حسنة وهو في الاردن . بحيث يمد بعضهم بعضاً من قرب . ومن ورائهم يزيد يحفظ عليهم خط الرجوع ويديم النظر في طرق المواصلات

على هذه الصفة دخلت الجيوش الاسلامية الى الشام وافتتح كل أمير مامرّ عليه من البلاد صلحاً أو حرباً حتى اذا اخذت الصيحة الروم من كل مكان هبوا من غفلتهم هبوب المذعورين . وانتبهوا انتباه الغارين . فضرب هرقل البعث على العرب الضاحية بالشام من بهراء وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام وهم يومئذ حماة البلاد والي الملوك من بنى غسان ينتهى القول والعمل فاجتمع لديه منهم ومن الروم زهاء مائة وخمسين الفا فقسمهم وبعث لحرب كل جيش من جيوش المسلمين قسما منهم بقيادة أحد مشاهير القواد

اجتماع الامراء في اليرموك

ووفود خالد بن الوليد عليهم

لما رأى أمراء الجيوش الاسلامية كثرة ما أعد لهم هرقل من الجنود كتبوا بذلك الى عمرو بن العاص وهو صاحب الرأي فيهم فأشار عليهم بالجلاء عن البلاد والتقهقر الى اليرموك وهو نهر فى واد واقع فى الجهة الشمالية من جبل عجلون الى الجنوب الغربي من الشام وكتبوا الى أبي بكر فأشار عليهم بالاجتماع أيضاً ريثما يصلهم المدد وكتب الى خالد بن الوليد يأمره بالمسير الى الشام وان يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنىّ بن حارثة بطل العراق الشهير ولا يأخذن من فيه نجدة الاّ ويترك عند المثنىّ مثله فامتثل خالد الامر وسار بمن معه حتى أتى تَدْمُر وهى على حافة البرية مما يلى وادى الفرات وموقعها الى الشمال الشرقى من دمشق على بعد ١٥٠ ميلا منها بعد ان عانى وجيشه مشقة عظيمة في الطريق وغزا من صادفه من القبائل كما سترى فى

سيرته بعدُ ثم قام من هناك الى ثنية العُقاب ومنها الى مرج راهط الواقع شرقى الغوطة فأغار على ارباض دمشق ثم اتجه جنوبا الى بُصرى وقاتل أهلها فظفر بهم وأرسل بالاخماس الى أبيّ بكر ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر وقيل في جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة

كان المسلمون الى ذلك الحين يراوحون العدوّ القتال ويطاولونه في النزال متساندين كل أمير على جيشه والعدوّ امامهم بجنده الكثيف الذي يبلغ المائة وخمسين الفاً لا يتزعزع بل هو أشبه بالمحصور من ورائه الوادي ومن امامه جند الاسلام فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وكان عظيم الرأي في الحرب بعيد النظر فى ترتيب الجيوش لم يرق لديه تساند الامراء وليس لهم أمير يجمعهم فجمعهم اليه وخطب فيهم خطبة أنبهم فيها على ماهم فيه من الافتراق في الامارة على ماسترى ذلك فى سيرته وطلب اليهم أن يجتمعوا على أمير واحد ويتناوبوا الامارة العامة كل يوم واحد وان يؤمروه ذلك اليوم فأطاعوا اشارته وأمّروه فرتب الجيش ترتيباً حسناً ثم نشب القتال وكانت معركة عظيمة ظهر فيها من حمية قريش وشجاعتهم مايؤيد قولنا فيما سبق ان الله سبحانه وتعالى كما أيّد الدين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالانصار أيّده بعده بقريش . وانجلت المعركة عن انهزام الروم شر هزيمة بعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة جداً وأصيب من المسلمين بين قتيل وجريح زهاء ثلاثة آلاف فيهم من وجوه المهاجرين وجلة قريش عدد كبير منهم عكرمة بن أبي جهل من أبطال حروب الردة وعمرو ابنه وسعيد بن الحرث بن قيس ابن عديّ وهو قديم الاسلام ومن مهاجرة الحبشة وأمثالهم من أهل البلاء ووجوه قريش من المهاجرين الأولين ومهاجرة الفتح

لا جرم ان واقعة اليرموك سواء كانت أول وقائع المسلمين مع الروم بالشام أو غير ذلك فانها كانت آخر وقعة قضي فيها على سلطان الروم فى سورية حتى لم يقم لهم بعدها قائمة ولم يستتب لهم فيها أمر واذا رأينا كثرة من أصيب يومئذ من المهاجرين علمنا انهم كانوا محور الحرب الذى دارت عليه رحاها وجُنّتها التي تلقت سهام أذاها. واليهم ينتهى الفضل فى كسر شرّة الروم وتمهيد السبيل لتدويخ بلاد الشام . واستنارة أهلها بنور الاسلام

ليس بعجيب ان يظهر من قريش ما ظهر منهم في اليرموك وهم سادة العرب وحماة الذمار وانما العجب لهذا الرهط ان ينهض بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر نهوضاً يدهش ساسة الممالك من الفرس والروم ويقضى على كثير من ممالك الارض بذلك الانقلاب العظيم في السياسة والدين .والعرب يومئذ على ما نعلم من الاستغراق في البداوة والبعد عن نعيم الحضارة . وانما كان يقودها هذا الرهط من المهاجرين الذين سبقوا الى العلم بالدين وامتلأت قلوبهم بنور الايمان

لا ريب ان هدى الاسلام قد نفذ منهم الى اعماق القلوب وكشف عن بصائرهم غشاء الغرة فأخرجهم من الظلمات الى النور فرأوا طريق السيادة على الأمم واضحاً فسلكوه . وسبيل سعادة الآخرة بيناً فانصرفوا بكليتهم اليه . ففازوا بالنعمتين . وسلكوا بالعرب طريق السعادتين . فجاهدوا فى الله حق جهاده . وعمموا هدى دينه بين عباده

ممن أبلى بهذه الحرب يومئذ أبو سفيان بن حرب وذهبت فيها عينه وخالد بن الوليد والسمط بن الاسود الكندى وعكرمة بن أبي جهل وهو الذي قال لما اشتد الامر على المسلمين وبلغت جنود الروم فسطاط خالد

قاتلت النبي صلى الله عليه وسلم في كل موطن ثم أفر اليوم[1]. ثم نادى من يبايعنى على الموت فبايعه الحرث بن هشام وضرار بن الازور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد قتال من باع نفسه في سبيل الله وأصبح الموت أحب اليه من الحياة حتى أصيبوا جميعهم بالجراحات والقتل وأصيب عكرمة وابنه عمرو بجراح فأتى بهما ثانى يوم الى خالد فوضع رأسيهما على فخذيه وجعل يقطر فى حلقيهما الماء ويقول . زعم ابن حنتمة يعنى عمر اننا لا نستشهد .

رحم الله تلك النفوس التي استهانت بالدنيا ومتاعها فتخلى الامير عن امارته والغنيّ عن ماله وملذته والشريف عن عزته والعائل عن أهله وولده التماساً للشهادة . ورغبة بنصرة الاسلام ، وطلباً لقهر العدوّ وخذلانه ، ونصر الدين وأعوانه

أبلى النساء المسلمات في ذلك اليوم كما أبلى الرجال وحملن العمد يضربن بها وجوه الخيل اذا لوت وينادين الى أين ياحماة الاسلام ، وطلاّب الشهادة ، يشددّن بذلك عزائم الرجال ، ويواسينهم بأنفسهن في ساحات القتال ، حتى بلغن من كيد العدو ما لا تبلغه منه السيوف ، وقمن بخدمة الاسلام كما قام رجالهن الذين أوردوا الروم موارد الحتوف ،

فكان النساء يومئذ مجاهدات محرضات ممرّضات يجاهدن العدوّ ويحرضن المسلمين ويمرضن الجرحى وربما قتل للمرأة ولد فبعثت الى ساحات الحرب اباه . أو تسلّت عنه بأخيه

بينما المسلمون في ذلك اليوم فى أشد حالات الحرب والصدام قدم

(١) يعنى من مواطن قريش لان اسلام عكرمة كان بعد فتح مكة

البريد من المدينة واسمه محمد بن زنيم فسألوه الخبر فأخبرهم بسلامة وامداد وانما جاء بموت أبى بكر وتأمير أبي عبيدة فكتم هذا الخبر عن المسلمين ريثما تضع الحرب أوزارها وتولي الروم أدبارها

وقد اختلف المؤرخون فى هل جاء الخبر بوفاة أبى بكر والمسلمون في اليرموك أو على دمشق كما اختلفوا فى هل فتح شئ من الشام قبل اليرموك في خلافة أبى بكر ومما لا ريب فيه ان جيوش المسلمين لما أوغلت في القسم الجنوبى من الشام افتتحت كل مامرت عليه من البلاد وربما بلغت حمص شمالا كما رواه البلاذرى الا ان انجلاءهم بعدُ عن البلاد وتقهقرهم الى اليرموك جعل ذلك الفتح الاول كأن لم يكن لانتقاض البلاد بعد خروج المسلمين عنها وعدم استطاعتهم ترك الحامية فيها لقلة عددهم وكثرة جنود عدوّهم لهذا عول المؤرخون في سياق أخبار الفتح على ما كان منه بعد اليرموك فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وحار بعضهم فأوردها مشوشة وفي كلا الحالين فان الفتح الحقيقيّ للديار الشامية انما تم فى زمن عمر بن الخطاب ولأبى بكر الفضل العظيم فيه لسبقه اليه واعداده مثل جيش اليرموك له وأما عزل خالد بن الوليد فالاصح انه جاء وهم على دمشق كما سترى بعد

باب

مناقب أبى بكر وأخلاقه ومآثره

ان أحسن وصف يمثل أبا بكر بفضائله واخلاقه تمثيلا لا يدع في النفس حاجة الى المزيد ماوصفته به أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنه وعنها بخطبة وجيزة العبارة عظيمة المعنى جامعة لشمائل أبى بكر وأخلاقه واذا أتيت بشئ

من ذكر فضائله ومناقبه فانما يكون تفصيلا لما أجملت . وشرحاً لما أوجزتْ فقد روي انه بلغها أن أناسا يتناولون من أبيها فأرسلت اليهم فلما حضروا قالت

أبي ماأبيَه لاتعطوه الايدي ذاك والله حصن منيف وظل مديد أنجح اذ أكديتم . وسبق اذ ونيتم . سبق الجواد اذا استولى على الامد . فتى قريش ناشئاً وكهفها كهلا . يريش مملقها . ويفك عانيها . ويرأب صدعها . ويلم شعثها . حتى حليته قلوبها . واستشرى في دينه . فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيي فيه ما أمات المبطلون . وكان رحمة الله عليه غزير الدمعة . وقيذ الجوانح . شجي النشيج . فانصفقت عليه نسوان مكه وولدانها يسخرون منه ويستهزؤن به والله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . وأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت له قسيها . وفوّقت اليه سهامها . فامتثلوه غرضاً فما فلوا له صفاة . ولا قصفوا له قناة . ومرّ على سيسائه . حتى اذا ضرب الدين بجرانه . وأرست اوتاده . ودخل الناس فيه افواجا من كل فرقة ارسالا وأشتاتا . اختار الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ماعنده فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه وشد طنبه ونصب حبائله واجلب بخيله ورجله والقى بركه . واضطرب حبل الدين والاسلام . ومرج عهده . وماج اهله . وعاد مبرمه انكاثاً . وبغي الغوائل وظن رجال ان قد اكثبت اطماعهم نُهزها . ولا حين الذي يرجون . وأنا والصدّيق بين اظهرهم فقام حاسرا مشمرا . قد رفع حاشيتيه . وجمع قطريه فردَّ نشر الدين على غره ولمّ شعثه بطيه وأقام اوده بثقافه . فابذعرّ النفاق بوطأته . وانتاش الدين فنعشه . فلما اراح الحق على اهله . واقر الرؤوس على كواهلها . وحقن الدماء في اهبها . وحضرته منيته . فسد ثلمته بشقيقه في

المرحمة . ونظيره في السيرة والمعدلة ذاك ابن الخطاب لله أم حملت به ودرّت عليه لقد أوحدت ففنخ الكفرة وديخها . وشرّد الشرك شذر مذر وبعج الارض وبخعها فقاءت أكلها . ولفظت خبئها ترأمه ويصدعنها . وتصدّى له ويأباها . ثم وزع فيأها فيها وتركها كما صحبها فأروني ماذا ترتؤون . وأيّ يومي أبي تنقمون . أيوم اقامته اذ عدل فيكم . أم يوم ظعنعه اذ نظر لكم أقول قولي هذا واستغفر الله لى ولكم (١)

﴿ سياسته في الخلافة ﴾

لم يكن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم موقف أشد وأحرج على المسلمين من موقف وقفه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مذ كان حياً يتحدّى العرب بالقرآن ويتألفهم بالمعجزات ويملك عليهم طرق الزيغ بتوالي نزول الوحي بالدلالة على المنافقين منهم . وكشف خبايا ضمائرهم . ومع هذا فقد عانى منهم ما عاني ولقى أشد مايلقى نبيّ من قومه ولما تولى الخلافة أبو بكر وجاء المسلمين من أخبار الردة وانتقاض العرب ما أوهن عزائمهم وفتّ في عضدهم نظر أبو بكر فرأى أنّ العرب كان يتألفها النبي بالوحي والمعجزات وقد انقطع الوحي وهم مع حداثة عهدهم بالاسلام عريقون بالبداوة ساذجو الفطرة قلّ أن يتأثر وجدانهم الا بما يتأثر به حسهم فلا سبيل الى اجتذاب قلوبهم وامتلاك ضمائرهم واستخذاء نفوسهم بلين الكلام أو قواصر التقريع للاحتيال على ضمائرهم . والتوصل الى كبح جماحهم

---

(١) نقلنا هذه الخطبة عن كتاب النثر المختار بهذا الضبط فلتحرر وقد اوردها ابن عبد ربه في العقد الاّ ان أيدى النساخ مسختها مسخاً فجاءت ناقصة عن هذه في بعض الجمل ومختلفة عنها في البعض فلتقابل

وان القوّة هي أحسن ما ترتاض به نفوسهم . وتتأثر به حواسهم . وتلين من عريكتهم . وتخضع عاصيهم فانفرد بهذا الرأى دون كثير من الصحابة كما علمت مما مرّ في اخبار الردة فكان رأيه الصائب . وقوله الحق . وعمله الموفق وسياسته الناجعة . حتى اعترف له بالاصابة وحزم الرأى بعدُ جميع الصحابة رضي الله تعالى عنهم وكان من وراء عمله في الردة سلامة الاسلام والمسلمين من هجمات الشرك وغوائل الهمجية وسطوات الاعداء بدليل ما أخرجه البيهقي وابن عساكر عن أبي هريرة قال (والذي لا اله الا هو لولا أنّ أبا بكر استخلف ما عبد الله ثم قال الثانية ثم قال الثالثة) فقيل مه يا أبا هريرة فذكر لهم موقف أبي بكر في انفاذ جيش أسامة وجيوش الردة في حديث طويل قد مضى معنا ما هو بمعناه من أخبار أبي بكر فلا حاجة لا يراده هنا

وكذلك رأيه في انفاذ جيش أسامة يدل على علوّ كعبه في السياسة وبعد نظره في مهمات الامور فانه ظهر به للعرب بمظهرة القوة . واستهان بانفاذه بخطب الردة. فنفث في روع العرب روح الرهبة فكانوا بين مقبل على الردة ومدبر عنها ومتردد بين الامرين حتى وافتهم جيوش المسلمين وهم على فرقتهم وتشتت رأيهم فأخذتهم بما صنعوا . وردتهم عما ابتدعوا . وضرب الاسلام بينهم بجرانه . وقضي على شيطان الجهل وأعوانه

ومن حسن سياسته انه لما استخضع العرب وأراهم سطوة المسلمين وبأس الموحدين . فاستكانوا للاسلام . وأخلدوا الى الطاعة . ولم يرَ بعد ذلك من حاجة لاستعمال الشدّة معهم . رفع العقوبة عن زعمائهم . وألان القول لأمرائهم . تأليفا لقلوبهم . واستفادة من نفوذ رأيهم في أقوامهم فلما جيء له بالسمط بن الاسود الكندي أحد ملوك كندة . وعمرو بن معد يكرب

والاشعث بن قيس أسراء مكبلين غفر لهم زلتهم وعفا عما صدر عنهم فأسر قلوبهم . وامتلك ضمائرهم . فكانوا في المستقبل من انصار الاسلام الكبار . وأعوانه الشداد .

ومن حسن سياسته رفقه بخالد بن الوليد واغضاؤه عن هفوته في قتل مالك بن نويرة مع الحاح عمر عليه باستدعاء خالد الى المدينة ليحاكم وتجري العقوبة عليه . ولما قال له عمر ان سيف خالد فيه رهق وأكثر في اللائمة على خالد . قال ياعمر تأول خالد فاخطأ فارفع لسانك عنه فاني لا أشيم سيفا سله الله . وودى مالكا وكتب الى خالد ان يقدم عليه ففعل وأخبره الخبر واعتذر اليه فعنفه أبو بكر ثم تجاوز عنه وقبل عذره

كان خالد ذا عصبية في قومه محبوبا من الجند عظيم الرأي في الجهادموفقا في الحروب فرأى أبو بكر ان رجلاهذا شأنه لما يضن به ويحرص عليه . لاسيما وانه كان يضمر أن يرمي به الفرس والروم . ويجمع تحت رايته العرب لبث الدعوة ونشر الاسلام في الممالك القاصية . لما يعهده فيه من سداد الرأى والشجاعة والتوفيق . فاكتفى بتعنيفه علما منه بانه ان أخطأ هذه المرة فالتعنيف كاف فى تنبيه مثله الى ان لايعود الى مثلها

ولا يخفى ما كان بعد ذلك لخالد من البلاء العظيم في جهاد الاعداء وما افتتحه من البلاد الواسعة في العراق والشام بحسن اختيار أبي بكر له وعفوه عنه فرضي الله تعالى عنهم أجمعين

ومن حسن سياسته استجلابه لمن توقف عن بيعته من بني هاشم وغيرهم وهم نفر قليل فيهم طلحة والزبير بلين القول والادلال بالحجة دون العنف واستعمال سلطة الخلافة وسلطان القوة وذلك لحرج الموقف الذي وقف

فيه المسلمون وقنذ واشرأبت الاعناق الى الخلاف . وتلظّي نار الردة . وترقب المنافقين لفرصة الاختلاف . وتربصهم الشر بالخلافة . وناهيك به موقفاً يحتاج الى الأناة والبصيرة . والصبر والعزيمة . وما زال به أبو بكر حتى بدّد غيومه . ومهد للسكون والسكينة طريقه . فوافته الأمور كما شاء . وانقضت خلافته على أحسن حال كما أحب . ومما قاله يومئذ وهو يدل على اخلاصه في القول والعمل وتوجه نيته الى درء الاخطار المحيطة بالخلافة والفتنة المهددة للمسلمين بتوليه الخلافة وقبوله لها وأخرجه الحاكم وصححه عن عبد الرحمن ابن عوف قال خطب أبو بكر فقال

(والله ما كنت حريصاً على الامارة يوماً ولا ليلةً قط . ولا كنت راغباً فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية . ولكني أشفقت من الفتنة ومالي في الامارة من راحة لقد قلدت أمراً عظيما مالي به من طاقة . ولا يد الا بتقوية الله) فقال عليّ والزبير ماغضبنا الاّ لانّا أخرنا عن المشورة وانّا نرى أبا بكر أحق الناس بها انه لصاحب الغار وانّا لنعرف شرفه وخيره ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حيّ اه

وناهيك بعظيم سياسته وثاقب رأيه وصاياه للقوّاد والامراء بالرفق بالأمم المغلوبة وتجنب كل مايثير بالمحارب ثائرة الاشجان ، أو يدعو الى مس جانب الانسانية أو يخدش وجه العمران . حتى كان من ذلك ان قام ميزان الشريعة بين الامم المغلوبة بالقسط ، وانتشر نور الاسلام على الارض . فأخذ عدله بمجامع قلوب الشعوب فانضووا الى لوائه ، وكانوا من أنصاره وأوليائه،

كان جند الاعاجم من الفرس والروم اذا وطئوا ارضاً أفسدوها .

واذا ظفروا بعدوّ مثلوا به واستباحوا حماه . فجاء جنـد الاسـلام يحمل الدعوة قبل الحرب في يد وأمان البلاد من امثـال تلك المنـكرات الحسيسة في يد أخرى . وكانوا اذا انتصروا على عـدوّ واستباحوا حمى ملك أو أمـير يحملون رؤوس البشر الى سدة ملوكهم كبشائر للنصر ، واعلانـ للفخر ، فرأى أمراء المسلمين في حرب الروم ان يعـاملوهم بنفس عملهم فبعث عمرو ابن العاص وشرحبيل بن حسنة برأس بنان أحد بطارقة الشام الى أبي بكر مع عقبة بن عامر فلما قدم به عليه أنكر ذلك عليه . فقال له عقبة . ياخليفة رسول الله فانهم يصنعون ذلك بنا قال . أفيستنّان بفارس والروم لايحمل اليّ رأس انما يكفى الـكتاب والخبر اه أخرجه البيهقي

اللهم ليست المدنيّة بالزخارف التي يتحلّى بها الغربيون الآن ومن ورائها الشهوات تهـدم مايبنون ، وتضع ممـا يرفعون ، تنزع بالقويّ اذا اسـتعلى على الضعيف منازع الظلم والجـبروت فلا يبالي أخيراً صنع أو شراً ، وعـدلا أتى أو ظلماً ، يحشرون الى الغارمثات من البشر ويسدون عليهم فوهتـه بالحطب يوقدون فيه النار ليميتوهم خنقاً بدخانه . ويروهم التمدن الجديد بسائر ألوانه . (١) أو يصفون الناس صفا ، وينسفونهم بقـذائف البارود نسفـا (٢) أو يجعلون المعابد مرابط للخيل والكلاب . ويحشرون الطائفة المسالمة للموت كما يحشر للمادة اللزجة الذباب . (٣) وانما المدنية ماسننت لعبـادك في

---

(١) هكذا صنع الفرنساويون بمسلمي الجزائر لما دوخوا بلادهم

(٢) هكذا صنع الانكليز لما استخضعوا ثوار الهند في ثورتهم الـكبيرة

(٣) هكذا صنع جنود الدول الاوربية هذه السنة في الصين وهكذا تصنع الدول الاوربية في كل حرب الا بعضها مع بعض فربما يرفق قليلا

كتابك ، وما فطرت عليه من الرحمة نفوس أوليائك ، الذين آمنوا بنبيك ، وعدلوا بين خلقك ، وتجافوا مضاجع الراحة في سبيل مرضاتك ، وأقاموا الميزان بالقسط لا يظلمون ولا يظلمون

أجل رفع الاسلام نفوس المسلمين عن أمثال تلك الخسائس التى كانت فاشية بين الامم وهذبها على الرأفة والعدل صدراً من خلافة الخلفاء الراشدين كان من ورائهم فيه حكمة أبي بكر ويقظة عمر تسدان على دنيء العادات الوثنية وخسيس السنن الرومية منافذ التسرب الى نفوس المسلمين ، وتقيمان في وجهها حواجز الدين الاسلامى المبين ، وما نشب ان امتد الفتح وكثر الاختلاط وامتزج الامم بحكم الوحدة الاسلامية روميها وعربيها وعجميها وتركيها حتى أعجز الخلفاء الامر ، وأرهق غاشيتهم من العلماء والمقربين الافتتان بحب الدنيا ، فتسامحوا طوعاً بحكم المخالطة ، أو كرهاً بحكم الغلبة ، ففسدت الفطرة ، وامتزجت الاخلاق بالاخلاق ، ومن ثم كان معظم المصائب التي حلت بالمسلمين متأتياً عن غلبة العادات الاعجمية ، وفقد التربية الاسلامية ، وليس هذا محل الاسهاب وربما نأتي بالمناسبة على شئ من ذلك في هذا الكتاب

اخرج البخاري عن قيس بن حازم قال دخل أبو بكر على امرأة من احمس يقال لها زينب . فرآها لا تتكلم . فقال مالها لا تتكلم . فقالوا حجت مصمتة قال لها : تكلمي فان هذا لا يحل هذا من عمل الجاهلية : فتكلمت فقالت من انت : قال امرؤ من المهاجرين ، قالت اي المهاجرين ، قال من قريش قالت ، من اي قريش ، قال انك لسؤل انا أبو بكر . قالت مابقاؤنا على هذا الامر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية . قال بقاؤكم

عليه ما استقامت أئمتكم . قالت وما الأئمة . قال أو ما كان لقومك رؤوس واشراف يأمرونهم فيطيعونهم . قالت بلى . قال فهم أولئك الناس

هذا هو الحق الذى أنطق الله به أبا بكر فحسبنا الله ونعم الوكيل وهو بحسن عافيتنا كفيل (ربنا اننا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل)

﴿ سياسته فى الرعية ﴾

كانت سياسته مع الرعية بشدة من غير عنف . ولين من غير ضعف . بطئ العقوبة غير متعجل فيها الا بقصاص واجب لهذا كان يأخذ على العمال ايغالهم في العقوبة ويأمرهم بالرفق والأناة

ذكر السيوطي ان المهاجر بن أبي أمية كان أميراً على اليمامة فرفع اليه امرأتان مغنيتان غنت احداهما بشتم النبي صلى الله عليه وسلم فقطع يدها ونزع ثنيتها وغنت الاخرى بهجاء المسلمين فعل بها مثل ذلك فكتب اليه أبو بكر رضى الله تعالى عنه

بلغنى الذي فعلت بالمرأة التي تغنت بشتم النبي صلى الله عليه وسلم فلولا ما سبقتني فيه لامرتك بقتلها لان حد الانبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد . فهو محارب غادر . وأما التي تغنت بهجاء المسلمين فان كانت ممن يدعى الاسلام فأدب وتعزير دون المثلة وان كانت ذمية فلعمرى لما صفحت عنه من الشرك أعظم ولو كنت تقدمت اليك في مثل هذا لبلغت مكروهاً . فاقبل الدعة واياك والمثلة في الناس فانها مأثم ومنفرة الا في قصاص اه

ومن سياسته في الرعية ان كان يحذرهم من الدخول في غمار الفتن التي تسفك فيها دماء المسلمين ويحملهم على التعفف عن المغانم والقناعة بالكفاف

في ابان الفتوح الذى تحولت فيه كنوز الروم وفارس الى المسلمين خشية ان تحيا فيهم ملكة الطمع فتنزع بهم منازع الظلم وتحرك بواعث الطلب من المزيد فيميلون الى الترف والنعيم اللذين يقعدان بهم عن متابعة الجهاد ويشغلانهم عن بث الدعوة بين العباد

أخرج أحمد في الزهد عن سليمان قال. أتيت أبا بكر فقلت اعهد الىّ فقال. يا سليمان اتق الله واعلم انه سيكون فتوح فلا أعرفنّ ما كان حظك منها ما جعلته في بطنك أو ألقيته على ظهرك واعلم انه من صلىّ الصلوات الخمس فانه يصبح فى ذمة الله ويمسي في ذمة الله تعالى فلا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله فتخفر الله في ذمته فيكبك الله في النار على وجهك

﴿ أدبه وتأديبه ﴾

اذا أطلق لفظ الادب فاحر به والله ان يطلق على الصحابة الكرام الذين تأدبوا بآداب النبي عليه الصلاة والسلام فكانوا خير أمة أخرجت للناس وأشرف قدوة في مكارم الاخلاق يقتدي بها المسلمون وناهيك بأبى بكر وصحبته لرسول الله من بدء عهد النبوّة الى آخره

﴿ أدبه مع رسول الله ﴾

أخرج ابن عساكر والامام احمد عن يزيد بن الاصم ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر أنا أكبر أو أنت قال انت أكبر وأكرم وأنا أسن منك[1]

وأخرج ابن أبى حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال لما نزلت (ولو انا كتبنا عليهم ان أقتلوا أنفسكم) الآية قال أبو بكر يارسول

(١) نقلت هذا الحديث في الطبعة الاولى دون ان ابين انه جاء في رواية اخرى عن العباس عم النبي (ص) وهو الاصح لان النبي أسن من أبى بكر وعمه العباس أسن منه

الله لو أمرتني ان اقتل نفسي لفعلت . فقال صدقت

وأخرج الامام احمد عن عائشة رضى الله عنها انها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر يقضى

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ أدبه مع نفسه ﴾

أخرج بن عساكر عن الاصمعى قال كان أبو بكر اذا مُدح قال اللهم أنت أعلم مني بنفسي منهم اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون واغفرلى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون

﴿ تأديبه لنفسه ﴾

أخرج احمد بسند حسن عن ربيعة الاسلمى رضى الله عنه قال : جرى بيني وبين أبي بكر كلام فقال لي كلمة كرهتها وندم فقال يا ربيعة رد عليّ مثلها حتى يكون قصاصا قلت لا أفعل . قال لتقولن أو لاستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت ما أنا بفاعل . فانطلق أبو بكر وجاء أناس من أسلم فقالوا لى رحم الله أبا بكر في أى شيء يستعدي عليك وهو الذى قال لك ما قال . فقلت أتدرون من هذا أبو بكر الصديق ؛ هذا ثانى اثنين وهذا ذو شيبة المسلمين اياكم لا يلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة وانطلق أبو بكر وتبعته وحدى حتي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه الحديث كما كان . فرفع الىّ رأسه فقال . يا ربيعة مالك والصديق فقلت يارسول الله كان كذا وكذا فقال لى كلمة كرهتها فقال لى قل كما قلت حتي يكون قصاصا

فأبيت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اجل لا تردّ عليه ولكن قل قد غفر الله لك يا أبا بكر اه

لله أي وجدان هـذا الوجدان وأيّ نفس تلك النفس • بادرة بدرت منها لمسلم فلم ترض الا اقتصاصه منهـا ، وصفحه عنها ، تناهيا بالفضيلة ، واستمساكا بالادب . وشعوراً تمكن من الجوانح وأخذ بمجامع القلب فكانت عنده زلة اللسان ولو صغيرة ألماً يتململ منه الضمير فلا يستريح الا بالاقتصاص منه ، ورضا ذلك المسلم عنـه ، فاللهم هبنا من عظيم رحمتـك اخلاقا تغلب على شهواتنا وتطهر من ادران الـكبرياء الباطلة قلوبنا لنرى مواطن الخطأ فنتجنبها ،وطرق الزلل فنتنكبها ، فتبعد عن ظلمات الرذائل خطانا . وتمـكن فضائل السلف الصالح من نفوسنا ، فتمكن لنا في الارض سلطان عزنا ، ونجعل الى ملأك الاعلى مصيرنا ، انك سميع الدعاء

﴿ تأديبه للمسلمين ﴾

كان رضى الله تعالى عنه يتلطف بان يحمل الناس على طريقته . ويؤدبهم بأدب نفسه . مع ما كان عليه المسلمون يومئذ من سلامة الفطرة . وطهارة الاخلاق . والتمسك بآداب الشرع . مبالغة في النصيحة لهم . وحناناً عليهم . وقياماً مقام الوالد الرؤف بينهم

أخرج أبو عبيد في الغريب عن أبي بكر أنه مرّ بعبد الرحمن بن عوف وهو يماظ (أى ينازع) جاراً له . فقال له لا تماظ جارك فانه يبقى ويذهب عنك الناس

وخطب الناس يوما خطبة قال فيها : ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد ضل ضلالا مبينا ، أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمر الله

الذي شرع لكم وهداكم به فان جوامع هدى الاسلام بعد كلمة الاخلاص. السمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم فان من يطع الله وأولي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أفلح وادى الذي عليه من الحق . وإياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حفظ من الهوى والطمع والغضب . واياكم والفخر وما فخر من خلق من تراب ثم الى التراب يعود ثم يأكله الدود ثم هو اليوم حي وغدا ميت

وستأتي هذه الخطبة برمتها في فصل الخطب وكثير امثالها مما تلين له قلوب الجماد ، وتسترشد به الى الفضيلة عقول ذوي العناد ، وتوضح للمؤمنين سبل الهدى والرشاد ،

﴿ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم ﴾

أخرج الامام احمد في الزهد عن ميمون بن مهران قال جاء رجل الى أبي بكر فقال السلام عليك ياخليفة رسول الله . قال من بين هؤلاء اجمعين (يشير الى من كان معه من الصحابة ادباً معهم وتأديباً للقائل)

وأخرج ابن عساكر عن أنيسة قالت نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين قبل ان يستخلف وسنة بعد ما استخلف فكان جوارى الحي يأتينه بغنمهن فيحلبهن لهن

واخرج ابن عساكر ايضاً عن أبي صالح الغفارى ان عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزاً فكان اذا جاءها وجد غيره قد سبقه اليها فأصلح ما أرادت فجاءها غير مرة كيلا يسبق اليها فرصده عمر فاذا هو بأبي بكر الذي يأتيها وهو يومئذ خليفة فقال عمر انت هو لعمري

هكذا التسابق الى الفضيلة والتسارع الى الخيرات وهذا منتهى الرأفة

وغاية الغايات من التواضع وحق لأمة هكذا يكون رؤساؤها ، وبهذه الاخلاق يتخلق ساداتها ، ان تمتلك رقاب البشر ، وتسود على البدو والحضر ، وان ديناً هذا تأثيره في الاخلاق وتهذيبه للفطرة لدين الحق الذي لو تمسك اهله بهديه ، واهتدوا في ظلمات الحياة بنوره ، لكانوا الى هذا العهد أسعد الامم حالا ، وأعلى الناس كعباً ، ولكنهم فرطوا والمفرط بالخسارة اولى ، وبالندامة احرى ، (ولا يظلم ربك احداً)

وحسب أبي بكر من الادب والتواضع قوله في خطبته يوم السقيفة يخاطب المسلمين كبيرهم والصغير وعظيمهم والحقير وغنيهم والفقير (قد وليت عليكم ولست بخيركم فان احسنت فاعينوني وان اسأت فقوّموني)

يقول ابو بكر لهذا الجمع لست بخيركم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنّ من أمنّ الناس عليّ في صحبته وماله ابو بكر [1] ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت ابا بكر خليلا ولكن اخوّة الاسلام) اواه كيف لا يكون أبو بكر بعد هذا الحديث خير المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبرّهم بالنبي وأقربهم اليه وأقدمهم صحبة له وانما هو الادب النبويّ الذي تأدبت به نفسه والتواضع الذي اشرب به قلبه لا ينفكان عن مثله ، ولا يحطان من جلالة قدره ، بل يعليان مكانته في النفوس ، ويحببان

---

(١) قال في مشكاة المصابيح قوله أبو بكر هكذا بالرفع في صحيح مسلم وعند البخاري بالنصب وهو الظاهر ووجه الرفع بان تكون (من) زائده على مذهب الاخفش وقيل (ان) بمعنى نعم فيكون ابو بكر مبتدأ ومن امنّ الناس خبره وقيل اسم ان ضمير الشأن وهو نادر مع ان المكسورة كما عرف في النحو والاوجه ماذكره بعضهم انه محكي على ماهو عليه وقد ثبت من قول أمير المؤمنين عليّ فيما اقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم تميماً الداري (شهد به ابو بكر بن ابو قحافة) الخ

به القلوب ، ويمهدان لرعيته طرق الطاعة لامره ، والخضوع له ، والالتفاف حوله ، والعمل باشارته ، والذب عن حوزته .

أين هذا ممن اتخذوا بعدُ اسم الخلافة سلاحاً يضربون به وجوه المسلمين ويمزقون احشاء الاسلام ولم يرضوا لأنفسهم من سمات الخلافة التي ابتدعوها الترفع عن مخاطبة الناس والتحجب وراء الستور والاعتلاء على منصات العظمة والكبرياء حتى انتزعوا لأنفسهم من صفات الالوهية ألقاباً ،واتخذوا من لباس الاعجمية جلباباً ، وركبوا من متن الغرور مراكب صعاباً ، فحكموا الناس بالظلم والاستبداد ، وساقوهم بعصا الاستعباد ، ففرقوا عنهم القلوب وشتتوا كلمة المسلمين فاندفعوا من قرون طويلة فى غمار الفتن وشغلوا عن أمر دنياهم بأمر أولئك الجبابرة العتاة بين خارج عليهم ، ومقاتل معهم ، ومنابذ لهم ، يأخذ بأسباب الحيطة لنفسه ، ومظاهر لهم شغلوه في خدمة شهواتهم عن النظر الى يومه وأمسه ، فخمدت من جراء ذلك جذوة العقول ، وفترت القوى ، وانحطت الاخلاق وفقد العلم ، وبارت الصنائع

ومن وراء هذا كله الكذابون والوضاعون يستدرجون أولئك الجبابرة بالطغيان ويتزلفون اليهم بوضع الحديث ليدوسوا بأقدامهم على رقاب الأمة ، ويبددوا نظام الاسلام ، حتى لقد اجترأ أحدهم على أبي جعفر المنصور على قرب عهده بالتابعين وعلمه بالحديث وبعد غوره في الدين فذكر له حديثاً وضعه يطريه فيه فانكره عليه وطرده من حضرته

لهذا لم يزل فريق من الناس ينسب اسباب تقهقر المسلمين الى الدين والدين يبرأ الى الله من كل مايخالف سيرة الصحابة ، ويصادم قوانين الترقي ، كالعلم والحرية والعدل وانما هى نزعات قامت في النفوس تذرع بها اربابها

الى الصاق كل شيء بالدين ليحاربوا باسمه كل شيء خالف أهواءهم ، ونابذ أغراضهم ، ومن لنا بمؤرخ صادق اللهجة شديد العارضة عظيم الاطلاع غير هيَّاب من اعداء الحق ولا راغب في غير الثواب من الله والشكر من الناس يضع لنا تاريخاً يستقصي به اخبار الماضي ويتتبع مظان العلل فيكشف عن بصائر هذه الامة الغطاء ، ويزيل عن ابصارهم الغشاء، فقد والله سئمت نفوسنا من سرد تاريخ الأمة الاسلامية كما يسرد المنشد قصيداً اختلط غثه بثمينه ، وضعيفه بمتينه، ونحن مع ذلك لاهون بالسفاسف ولعون بما ابتدعه لنا المبتدعون من وسائل الرضا بالحرمان من العلم ، والسكوت على أذى هذا الظلم ، ولله في خلقه شؤون

﴿ زهده وورعه ﴾

أعتادت اسماعنا وألفت اذهاننا من معنى الزهد بما ابتدعه لنا المبتدعة ووضعه الوضاعون انه عبارة عن ترك الدنيا والانزواء في زوايا البطالة والكسل ليكون الزاهد عالة على سواه ، مترقباً للرزق ممن عداه ، وهو بهتان على الزهد وعكس لمعناه اذ الزهد في الحقيقة هو التعفف عما بأيدي الناس والقناعة بالكفاف عن الفضول والتماس الحلال من طريق العمل دون الاعتماد على كفاية الاغيار كما سترى ذلك مبسوطا في غير هذا المحل

ومذهب الصحابة فى الزهد هو العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف وليس منهم الاّ من كانت له وسيلة للارتزاق من الحلال هذا مع الرضا بالقناعة وعدم الطموح الى الفضول تهذيباً لنفوسهم واقتداء بنبيهم صلى الله عليه وسلم وذلك هو زهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه

مما يروي عن زهده وعفته ورضاه بالكفاف من العيش أنّ زوجته

اشتهت حلواً فقال ليس لنا ما نشترى به . فقالت انا استفضل من نفقتنا فى عدة أيام ما نشترى به . قال افعلى ففعلت ذلك فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير فلما عرفته ذلك ليشترى به حلواً أخذه فرده الى بيت المال . وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له

وروى انه لما ولى الخلافة رأى ان يستمر على استغلال ملكه والارتزاق من وراء عمل يده ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً فأصبح يوماً وعلى ساعده ابراد وهو ذاهب الى السوق فلقيه عمر فقال أين تريد . قال الى السوق . قال اتصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين . قال فمن أين أطعم عيالي. فقال انطلق يفرض لك أبو عبيدة . فانطلقا الى أبي عبيدة فقال افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم وكسوة الشتاء والصيف اذا اخلقت شيئاً رددته واخذت غيره . ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن : اخرجه ابن سعد عن عطاء بن السائب

وأخرج ابن سعد عن ميمون قال لما استخلف أبو بكر جعلوا له الفين فقال زيدوني فانّ لي عيالاً وقد شغلتموني عن التجارة فزادوه خمسمائة

ومما يدل على شدة ورعه وانه انما قبل فرض العطاء له اضطراراً لاشتغاله بأمر المسلمين عن التجارة ما اخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت لما استخلف أبو بكر. قال لقد علم قومى ان حرفتى لم تكن تعجز عن مؤنة اهلى وشغلت بأمر المسلمين فسيأ كل آل أبى بكر من هذا المال ويحترف للمسلمين

وروي عن عائشة أم المؤمنين انها دخلت على أبيها في مرضه الذى توفى فيه وطلبت اليه ان يعهد بالامر وهى حزينة كئيبة فرفع رأسه وقال . يا أمه

هذا يوم يجلى لي عن غطائى واشاهد جزائى ان فرحا فدائم . وان ترحا [1] فمقيم . اني اطعت امانة هؤلاء القوم [2] حين كان النكوص اضاعة . والخذل تفريطاً . فشهيدى الله ما كان يقيلنى اياه فتعلقت [3] بصحفتهم وتعللت بدرة لقحتهم فاقمت صلاتى [4] معهم لا مختالا اشراً . ولا متكاثراً بطراً . لم اعد سدّ الجوعة وورى العورة . وقواتة القوام . حاضرى الله من طوى ممعض تهفو منه الاحشاء . وتجب له المعى . [5] فاضطررت الى ذلك اضطرار المريض الى المعيف الآجن . [6] فاذا أنامت فردى اليهم صحفتهم . وعبدهم ولقحتهم . ورحاهم ودثارة ما فوقي اتقيت بها اذى البرد ودثارة ما تحتى اتقيت بها نز الارض كان حشوها قطع السعف المشع

يترك هذا الخليفة العظيم تجارته ويتخلى عن ذرائع كسبه اشتغالا عنها بأمور المسلمين وقياما بوظائف الخلافة فيضطر الى اخذ نفقته من بيت المال بما لا يزيد عن الحاجة الى سد الجوع وستر العورة ثم هو يؤدي للمسلمين خدمة هيهات ان تؤدى حقها الخزائن ويقابلها الشكر ، ولما يقضي واجبه ويشرف على يومه ، ويرى عنده فضلة من مال المسلمين وهي ذلك المتاع الحقير . يأمر بردها الى المسلمين ليلاقي ربه آمناً مطمئناً ، نزيه القلب ، طاهر النفس خفيف الحمل الاّ من التقوى ، فارغ اليدين الاّ من الايمان ، انّ فى هذا لبلاغاً وانها لموعظة لقوم يعقلون

فالهم ان هذه التقوى وهذا الزهد وان كان أليق بمثل أبي بكر وألصق

---

(١) وفي نسخة ان فرح فدائم وان ترح فمقيم (٢) وفي النثر المختار اني اطلعت بامامة هؤلاء القوم (٣) في النثر تبلغت (٤) وفي النثر فاقمت صلاتى معهم في ادامتهم (٥) وفي العقد ويجف له الامعاء (٦) وفي النثر اضطرار البرض الى المعتب الآجن

بمن أدرك عهد النبوّة وأجدر بالخلفاء المهديين الراشدين الآن فيهما عظة لو تذكرها بعدُ خلفاء المسلمين وادّرعوا منها جلباباً ليس بالصفيق فيثقل عليهم حمله . ولا بالرقيق فيتكشف عن ضمائرهم مادونه . لما زجّت بهم نزعات النفوس في ظلمات المراسم الاعجمية (المنتزعة من محض الوثنية التي هدمها وكل توابعها الاسلام ونعى على أهلها عوائدهم الخسيسة القرآن) فتركتهم مثلا فى الجبارين حاشا افراداً منهم اختاروا لأنفسهم الاعتدال دثاراً ، والتقوى شعاراً ، فألحقوا بالراشدين وتركوا أحسن الذكر في تاريخ المسلمين

وهيهات لتلك النفوس الهائمة في فضاء الحياة الفانية أن ترضى لنفسها من هذا المتاع الدنيوى ما رضيه لنفسه أبو بكر . وأني للمؤرخ الناقد ان يتتبع منافذ القضاء التي أرسلت علينا من شواظ الوثنية الغابرة شرراً ما زال يعظم ويشتد حتى أعاد لنا سيرتها الأولى ، وأتى على الخضراء واليابسة ، ومعظم النار من مستصغر الشرر .

﴿ جمعه القرآن ﴾

من مناقب أبى بكر العظيمة ومآثره الكبيرة جمعه القرآن . ولا يعلم قدر فضله بهذا العمل الجليل الا من عانى أمر الحديث وعرف مقدار ما اجترأ فيه على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة القصاص والوضاعين الذين شوّشوا على الأمة في الدين والسياسة والاخلاق تشويشاً الله أعلم بما جرّ على الأمة من البلاء ولو لم ينهض ائمة الحديث وحفاظه من أواخر القرن الثانى وما بعده الى تلافي هذا الخطب وتتبع الاسانيد الصحيحة وترتيب درجات الحديث وتفريق الموضوع عن الصحيح لكان الخطب أعظم . والمصيبة أشد. أما القرآن فلله الحمد والمنة على انه سبحانه تكفل بحفظه فقال تعالى فيه

(انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم) لهذا ألهم الله أبا بكر وعمر ما ألهم من النهوض الى جمعه من صدور القراء وبعض الصحف فجمع وكتب بين الدفتين دون أن يلحق حرفاً واحداً منه تغيير أو تبديل. وأما سبب جمعه فيظهر مما يلي

أخرج البخارى عن زيد بن ثابت قال (أرسل الىّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر انّ عمر أتانى فقال ان القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس وانى لاخشى ان يستحرّ القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن الا ان يجمعوه واني لأرى ان يجمع القرآن قال أبو بكر . فقلت لعمر كيف افعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر هو والله خير .فلم يزل عمر يراجعنى فيه حتى شرح الله لذلك صدري فرأيت الذى رأى عمر. قال زيد وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر انك شاب عاقل ولا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفنى نقل جبل ما كان أثقل علىّ مما كلفنى به من جمع القرآن . فقلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم . فقال أبو بكر هو والله خير فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والاكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من انفسكم) الى آخرها فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضى الله عنها)

﴿ قضاؤه ﴾

أخرج البغوي عن ميمون بن مهران قال كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فان وجد فيه مايقضي بينهم قضى به وان لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الامر سنة قضى به فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال أتانى كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قضى فى ذلك بقضاء؟ فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء . فيقول أبو بكر الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا . فان أعياه ان يجد فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤس الناس وخيارهم فاستشارهم فان أجمع رأيهم على أمر قضى به . وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك فان أعياه ان يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء؟ فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به والاّ دعا رؤس المسلمين فاذا اجتمعوا على أمر قضى به

﴿ مطلب ﴾

﴿ كلام على القضاء فى الاسلام ﴾

لا يخفى على من له المام بأصول الشريعة ان الاحكام القرآنية التي كانت تنزل بازاء الحوادث والسنة النبوية التي ورد فيها حكم قضى به الرسول صلى الله عليه وسلم انما هي أصول عامة أو كليات ليس من شأنها الاحاطة بجزئيات الحوادث التي تتجدد في كل وقت ومكان لهذا لمّا أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً الى اليمن قال له بماذا تحكم . قال بكتاب الله . قال فان لم تجد.

قال بسنة رسول الله . قال فان لم تجد . قال اجتهد برأيي وفي رواية اجتهد رأيي . فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لما يرضى به رسوله

وانت ترى من هذا ان لأبي بكر رضى الله عنه ان يجتهد برأيه في الحوادث التي لا يكون بازائها نص صريح في الكتاب ولا سنة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم ومع هذا فهو على بصيرته في الدين وعلمه وتقواه وعدله كان يرى ان لا ينفرد بحكم في نازلة ولا يقضى قضاء ليس بازائه نص صريح الا برأي جماعة من الصحابة مبالغةً في الاحتياط ودفعاً لشبه الضمائر وقد تابعه على هذا عمر رضى الله عنه وحذا حذوه فيه . واذا علمت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر) [1] اتضح لك من جميع ماقدمناه ان هناك أموراً لا ينبغي في هذا الكتاب السكوت عليها وعدم الالمام باطرافها

ان الاجتهاد بمعناه اللغوي هو بذل الجهد وقول معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهد برأيي ظاهر معناه انه يحكم بما يراه بعد بذل الجهد في تمحيص الرأي وتحري الحق واستشارة أهل الرأي وليس هناك قرينة أو شيء آخر يدل على ان معاذاً أراد بقوله اجتهد برأيي معنى غير ماذكرناه [2] وقد رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ورخص به لمعاذ لان الله سبحانه وتعالى جعل الاسلام دين اليسر لادين العسر فقال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ورسول الله صلى الله عليه وسلم انما رخص لمعاذ بالاجتهاد كي لاتتعطل مصالح المسلمين ولا يكون عليهم حرج في الدين

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه (٢) أي ما اصطلح عليه الاصوليون

ومن البديهي ان هـذا الترخيص تشريع للاجتهاد الذي هو ادارة الاحكام على المصلحة على تمادي الزمان . وأولى من تحرى مصلحة المسلمين وحكم بالحق أبو بكر رضى الله تعالى عنـه ومع هـذا ومع مارُخّص له به من الاجتهاد فانه رأى ورأيه الحق ان لا ينفرد برأيه في الاحكام ولا يقضي بقضاء مبني على الرأي الا باستشارة جمع من الصحابة واجماعهم على ذلك الرأى تمحيصاً للحق وتحريا للصواب وأخذاً بالاصلح والاحوط

اذن ينتج معنا من هذه المقدمات أمور هي من الاهمية بمكان (منها) مشروعية الترخيص بالاجتهـاد عنـد الحاجة أي عند عـدم وجود النص (ومنها) ان الاجتهاد بمعناه اللغوي دائر مع المصلحة والحق.مرخص لوضع الاحكام بازاء الحوادث التي لا يقابلها نص من الكتاب والسنة (ومنها) ان أبا بكر سن سنة الشورى وعدم الانفراد سواء بالرأي بوضع لحكم أو بالقضاء فيه وتابعه على ذلك عمر رضي الله عنهما وهما أولى من يستن بسنتهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقتدى بهما للحديث السابق

اذا تقرر هذا علمنا ان المسلمين بمـا دخل على نظامهم الاجتماعى من الوهن وما تخلل حكوماتهم من فساد النظام انمـا أتوا من قبل أنفسهم لا من قبل الدين كما يفتريه أعداؤه أو يقول به فريق من سوائم البشر الذين هاموا بمظاهر التمدن كما تهيم السائمة في منابت الكلأ فتجترّ من هنا تارة وهناك أخرى بلا نظام ولا ترتيب . اذ الدين لم يحص كل ما تحتاج اليـه المجتمعات الاسلامية من الاحكام الجزئية في المعاملات ولم يقيد الأمة بقيود الحصر بما جاء فيه من كليات الاحكام دون التوسع فيما يقتضي لها من الجزئيات

أجـل قد أصيب القضاء في الاسـلام بآفات عظيمة أثرت كثيراً في

الحالة الاجتماعية عند المسلمين ولكن ماذنب الاسلام وهو دين اليسر الذى دفع عن الأمة الحرج ونبهها الى وجوب التوسع في القضاء بتوسع الحاجات و بما لا ينافي قاعدة الحق والعدل التي تدور عليها مصلحة المسلمين وقد عمل بهذا الخلفاء الراشدون مدة خلافتهم التي كانت الأمة فيها على حال من سذاجة الفطرة وجدة الدين وصفاء القلوب تكاد تجعل التخاصم بين الناس في حكم المفقود لقيام الزواجر النفسية مقام الوازع بالشرع الرادع بالتأديب من جهة ولانحصار المعاملات فى دائرة لم تتعدّ طور السذاجة المذكورة من جهة أخرى . ثم أعقب ذلك فترة اشتغل بها الناس بالجهاد وتوسعوا بالفتح وخالطوا الامم فطرأ بعد ذلك انقلاب في السياسة والملك وتغيير عظيم في أصول المعيشة تشعبت فيه طرق الاعمال وتوسعت أحوال المعاملات والقضاء في غضون ذلك لم يتعدّ طوره الأول الأ بانتقاله من أيدى الخلفاء الى أيدى أشخاص آخرين هيهات لأخْيَرِ خيّريهم ان يبلغوا عشر معشار الخلفاء من العلم بالشريعة والاخذ بأسباب الحزم والمصلحة وانتهاج منهج العفة والعدل فكان ينتهى اليهم فصل الخصومات فيفصلون بها على قدر مبلغهم من العلم ومكانتهم من عفة النفس ونزاهة الضمير بلا سيطرة عليهم ممن هو أرفع منهم أو قيد بنظام خاص يلزمهم جادة الانصاف ويضطرهم الى تنكب طرق الخطأ أو الجور الا ما جاء من ذلك في كتاب الله من أمر بالعدل ونهى عن الظلم وتحذير من اتباع الهوى وانما يستصلح بالتحذير والزواجر نفس تطهرت بأصل الفطرة من شوائب الهوى ونشأت على سذاجة الفطرة وأولئك هم المسلمون الاولون . وأما من انغمسوا بعد ذلك بحمأ الحضارة وافتتنوا بزخارف العالم الفاني فانهم الى سيطرة السلطان أحوج منهم الى التذكير بالقرآن لهذا جاء

في بعض الآثار (ان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) ولا بد دائما من قوة تصاحب الشرائع فتقيم شعائرها وتنفذ أوامرها والى هذا وردت الاشارة في كتابه الكريم (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس)والاسلام بما جاء به من وجوب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر جعل الناس رقباء على أولى السلطة كما جعل هؤلاء مسيطرين على اقامة احكام الشرع فقط ولكن غفلة الناس واهواء الحكام أضاعا مزايا الاسلام وتركا الامة منقادة لجور الرؤساء محكومة بالاهواء . لا تعرف لها حقاً قبل رؤسائها ولا تفتأ تعتمد في تدبير كل شؤونها على قادتها

قام في غضون ذلك من التابعين جماعة نشطوا لجمع السنة في السطور بعد اذ كانت في الصدور ضبطاً لقواعد الشريعة وتقييداً للاهواء ثم تلاهم الائمة والفقهاء الذين وجدوا القرآن مجموعا يسراً والاحاديث قد أحرزت فضبطت فتفقهوا في القرآن والحديث ثم اشتغلوا بالاستنباط والتفريع فوضعوا علم الفروع الذى يشتمل على قسمى العبادات والمعاملات ونعمة الخدمة خدموا بها الاسلام وضبطوا بها أمور القضاء بما وصل اليه اجتهادهم لو لم يزعم من جاء بعدهم من فقهاء كل مذهب انهم تركوا الامور على أكمل الحالات ولم يبق للناس الا ان يحفظوا ما استنبطوه ويعلموا ما بينوه

أجل ان الامر كذلك في قسم العبادات والاعتقادات لانه ليس مبنيا على شيء من الرأى وانما هو أصول ثابتة فى الكتاب والسنة توسعوا في بيانها وتوضيحها وأما في قسم المعاملات فليس الامر كذلك الا من بعض الوجوه بدليل ما كان بينهم من الاختلاف الكثير في المسئلة الواحدة ومنشأوه اجتهاد كل

فرد منهم برأيه في طريقة الوضع والقياس والاستنباط ولو ألهم الله القوم ما ألهم أبا بكر وعمر من عدم الانفراد بالرأي فيما لا يكون بازائه نص صريح من الكتاب أو السنة وأجمع أهل الرأى والعلم منهم على جعل علم الفروع قائما بالتكافل خاليا من شوائب الظنون والاختلاف دائراً مع المصلحة التي تناسب كل عصر ولم يأتِ بعدهم من ينزل أقوالهم منزلة الكتاب العزيز من حيث لزوم الاكتفاء بها وعدم الحيد عنها أو النظر فيما يصلح او ما لا يصلح لكل زمان منها لما عرا نظام القضاء فى الاسلام ما عراه من الخلل والنقص وتلاعب الاهواء

ان لنظام القضاء أثراً عظيما فى ترقي الأمم وتدنيها اذ متى انحرفت حكومة من الحكومات عن طريق العدل وحاولت حكم الأمة بالجور والاستبداد فانها أول ما تتكئ فعلى القضاء فان كان نظام القضاء قويا ثابتاً منعها من الجور وصدها عن سبيل الهوى فحفظ على الناس ارواحهم واموالهم وحقوقهم والعكس بالعكس

ومعاذ الله ان نريد بهذا القول رمي الائمة بالتقصير في جانب الحاجة الاجتماعية الى التوسع في الاحكام بتوسع طرق المعاملات فان هذا فوق طوق الآحاد أو نبخسهم حقهم من الاحترام وهم لعمر الله أولى من يحترم عملهم ويشكر صنيعهم بما خدموا به الشريعة وما عانوه من استنباط الاحكام وتدوينها تسهيلا لتناول الاحكام ودفعا لفوضى الرأى حتى انّا لنفاخر غيرنا بما بلغوه من بعيد الشأو وقصىّ الغاية في تتبع احكام المعاملات المدنيه أو فن الحقوق وانما هناك أمور ربما فاتهم النظر اليها اعتماداً منهم على قرب عهد الناس بالاسلام وتمكن التقوى والعدل من النفوس ولم يصلوا الى مكان النظر في الغيب

ليروا ماذا يحدث من الاقضية بعدُ للمسلمين والى أية درجة تنتهي اليه الاخلاق وتتبدل العوائد وقد فسحت تلك الامور لقادة الأمة مجال العبث بالشريعة ومهدت للحكام سبيل الهوى فكانوا في كثير من العصور الاسلامية آفة الامن وسم الاجتماع الا من عصم ربك وهؤلاء لا يبنى عليهم حكم

وأما تلك الامور فهي أولا كثرة الاختلاف بين المخرجين والمرجحين حتى على المسئله الواحدة مما جعل علم الحقوق أشبه برموز لا يتيسر لاحد من الناس ان يتناول منه حكما جازماً الا بواسطة الفقهاء والمفتين وقليل من الناس المعصوم عن الخطأ أو الغرض فيحلل أحدهم من طريق أحد المرجحين مايحرمه الآخر من طريق غيره (١) هذا بين علماء المذهب الواحد فما بالك بتعدد المذاهب أيضاً

ثانياً أحكام العقوبات التي لم يرد فيها نص صريح في الكتاب أو السنة كالضرب والتعذير والحبس ووضع لها الائمة والعلماء أحكاما من طريق الرأي أو الاستنباط لم تعين فيها درجات الجرائم على وجه يمنع من تحكم هوى النفوس. وتوزع الاختصاص بالحكم فيها وتنفيذها بين الولاة والقضاة والمحتسبين فكان من ذلك ان تذرع بها الحكام الظالمون للتطاول على أموال الناس وحقوقهم وسلب الراحة والامان من بين ظهرانيهم لاسيما بعد مبالغة الخلفاء بالتحجب وترفعهم عن النظر في المظالم وانزولهم فى زوايا القصور عن انظار الناس

والظلم على ذلك الوجه اذا طال في أمة دمرها وأفسد أخلاقها وأوهن قوتها فتألف المداهنة والنفاق وتذل نفوسها لأولى السيطرة وتمنع ثروتها

(١) راجع حاشية الدر المختار لابن عابدين وانت ترى فيها ما كتبه بشأن المفتين في عصره وكيف توسعوا بالافتاء الى ان أضاعوا الحقوق وبالخاصة حقوق الاوقاف

من الظهور خوف المصادرة فتبور عندها التجارة والصناعة وتقف حركة الاعمال وناهيك بها من آفات تنخر جسم العمران وتهدم من التمدن شوامخ البنيان وقد كاد الظلم على ذلك الوجه يتأصل لقدمه في الامة حتى قال ابن خلدون عن مداهنة الحكام في عصره انها لازم من لوازم الأمن على الانفس والاموال لا حرج فيها على المداهنين . وما أقبحها من حال آلت بالامة الاسلامية الى هذا المآل

ثالثاً تبادل المسئولية [1] بين طبقات العمال وتعيين اختصاص كل فرد منهم بوظيفة خاصة لا يتعداها وقد وضع لها الأئمة والعلماء كتبا خاصة كالاحكام السلطانية وآداب القضاة والمفتين وأشباهها الا انها اشوبها بآفة الخلاف وخلوها عن تعيين العقوبات التي تقع على المخالفين تعيينا باتا صريحا كادت تكون بحكم المعدوم وان وجد شيء منها فليس وراءه من قوة التنفيذ مايقف بكل عامل عند حده وعلة ذلك عدم تحديد المسئولية في تلك الكتب وارتباط العمال بها ارتباطاً يشبه السلسلة المتصلة الحلقات بحيث تكون السيطرة عامة من الكبير على الصغير ومن هذا على الادنى وأنى يتيسر وجود هذه المسئولية لو فرض بيانها في كتب الفروع ما دام لا رأي للأمة في التشريع ولا لأولياء الامر ارتباط بقانون بل هم قادة الأمة الذين ترك المسلمون اعتمادهم عليهم وركنوا بكل شؤونهم اليهم فما راق لديهم من أقوال الفقهاء عملوا به وما لم يرقهم نبذوه وعاملوا الامة معاملة السائمة كما تشاء الاهواء وكم جرّت هذه الفوضى بنظام القضاء من البلاء على الناس وصبت عليهم من المصائب ما لا يتحمله الجماد وليس العهد بها في المملكة العثمانية ببعيد فانا ان لم ندرك شيئاً منها فقد ادرك آباؤنا وأخبرونا بمبلغ ما وصل اليه لذلك العهد انحلال نظام الاختصاص

---

(١) المراد بالمسؤلية هنا على اصطلاح كتاب العصر التبعة

وفقد المسؤلية حتى كان ليأمر بحبس المدين (مأمور الطابو [1]) قبل وضع القانون المعمول به الآن لرجاء من الدائن ومثل هذا وأشد لم يزل حاصلاً في بعض الممالك الاسلامية الى الآن كمملكة مراكش التي يموت بسجنها السجين دون ان يعلم بسبب سجنه أو موته السجان أو يأخذ خبره أحد من الحكام الا من أمر بحبسه لمال يريد ابتزازه منه أو لمجرد التشفي والانتقام وهذا من التناهي في الظلم الناشئ عن تشويش نظام القضاء والعياذ بالله

وتالله ان الاسلام ليبرأ الى الله من التصاق أمثال هذه المخازي بالمسلمين وهو انما شرع الاجتهاد في المسائل التي لا يكون بازائها نص صريح دراً لامثال هذه المفاسد وتلافياً لكل ما عساه يحدث للأمة من الاقضية التي لم تحدث في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا لما كان يعرض على أبي بكر أو من بعده من الخلفاء الراشدين قضية من هذا القبيل يحكمون فيها برأيهم ورأي المسلمين بعد تتبع الكتاب والسنة كما رأيت وهكذا أئمة المذاهب انما الجأهم الى الاجتهاد فى مسائل الفروع والتوسع فى وضع الاحكام توسع الامة بالفتح وتبسطها في مناحي الحضارة وتوفر أسباب التعامل وتنوع طرق التحيل بين الناس

---

(١) هذه وظيفة قديمة فى الدولة وهي خاصة بكتابة صكوك الفراغ والانتقال فى الاراضي الاميرية عملا بقانون الاراضي الذي وضعه السلطان سليمان وقسم به أراضي المملكة الى قسمين خراجية وعشورية وجعل حق التوريث فى الاراضي الخراجية عائداً لنصوص القانون وحق بيعها للحكومة وقد توسعت الدولة فيه الآن حتى جعلت كل الاراضي والمسقفات داخلة تحت معاملات قانون الطابو حتى عدمت حرية التملك والتمليك في المملكة العثمانية وأصبحت الاعيان جميعها ملكا للدولة كما هي مالكة للرقاب أيضا وهو شأن غريب من شؤون الحكومات المطلقة كما سترى تفصيله بعد

ولا جرم ان سنة الترقي والتدريج تقضي بتوفر تلك الاسباب وتعدد تلك الطرق ومن المصلحة الصالحة ان يدور الاجتهاد مع هذه السنة تلافياً لكل ما يحدث للناس من الاقضية وتقييداً للحكام بالقانون ولو استمر ذلك الى الآن لما طرأ على المسلمين ما طرأ من التقهقر الناشئ عن التضييق فى نظام القضاء ولبلغت قوانينهم الشرعية الى هذا العهد مبلغاً من الترقي يدرأ عنهم كل آفات الظلم التي نخرت عظامهم وزعزعت أركان مجتمعهم ولكن ما الحيلة وقد حتم الفقهاء منذ أجيال طويلة بسد باب الاجتهاد لا لعلة سوى ان هذا القول وافق هوى من نفوس الامراء الذين تعاكس قاعدة الاجتهاد مقاصدهم فأعانوا الفقهاء على قولهم . ودعموا بالقوة والجبروت دعواهم اذ الاجتهاد مبني على المصلحة والمصلحة كانت تقضي بسد كل ثلمة يتسرب منها جور الرؤساء الى الأمة وفي هذا غل لأيديهم عن الاستبداد ، وصد لاهوائهم عن التصرف بنفوس العباد ، وهكذا انطوى الثوب على غرّه ، ومضى الامر لهذا العهد على وجهه . حتى بلغت بنا الحال الآن الى العمل بالقوانين الوضعية التي تتمتع الأمم بها بالسعادة الدنيوية وأمامنا الشرع رحب الجناب وسيع الباب يصدنا عنه الفقهاء ويقتلنا دونه الرؤساء فاللهم ارزقنا من فضلك فرجاً، واجعل لنا من هذا الضيق مخرجا ، انك مجيب الدعاء

ربما يتبادر الى الذهن انّا نريد بهذه المقدمة فتح باب الاجتهاد لاهل الرأي يلجه منهم من شاء في أي وقت شاء ليتلافوا حاجة القضاء فى كل عصر ، ويطلقوا عنان النظر والبحث في هذا الأمر ، ومعاذ الله ان يخطر لنا مثل هذا فى بال ومن قبله جاء الأمة مصاب الاختلاف ، وتشوش نظام القضاء فاصبحت الاحكام عرضة لآفات الخلاف ، وانما الذي نراه حاسما للعلة وافيا بالحاجة واقيا

من التمادي في فوضى التفريع هو الاستنان بسنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الاجتهاد بالمسائل التي لا يكون بازلها نص صريح في الكتاب أو السنة ذلك بان لا يتحكم فيها رأي فرد واحد ربما يخالفه فيه الآخر وهكذا الى ما شاء الله فتحكم الأمة الواحدة بعدد غير متناهٍ من القوانين كما هو شأن المسلمين بمخرّجيهم ومرجحيهم الآن بل يكون الامر في ذلك شورى بين طائفة من العلماء المتضلعين في علوم الشريعة الواقفين على حالة الامة والعصر ينتدبهم عند الحاجة ولي الامر في كل قوم من المسلمين (كما كان أبو بكر ينتدب لمعونته بالرأي أهل العلم من المسلمين) ليجتهدوا في وضع الاحكام بازاء الحوادث التي تحدث للأمة [1] وتوافق حالة العصر وتفي بحاجة الترقي والاجتماع واذ كان اجتهاد الصحابة كما علمنا هو عند الحاجة وتعذر وجود النص كذلك ينبغي لاولئك العلماء ان يكون اجتهادهم قاصراً على ما تمس اليه حاجة الدولة والامة من الاحكام التي تقتضيها سياسة الشعور بلزوم العدل وتدرأ بها مفسدة تعطيل الاحكام . او الحكم بالهوى فيما لا يكون بازائه نص صريح فى المسائل التي تعرض للحكام .

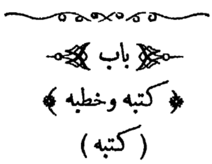
ومن ثم يتكوّن من احكام الشريعة قانون شامل لاحكام العقوبة والحقوق ليس فيه شيء من مثارات الخلاف يتناول منه الاحكام سائر الناس ويقصر عليه العمل في الدولة على نحو ما صنعته الدولة العثمانية فى ترتيب مجلة الاحكام الشرعية التي أغنت الامة عن تكبد عناء الاستفتاء ودرأت عنهم كثيراً من أذى التلاعب بالنصوص

(١) يؤثر عن عمر بن عبد العزيز انه قال يحدث للناس من الاقضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور وبهذه القاعدة عمل المالكية في التفريع

هذا ما نراه حاسما لداء الفوضى القانونية عند المسلمين قريبا من الصواب وسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين وبعدُ فقوق كل ذي علم عليم والله وليّ الارشاد واليه يرجع الامر

﴿ أوّلياته ﴾

منها انه أول من سمى خليفة وأول من ولى خلافة وأبوه حي وأول من فرض له رعيته العطاء وأول من أسلم وقد تقدم الكلام على اسلامه وأول من جمع القرآن وأول من وضع بيت المال



باب

﴿ كتبه وخطبه ﴾

(كتبه)

(كتاب عهده للامراء في حروب الردة) بسم الله الرحمن الرحيم هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام الى أمانيّ الشيطان بعد ان يعذر اليهم فيدعوهم بدعاية الاسلام فان أجابوه أمسك عنهم. وان لم يجيبوه شن غارته عليهم . حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم. فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوّهم فمن أجاب الى أمر الله وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وانما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله. فاذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل . وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به. ومن لم يجب الى داعية الله

قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لايقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى الاّ الاسلام . فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه ومن أبى قاتله فان أظهره الله عليه عزّ وجلّ قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران . ثم قسم ماأفاء الله عليه الا الخمس فانه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وان لايدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ماهم لئلا يكونوا عيوناً . ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم . وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول اه

كتابه الى المرتدين

وسيره اليهم قبل مسير الامراء لحربهم

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة أقام على الاسلام أو رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى الى الضلالة والهوى فاني أحمد الله اليكم الذي لااله الا هو وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله وأومن بما جاء به (أما بعد) فان الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق من عنده بشيراً ونذيراً . وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً . لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . يهدي الله للحق من أجاب اليه وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم باذنه من أدبر عنه حتى صار الى الاسلام طوعا أو كرهاً ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله ونصح لأمته وقضى الذي عليه . وكان الله قد بين ذلك لأهل

الاسلام فقال (انك ميت وانهم ميتون) وقال (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفائن مت فهم الخالدون) وقال للمؤمنين (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) فمن كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله وحده لاشريك له فان الله بالمرصاد حيٌّ قيوم لايموت ولا تأخذه سنة ولا نوم . حافظ لأمره . منتقم من عدوّه بحزبه . واني أوصيكم بتقوى الله . وحظكم ونصيبكم من الله وما جاء به نبيكم . وان تهتدوا بهديه وان تعتصموا بدين الله عز وجل فانه من لم يهد الله ضلّ . وكل من لم يعافه مبتلى . وكل من لم ينصره مخذول . فمن هداه الله كان مهديا . ومن أضله كان ضالا (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقرّبه . ولم يقبل له في الآخرة صرف ولا عدل . وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد ان أقرّ بالاسلام . وعمل به اغتراراً بالله عزّ وجل . وجهالة لأمره . واجابة للشيطان . وقال جل ثناؤه (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلا) وقال جل ذكره (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) واني قد أنفذت لكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وأمرته أن لايقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه وأعانه عليه . ومن أبى ان يقاتله على ذلك ولا يبقى على أحد منهم قدر عليه . وان يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل

قتلة ويسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد الا الاسلام [1] فمن آمن فهو خيرله . ومن تركه فلن يُعجز الله . وقد امرت رسولى ان يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الاذان فان اذّن المسلمون فاذّنوا كفوا عنهم وان لم يؤذنوا فاسألوهم بما عليهم فان أبوا عاجلوهم وان أقروا قبل منهم وحملهم على ماينبغي لهم اه

كتاب عهده لعمر

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ماعهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا واول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر . اني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فان برّ وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه . وان جار وبدل فلا علم لى بالغيب . والخير أردت . ولكل امرىء ما اكتسب . (وسيعلم الذين ظلموا أىّ منقلب ينقلبون)

كتابه الى عمرو بن العاص

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) اني كنت قد رددتك الى العمل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاّكه مرة وسماه لك أخرى مبعثك الى عمان انجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ثم وليته وقد أحببت أبا عبد الله ان أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه الا ان يكون الذي أنت فيه أحب اليك

كتابه الى خالد

وكتب الى خالد بن الوليد منصرفه من الحج يعاتبه ويأمره بقصدالشام

(١) كل هذا مبالغة لاهل الردة بالارهاب فقط

(أما بعد) سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا وأشجوا. وإياك ان تعود لمثل ما فعلت فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك ولم ينزع الشجي من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل وإياك ان تدل بعمل فان الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء

﴿ كتابه الى أبي عبيدة في شأن الداريين ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي بكر الصديق الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو (أما بعد) فامنع من كان يؤمن بالله واليوم الاخر من الفساد في قرى الداريين وان كانوا أهلها قد جلوا عنها وأراد الداريون يزرعونها فليزرعوها واذا رجع اليها أهلها فهي لهم وأحق بهم والسلام عليك

﴿ كلام على الخطابة عند العرب في الجاهلية والاسلام ﴾

مجمل تاريخ الخطابة عند العرب انها قديمة مع الشعر وكان لهم بها تبريز. وفيها ولع ، ولها في تاريخهم عظيم الاثر ، وطويل الخبر ، ونحن نجتزىء من ذلك بذكر ما يهم ايراده ويناسب ذكره توطئة لما سيرد معنا من ذكر خطب أبي بكر وغيره من فصحاء الاسلام فنقول

كانت العادة عند العرب في الخطابة ان يكون الخطيب واقفاً على قدميه مشرفا على الناس لهذا كان اذا خطب خطيبهم في العراء علا نشزاً من الأرض وان لم يجد خطب على الراحلة وفي غير العراء يقف على المنبر وكان لا بد للخطيب من أن يأخذ بيده العصا أو المخصرة أو القوس وتارة يخطب وفي يده القناة وللعرب في هذا أشعار كثيرة فمنها قول معن بن اوس المزني في العصا

فلا تعطى العصا الخطباء يوماً وقد تكفى القادة والمقالا

ومنها قول لبيد بن ربيعة في القسى

ما ان اهاب اذا السرادق عمه قرع القسىّ وأرعش الرعديد

وقال جرير بن الخطفى في حملهم القناة

من للقناة اذا ماعي قائلها والاعنة يا عمرو بن عمار

ولما جاء الاسلام أقر كثيراً من هذه العوائد والى استعمال المسلمين المخصرة والعصا يشير بقوله كثيّر من شعراء الاسلام

اذا قرعوا المنابر ثم خطوا باطراف المخاصر كالغضاب

وربما كان هذا سبب حمل خطباء المنابر السيف الخشبي الى الآن وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب واقفاً على منبر (١)

وكذلك كان بعده الخلفاء الراشدون يخطبون وهم وقوف الاّ فى خطبة النكاح فانهم كانوا يخطبون وهم جلوس لهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يتصعّدني كلام كما يتصعّدنى خطبة النكاح ، وذلك لانه كان يخطبها جالسا ، وكان للخطابة عند العرب من المكانة السامية ما كان للشعر يفاخرون بها فى مشاهدهم ، ويتخيّر لها الخطباء من اللفظ أحسن ما عندهم ، الا انها كانت لا تخلو من السذاجة تبعاً لحالة القوم الاجتماعية ، ومعيشتهم الفطرية ، ولمّا جاء الاسلام ببيانه ، وضرب بينهم بجرانه ، تفتقت القرائح واتسع مجال الفكر وبعدت مرامي العقول ، فارتقى فنّ الخطابة على عهد الصحابة والتابعين ارتقاء

---

(١) عند الامام احمد وغيره من حديث سعد بن عائذ وسعد القرظ موذن رسول الله (ص) ان رسول الله كان اذا خطب فى الحرب خطب على قوس واذا خطب فى الجمعة خطب على عصا

يدل على ما كمن وراء تلك السذاجة من الاستعداد الباهر الذي كان أشبه بكمون النار في الزناد أظهرها الاحتكاك وطيّر شررها القدح

والفضل فى ارتقاء فن الخطابة في عهد الصحابة والتابعين انما هو عائد للكتاب المبين وذلك من وجوه (منها) ان القرآن وان كان نزل بلغة القوم التي بها يتخاطبون ، وبفصاحتها يتفاخرون ، الا انّ اساليبه العالية التي أعجزت فصحاءهم ، وأخذت بمجامع قلوبهم ، أكسبتهم ملكة من البلاغة في تخيّر الاساليب السامية غير ملكاتهم ، وأطلقت السنتهم من عقال الحوشية والتقعر الذي كان ديدن كثير من خطبائهم وفصحائهم ،

حتى انهم لكانوا يعيبون الخطيب المصقع اذا لم يكن في كلامه شيء من آى القرآن ، فقد روى الجاحظ عن الهيثم بن عدىّ عن عمران بن حطان انه قال : خطبت خطبة عند زياد أو قال ابن زياد فاعجب بها زياد وشهدها عمى وأبى ثم انى مررت ببعض المجالس فسمعت رجلا يقول لبعضهم ، هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن :

وروى الجاحظ عن الهيثم أيضاً انهم (يعنى العرب) كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آي من آي القرآن فانه مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع

(ومنها) ان الاسلام بما هذب من أخلاقهم وألان من جفاء طباعهم أدخل من الرقة على عواطفهم ما رق به كلامهم وكثر للمعانى المؤثرة في النفوس اختيارهم في خطبهم ومخاطباتهم

(ومنها) أن ما جاء في القرآن من الترغيب والترهيب على الاسلوب البالغ حد الاعجاز فى التأثير على الضمائر والاخذ بشكائم النفوس أعانهم على التفنن

فى أساليب الوعظ الخطابي عند حلول الازمات ، أو الحاجة الى تأليف قلوب الجماعات، حتى لقد كان الخطيب البليغ منهم ليدفع بالخطبة الواحدة من الملمات ، مالا يدفع بالبيض المرهفات، ويملك من قلوب الرجال مالا تملكه البدر والاموال، كما صنع أبو بكر في خطبه يوم السقيفة التي امتلك بها قلوب المهاجرين والانصار ، وصرف عن الامة تلك الامور الكبار، وكما صنع الحجاج في أول خطبة له في أهل العراق يوم اذ قلبوا للدولة المروانية ظهر المجن ، وسطرت على جباههم آيات الاستكبار والفتن ، فانهم ما طرق مسامعهم داعي الامير الى المسجد حتى أخذوا يفدون اليه افواجا ويلتقطون من ارضه الحصى يريدون رجمه بها وهو على المنبر استصغاراً لشأنه واحتقاراً لمولاه ولم يلبثوا أن طرقت أسماعهم زواجره ، واخترقت جدار قلوبهم صوادع كلمه ، حتى تناثرت من أيديهم الحصى ، وخشعت منهم النفوس ، وطاطأت الرقاب ، رهبةً منه واجلالاً له ، كما سيمر عليك في هذا الكتاب ان شاء الله

(ومنها) انّ الاسلام بما مهد لهم من سبل الفتح ومخالطة الأمم وبما منحهم من سعة السلطان والسيادة على الشعوب، وفّر لهم الاسباب الداعية الى التوسع في الخطابة بما تتطلبه حاجة التوسع في الملك وتقتضيه عوائد الأمم المحكومة واخلاقها

هكذا كان شأن الخطابة في صدر الاسلام ومبلغ تبرّز القوم فيها وتسلطهم على النفوس الجافية بقوّة سلطانها ، وقويّ برهانها، ولكن وا أسفاه فقد بدأ يعروها الوهن ويحتفها الفساد من أواسط الدولة المروانية حيث كان استحكم الفساد باللغة العربية ، ودب في نفوس الخلفاء داء العظمة والكبرياء، فأقلّوا من الظهور لعامة الأمة ، وترفعوا بزعمهم عن الوقوف موقف المخاطب للناس ، لا سيما وقد كان الخلفاء في صدر الاسلام يخطبون الناس عند طروّ

كل حادث جلل بلا تقييد بوقت ، ولا تكلف لقول ، فكانوا يجمعون المسلمين الى المسجد تارة لاعلان خبر عليهم ، وتارة لاستشارتهم ، ووقتاً لتحذيرهم ، وآخر لوعظهم وتذكيرهم ، وأنّى لمن اتخذوها بعدُ كسروية ان يقفوا للناس هذا الموقف وهم يرون انّ الرأي سلطان لا يتعداهم وانّ الناس بالنسبة اليهم همل لا ينبغي لعصا القوة والجبروت ان تتخطاهم

ما أعظم مكانة الخطيب في النفوس ، وأنفذ كلامه في القلوب ،وأشده اثارةً للعواطف ، اذا كان ذلك الخطيب أمير القوم الذي تتجه نحوه أنظارهم ، وتحدق به أبصارهم ، وتلتف حوله قلوبهم ، وتترامى اليه آمالهم ، يستلينهم بالقول اذا قسوا ، ويستخضعهم به اذا عصوا ، يمتلك نفوسهم بالرغبة تارة ، وبالرهبة أخرى ، وينفخ فيهم وقت الحاجة روح الحماس فيقذف بهم الجبال فيدكوها بين يديه ، ويلين لهم بالقول ، فاذا استوهبهم الاموال والارواح وهبوها اليه

تالله انها لمكانة سامية انحط عنها الامراء على غير علم ، وسلطان نافذ القوّة في الارواح لا يدانيه نفوذ قوتهم الجبروتية في الاجسام وأنى يضارع الروح الجسم ، ولقد كان أوّل وهن دخل على سلطان الخطابة في الاسلام في عهد الوليد بن عبدالملك حيث بدأ بأن يخطب على المنبر جالساً وقد كان الخلفاء قبله يخطبون وهم وقوف ، ومن ثم دب دبيب الاستهانة بهذا الموقف العظيم شأنه ، الجليل شرفه ، حتى مجه الخلفاء والامراء ، وانحط عنه القادة اما عجزاً عن الوفاء بحقه ، واما استهانة به وترفعاً زعموا عنه ، وكان آخر الخطباء المجيدين من خلفاء المسلمين الخليفة المأمون العباسي رضي الله عنه وانما انحلت عرى الخطابة بعدُ لما انحلت عرى الامامة وأخذ الخلفاء يستنيبون بالصلاة

بالناس كما استنابوا غيرهم بكل وظائف الامامة فاصبحت الخطب تتلى على المنابر في ايام الجمع لا لما وجدت له بالذات بل لانها اصبحت من قبيل الرسوم التي ينبغي اداؤها على أيّ حال كان ، حتى كان من ذلك ان تنوسى مع الزمان القصد الذي سنّت من أجله الخطابة في الاسلام فانقلب نفعها ضراً وخيرها شراً بمن انتهت اليهم هذه الوظيفة السامية من جهلاء المسلمين الذين أصبحوا واخزناه ينفثون من أعلى المنابر سموم الجهل والأذى في العقول بعد اذ كانت تشرق منه شموس الحكمة فتنبعث أشعتها في الأقطار ، وتمزق عن البصائر حجب الجهالة ، وغشاء الضلالة ، فكم فرّج ذلك الموقف من الكروب ، وكم أزال من الخطوب ، وكم فرّق ما اجتمع على الضلال ، وجمع ماتفرق من القلوب ، وكم أشرف من أعلاه رجال كانت صدورهم ينابيع للحكم يفيضونها على الناس فيضاً . ورؤسهم بما تحملته من العقول أشبه بأوعية البخار ترسل قوته على الناس من أنابيب الافواه ارسالا ، فتحركهم حركة من دبت فيه الحياة ، وامتلأ بروح النشاط . ولكن كان ذلك وأنى لنا ان يكون . والحديث شجون ، وقد اختص بهذه الفضيلة الآن خطباء السياسة الغربيون

﴿ خطبه ﴾

كان أبو بكر رضى الله عنه فصيح اللسان قويّ الحجة اذا خطب كثير التذكير بالله والتخويف منه والترغيب فيه وروي عن الزبير بن بكار انه قال سمعت بعض أهل العلم يقول ، أفصح خطباء رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق وعليّ بن أبي طالب

وها نحن ننقل اليك في هذا الكتاب ماوقفنا عليه من خطب أبي بكر رضي الله عنه

١

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واختبط الناس فأصبحوا بين مصدق ومكذب جاء أبو بكر من السنح ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلم بكلام سبق ذكره ثم خرج وخطب الناس فقال

أشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له وأشهد ان سيدنا محمداً عبده ورسوله وأشهد أن الكتاب كما نزل . وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وان القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ، في كلام طويل ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حيٌّ لايموت ، وانّ الله قد تقدم اليكم في أمره فلا تدعوه جزعا ، وان الله قد اختار لنبيه ماعنده على ماعندكم ، وقبضه الى ثوابه وخلف فيكم كتابه ، وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر ، ياأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم فعاجلوه بالذي تعجزونه ولا تستنظروه فيلحق بكم

٢

(خطب يوم السقيفة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه) أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس اسلاماً ، واكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، واكثر الناس ولادة في العرب وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى (والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان) فنحن المهاجرون وأنتم الانصار اخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفيء ، وانصارنا على العدوّ ، وآويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً ، فنحن الامراء وانتم

الوزراء ، لاتدين العرب الا لهذا الحي من قريش ، فلا تنفسوا على اخوانكم المهاجرين مامنحهم الله من فضله

٣

(وخطب يوم السقيفة أيضاً فقال) نحن أهل الله وأقرب الناس بيتاً من بيت الله ، وأمس الناس رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، انّ هذا الأمر وان تطاولت له الخزرج لم تقصر عنه الاوس وان تطاولت له الاوس لم تقصر عنه الخزرج وقد كان بين الحيين قتلى لاتنسى ، وجراح لا تداوى ، فان نعق منكم ناعق فقد جلس بين لحيي الاسد يضغمه المهاجري ويجرحه الانصاري اه

ولقد أثرت هذه الخطبة في الانصار تأثيراً بالغاً اذ تنبه لها الاوس فخافوا ان يصير الامر دونهم الى الخزرج وتنبه الخزرج فخافوا أن يصير الامر الى الاوس فتركوا جميعاً الامر لقريش فانطفأت بهذا جذوة الفتنة وأمن الناس شر الخلاف

٤

وخطب بعد أن ولى الخلافة وهى غير خطبته التي أوردناها عند ذكر بيعته ولعلّ هذه خطبته التي خطبها بعد البيعة العامة ، فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

(أمّا بعد) فانى قد وليت أمركم ولست بخيركم ، ولكنه نزل القرآن وسن النبي صلى الله عليه وسلم السنن ، وعلمنا فعلمنا ، فاعلموا أيها الناس ان اكيس الكيس التقى ، واعجز العجز الفجور وانّ أقوا كم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وانّ أضعفكم عندى القوىّ حتى آخذ منه الحق ، أيها الناس انما أنا متبع ولست بمبتدع فاذا أحسنت فأعينونى ، وان أنا زغت فقوّمونى اقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم اه

﴿ كلام على الحكومة فى الاسلام ﴾

أورد السيوطي في تاريخه هذه الخطبة وروى فى ختامها عن مالك رضى الله عنه انه قال (لا يكون أحد اماماً أبداً الا على هذا الشرط)

ومن تدبر قول الامام مالك وأمعن النظر فيما جاء بتلك الخطبة علم ان الخلافة صارت ملكا عضوضاً وسلطة قاهرة لم يتأت للمسلمين ان يقوّموا زيغ اوليائها منذ عهد بعيد جداً وان تلك الحكومة الاسلامية الاولى التي تمتع بها المسلمون زمنا ليس بكثير وعيّن أبو بكر حد السلطة العليا فيها بتلك الخطبة الانيفة حكومة ديموقراطية قلّ ان يجد طلاب الحرية والعدل في كل عصر أحسن لسياسة الامم منها ، وانما تمتع بها المسلمون ذلك الزمن القليل مذ كانوا يشعرون شعوراً واحدا بحاجة الحياة الاجتماعية و يعلمون انّ السعادة والشقاء منوطان بالاعتماد على النفس والعمل بسنة التعاون لا بمن يتولى أمرهم ، ويُعطى مقاليد الرئاسة عليهم وهو واحد منهم يشعر كشعورهم ، ويعمل للمصلحة العامة عملهم ، فاذا أحسن أعانوه ، واذا زاغ قوّموه ، ولكن لما فقد منهم ذلك الشعور واستحال الى الاعتقاد بالعجز عن القيام بشؤن الحياة الاجتماعية الا اذا تركوا مقاليد الامور الى رئيس تتجه آمالهم اليه ، ويعولون فى اسباب السعادة عليه ، فيفنى وجودهم فى وجوده ، وتضمحل ارادتهم فى ارادته ، فلا يكون الاما يشاء لاما يشاؤن ولا يعمل الاما يريد لاما يريدون ، استحالت حكومتهم من الديمقراطية الى المطلقة واصبحت الخلافة ملكا عضوضاً وسلطة جائرة نزعت منازع الجبروت واستأثرت بالمصالح واجتثت اصول الشورى ، ومن ثم تشوش نظام الدولة الاسلامية، وانحطت مدارك الامة عن مقام العرفان بواجب الراعى والرعية ، فسلبت منهم نعمة التمتع بالعدل ، كما حرمت حكوماتها نعمة

الراحة والانتظام

وما زال يتفاقم هذا الداء حتى ألف المسلمون حكم الاستبداد ، ورضوا بالجور والعبودية بديلا عن العدل والحرية وباتوا أضعف الامم احساساً بآلام الظلم ، وأبعد الشعوب عن التطلع الى الحرية ، ولم يساووا بالشعور بأذى الحكم المطلق والحاجة الى الحكم المعتدل أقل الشعوب عدداً من الغربيين وأضعفهم قوة فضلا عن بقية الأمم العظيمة الاوربية وأوضح شاهد على هذا أن المسلمين ما زالوا الى هذا العهد محكومين بأنواع الظلم والاستبداد في كل بقعة من بقع الارض وليس لهم حكومة تضارع أدنى حكومة من حكومات المغرب في الرقي وحسن النظام ومع هذا فليس فيهم ولا شعب واحد يحس بهذا المرض الذي برح وجرح فينهض لتلافي الأمر وينظر في سوء المنقلب او يخطر له محاولة الخلاص من هذه الحال في بال

ولقد أصبح كل فلاسفة العالم في حيرة من هذا التدني البالغ منتهى درجات الرضا بالشقاء ، والصبر على البلاء ، وبات بعض المتنبهين من رجال الاسلام في حيرة من تعليل الاسباب الداعية لجمود هذه الامة ويأس من سلامة مستقبل المسلمين ، وأما فلاسفة أوربا فانهم ألصقوا أسباب التدني في الأمة الاسلامية بالدين بدعوى انّ المسلمين والغربيين من طينة واحدة لا فرق بين الفريقين في الخلق والتركيب يدعو الى مثل هذا التفاوت الكبير في الشعور وهو قول في الحقيقة خال عن التحقيق ، بعيد عن الصحة، اذ الاسباب الداعية لتدني المسلمين واختلال نظام دولهم كثيرة وهي غير الدين الذي يبرأ الى الله من جمود المسلمين وأهم تلك الاسباب استحالة حب الاستقلال الى الاعتقاد بالعجز والاعتماد في سائر شؤونهم على أولياء الامر كما قدمناه والدين يبغض

اليهم العجز وينهاهم عن الرضا بالذل

أفرط بعض الخلفاء بحب الأثرة وفرط المسلمون معهم بحرية الهيمنة عليهم والمشاركة لهم والاشراف على أعمالهم كما كان الامر على عهد الخلفاء الراشدين فكان من ذلك الافراط وهذا التفريط ان فسد كثير من شؤون المسلمين الدنيوية وانحلت عرى حكومتهم الديموقراطية فدخل الوهن على الحاكم والمحكوم ، وشقي الظالم والمظلوم ، وكان الضرر بالخلفاء أعظم ، والندامة بهم ألزم ، اذ ساءت سياستهم للملك وانصرفت هممهم الى السفاسف فتوثب أمراء الاطراف على ملكهم وتشاطروا سلطانهم فلم يدعوا لهم من الامامة الآ الرسم ، ولا من السلطان الآ الاسم ، فظلموا من حيث ظلموا ، وأخذوا من حيث أخذوا وهم لا يشعرون ، ولو علموا أن سنة الخلفاء الراشيدين أبقى على ملكهم وأعز لسلطانهم لما حادوا عنها قيد شبر ، ولما خالفوها أبد الدهر ، وهل كانت غزوات التتار وهجمات أهل الصليب الا نتيجة الوهن الذي دخل على الخلافة وأصاب بمجموع الأمة وسببه ذلك الافراط والتفريط

أي وهن لعمر أبيك أشد على الامة وأظهر في جانب الخلافة من ان تصير كل قرية كبيرة من الممالك الاسلامية كتكريت في الجزيرة وسنجر في الشام مثلا عاصمة لملك من ملوك الطوائف ينفرد بسلطانه ، ويحكم بشهواته . وينابذ جاره في الملك ، ويقاتل أخاه في الدين ، والامام في عاصمة الاسلام كبغداد ومصر مغلوب على أمره ، محصور السلطة في قصره

ان بقاء المسلمين الى الآن يتمتعون بشيء من الاستقلال بعد تلك الحال التي كانوا فيها فوضى الملك والسياسة وجيوش الصليب والتتار عدة أجيال لمعجزة من معجزات الدهر التي تحير الالباب وتدعو ملوك المسلمين الى النظر

والاعتبار وقياس الماضي على الحال فان مدنية المسلمين التي كانت في تلك العصور أرقى من مدنية سواهم وقتهم على تفرّق كلمتهم ووهن عصبيتهم من الانحلال ، وحفظت سيادتهم من الزوال ، فان انعكست هذه القاعدة الان وأصبح التمدن الغربى على ما نرى باسطاً رواق القوّة على ما عداه ، راقياً فوق كل تمدن، سبقه فماذا يكون الحكم ؟

انه حكم يستدر عبرات العيون ، ويثير كوامن الشجون ، ويطلق السنة أهل الحق الذين لم يخمد أنفاسهم خلق الرياء ولم تعم أبصارهم عن حالة المسلمين أو تحجب عن بصائرهم سنن الكون فتنادي على ملأ السامعين ان تبعة هذا المصير عائدة على أولياء أمر المسلمين الذين لم تنفذ في جدار قلوبهم صوادع العبر ولم يزل دأبهم دأب آبائهم الأول ولو أصبح الحال غير الحال ، وانطبقت الجبال على الجبال ، أو أذن لاستقلال الامة والملك بالزوال ، ولكل أمة رقدة ولقد طالت رقدة المسلمين ، ولكل نبأ مستقر ولتعلمن نبأه بعد حين

٥

(وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه) أمّا بعد فانى وليت هذا الامر وانا له كاره ووالله لوددت أن بعضكم كفانيه، الا وانكم ان كلفتموني أن اعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً اكرمه الله بالوحي وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحدكم فراعوني فاذا رأيتموني استقمت فاتبعوني واذا رأيتموني زغت فقوموني واعلموا انّ لي شيطاناً يعتريني فاذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني لا أوثر في اعشاركم وابشاركم اه

تالله لو كان لبشر أن يعصم بعد الرسل لقلنا ذلك أبو بكر وحق لمن أنزل

نفسه تلك المنزلة من التواضع ، وأدبها بذلك الادب ، وأخـذ عليها سبيل الترفع على المسلمين بمنصب الخلافة والاثرة دونهم بالرأي ان يرفعه الله الى ذلك المقام الجليل الذي ألف فيه على حبه قلوب المسلمين ، وجعل ايامه كلها خيراً وبركة على الموحدين ، فرضي الله عنه وعن الصحابه أجمعين

٦

ولما أشار عليه الصحابة بعدم قتال أهل الردة وأن لا طاقة له بالعرب خطب فيهم فقال بعد أن حمد الله واثنى عليه

أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبدالله فان الله حيٌّ لا يموت ، أيها الناس ان كثر أعداؤكم وقلّ عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ، والله ليظهرن هذا الدين على الاديان كلها ولو كره المشركون قوله الحق ووعده الصدق ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغـه فاذا هو زاهق ولـكم الويل مما تصفون ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، أيها الناس لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده حتى ابلغ من نفسي عذراً ، وأقتل مقتلاً ، والله أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت بالله خير معين

٧

وجاء مال من البحرين ساوى في قسمته بين الناس فغضب الانصار فخطب فيهم فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

يا معشر الانصار ان شئتم ان تقولوا انا آويناكم في ظلالنا ، وشاطرناكم في أموالنا ، ونصرناكم بانفسنا ، لقلتم ، وان لـكم من الفضل ما لا يحصيه العد ، وان طال به الامد ، فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوي

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا ان يملونا ولو أن امنا تلاقي الذي يلقون منا لملّت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ظلال بيوت ادفأت وأظلت

٨

وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه

أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله وان تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الالحاف بالمسئلة فان الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال (انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) ثم اعلموا عباد الله ان الله قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، وعوضكم بالقليل الفانى، الكثير الباقي، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ولا يطفأ نوره فثقوا بقوله وانتصحوا كتابه واستبصروا فيه ليوم الظلمة [١] فانه خلقكم لعبادته ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون، ثم اعلموا عباد الله انكم تغدون وتروحون في أجل قد غيّب عنكم علمه فان استطعتم ان تنقضي الآجال وانتم في عمل الله ولن تستطيعوا ذلك الا بالله [٢] فسابقوا فى مهل باعمالكم قبل أن تنقضي آجالكم فتردكم الى سوء أعمالكم فان أقواما جعلوا آجالهم لغيرهم فانهاكم ان تكونوا امثالهم، فالوحا الوحا ثم النجاء النجاء فان وراءكم طالبا حثيثاً أمره سريعاً سيره

٩

(١) وفي رواية الحاكم والبيهقي هكذا (وهذا كتاب الله فيكم لا يطفأ نوره ولا تنقضى عجائبه فاستضيئوا بنوره وانتصحوا كتابه واستضيئوا منه ليوم الظلمة الخ

(٢) وفي راية الحاكم أيضاً (الا باذن الله)

ومن خطبه الغرّاء في الوعظ والتذكير قوله

الحمدُ للهِ ربّ العالمين احمدهُ واستعينهُ ونسأله الكرامةَ فيما بعد الموتِ فانه قد دَنى أجلي وأجلكم وأشهدُ انْ لا الهَ الاّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ وأَنّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ أرسلَهُ بالحقِّ بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً لينذِرَ مَنْ كانَ حياً ويحقَّ القولَ على الكافرين ، ومن يطع اللهَ ورسوله فقد رشد ومن يَعْصِهما فقد ضلّ ضلالا مبيناً ، أوصيكم بتقوي الله والاعتصام بأمرِ اللهِ الذي شَرَعَ لكم وهدا كم به ، فانّ جوامع هُدَى الاسلام بعدَ كلمةِ الاخلاصِ السمعُ والطاعةُ لمن ولاّه اللهُ أَمْرَكم فانه مَنْ يطع اللهَ وأولى الامرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر فقد أفلح وأدّى الذي عليه من الحقّ ، واياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حُفظَ من اتباع الهوى والطمعِ والغضب ، واياكم والفخر وما فخرُ مَنْ خُلقَ مِنْ ترابٍ ثمّ الى التراب يعودُ ثمّ يأ كلهُ الدود ثمّ هو اليوم حيٌّ وغداً ميتٌ فاعملوا يوماً بيومٍ وساعةً بساعةٍ وتوقوا دعاء المظلومِ ، وعدّوا أنفسكم في الموتى ، واصبروا فان العمل كله بالصبر ، واحذروا والحذرُ ينفعُ، واعملوا والعمل يُقبلُ واحذروا ما حذّركم اللهُ من عذابهِ ،وسارعوا فيما وَعَدَكم اللهُ مِنْ رحمتهِ ، وافهموا وتفهموا واتقوا وتوقوا فانّ الله قد بين لكم ما أَهلك به من كان قبلكم وما نجي به من نجى قبلكم ، قد بين لكم في كتابه حلالَهُ وحرامَهُ وما يحبّ من الاعمال وما يكرهُ فاني لا آلوكم ونفسي واللهُ المستعانُ ولا حولَ ولا قوّةَ الاّ باللهِ واعلموا انكم ما أخلصتم للهِ من اعمالكم فربّكم أطعتم وحظكم حفظتم واغتبطتم وما تطوّعتم به لدينكم فاجعلوهُ نوافلَ بين أيديكم تستوفوا لسلفكم وتُعطُوا جرايتكم حينَ فقركم وحاجتكُمُ اليها ، ثم تفكروا عبادَ اللهِ في اخوانكم وصحابتكم الذين مضوا قد وردوا على ما قدّموا فاقاموا عليه

وَحلّوا في الشقاء والسعادةِ فيما بعد الموت . انّ اللهَ ليس له شريكٌ وليس بينه وبين أحدٍ من خلقه نسبٌ يعطيه به خيراً ولا يصرفُ عنه سوأً الاّ بطاعتهِ واتباعِ أمرهِ فانه لا خيرَ في خيرٍ بعده النارُ ولا شرّ في شرٍّ بعده الجنة اقول قولي هذا واستغفرُ اللهَ لي ولكم وصلّوا على نبيكم صلى الله عليه وسلم والسلام عليه ورحمة الله وبركاته

١٠

(وخطب ايضاً فقال) الحمد لله أحمده واستعينه واستغفره وأومن به وأتوكل عليه واستهدى اللهَ بالهدَى ، وأعوذُ به من الضلالةِ والردَى ، ومن الشكِ والعمى ، من يهدى الله فهو المهتدى ومن يضللْ فلن تجد له ولياً مرشداً واشهدُ انَّ لا الهَ الا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ يحيي ويميتُ وهو حيٌّ لا يموت يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء بيدهِ الخيرُ وهو على كلّ شيءٍ قدير واشهد أنّ محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدَى ودينِ الحقِ ليظهرهُ على الدينِ كلهِ ولو كرهُ المشركون ، الى الناس كافةً رحمةً لهم وحجةً عليهم والناس حينئذٍ على شرّ حالٍ في ظلماتِ الجاهليةِ دينهم بدعة ودعوتهم فرية فأعزّ الله الدين بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون فاصبحتم بنعمته اخواناً . وكنتم على شفا حفرةٍ من النارِ فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون فأطيعوا اللهَ ورسوله فانه قال عزّ وجلّ (مَنْ يطعْ الرسول فقد أطاعَ اللهَ ومَنْ تولى فما أرسلناكَ عليهم حفيظاً) اما بعد ايها الناس اني اوصيكم بتقوى الله العظيم في كلّ أمرٍ ، وعلى كل حال ، ولزوم الحق فيما احببتم وكرهتم فانه ليس فيما دون الصدقِ من الحديثِ خيرٌ ، من يكذب يفجرُ ومن يفجرُ يهلكُ واياكم والفخر وما فخرُ من خلق من الترابِ والى الترابِ يعودُ وهو اليوم حيٌّ وغداً

ميت فاعملوا وعدّوا أنفسكم في الموتى وما أشكل عليكم فردوا علمه الى الله وقدّموا لانفسكم خيراً تجدوه محضراً فانه قال عزوجل (يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ماعملتْ من خيرٍ محضراً وما عملت من سوءٍ تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسهُ والله رؤوفٌ بالعباد) فاتقوا الله عباد الله وراقبوه واعتبروا بمن مضى قبلكم واعلموا أنه لابدّ من لقاء ربكم والجزاء باعمالكم صغيرها وكبيرها الا ماغفر الله انه غفور رحيم ، فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله ولا حول ولا قوّة الا بالله انّ الله وملائكتهُ يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما اللهم صلّ على محمد عبدك ورسولك افضل ماصليت على احد من خلقك وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به واحشرنا في زمرته وأوردنا حوضه اللهم أعنا على طاعتك وانصرنا على عدوّك اه

١١

(وخطب مرة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه) ان أشقى الناس في الدنيا والاخرة الملوك فرفع الناس رؤسهم فقال

مالكم أيها الناس انكم لطعانون عجلون انّ منَ الملوك مَن اذا ملكَ زهدهُ الله فيما بيدهِ ورغبهُ فيما بيد غيرهِ وانتقصه شطرَ أجلهِ وأشرب قلبهُ الاشفاق فهو يحسد على القليل ويسخط على الكثير ويسأم الرخاء وتنقطع عنده لذة البقاء لايستعمل العبرةَ ولا يسكن الى الثقة فهو كالدرهم القيسي والسراب الخادع جذلُ الظاهر حزين الباطن فاذا وجبتْ نفسه ونضبَ عمره وضحى ظله حاسبه الله فأشدّ حسابه وأقلّ عفوه (١) ألا وان الفقراء هم المرحومون

---

(١) كذا في العقد الفريد وفي البيان والتبيين وجاء في النثر المختار نقلا عن زهر الآداب (وأقل الانصار عنه عقوبة)

الا ان من آمن بالله حكمَ بكتابهِ وسنةِ نبيهِ صلى الله عليه وسلم وانكم اليوم على خلافة نبوّة ومفرق محجةٍ وسترون بعدي ملكاً عضوضاً وَملكاً عنوداً وأمةً شحاحا ودماً مباحا فان كان للباطلِ نزوة ولاهلِ الحقّ جولة يعفو لها الأثر ويموت لها الخبر فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعةِ وليكن الابرامُ بعد التشاورِ والصفقةُ بعدَ طولِ التناظرِ أيّ بلاد خرشنة (١) ان الله سيفتتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها

١٢

وخطب مرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

ان الله عزّ وجل لا يقبل من الاعمال الا ما أُريد به وجههُ فأريدوا الله باعمالكم ، واعلموا ان ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتموها وخطأ (٢) ظفرتم به وضرائب أدّيتموها ، وسلف قدّمتموه من أيام فانيةٍ لأُخرى باقيةٍ لحين فقركم وحاجتكم ، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان لهم ذكر القتال والغلبةِ في مواطنِ الحربِ ، قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رمياً قد تركت عليهم القالات ، الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، وأين الملوك الذين أثاروا الارض وعمروها ؟ قد بعدوا ونسي ذكرهم وصاروا كلا شيء الا ان الله قد أبقى عليهم التبعات ، وقطعَ عنهم الشهوات ، ومضوا والاعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلفاً بعدهم فان نحن اعتبرنا بهم نجونا وان اغتررنا كنا مثلهم ، أين الوضاء الحسنةُ وجوههمْ المعجبون بشبابهم صاروا تراباً ، وصار مافرّطوا فيه حسرةً عليهم أين الذين بنوا المدائن

(١) وفي العقد خرسة وفي البيان والتبيين خرشة

(٢) كذا في تاريخ الطبري ولعلها حظ

وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الاعاجيب قد تركوها لمن خلفهم فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور هل تحس منهم من احد أو تسمع لهم ركزاً . أين من تعرفون من أبنائكم واخوانكم قد انتهت بهم آجالهم فوردوا على ماقدموا فحلوا عليه وأقاموا للشقوة والسعادة فيما بعد الموت . الا أن الله لاشريك له ليس بينه وبين أحدٍ منْ خلقهِ سببٌ يعطيه به خيراً ولا يصرفُ عنه سوءً الاّ بطاعته واتباع أمره واعلموا انكم عبيدٌ مدينون وانّ ما عنده لا يدرك الا بطاعتهِ اما انه لاخير بخير بعده النار ولا شرّ بشرٍ بعده الجنة اه

رضي الله عن أبي بكر كأنه يريد بهذه الخطبة التي تذكر بالملوك الماضين ان يعظ نفسه ويستزيد من الورع والتقوى هذا على ماعرف به من التقى والعدل وما اشتهر عنه من الحرص على مصالح المسلمين والتبريز في اقامة حدود الشرع على كل أمراء المؤمنين فما اجدر من عبدوا الشهوات وتاهوا في حب الذات من أولياء أمر الامة الاسلامية بعدُ بمثل هذه العظة وما أخلقهم بالاعتبار بذكر الماضين وتأديب نفوسهم بأدب الخلفاء الراشدين وتالله لو فعلوا لجعلوا سلطانهم فوق كل سلطان ولسوّدوا هذه الأمة لهذا العهد على كل الأمم ولم يجعلوها عرضة للبوار ، وغرضاً ترمى اليه بسهام الاذى الاغيار ، فانا لله وانا اليه راجعون

١٣

وخطب عند ما انتدب الناس الى غزو الشام فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

الاانّ لكلِّ أمرٍ جوامع فمنْ بلغها فهي حسبهُ ، ومن عمل للهِ كفاه اللهُ .

عليكم بالجد والقَصدِ فانّ القصدَ أبلغُ ، ألا انهُ لا دينَ لاحدٍ لا ايمان لهُ ، ولا أجر لمن لا حسبةَ له ، ولا عمل لمن لا نية لهُ ، ألا وانّ في كتابِ اللهمن الثواب على الجهاد ، لمَا ينبغي للمسلم انْ يُحبَّ انْ يخصّ بهِ ، هي التجارةُ التى دلّ الله عليها ونجي بها من الخزْيِ ،وأُلحقَ بها الكرامةَ في الدنيا والآخرةِ اه

وله كلام عظيم الاهمية كان خاطب به أبا عبيدة بن الجراح لكي يقوله لعليّ بن أبي طالب حين توقف عن بيعته نرجئ ايراده الى سيرة عليّ رضي الله عنه لما ترتب عليه من كثرة الاخذ والرد بين عليّ وأبي بكر وعمر بشأن الخلافة يومئذ

﴿ تنبيه ﴾

اقتصاداً للوقت واشتغالا بمواد التاريخ قد أغفلت تفسير الالفاظ الغامضة التى وردت في كلام أبي بكر وعائشة وغيرهما في هذا الكتاب وانما أوردت في الهامش بعض الجمل والالفاظ التي اختلفت في بعض الروايات عن البعض الآخر تسهيلا لمن يريد مراجعة اللغة لتطبيق المعنى على اللفظ الصحيح من تلك الالفاظ

باب

﴿ مرض أبي بكر وعهده بالخلافة ووفاته ﴾

(مرضه)

روى في سبب مرض أبي بكر رضي الله عنه انه اغتسل في يوم بارد فحم وأخرج الحاكم عن بن عمر قال (كان سبب موت أبي بكر وفاة رسول الله

صلى الله عليه وسلم كمداً فما زال جسمه يجرى (أى ينقص) حتى مات

روي ان عائشة قعدت عند رأسه يوماً وهو في مرضه فقالت شعراً

وكل ذي إبل يوما موردها وكل ذي سلب لا بدّ مسلوب

وفي رواية الطبري

وكلّ ذي إبل موروثُ وكلّ ذي سلب مسلوبُ

وكلّ ذي غيبة يؤبُ وغائبُ الموت لا يؤبُ

فقهمها أبو بكر فقال ليس كذلك يا ابنتاه ولكنه كما قال الله (وجاءت سكرةُ الموتِ بالحقِ ذلك ما كُنت منه تحيد) وانشدت مرة فوق رأسه أيضاً

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للارامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما ثقل على أبي بكر المرض دخلت عليه عائشة فقالت

يا أبت أعهد الى حامتك وأنفذ رأيك في سامتك [1] وانقل من دار جهازك الى دار مقامك انك محصور متصلٌ بقلبي لوعتُك وأرى تخاذلَ اطرافكَ وامتقاعَ لونك والى الله تعزيتي عنك ولديه ثوابُ حزني عليك ارقأ فلا ارقأ وأبلّ فلا أبقى [2] . فرفع رأسه اليها وقال

هذا يوم يجلى لى عن غطائى وأعاين جزائى الى آخر ما قال وقد سبق لنا ايراده فيما مر من الكتاب

﴿ استخلافه عمر ووصيته له ﴾

اشتد على أبي بكر المرض فلم يشغله عن أمر المسلمين ولم يثنِ همته عن

(١) وفي العقد اعهد الى خاصتك وأنفذ رأيك في عامتك

(٢) وفي نسخة أرقو فلا أرقى وأشكو فلا أشكي

النظر في مصلحة الأمة وخشي ان هو مات ولم يعهد لاحد بالخلافة ان تكون فتنة تضطرب لها الدهماء، وتعظم اللأواء، وفي القوم نفر ينتهي اليهم شرف السيادة في الجاهلية والاسلام وهم في الفضل والتقدم سواء ؛ ولكن لكل منهم مكانة في القلوب غير مكانة من عداه ،وعصبية تريده على الامر وانهو أباه،فان ترك منصب الخلافة شاغراً وجعله شورى بين القوم خيف من تفرّق الرأي وتعذّر تأليف القلوب على واحد من أولئك النفر،اذ الشورى في الامور وان كان يراد بها تمحيص الآراء لاختيار الاصلح منها والاصوب فيها الاّ أن صاحب الرأي مجتهد قد يخطئ وقد يصيب وفي الصحابة كما قلنا نفرهم في الفضل والشرف والاهلية كالحلقة المفرغة لا يدري اين طرفاها ولكل واحد منهم عصبية وحزب يريدونه على الخلافة اجتهاداً منهم بوجود الكفاية فيه كما هي في سواه .

اذن فالاختلاف متوقع حتما بين المسلمين فيما لو ترك أبو بكر منصب الخلافة شاغراً والمعذرة قائمة للصحابة في هذا الاختلاف مادام فيهم عدة من ذوي الكفائة وأخصهم أهل بيعة الرضوان من السابقين كما انها قائمة لابي بكر أيضاً في عدم تركه الامر شورى والحال ما ذكر دراً لخطر ذلك الخلاف المتوقع بين قوم هو أبصر بهم وأدرى باخلاقهم وانما نظر أبو بكر فيمن يختاره لذلك المنصب الرفيع شأنه الحرج موقفه فرأى أنه يحتاج الى رجل فيه شدة من غير عنف ولين من غير ضعف وممن توفرت فيهم هذه الصفة من الصحابة الكرام عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب الاّ ان الاول كان ربما يريد الامر فيرى في طريقه عقبةً فيدرو اليه والثاني يرى الاستقامة فلا يبالي بالعقبة تقوم بين يديه فهو بهذا الى الشدة أميل منه الى اللين لهذا لما استشار أبو بكر

الصحابة فيمن يستخلفه أشاروا عليه بعمر

لما عزم أبو بكر ان يعهد بالامر ونظر فيمن يعهد اليه فوقع اختياره على عمر جعل يستشير كل من دخل عليه من الصحابة في عمر فسأل عبدالرحمن ابن عوف فقال اخبرني عن عمر بن الخطاب فقال ما تسألني عن أمر الا وأنت أعلم به مني فقال أبو بكر وان فقال عبدالرحمن هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة قال أبو بكر ذلك لأنه يراني رقيقاً ولو أفضى الامر اليه لترك كثيراً مما هو فيه ثم دعا عثمان فقال اخبرني عن عمر فقال أنت أخبرنا به فقال عليّ ذلك يا أبا عبد الله أخبرني عن عمر فقال اللهم علمي به ان سريرته خير من علانيته وانه ليس فينا مثله ، وسأل أسيد بن حضير فقال أسيد اللهم اعلمه الخير بعدك يرضى للرضى ويسخط للسخط الذي يسر خير من الذي يعلن ولن يلي هذا الامر أحد أقوى عليه منه ، واستشار غير هولاء سعيد بن زيد وجماعة من المهاجرين والانصار فكلهم قال خيراً

ودخل عليه بعض الصحابة فقال قائل منهم(١) ما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد نرى غلظته ، فقال أبو بكر بالله تخوفني ؟ أقول اللهم اني استخلفت عليهم خير أهلك . أبلغ عني ما قلت من ورائك

ثم دعا عثمان فقال اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر ابن أبي قحافة الخ كتاب العهد وقد سبق ايراده في فصل كتب أبي بكر ثم أمر بالكتاب فختمه ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً فبايع الناس ورضوا به ثم دعا أبو بكر بعمر خالياً فاوصاه ما أوصاه

ومما يؤثر عن أبي بكر هذه الوصية الغراء التي أوصي بها عمر رضي

(١) روى الطبري ان الذي قال ذلك هو طلحة ابن عبيد الله

الله عنهما

﴿ وصيته لعمر ﴾

اني مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله ان لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار وعملا بالنهار لا يقبله بالليل وانه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة فانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق ان يكون ثقيلا وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل ان يكون خفيفا ان الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيآتهم فاذا ذكرتهم قلت اني أخاف ان لا اكون من هؤلاء ، وذكر أهل النار فذكرهم باسوأ اعمالهم ولم يذكر حسناتهم فاذا ذكرتهم قلت اني لأرجو ان لا اكون من هؤلاء وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهبا ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده الى التهلكة فاذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب اليك من الموت وهو آتيك وان ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض اليك من الموت ولست بمعجز الله اه

لما خرج عمر من عند ابي بكر رفع يديه وقال

اللهم اني لم أرد بذلك الا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم خيرهم واقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم وقد حضرني من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك أصلح اللهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين واصلح له رعيته

وفي كلامه هذا ما يؤيد قولنا السابق انّ أبا بكر انما أختار للخلافة بعده عمر رضي الله عنهما ولم يتركها شورى خوفا من الفتنة وثقة بكفاءته وسداً لذرائع النزاع من جهة ومن جهة ثانية علما منه بمكانة عمر من السياسة وانه لا يحيد بالأمة عن سبيل الخشونة في العيش والقناعة بالكفاف ولا يترك لها عنان الخوض في غمرات النعيم الرومي والترف الفارسي فتفسد اخلاقها وتسترخي قواها وتفتر عن بث الدعوة همتها ومع انه اختار لها خير كفؤ بشهادة كبار الصحابة كما رأيت فقد تفرس في بعض المهاجرين عدم الرضا كما ترى مما يأتي ولا يحمل ذلك منهم الاَّ على الخوف من شدة عمر عليهم والله أعلم

روى ان عبد الرحمن بن عوف دخل على أبي بكر بعد ذلك فوجده مهتما [١] فقال أصبحت بحمد الله بارئاً يا خليفة رسول الله فقال

اما اني على ذلك لشديد الوجع ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد عليّ من وجعي ، اني وليت أموركم خيركم في نفسي فكلكم ورم من ذلك أنفة يريد أن يكون له الامر من دونه ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولمّا تقبل وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وتألمون الاضطجاع على الصوف كما يألم أحدكم الاضطجاع على شوك السعدان والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حدٍّ خير له من أن يخوض في غمرة الدنيا ألا وانكم أول ضال بالناس غداً فتصدوهم عن الطريق يميناً وشمالا يا هادي الطريق انما هو الفجر أو البجر [٢]

قال فقلت حفض عليك يرحمك الله فان هذا يهيضك على ما بك انما الناس في أمرك بين رجلين اما رجل رأى ما رأيت فهو معك واما رجل خالفك

---

(١) وفي رواية فوجده مفيقاً (٢) وفي نسخة البحر

فهو يشير عليك برأيه وصاحبك كما تحب ولا نعلمك أردت الا الخير ولم تزل صالحا مصلحا مع انك لا تأسى على شيء من الدنيا

﴿ وفاته ﴾

لما ثقل على أبي بكر المرض أوصى عائشة ان يدفن الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشار الى ثوبيه فقال اغسلوهما وكفنوني فيهما فان الحيّ أحوج الى الجديد من الميت وأوصى ان تغسله امرأته اسماء بنت عميس ويعينها ابنه عبدالرحمن وكتب وصيته بخمس ماله وقال: آخذ من مالي ما أخذ الله من فيء المسلمين: وروى الطبري ان أبا بكر لما حضرته الوفاة: قال انظروا كم انفقت منذ وليت بيت المال فاقضوه عني: فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم في ولايته وأخرج الامام احمد عن عائشة رضي الله عنها ان أبا بكر لما حضرته الوفاة قال أيّ يوم هذا؟ قالوا يوم الاثنين. قال فان مت من ليلتي فلا تنظروا بي الغد فان أحب الايام والليالي اليّ أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم: وتوفى أبو بكر من ليلته تلك وهي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة وغسلته امرأته اسماء كما أوصى وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر وكبر أربعا ودفن الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرج ابن هشام عن ابن عروة عن أبيه ان أبا بكر صلي عليه ليلا ودفن ليلا[1] وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر وبضعة أيام وكان نقش خاتمه (نعم القادر الله)

(١) هكذا كان دفن أبي بكر فليت شعري متى ابتدع المسلمون في الجنائز ما ابتدعوه من الاحتفال الذي يشبه احتفال قدماء المصريين بموتاهم وجنائزهم كما يرى ذلك مرسوماً الى الآن على آثارهم اللهم ان ما يفعله المسلمون الآن في مصر وبعض الممالك الأسلامية بالاحتفال بجنائز موتاهم بقية من بقايا الوثنية الاولى لا يرضاها شرعك ولم يسبق الى مثلها أحد من أصحاب نبيك

﴿ خطبة عليّ في تأبين أبي بكر ﴾

أجمع الرواة ان أبا بكر لما قبض ارتجت المدينة ودهش القوم كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه باكياً مسرعا مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول

رحمك الله يا أبا بكر كنت والله أول القوم اسلاماً واخلصهم ايماناً وأشدهم يقيناً وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدبهم على الاسلام وأحماهم عن أهله وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلا وهديا وصمتاً فجزاك الله عن الاسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيرا ، صدّقت رسول الله حين كذبه الناس واوسيته حين بخلوا وقمت معه حين قعدوا وسماك الله في كتابه صديقاً فقال(والذى جاء بالصدق وصدق به)يريد محمداً ويريدك ، كنت والله للاسلام حصناً وللكافرين ناكبا ، لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً في بدنك قوياً في دينك متواضعاً في نفسك عظيما عند الله جليلا في الارض كبيراً عند المؤمنين لم يكن لاحد عندك مطمع ولا هوى فالضعيف عندك قويّ والقويّ عندك ضعيف حتى تأخذ الحق من القويّ وتأخذه للضعيف فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك

﴿ خطبة ابنته عائشة في تأبينه ﴾

نضر الله يا أبت وجهك وشكر لك صالح سعيك فلقد كنت للدنيا مذلاً بادبارك عنها وللآخرة معزاً باقبالك عليها ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك ، وأكبر الاحداث بعده فقدك ، انّ كتاب الله

عزّ وجلّ ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وانا منتجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك، ومستعينة كثرة الاستغفار لك فسلم الله عليك توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك،

﴿ ودخل عليه عمر فقال ﴾

ياخليفة رسول الله لقد كلفت القوم بعدك تعباً ووليتهم نصباً فهيهات من شق غبارك فكيف اللحاق بك

﴿ باب ﴾

﴿ ولده وعماله وقضاته وكتابه ﴾

(ولده)

قال ابن قتيبة أولاد أبي بكر عبد الله واسماء أمها قتيلة من بني عامر ابن لؤي. وعبد الرحمن وعائشة أمها أم رومان بنت الحرث بن الحويرث من بنى فراس بن غنم بن كنانة . ومحمد أمه اسماء بنت عميس . وأم كلثوم أمها بنت زيد بن خارجة من الانصار (فأما عبد الله بن أبي بكر) فانه شهد يوم الطائف مع النبي صلى الله عليه وسلم وبقي الى خلافة أبيه وهلك في خلافته وترك سبعة دنانير فاستكثرها أبو بكر وولد لعبد الله اسماعيل فهلك ولا عقب له (وأما اسماء) فهي ذات النطاقين [1] وتزوجها الزبير بمكة فولدت له عدة فطلقها فكانت مع ابنها عبد الله حتى قتل بمكة وبقيت مائة سنة حتى عميت وماتت

(١) ان اسماء هذه رضي الله عنها هي أشجع نساء الاسلام وأثبتهن جأشا وأعظمهن تربية للولد على الشهامة وعزة النفس كما سيمر عليك في سيرة الحجاج

(وأما عائشة) فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وبقيت الى خلافة معاوية وتوفيت سنة ثمان وخمسين وقد قاربت السبعين ودفنت بالبقيع

وقد كانت رضى الله عنها على جانب عظيم من الذكاء وفصاحة اللسان وقد رأيت من كلامها فيما مرّ مايدل على قوّة عارضتها وفصاحة لسانها ولها خطب كثيرة في أعلى مكان من البلاغة وقد أوردنا منها فيما مر مادعت اليه المناسبة وفضلا عن هذا فقد كان يتلقى عنها الحديث ويؤخذ عنها العلم فرحمها الله ورضى عنها

(وأما عبد الرحمن) فشهد يوم بدر مع المشركين ثم أسلم وحسن اسلامه ومات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبل يقرب من مكة فأدخلته عائشة الحرم ودفنته واعتقت عنه وكان شهد الجمل معها ويكنى أبا عبد الله وولد له محمد وعبد الله وحفصة وروى المسعودي ان لعبد الرحمن عقباً كثيرا بدوا وحضرا كانوا بين الحجاز والعراق بالموضع المعروف بالضفيسان

(واما محمد بن ابي بكر) فكان يكنى أبا القاسم وكان من نساك قريش وولاه عليّ بن ابي طالب رضى الله عنه مصر فقاتله صاحب معاوية هناك وظفر به فقتله وولد له القاسم لام ولد وكان فقيهاً فاضلا

(وأما أم كلثوم بنت أبي بكر) فتزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت زكريا وعائشة ثم قتل عنها فتزوجها عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي

﴿ عماله وقضاته وكتابه ﴾

لما ولى أبو بكر قال له أبو عبيدة انا أكفيك بيت المال وقال له عمر انا أكفيك القضاء وكان يكتب له عليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت وعثمان

ابن عفان وان غابوا فكان يكتب له من حضر

وكان عامله على مكة عتاب بن أسيد ومات في اليوم الذي مات فيه أبو بكر وقيل مات بعده وكان على الطائف عثمان بن العاص وعلى صنعاء المهاجر بن أبي أمية . وعلى حضرموت زياد بن لبيد الانصارى. وعلى خولان يعلى بن منية : وهي أمه واسم أبيه أمية: وعلى زبيد ورمع ابى موسى وعلى الجَنَد معاذ بن جبل وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي. وبعث جرير بن عبد الله الى نجران . وعبد الله بن ثور الى جرش وعياض بن غُنْم . الى دومة الجندل. وكان بالشام أبو عبيدة وشُرَحبيل ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وكل رجل منهم أمير على جيشه وقيل كانت الامارة العامة لخالد وخالد كان من أشهر مشاهير رجال الحرب في عصره لهذا اخترنا ان نورد سيرته ان شاء الله عقب سيرة أبي بكر لانه من رجاله . وكان على العراق المثنى بن حارثة الشيباني استخلفه فيها خالد لما قصد الشام بأمر أبي بكر رضى الله عنهم اجمعين

﴿ باب ﴾

﴿ صفة أبي بكر ﴾

روي ابن قتيبة عن عائشة انها وصفت أبا بكر فقالت . كان أبيض نحيفاً خفيف العارضين أجنأ لا استمسك ازاره يسترخي عن حقويه معروق الوجه غائر العينين ناتئ الجبهة عاري الاشجع كان يصبغ بالحناء والكتم

هذا ما احببنا ايراده من سيرة أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وقد بذلنا فيما أوردناه من أخباره جهد المستطاع في التحقيق والتنقير وجمع شتيت

الاخبار المتفرقة وضم الاشباه والنظائر منها بعضها الى بعض تسهيلا على المطالعين وتقريباً على المتناولين الاّ انّا اغفلنا من سيرته أبوابا لم نرَ حاجة لايرادها في هذا الكتاب لتكفل كتب السنة بها وتفرقها فيها ولانها ليست من خصائص التاريخ بل هي من خصائص كتب الشريعة كالاحاديث والآثار المروية عنه والاحكام الصادرة منه والاحاديث الواردة بفضله ونحو ذلك مما هو مبسوط في كتب السنة وارد في الصحاح وقد بقي علينا فصل واحد نبسط فيه الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر وبعد ذلك نأتي على سيرة خالد بن الوليد ان شاء الله .

﴿ الحالة الاجتماعية على عهده ﴾

جاء الاسلام قاضيا بتوحيد الله وتوحيد الاجتماع وتوحيد الافكار وتوحيد اللغة وتوحيد المقاصد في عصر غلبت فيه نزغات الاهواء البشرية على النفوس ونزع الامم كافة منازع الوثنية فشوّه مؤمنهم وجه الدين وانحرف عن وجهة الكتاب وأوغل كافرهم في مناحي الخيال فخلق من ضعيف التصور اشكالا من العبادة تختلف باختلاف المنازع والاقطار فتشكلت باشكالها الاخلاق وتنوعت المقاصد وتخالفت الوجهة وتناكرت النفوس وتجزأت الوحدة عند كل أمة في الاجتماع والسياسة والدين فاصبح أهل الكتاب اليهود منهم . بين قرائين وسامرين وربانيين وغيرهم . والنصارى بين يعاقبة وآريوسيين ونسطوريين وما لا يعد من الفرق . وغير أهل الكتاب من الأمم الأخرى بين صابئة ومجوس وزرادشت وبراهمة وما لا يعد من الفرق أيضاً . فكان الانقسام والتجزء في الاجتماع والسياسة تبعاً للنحل قائماً مع الاهواء فباتت الدول المجاورة للعربية وهي فارس والروم (وما أدراك مافارس والروم أعرق

الأمم في المدنية وأقصاها غاية في التاريخ وأرهبها قوة في الارض وأمدها ظلاً عليها) اشبه بشجرة تأصلت جذورها في الارض وتسامقت فروعها في الفضاء فجاءتها ريح عاصف تعتعت أصلها وتلاعبت باغصانها فقصفتها قصفاً، وعصفت فيها عصفاً، فزوت افنانها، وتفرقت مع الريح اغصانها، فكانت دولة الروم غرضاً ترمي اليه الاهواء بسهامها وفريسة تتنازعها العناصر المنفردة منها والاقوام المنشقة عنها والشاغبة عليها كالعرب والارمن واليونان والرومانيين والصقالبة وغيرهم

ودولة الفرس كذلك تفككت اعضاؤها وتجزأت وحدتها فاستبد عمالها بالاطراف وتنازعوا سلطان الاكاسرة وتوثبوا على الملك وتعسفوا بالحكم وظلموا الرعية [١] ومن ثم انحلت من تلك الأمم عرى وحدتها وتفرقت اهواء أهلها وتباينت مقاصد قادتها وزعمائها فانزوت شموس مدنيتها وكادت تندثر من الوجود آثار الحضارة والعلم التي انتهت الى دولتي الفرس والروم وتعود حالة البشر الى أقبح ما كانت عليه قبل تاريخ الحضارة وبعثة الانبياء هداة الامم من فوضى الاجتماع وتفرق الاهواء وانحطاط المدارك والعقول ويأبى الله الاّ أن يتم كلمته في خلقه ويجعل الانسان مظهر قدرته ويديم عليه سوابغ رحمته لهذا أرسل الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة بشيراً ونذيراً وهاديا الى الله باذنه وسراجا منيراً وأنزل عليه القرآن فيه هدى ونور ورحمة للعالمين لينذر به من كان حياً ويحق القول على الكافرين

فامتثل محمد صلى الله عليه وسلم أمر ربه ودعا الناس الى دينه . دعاهم

---

(١) لهذه الاسباب تولى ملك فارس قبيل الفتح الاسلامي نحو ستة ملوك في بضع سنين وكلهم قتلوا بيد الامراء والرعية قتلا (راجع تاريخ الكامل)

الى توحيد الله فلا يشركون به شيئاً . والى توحيد الاجتماع فلا يتفرقون شيعاً يتابذ بعضها بعضاً . والى توحيد الافكار فلا يجادلون في الحق . والى توحيد المقاصد فلا يتخبطهم شيطان الاهواء وتفرقهم عن الحق نزعات النفوس . والى توحيد اللغة فلا يتناكرون وبلسان واحد يتفاهمون

دعا أولاً أهله وعشيرته ثم قومه ثم سائر العرب ثم عامة الناس بما كتب الى ملوكهم الذين اليهم ينتهي أمر الأمم وبهم تقوم الدعوة حتى قامت لله على الناس الحجة ولله الحجة البالغة على الناس أجمعين . وأجاب دعوة نبيه من أجاب وأقبل عليها من أقبل . وكان جلّهم من العرب الذين لم يلبثوا ان تلقوا هـذا الدين حتى ظهر أثره فيهم ظهوراً يبشر بمصير السيادة على الأمم اليهم لما أصبحوا عليه من الاخاء بعد التنافر والاجتماع بعد التفرق والتوحيد بعد الشرك والتنبه بعد الغفلة والايمان بعد الكفر والتحابب بعد التناكر يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون في الله وينصرون دينه ويقيمون حدوده ويواسون الفقير ويؤدون الحق ويرغبون بالقناعة بالكفاف عما بايدي الناس ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

على هذا الاساس قامت حياة المسلمين الاجتماعية وبتلك الاخلاق وصف الله اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه العزيز فقال تعالى فيه (كنتم خير أمـة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) وقال تعالى (محمد رسول الله والذين معـه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا) وقال تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وقال تعالى (انما المؤمنون اخوة) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تمثل حالة المسلمين

يومئذ تمثيلا وتدل على مبلغ تأثير الاسلام في نفوس تلك الأمة البدوية التي أخرجها القرآن من ظلمات الفوضى والجهل الى نور العلم والاجتماع

تلك الحالة الاجتماعية التي كانت في عهد الرسالة كانت كذلك في عهد أبي بكر رضى الله تعالى عنه وقد نهض أبو بكر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم باتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة الشعوب نهوضاً بسطناه فيما تقدم من سيرته فرمى بالجيوش الاسلامية فارس والروم ليكونوا حماة الدعوة بعد اذ لم تنجح فيهم الدعوة مجردة عن القوّة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فخالط المسلمون تلك الأمم البالغة منتهى درجات الرفاه والتنعم المنغمسة فى حمأ الشهوات النفسية ودوخوا بلادهم واستفتحوا كنوزهم ومع هذا فلم يؤثر ذلك في اخلاقهم ولم تدعهم تلك الزخارف الى تنكب المحجة التي تركهم عليها نبيهم لا سيما وانّ القرآن بين أيديهم يهتدون بهديه وأبو بكر من ورائهم يحملهم على طريقته ويؤدبهم بأدب نفسه وكان جل همه منصرفا الى اقامة شعائر الدين والتأدب بآداب النبي صلى الله عليه وسلم خصوصاً في خشونة العيش وكبح جماح النفوس والقناعة بالكفاف هذا مع علمه بان الله سبحانه وتعالى أحلّ الطيبات للمؤمنين وانما هو كان حريصاً على تأدب المسلمين بآداب النبوة وآدابه كي لا يشغلهم عن بث الدعوة والجهاد في الله وتوحيد كلمة الشعوب شاغل الاخلاد الى الراحة والرغبة بنعيم الحياة الفانية وأنى يشغلهم شئ عن أمر الله وهم خير أمة أخرجت للناس وعصرهم خير العصور

وكيف لا يكون خير العصور وقد كان فيه المؤمنون على جانب من سلامة الفطرة وطهارة الاخلاق وتآلف القلوب ونصرة العدل والحق ومواساة الضعيف والقيام بواجب الاخاء وتبادل الثقة والحب لم تبلغ مبلغهم فيه أمة

حديثة عهد في الدين من قبل ولن يتأتى لأمة سواهم من بعد

روى الغزالي في الاحياء ان تبادل الثقة والحب بين المسلمين يومئذ بلغ بهم ان كانوا خلطاء بالمال يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقا لقوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وبلغت بهم معرفة الحقوق والوقوف عند الحدود ان لا يتخاصم منهم اثنان امام القضاء في حق صدراً من خلافة أبي بكر فقد روي انّ عمر بن الخطاب لما استقضاه أبو بكر رضي الله عنهما بقي سنة لا يحضر عنده خصمان فى دعوى ولا يتخاصم لديه اثنان في حق

ولما كان أبو بكر رضي الله عنه خير قدوة للمسلمين وقد كان على جانب من التواضع وشظف العيش وخشونة الملبس مع غناه ووفر دخله من أملاكه فقد اقتدى به المسلمون وتخوشنوا في مأكلهم وملبسهم وتعفف كبارهم حتى عن التنعم بدخلهم فقد قال المسعودي فى تاريخه انه لما قدم على أبي بكر زعماء العرب واشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل وبرد الوشي المثقل بالذهب والتيجان والحبرة وشاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد دون ما كان معه من عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلى ولماشاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه حتى انه رؤي يوما فى سوق من أسواق المدينة وعلى كتفيه جلد شاة ففزعت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والانصار قال ، فأردتم أن أكون ملكا جباراً في الاسلام لا والله لا تكون طاعة الرب الاّ بالتواضع والزهد ، قال المسعودي وتواضعت الملوك ومن

ورد عليه من الوفود بعد التكبر وذلوا بعد التجبر

ولا جرم انّ قدوة الأمم رؤساؤها وقادتها الى الخير والشر ملوكها ولم يرنا التاريخ مصارع قوم هلكي بشقاء الحياة الا بملوكهم كما لم يرنا تسوّد قوم وتمتعهم بسعادة الحياة الا اذا استقام ملوكهم

هذه كانت الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر رضى الله عنه وقد بسطناها اليك على وجه الاجمال لتتذكر وتعتبر . وتتقي الله في نفسك وتزدجر . والله ولىّ الصالحين

وهذا آخر الكلام على خلافة أبي بكر رضى الله عنه وارضاه ووفق ولاة امورنا للنظر فيما كان عليه الخلفاء من قبل . والله يعصمنا واياهم من الجهل.

﴿ خالد بن الوليد ﴾

﴿ باب ﴾

(حاله في الجاهلية)

« نسبه وأصله »

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو سليمان وقيل أبو الوليد القرشى المخزومى أمه لبابة الصغرى وقيل الكبرى والاول أصح وهي بنت الحارث بن حزن الهلاليه وهى اخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم واخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب وهو ابن خالة اولاد العباس بن عبد المطلب الذين من لبابة

﴿ شرفه في قومه ومكانته عندهم ﴾

تقدم معنا في صدر الكتاب ان خالد بن الوليد ممن انتهى اليهم الشرف في الجاهلية من قريش وانه كان على الاعنة والقبة وابنا ثمة المراد من القبة والاعنة فلا حاجة للاعادة هنا لهذا كان في وقائع بدر وأحد والخندق على خيل المشركين ولم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم الا مابعد الفتح من الوقائع وقد كان خالد في قومه موصوفا بالشجاعة محبباً فيهم مقدما عندهم بالحروب موفقاً للنصر عارفا باصول الحرب حائزاً على صفات الجندية التي يلازمها في الغالب خشونة الطبع وعنفوان الشجاعة والاخذ بالشدة والتسرع الى المعاقبة لهذا لما بدر منه بعد اسلامه مابدر من التسرع في حادث مالك بن نويره قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ان سيف خالد فيه رهق وألح على أبي بكر بعزله عن قيادة الجند خوف استرساله في الشدة على المحاربين والاسلام يأبى الشدة و يأمر بالاناة والحلم وعدم الامعان في ايذاء المقاتلين ومع هذا فان الاسلام غيّر كثيراً من طباع خالد وألان من شدته فلم تبدر منه في حروب فارس والروم أدنى بادرة تؤخذ عليه

﴿ باب ﴾

﴿ اسلامه وصحبته ﴾

(اسلامه)

اختلف في وقت اسلام خالد فقال بعضهم انه أسلم سنة ثمان للهجرة وقال بعضهم سنة خمس وقال بعضهم سنة سبع وهو الاصح فقد كان اسلامه

بعد الحديبية وكانت عمرة الحديبية في ذى القعدة سنه ست وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن العاص وطلحة بن أبى طلحة العبدرى في صفر فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه: رمتكم مكة بأفلاذ كبدها:

(صحبته)

لما أسلم خالد أنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جيش من المسلمين أميره زيد بن حارثة الى مشارف الشام من أرض البلقاء لغزو الروم وكانت لهم هناك وقعة مؤتة العظيمة التي استشهد فيها زيد ثم أخذ الراية بعده جعفر بن أبى طالب فاستشهد أيضاً ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقتل أيضاً ثم اتفق المسلمون على دفع الراية الى خالد بن الوليد فأخذها وقاتل بها قتالا شديداً حتى اندق يومئذ في يده سبعة أسياف ثم ما زال يدافع القوم حتى انحازوا عنه ثم عاد بجيش المسلمين

وفي هذه الغزوة سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً من سيوف الله وذلك انه أوحي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن قتل من الامراء فصعد يومئذ المنبر وأعلم بقتل زيد وجعفر وابن رواحة وقال ، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد وفتح الله عليه ومن ثم سمي خالد سيف الله

وكان خالد من حين اسلم يوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أعنة الخيل فيكون في مقدمتها في محاربة العرب وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة . وأمره يومئذ ان يدخل من أسفل مكة من الليط ومعه أسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب وهو أول يوم أمَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد

وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو قد جمعوا

ناساً بالخندمة ليقاتلوا ومعهم الاحابيش وبنو بكر وبنو الحرث بن عبد مناة فلقيهم خالد فقاتلهم فهزمهم بعد ان قتل منهم ثلاثة عشر رجلا

ولما فتحت مكة واذل الله قريشاً لرسوله وقد كانوا أشدّ العرب عداوة له وايذاء لاصحابه ووقوفاً دون دعوته بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو من حول مكة من العرب الى الاسلام وكان فيمن بعث خالد بن الوليد بعثه الى بني جذيمة داعياً لا مقاتلا فذهب فقاتلهم وقتل منهم فلما انتهى الخبر الى النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه الى السماء ثم قال (اللهم انى ابرأ اليك مما صنع خالد) ثم أرسل علياً ومعه مال فودى لهم الدماء والاموال ثم جاء خالد الى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر وقال ان عبد الله بن حذافة السهمي أمرني بذلك عن رسول الله

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العُزَّى ببطن نخلة وكان بيتاً عظيما لمضر تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها وكان سدنتها بنو شيبان من حلفاء بني هاشم فهدمها خالد وقال

ياعزّ كفرانك لاسبحانك   انى رأيت الله قد أهانك

وكان خالد على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين في بني سليم فجرح خالد فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفث فى جرحه فبرئ وأرسله أيضاً الى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فأسره وأحضره عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالحه على الجزية ورده الى بلده ، وأرسله أيضاً سنة عشر الى بني الحارث بن كعب بن مذحج بنجران وأمره ان يدعوهم الى الاسلام فان أجابوا يقيم فيهم ويعلمهم شرائع الاسلام وان أبوا يقاتلهم فخرج خالد حتى قدم عليهم وبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون الناس الى

الاسلام فاسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم اليه وأقام بينهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه وكتب بذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا ستأتي صورته فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يستدعيه ومن يريد الوفود معه من القوم فاقبل وأقبل معه الوفد وفيهم قيس بن الحُصَيْن بن يزيد بن قَنَان ذى الغُصَّة ويزيد بن عبدالمدان ويزيد بن المحجَّل وغيرهم

ولم يزل خالد مدة صحبته يجاهد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافح اعداء الاسلام ويحرص على رضاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له بعد من جميل الاثر في قتال اهل الردة وفتوح البلدان العظيمة ما رأيت في سيرة أبي بكر ونتلوه عليك الآن ملخصاً من تاريخ حروبه في الاسلام

باب

حروب خالد وفتوحاته في عهد أبي بكر

(حروبه في الردة)

{ حربه مع طليحة }

تقدم معنا في سيرة أبي بكر رضي الله عنه انه عقد لخالد وأمره بطليحة ابن خويلد فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح وكان أبو بكر بعث عديّ ابن حاتم[1] الطائي قبل خالد الى طيء واتبعه خالداً وأمره ان يبدأ بطيء ومنهم

(١) هو عدي بن حاتم الجواد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فألقى له وسادة وأجلسه عليها وجلس هو على الارض فأسلم وسر باكرام رسول الله له سروراً عظيما وكان له في أيام الردة أحسن الاثر رضي الله تعالى عنه

يسير الى طليحة ببزاخة ويثلّث بالبطاح حيث يقيم مالك بن نويرة بقومه وان لا يبرح اذا فرغ من قوم حتى يستأذنه

سبق عديّ خالداً الى قومه ودعاهم فاجابوه وقالوا له استقبل جيش خالد وأخره عنا حتى نستخرج مَن عند طليحة منا لئلا يقتلهم فاستقبل عديّ خالداً واخبره بالخبر فتأخر خالد وأرسلت طيء الى اخوانهم عند طليحة فلحقوا بهم ولما عزم خالد على قصد جديلة[1] استمهله عديّ عنهم ايضاً ولحق بهم يدعوهم الى الاسلام فاجابوه فعاد الى خالد باسلامهم ولحق بالمسلمين الف راكب منهم كل هذا بهمة ذلك الشهم الكبير عديّ بن حاتم رضى الله تعالى عنه حتى قيل يومئذ عنه انه خير مولود في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم

ولما عزم خالد بن الوليد على قصد طليحة أرسل عكاشة بن محصن وثابت ابن أقرم الانصاري طليعة فلقيهما حبال أخو طليحة فقتلاه فبلغ خبره طليحة فخرج هو وأخوه سلمة فقتلا عكاشة وثابتاً واقبل خالد بالجيش فرأى عكاشة وثابتا قتيلين فجزع لذلك المسلمون وانصرف بهم خالد نحو طيء فقالت له طي نحن نكفيك قيساً فان بني أسد حلفاونا فقال قاتلوا أيّ الطائفتين شئتم فقال عديّ بن حاتم لو نزل هذا على الذين هم أسرتي الادنى فالادنى لجاهدتهم عليه والله لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم فقال خالد ان جهاد الفريقين جهاد لا تخالف رأي أصحابك وامض بهم الى القوم الذين هم لقتالهم أنشط وقد أصاب خالد بهذا الرأي ورضي به عديّ ثم سار جيش المسلمين على تعبية الى بزاخة حيث التقى بطليحة ومن معه ونشب القتال بين الفريقين وكان مع طليحة عيينة بن حصن في سبعمائة من بني فزارة فقاتلوا قتالا شديداً حتى اذا اشتدت

(١) جديله بطن من طيء

عليهم وطأة الحرب وزعزعتهم صدمات المسلمين كرّ عيينة على طليحة وسأل هل أوحي اليه بشيء ؟ قال لا فتركه وذهب وقاتل ثم عاد فقال له لا ابالك فهل جاءك جبريل ؟ قال لا فقال عيينة حتى متى قد والله بلغ منا ثم رجع فقاتل ثم كرّ على طليحة فقال هل جاءك جبريل؟ قال نعم قال فماذا قال لك قال قال لي ان لك رحى كرحاه وحديثاً لا تنساه فقال عيينة قد علم الله انه سيكون حديث لا تنساه انصرفوا يا بنى فزارة فانه كذاب فانصرفوا وانهزم الناس وكان طليحة قد أعد فرسه وراحلته لامرأته النوار فلما غشوه ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها وقال يا معشر فزارة من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بأمرأته فليفعل ثم انهزم ولحق بالشام ونزل على كلب فلما بلغه أنّ أسدا وغطفان قد أسلموا اسلم وبقى فى كلب حتى توفى أبو بكر رضى الله عنه واستخلف عمر فأتى اليه وبايعه ثم حضر بعد ذلك فتوح نهاوند وكان من الشجعان المشهورين وأبلى فى حروب فارس بلاء حسناً وفيها استشهد

هكذا انقضى أمر طليحة كما انقضى أمر غيره من المتنبئين الكذابين وهيهات للباطل ان يقوم فى جانب الحق وللكذب ان يغلب على الصدق (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق.)

لما انهزم جند طليحة اجتمع الفلّ من غطفان وسليم وهوازن وغيرهم على امرأة اسمها أم زمل من بنى فزارة فأمرتهم بقتال المسلمين فلما بلغ خالداً الخبر سار اليها بجيشه وقاتلها ومن اجتمع معها قتالا شديداً فقتلت وتفرق جمعها

﴿ حادثة مالك بن نويرة ﴾

ثم قصد خالد مالك بن نويرة وكان كما تقدم معنا فى سيرة أبي بكر

رضي الله عنه متحيراً يقدم للردة قدماً ويؤخر أخرى وكان رؤساء تميم كلهم قدموا بالصدقات على أبي بكر كالزبرقان وصفوان بن صفوان ووكيع بن مالك وغيرهم الاّ مالك بن نويرة بقي متردداً حتى اذا بلغه مجيء خالد ندم على ما فعل وفرق قومه فى البطاح ونهاهم عن الاجتماع وقال لهم يا بنى يربوع انّا دعينا الى هذا الامر فأبطأنا فلم نفلح وقد نظرت فيه فرأيت الامر يتأتى لهم بغير سياسة واذا الامر لا يسوسه الناس فايا كم ومناواة قوم قد صنع لهم فتفرقوا وادخلوا فى هذا الامر

ولما أراد خالد قصد البطاح تخلفت عنه الانصار وقالوا قد عهد الينا الخليفة ان نحن فرغنا من بزاخه أن نقيم حتى يأتينا أمره فقال خالد قد عهد اليّ أن أمضي وأنا الامير ولو لم يأت اليّ كتاب بما رأيته فرصة وكنت ان أعلمته فاتتنى لم أعلمه وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد لم ندع ان نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل فأنا قاصد الى مالك ومن معى ولست أكرههم

ولقد صدق خالد فيما قال لو لم يكن فى تعجيله بأمر مالك مالا تحمد عقباه لهذا امتنع الانصار عن المسير معه ثم لما سار ندموا وقالوا ان أصاب القوم خيراً حرمتموه وان أصيبوا ليجتنبنكم الناس فلحقوه ولما قدم خالد البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الاسلام وان يأتوه بكل من لم يجب وكان قد أوصاهم أبو بكر (ان يؤذنوا اذا نزلوا منزلا فان أذن القوم فكفوا عنهم وان لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا وان أجابوكم الى داعية الاسلام فسائلوهم عن الزكاة فان أقروا فاقبلوا منهم وان أبوا فقاتلوهم)

لما بث خالد السرايا جاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر من ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم وكان فيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد انهم

أذنوا فلما اختلفوا أمرهم خالد فحبسوا في ليلة باردة فأمر خالد منادياً فنادى دافئوا أسراكم وهي في لغة كنانة القتل فظن القوم انه أراد القتل ولم يرد الا الدفء فقتلوهم فقتل ضرار بن الازور مالكا وسمع خالد الواعية فخرج وقد فرغوا منهم فقال اذا أراد الله أمراً أصابه وتزوج خالد أم تميم امرأة مالك

ولما انتهى الخبر الى أبي بكر وعمر رغب عمر الى أبي بكر أن يستدعي خالداً ويقتص منه وكان عمر رضى الله عنه شديداً يحب تعجيل العقوبة وأبو بكر يحب الاناة وعدم التعجيل في العقوبة ولما ألح عمر على ابي بكر بشأن خالد قال يا عمر تأول خالد فاخطأ فارفع لسانك عن خالد فاني لا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين، وكتب الى خالد ان يقدم عليه ففعل ودخل المسجد وعليه قباء وقد غرز فى عمامته أسهماً فقام اليه عمر فنزعها وحطمها وأسمعه كلاما أليما فلم يكلمه ودخل على أبي بكر وأخبره بجلية الخبر واعتذر اليه فقبل عذره وودى مالكا من بيت مال المسلمين

ولا يخفى أن قتل مالك بن نويرة اذا صح ان سببه سوء فهم كما تقدم فخالد غير مسؤل عن دمه هذا اذا صح انه أظهر الاسلام حين رأى جيش المسلمين الا ان تردده فى الامر من بدء الردة يدل على أن الرجل لم يخلص للاسلام والا لكان تابع بقية سادات تميم بارسال الصدقة الى أبي بكر ولم يبطئ الى حين وصول جند المسلمين اليه وهذا أعظم عذر يمكن أن يعتذر به عن خالد بن الوليد رضي الله عنه فيما لو كان قتل مالك مقصوداً أو معجلا به من قبل خالد بن الوليد ولولا ذلك لكان قتله لمالك ثلمة فى تاريخه لا يسدها الا جهاده العظيم في فتوح العراق والشام

﴿ حربه مع مسيلمة ﴾

تقدم الكلام عما أصاب عكرمة بن أبي جهل في تعجيله بحرب مسيلمة قبل أن يصل اليه شُرحبيل بن حسنة ولما انتهى الخبر بذلك الى أبي بكر كتب لشرحبيل بالتربص وأتبعه خالد بن الوليد بعد مجيئه الى المدينة واعتذاره عن قتل مالك بن نويرة وأوعب معه المهاجرين والانصار فتقدمهم الى البطاح ولما تكاملت عدتهم سار بهم الى قصد مسيلمة فبادر شرحبيل خالداً بقتال مسيلمة فنكب فلامه خالد على تعجيله ولما بلغ مسيلمة دنو خالد عسكر بعقرباء باربعين الف مقاتل وقيل بستين الفاً وخرج اليه الناس وخرج مجاعة بن مرارة في سرية يطلب ثاراً لهم فى بنى عامر فأخذه المسلمون وأصحابه فقتلهم خالد واستبقاه لشرفه فى بنى حنيفة

ثم ان مسيلمة ترك الاموال وراء ظهره وتقدم لقتال المسلمين وقام ابنه شرحبيل يحرّض بنى حنيفة على القتال وينفض يديه من نبوة أبيه قائلا لهم ، يا بني حنيفة اليوم يوم الغيرة قاتلوا عن احسابكم وامنعوا نساءكم ، فنشبت الحرب ودارت بينهم وبين المسلمين رحى الطعن والضرب واشتدّ القتال ولم يلق المسلمون حربا مثلها قط حتى نزعوا الى الهزيمة وانكشفوا عن فسطاط خالد ثم تداعوا واقتحم أهل النجدة منهم كزيد بن الخطاب وثابت بن قيس وغيرهما صفوف العدو وحمل خالد بالناس حتى ردوا الاعداء الى أبعد مما كانوا واشتدّ القتال وتذامرت بنو حنيفة وتراموا على الموت وقاتلوا قتالا شديداً والمسلمون صامدون حتى قتل من أولى البصائر منهم ناس منهم زيد بن الخطاب القرشي وأبو حذيفة وسالم مولاه وأضرابهم

لما رأى خالد ما الناس فيه خشى من أن ينهزم اخلاط العرب فتختل

صفوف المسلمين ويساق معهم أهل النجدة من الانصار والمهاجرين فنادى في الناس ان امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كلّ حيّ ولنعلم من أين نؤتي. فامتازوا ولما امتازوا قال بعضهم لبعض اليوم يستحى من الفرار وحينئذ ظهر انّ القتل في المهاجرين والانصار وأهل القرى أكثر من البوادى وعلم خالد ان الحرب لا تركد الا بقتل مسيلمة فطلبه للبراز فبرز اليه فعرض عليه أشياء فبينما هو يتظاهر بمشاورة شيطانه ركبه خالد فانهزم امامه فصاح خالد بالناس فركبوا القوم فانهزموا وقالوا لمسيلمة أين ما كنت تعدنا فقال قاتلوا عن احسابكم ونادى مناديهم يابني حنيفة الحديقة الحديقة فدخلوها واغلقوا عليهم بابها

فجاء أحد أبطال المسلمين الانجاد وهو البراء بن مالك وقال يامعشر المسلمين القونى عليهم في الحديقة فاحتمل حتى أشرف على الجدار واقتحمها عليهم وقاتل على الباب حتى فتحه فدخلوها عليهم وأقتتلوا أشد قتال ولم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلمة واشترك في قتله وحشى مولى جبير بن مطعم ورجل من الانصار ولما علم بقتله بنو حنيفة ولوا الادبار فاخذهم السيف من كل جانب

كان مجاعة بن مرارة اسيراً مع خالد كما قدمنا فقال لخالد بعد انكسار بني حنيفة هلمّ الى الصلح على ماورائي فصالحه على كل شيء دون النفوس فانطلق ليشاور القوم فلم يجد في الحصون الاّ النساء والصبيان ومشيخة فانية وبعض رجال ضعاف فألبسهم الحديد وأمرهم ان يشرفوا من الحصون ثم عاد الى خالد وقال له قد أبوا ان يجيزوا ماصنعت. وكان قصده بهذا ايهام خالد لاجل ان يأخذ الامان للرجال ويصالح خالدا على السبي وقد نجح بهذه الخدعة اذ رأى المسلمون ان يعودوا على ظفر بعد ان نهكهم طول اللقاء فصالحه خالد على الفضة والذهب وربع السبي وقيل نصفه وانتهى الامر

وقد ظهر من المسلمين في هذه الحرب من الثبات والنجدة والصبر على المكروه مالم يظهر من جيش قط واستحر القتل في المهاجرين والانصار يومئذ وقتل من القراء جمع وهذا مادعا أبا بكر وعمر للمبادرة الى جمع القرآن كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب

ومن مكائد خالد وحسن بصيرته في هذه الحرب أمره للمسلمين بان يمتاز الاحياء والقبائل بعضهم عن بعض لما اشتدت عليهم وطأة الحرب ليظهر أهل البلاء منهم ويستحي الناس من الفرار فيقاتلوا حتى الموت وقد فعلوا وشتتوا شمل ذلك الجيش العظيم بقوة اليقين وحسن تدبير خالد بن الوليد فرضي الله عنه وعنهم أجمعين

باب

فتحه العراق وحروبه فيه

في المحرم من السنة الثانية عشرة للهجرة بعد فراغ خالد من اليمامة أمره أبو بكر بالتوجه الى العراق وقد تقدم معنا ذكر مسير خالد وفتوحه في العراق في سيرة أبي بكر ونحن ذاكرون هنا طرفا من أهم أخباره في حرب اهل العراق مما لم يذكر بالتفصيل من قبل فنقول

وقعة الحفير

اول وقائع خالد بن الوليد في العراق وقعة الحفير قرب خليج البصرة وكان اسم صاحبها هرمز فبرز الى خالد بجيشه مقترنين بالسلاسل كي لا يفروا فطلبه خالد للبراز فبرز اليه ولم يتجاولا الا قليلا حتى احتضنه خالد فحمل عليه

أصحابه فما شغله ذلك عن قتله وحمل القعقاع بن عمرو بالمسلمين فازاحوا الفرس وركبهم المسلمون فهزموهم وأخذ خالد سلب هرمز وكان على رأسه قلنسوة الامارة أو الشرف وكان قد تم شرفه ومن عادة الفرس اذا تم شرف الانسان ان تكون قلنسوته بمائة الف

﴿ كلمة على الالقاب والرتب ﴾

هكذا قال المؤرخون بشأن هذه القلنسوة والظاهر ان القلنسوة كانت عند الفرس من شعار الشرف يعلو ثمنها وينخفض بنسبة شرف صاحبها في الدولة وهي من قبيل الرتب والالقاب التى أحدثت بعدُ في دول الاسلام وأول من أحدثها العباسيون أخذاً عن الاعاجم وذلك كالمنصور والمهدى مثلا في القاب الخلفاء ونظام الملك في الوزراء وشرف الدولة وعز الدولة في الامراء وما لا يحصى من الالقاب والنعوت التى وصلت في القرون الوسطى الهجرية قرون الجهل والعتو والجبروت قرون الضعف والانحلال الى درجة تشمئز منها النفس ويأباها عقل الحكيم ومن أراد أن يرى شيئاً منها فليراجع تواريخ ملوك الطوائف من الدول التركية والايوبية والجركسية خصوصاً في المنشورات التي كانت تصدر اليهم من ديوان الخلافة ليرى كيف كانت ترص الالقاب والنعوت لامراء وملوك ما أجدهم بقول الشاعر الاندلسى الحكيم

القاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

ولا جرم ان توفر تلك الالقاب والنعوت في الدول من نتائج التطلع الى المجد الباطل والاعراض عن المجد الحقيقيّ والشرف الذاتي ومنشأ هذا أمران (فقد التربية وانحلال الدول)

أما فقد التربية فلأنه يضعف قوّة الارادة ويذهب بآثار العلم ويقضى

على حب الفضيلة فيميل بالناس الى الخمول ويتنكب بهم طرق الفضائل فيصابون بفتور الهمم وانحلال العزائم فيقعد بهم ذلك عن تناول الشرف الذاتي من طرق الجد والعمل . ويدعوهم الى طلب المجد الباطل من طرق الرياء والمداهنة والتحيل والكسل ، وغير ذلك من الامور التي تدل على فقد الشمم وموت العواطف وانحطاط ملكات العمل والعلم وقصاراها ضعف الأمم وتدرجها في مدارج التدني والانحطاط حتى آخر درجة من الهبوط الى هوّة الدمار والفناء حيث يبدأ غيرها بالصعود ممن كان ينازعها البقاء وهكذا كان الشأن مع الفرس والعرب لما نازعهم هؤلاء البقاء وغلبوهم عليه مع حداثة ظهورهم في الدولة والملك (وتلك الأيام نداولها بين الناس)

وأما انحلال الدول فلانه يحل عرى الألفه وتتنا كر به القلوب وينفضّ الناس من حول الامير لضعف أمره فيهم أو تعسفه بالحكم عليهم فيحتال لاجتذاب قلوب أفرادهم ويتألفهم تارة بالرشا وتارة بمنح الالقاب وضخامة التشريف بشارات الدولة فتفسد بذلك اخلاقهم وتغتر بمظاهر الفخفخة الكاذبة نفوسهم فيتطلعون الى رتب الدولة والقاب التشريف الباطلة وهكذا كان الشأن لما انحل أمر الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في مصر وابتدع الخلفاء من القاب التشريف الكثيرة مايتألفون به قلوب الناس ويجتذبون اليهم افئدة الامراء المتوثبين على الملك الغالبين على أمر الخلافة ولكن لم يغن ذلك عن سقوط خلافتهم وانحلال دولتهم و (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)

ومن هذا تعلم مقدار الفساد الذي دخل على الدول الاسلامية من طريق التقليد للاعاجم في أمور كثيرة أفسدت اخلاق الامة وأدخلت الوهن على أصول التربية الاسلامية التي تأسست عليها دولة الخلفاء الراشدين ومن بعدهم

من الامويين وأخصها ترفع تلك الدول عن السفاسف وتطلع الناس في عهدها الى أعلى مراقي المجد التي لا يبلغها الا ذوو الشمم والجد الآخذون بنواصي الحكمة السالكون مسالك الرجولية المعرضون عن الاغترار بزخارف المجد الباطل حتى لقد كان الخلفاء لا يخاطبون بغير أمرة المؤمنين ولا يخاطبون أمراءهم وولاتهم بالكنى والالقاب بل هم كانوا لا يعرفون لها اسما ولا يقيمون لها رسما وقد اقتدى بهم في هذا العصر أعظم الدول جداً وقوة وغنى وثروة وهي جمهورية امركا الشمالية التي حرم في دولتها ايجاد الشارات والرتب وأعرضت عن أمثال تلك الالقاب الكاذبة والسفاسف المضرة بالاخلاق والتربية فنشط سكان تلك المملكة العظيمة الى السعي وراء المجد الحقيقي المتأتي عن العمل والعلم حتى بلغوا مكانا من المجد والقوة تحسدهم عليه كل دول الارض الآن ولله في خلقه شؤون وللسعادة والشقاء سبيلان يسلك الاول منهم العاقلون والثاني الجاهلون

﴿ وقعة الثنى وما بعدها ﴾

لما اجتمع خالد بهرمز في الحفير أرسل الثاني كتابا الى كسرى يستمده فأمده بجيش عظيم بقيادة قائد اسمه قارن فلما انتهى الجيش الى المذار لقي المنهزمين من جيش هرمز فاجتمعوا ورجعوا الى الثنى وهو النهر وسار اليه خالد وقاتلهم فهزمهم وقتل وسبى وكان في السبي يومئذ ابو الحسن البصري الشهير وكان نصرانياً وأمر خالد على الجند سعيد بن النعمان وعلى الحرز سويد بن مقرن وأمره بنزول الحفير وأقام يتجسس أخبار العدو فعلم أن كسرى ازدشير بعث اليه بجيش بقيادة الاندرز عز جله من العرب الضاحية والدهاقين فسار اليهم خالد ووضع لهم كمينا فالتقوا عند الولجة ولم تلبث ان نشبت بينهم الحرب حتى خرج

الكمين على العدو وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم فقتل منهم من قتل وانهزم من انهزم ومات قائدهم الاندر زغر عطشا في الفلاة

أصيب في هذه الواقعة كثير من نصارى بكر بن وائل فاستنفروا اخوانهم واستمدوا أزدشير فأمدهم بهمن جازويه وكان بقشينانا وأمره بالقدوم على نصارى العرب بالليس فقدم امامه قائداً اسمه باجان وأمره بالتوقف ليذهب ويشاور أزدشير فيما يفعل فوجده مريضاً فتربص عنده

وأما باجان فاجتمع عليه نصارى عجل وتيم اللات وضبيعة وجابر بن بجير وعرب الضاحية فسار اليهم خالد وكانوا على طعامهم فعاجلهم عنه فقاموا للحرب فهزمهم شر هزيمة واكثر فيهم القتل والاسر

ثم بعد هذه الوقعة قصد خالد الحيرة وحمل الاثقال بالنهر ولما بلغها صالحه أهلها بعد مناوشات خفيفة وقد تقدم من خبرها في سيرة أبي بكر ما فيه الكفاية ، وكان فتح الحيرة في شهر ربيع الاول من سنة اثنتى عشرة وكتب لهم خالد كتابا بذلك

ولما انتهى خالد من أمر الحيرة أتته الدهاقين من النواحي فصالحوه على ما بين الفلاليج الى هرمز جرد على الفي ألف وقيل ألف ألف سوى ما كان لآل كسرى وبعث خالد عماله ومسالحه وبث عيونه وأرصاده وأرسل السرايا فمخروا دجلة الى أرض فارس وأرسل خالد كتبه الى ملك فارس ومرازبتها يدعوهم الى الاسلام وفي غضون ذلك هلك كسرى وعاد أمر الفرس الى الاضطراب يولون ملكا ويعزلون آخر شأن الامم اذا انحلت رابطتها والدول اذا انتكث فتلها وأذن الله بانصرام أجلها

وبينما الفرس فى شاغل الاضطراب أخذ خالد يتم فتح العراق فسار الى الانبار

وكان بها شيرزاد فخرج لقتاله فلم يفلح وطلب المصالحة فصولح وخرج الى بهمن جازويه ناجيا بنفسه ثم صالح خالد من حول الانبار واستخلف عليها الزبرقان ابن بدر وسار الى عين التمر فاستقبله عاملها للفرس مهران بن بهرام جوبين بجند عظيم من العجم وعقة بن أبي عقة بجمع كثيف من العرب من النمر وتغلب واياد فتقدم العرب لمصادمة خالد فهجم خالد ذلك البطل الصنديد على عقة وهو يقيم صفوفه فاحتضنه كما يحتضن الباشق العصفور وأخذه اسيراً فانهزم العرب بدون قتال وتبعهم بالهزيمة مهران بجنود الفرس وتحصن من فى الحصن أما خالد فنازلهم وافتتحه وسبي من فيه فكان من جملة السبي سيرين بن محمد بن سيرين ونصير أبو موسى بن نصير فاتح الاندلس بعدُ وروى بعضهم ان نصيراً عربيٌ من أراشة من بليّ سبي في أيام أبي بكر فاعتقه بعض بنى أمية فصار الى الشام وولد له موسى بقرية هناك تسمى كفر مري

ومنها سار خالد الى دومة الجندل حيث كان يقيم على حصارها عياض ابن غنم الذي أمره أبو بكر أن يأتي العراق من أعلاه وخالد من أسفله فخرج الجودي صاحب دومة الجندل الى خالد بطائفة من قومه وأرسل الى قتال عياض طائفة أخرى فدُحر الطائفتان في آن واحد وأخذ المسلمون الحصن ومن فيه

ثم كانت بعد ذلك وقعة الحصيد والخنافس ومضيح البرشاء والثنى والزميل وكانت آخر وقائعه بالفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة فاجتمعت عليه هناك جنود الروم والعرب وفارس وقاتلوه فقاتلهم ومزق جموعهم ثم أمر بالرجوع الى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة وسار هو الى مكة فحج وعاد ولحق بساقة الجيش قبل وصوله الى الحيرة على ما رواه المؤرخون

كانت هذه الحرب آخر حروب خالد التي أصلى الفرس والعرب في العراق نارها وقضى على ملك الفرس اذ مهد السبيل الى تدويخ فارس وإزالة دولة الاكاسرة وقد كانت أعظم الدول حينئذ شأناً وأرقاها مكاناً الآ انها بلغت من الكبر عتياً ، ومن فشل السياسة مكاناقصياً ، فجاءها جند الاسلام بادي الشباب ناعم الإهاب فأسس ملكه الجديد في تخوم بلادها لينساح فى احشائها ، وينشر دعوة الاسلام في ارجائها ، ويقضي قضاءه على الوثنية وأهلها والشرك وبنيه فتتوحد كلمة الأمم فى السياسة واللغة والدين وينصر الله حزبه (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

قد كانت حروب العراق ايام خالد أشدما لقي المسلمون من حرب الفرس لاجتماع قبائل العرب فى العراق وجند فارس على حرب المسلمين حتى لقد كان أهل العراق ايام علي اذا بلغهم عن معاوية شيء يقولون نحن أصحاب ذات السلاسل ويسمون ما بينها وبين الفراض ولا يذكرون ما بعد الفراض احتقاراً للذى كان بعدها

﴿ امراء خالد وقواده ﴾

ممن كان له البلاء الحسن في فتوح العراق مع خالد بن الوليد من أمراء الجند الذين كان يبعث معهم بالسرايا يدعون الى الاسلام أو الجزية ويقاتلون من امتنع عن قبول احدى الخصلتين . المثنى بن حارثة الشيبانى وبشير بن سعد الانصاري وحنظلة بن الربيع التميمي المعروف بحظلة الكاتب والنسير بن دسيم ابن ثور وجرير بن عبد الله البجلي وضرار بن الازور وضرار بن الخطاب والقعقاع بن عمرو وعتيبة بن النهاس وغيرهم من أهل النجدة والباس ، والاربعة الاخيرون كانوا من أمراء الثغور

﴿ جغرافية العراق ﴾

قالوا سمي العراق عراقا تشبيهـا له بعراق القربة وهو الخرز الذي من اسفلها وهو على ضفتي دجلة ويحد العراق شمالا الجزيرة وكردستان ، وشرقا بلاد العجم وجنوبا خليج العجم المسمى (أيضاً بحر فارس) والبادية ، ويفصل العراق عن الجزيرة بخط مفروض من فلوجة على الفرات بقرب الانبار الى بغداد ومن ثم على شرقي دجلة الى مصب نهر الزاب الاصغر فيها ويفصل بينه وبين بلاد فارس سلسلة جبال خوزستان الممدة جنوبا من جبال كردستان

وكان العراق من قـديم الزمان من مواطن العـرب من بكر بل كلّ الجزء الواقع بين دجلة والفرات وهو العراق والجزيرة كان قبل الاســلام من مواطن العرب من ربيعة وبكر وبطونها وكانت للعرب دولة في العراق وهي دولة المنـاذرة تدفع الاتاوة الى الفرس كما كان لهم دولة في الشام وهى الدولة الغسانية تدفع الاتاوة الى الروم فلما جاء الاسلام قضى على دولتي المنـاذرة وغسان كما قضي على دولتي الروم والفرس

﴿ باب ﴾

(سفره الى الشام وحروبه فيها)

تقدم معنا في سيرة أبي بكر رضى الله عنـه ان جنود المسلمين في الشام اجتمعوا في اليرموك وأخذوا يطاولون العـدو ويطاولهم وكتبوا الى أبي بكر يستمدونه فكتب أبو بكر الى خالد بن الوليـد ان يسير بنصف النـاس الى الشام ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني فصـدع خالد بالامر وسار في ربيع الاول ويقال في ربيع الآخر سنة ١٣ وكان مسيره من الحيرة على قول بعضهم وبعضهم قال انه سار من عين التمر ولمـا سار استخلف

على العراق المثنَّى بن حارثة الشيباني وقال له (ارجع رحمك الله الى سلطانك فغير مقصّر ولا وانٍ)

وقد كان المثنَّى استأذن أبا بكر بحرب من حوله من الفرس كما قدمنا فأذن له وولاه جند العراق ثم أرسل خالداً الى العراق وأمر المثنَّى بالسمع والطاعة له ولما سار خالد الى الشام عادت امارة الجند الى المثنَّى وكان خير كفؤ لها بعد خالد بن الوليد

سار خالد بمن معه من جند الاسلام وكانوا ستة آلاف على رواية بعضهم وتسعة على رواية البعض الآخر وقال بعضهم ان أبا بكر أمره ان يأخذ معه أهل النجدة فسار بخمسمائة ولعل الرواية الاولى أصح وأغار في طريقه على جمع من تغلب وكلب على ماء يسمى قراقر ومن ثم أخذ بجيشه طريق المفازة مع خطر المسير فيها لفقد الماء منها وقال له الدليل واسمه رافع بن عميرة الطائي انك لن تطيق قطع المفازة بالخيل والاثقال فقال لابد لى من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم ، واحتاط لقطع المفازة بأن أمر صاحب كل جماعة ممن معه بأخذ الماء للشبعة لخمس وان يعطش من الابل الشرف ما يكتفي به ثم يسقوها عللا بعد نهل والعلل الشربة الثانية والنهل الاولى ثم يصروا آذان الابل ويشدوا مشافرها لئلا تجتر ثم ركبوا من قراقر فلما ساروا يوماً وليلة شقوا لعدّة من الخيل بطون عشرة من الابل فمزجوا ما فى كروشها بما كان من الالبان وسقوا الخيل ففعلوا ذلك أربعة أيام وفي اليوم الخامس انتهوا الى سوى فأغار خالد على جمع من بهراء ثم أتى أرك ثم أتى تدمر فتحصن أهلها ثم صالحوه ثم أتى القريتين [1]

(١) تدمر قد أصبحت الآن بعد مجدها القديم قرية يحيط بها جماعة العرب الرحل ولكن لم يزل هيكلها المشهور قائماً ينطق بما بلغته من العظيمة في قديم الزمان وبينها وبين

فقاتل أهلها فظفر بهم ثم فعل مثل ذلك بجوّارين

وروي الطبري انه سار منها الى قصم وقاتل بني مشجعة ثم سار الى ثنية العقاب [1] قرب دمشق ناشراً رايته وهي راية سوداء وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبها سميت الثنية ثم سار فأتى مرج راهط [2] فأغار على غسان يوم فصحهم وأرسل بسر بن أبي ارطاة وحبيب بن مسلمة الفهرى من قريش فأغارا على قرى الغوطة ثم سار خالد ونزل بالجابية وقيل بالباب الشرقي من دمشق فأخرج لهم بطريقها نزلاً وخدمةً وقال احفظ لى هذا العهد فوعده بذلك وكتب له به كتابا

ثم سار خالد من دمشق الى بصرى (من عمل حوران وهي الآن مركز حكومة قضاء) [3] فقيل انه وجد عليها أبا عبيدة بن الجراح وقيل وجد يزيد بن أبي سفيان فافتتحها وبعث باخماسها الى أبي بكر ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر وقد اختلف المؤرخون في هل كان المسلمون في اليرموك (شمالى جبل عجلون) أم في اجنادين من عمل فلسطين فقال أبو جعفر الطبرى ان وقعة اجنادين كانت بعد اليرموك

دمشق الشام سبعة مراحل ويليها القريتين وهي على مرحلتين منها وقال ياقوت انها هي حوّارين التي مر عليها خالد وفيه نظر

(١) قال ياقوت وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطأها القاصد من دمشق الى حمص اه ولعلها التي تسمى الآن الثنايا

(٢) هو المرج الواقع شرقي دمشق مما يلي الغوطة

(٣) القضاء في عرف الحكومة العثمانية هو مادون اللواء او المتصرفية التي تجمع لرئاستها بضعة أقضية والمتصرفية مادون الولاية التي تجمع الى رئاستها بضع متصرفيات أو ألوية

وأورد البلاذري في فتوح البلدان خبر اجنادين قبل اليرموك وقال ان وقعة اجنادين كانت في جمادى الأولى أو جمادى الآخرة سنة ١٣ وان وقعة اليرموك كانت سنة ١٥ مع ان أكثر المؤرخين ومنهم ابن الاثير قالوا ان وقعة اليرموك كانت في سنة ١٣ وقد تقدم معنا تعليل ذلك الاختلاف في سيرة أبي بكر رضي الله عنه فلا حاجة للاعادة وانما نذكر هنا ما اعتمده معظم المؤرخين من ان واقعة اليرموك كانت قبل اجنادين وفيها التقى خالد بن الوليد بالمسلمين

قال بعض المؤرخين ان خالداً لما كتب اليه أبو بكر بقصد الشام أمره على جميع الجند وقال بعضهم بل أمره على جنده فقط والظاهر ان الرواية الثانية أصح لما ذكره ابن الاثير والطبري من ان خالداً لما انتهى الى المسلمين في اليرموك وجد الامراء متساندين كل أمير على جنده فرغب اليهم أن يؤمروه عليهم جميعاً فأمروه واليك البيان

لما اجتمع المسلمون في اليرموك كان عددهم سبعة وعشرين الفاً فيهم الف صحابي وكان الروم في مائة الف وفي رواية انهم كانوا في مائتي الف مقاتل وكان قتال المسلمين لهم على تساند كل أمير على جنده لايجمعهم أمير ولا يخفى ما فى هذا من الوهن واختلاف الرأي وتجزء القوّة بتجزء الامارة وتعددها ولما جاء خالد بن الوليد وحضر المعارك مع المسلمين رأى أن القتال على هذا الوجه غير مجد نفعاً مع كثرة العدوّ عديداً وعدةً وان لابد في نيل الظفر من حزم الرأي واجماع الكلمة وكان الروم يوماً قد تهيئوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال وذلك لليلتين بقيتا من جمادى الاولى وقيل في جمادى الآخرة فأراد المسلمون الخروج اليهم متساندين فقام فيهم خالد فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم فانّ هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون فان ذلك لا يحل ولا ينبغي وانّ من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون انه رأى من واليكم ومحبته : قالوا هات فما الرأي ؟

فأشار عليهم بأن يتناوبوا الامارة العامة وان يؤمروه عليهم في ذلك اليوم فأمروه وهم يظنون انها كخرجاتهم وان الامر يطول

من هذه الرواية نعلم ان خالداً لم يكن أميراً عاماً على الجيش وانما كان أميراً على جنده فقط ولوكان أميراً عاماً لما ترك الروم يطاولون في القتال بل لدبّر الامر لدحرهم منذ وصوله الى اليرموك

لما تسلم خالد زمام القيادة العامة أخذ في تعبية الجيش تعبية لم تعب العرب مثلها قبل ذلك فجعل القلب كراديس وأقام فيها أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة والميسرة كذلك وعليها القعقاع ابن عمرو ويزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان وجعل على الطلائع قباث بن أشيم ولما تم له ترتيب الجيش على ذلك النمط خرج للعدو بأربعين كردوساً وأمر عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال وأظهر الروم من البسالة وقوّة الجاش والصبر على الحرب ما كاد يزيل المسلمين عن مواقفهم وقاتل خالد بن الوليد وشجعان المسلمين قتالا عظيما امام فسطاس خالد حتى دحروا الروم فتضعضعوا ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم فانهزم فرسان الروم فافرج لهم المسلمون وأما الرجالة فالذي نجا نجا والذي قتل قتل وتم النصر للمسلمين بعد أن أصيب

منهم عدد غير قليل من سادات قريش وأقيال الصحابة كما أصيب بمثل هذا أشراف الروم الذين فضلوا الموت دفاعاً عن الحوزة على الفرار فقتلوا جميعاً

ولو أنصف الروم أنفسهم والمسلمين لقبلوا احدى الخصلتين (الاسلام أو الجزية) وكفوا جنودهم عناء الحرب مع قوم قد مهد الله لهم سبيل النصر على الامم بما يحملون من معجزات القرآن وآيات البيان المؤذنة بهدم أركان الظلم ومحو آثار السيطرة الجائرة التي امتد يومئذ على الناس رواقها وأخذت من الامم الخاضعه لسلطان الفرس والروم بخناقها ولكن انى ينصف قادة الشعوب وزعماء السيطرة اذا أحسوا بيد تمس جانب كبريائهم ، وتقلل من غلوائهم ، وتعين حدود سيطرتهم ، وتأخذ عن الاسترسال في الشهوات بأعنتهم ، وما قتل الامم ، وساق النفوس الى مصارع الهلكة ، وزعزع دعائم العمران في كل زمان ، الا هذه الفئة الجائرة التي انتحلت لأنفسها حق السيادة المطلقة على الاشخاص والنفوس وأذاقت الانسان أنواع الشقاء والبؤس

﴿ عزله عن الامارة ﴾

بينما كان المسلمون في ذلك اليوم المشهود أي يوم اليرموك فى أشد حالات الحرب واشتداد الطعن والضرب جاء البريد من المدينة ينعي وفاة أبي بكر ويخبر باستخلاف عمر بن الخطاب ومعه أمر بعزل خالد بن الوليد وتوسيد امارة الجيش العامة الى أبي عبيدة بن الجراح فكتم ذلك أبو عبيدة ريثما تم النصر للمسلمين هذا على رواية بعض المؤرخين وعلى رواية بعضهم ان البريد جاءهم وهم على حصار دمشق ومن جعل واقعة اجنادين قبل اليرموك روى مجيء البريد وهم فى اجنادين والصحيح ان عزل خالد وتأمير أبي عبيدة انما جاءهم وهم على دمشق كما يظهر ذلك من كتاب عمر بن الخطاب لأبي

عبيدة كما ستراه مبسوطاً في خلافة عمر رضي الله عنه وروى الطبري ان أبا عبيدة كتم عن خالد خبر عزله ريثما فتح دمشق وكتب لاهلها عهداً فامضاه له وعلى أي حال كان فان خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه حضر بعد امارته هذه معظم فتوح الشام متطوعاً وقال بعضهم انه حضر بعض فتوح ارمينيا أيضاً وكان المسلمون يستمدون رأيه في الحروب ويقدمونه على أمرائهم ساعة الحاجة وكان أبو عبيدة يوليه الجيوش للفتح ولما فتح في امارة أبي عبيدة قنسرين التابعة لولاية حلب وانتهى الخبر بذلك الى عمر قال (أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني)

وأما سبب عزله فأمران الامر الاوّل ما كان في نفس عمر بن الخطاب عليه منذ قتل مالك بن نويرة والأمر الثاني وهو الأهم اقبال جند المسلمين على خالد بن الوليد وحبهم له واستماتتهم بين يديه في كل مشاهده في العراق والشام وذلك ليمن نقيبته في الحروب . وشجاعته التي أرهبت القلوب . وقد علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك فخالج فؤاده شيء منه وخشي من اقبال الناس عليه لاسيما وان في نفس خالد من جهته ما في نفسه من جهة خالد منذ قرعه ذلك التقريع الشديد عقب حادث مالك بن نويرة لهذا بادر عمر رضي الله عنه الى عزله قبل ان يصل خبر توليه منصب الخلافة الى المسلمين وخالد أمير على جيش عظيم منهم وهذا الذي خالج نفس عمر بن الخطاب رضي الله عنه من جهة خالد بن الوليد لم يكتمه عنه بل أظهره اليه فقد روي انه استدعاه بعد عزله الى المدينة فعاتبه خالد فقال له عمر (ماعزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس فخفت ان تفتتن بالناس) وهذا صريح في أن عمر رضي الله عنه خشي من أن تحدث خالداً نفسه بشيء فيشق عصا المسلمين وهو نظر سديد

ومرمى بعيد من عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الاّ أنّ خالد بن الوليد وغيره من سادات قريش وأمراء المسلمين كانوا فى زمن أبي بكر وزمن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما أبعد الناس عن الفتنة وألزمهم للطاعة لقرب العهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة حزم هذين الخليفتين فى السياسة ورهبتهما التي حلت فى القلوب وعدا هذا فان خالد بن الوليد لما مات أبو بكر زال من نفسه ما كان يجده على عمر فقد روى الطبري ان خالداً لما بلغه موت أبي بكر قال (الحمد لله الذي قضى على أبي بكر الموت وكان أحبّ الىّ من عمر والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض الىّ من أبي بكر ثم ألزمني حبه) والظاهر ان ماخالج فؤاد خالد من حب عمر لمّا ولى الخلافة علمه فيما بعد عمر بن الخطاب لهذا لما عزله وقال له ماعزلتك لريبة فيك كتب بذلك الى الامصار دفعاً للتهمة عنه

وهي أحسن شهادة تحفظ كرامة خالد بن الوليد وتقدر قدر خدمته للاسلام والمسلمين وهو والله أجدر برفع الذكر وتشريف القدر فرضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين

وروي الطبري ان عمر بن الخطاب لما عزل خالداً صادره على نصف ماله وذلك شأنه مع أكثر العمال كما سترى فى سيرته لانه كان يرى ان ما يجمعونه من المال انما هو حق المسلمين فينبغي أن يؤخذ منهم ويرد لبيت مال المسلمين

﴿ باب ﴾

(حزم خالد وتوفيقه فى الحرب)

قلّ ان يوجد قائد فى العالم يوفق الى النصر فى كل وقائعه كما وفق خالد

ابن الوليد رضي الله عنه فان التاريخ لم ينبئنا عن انخذاله ولا فى وقعة واحدة من وقائعه مع أهل الردة أو فى العراق والشام وهذا انما هو من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب فقد كان دائم اليقظة مراقباً لحركات العدو يترقب الفرص ويسدد سهم الفكر الى الغرض البعيد فلا يخطئ مرماه وقد رأيت كيف فلّ جموع الروم فى اليرموك وكشف عن المسلمين سحب الضيق والحيرة مذ سلموا قيادهم اليه ، وجعلوا اعتمادهم في تدبير الحرب عليه ، مع انّ فيهم من الصيد الصناديد وأهل البصيرة والرأى يومئذ نفر أولو شهرة في الحرب في الجاهلية والاسلام كعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد ابن سفيان وأضرابهم من كماة الاسلام وقادة الجيوش العظام

وروي الطبري ان خالداً لما كان مع أبى عبيدة على حصار دمشق ترك الاعداء ليلةً مواقفهم على الاسوار لوليمة أعدها لهم البطربق فلم يعلم بذلك أحد من المسلمين الا خالد بن الوليد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولما وقف على جلية الامر تقدم بنفسه مع نفر من ثقات أصحابه الى السور وصعد الى أعلاه بالسلاليم وكبّر فكبّر أصحابه واقتحموا الباب ففتحه لهم وكان النصر

ومن هذا التيقظ تعلم سر توفيقه في الحروب وانتصاره على الاعداء ونفاذ الرهبة من سطوته فى القلوب وحق والله لقائد مثله ان يخلّد ذكره على صفحات الزمان ويشاد له من جميل الاثر أعظم بنيان

﴿ باب ﴾

(كتبه)

١

كتب الى ملوك الفرس بعد تدويخ ملكهم في العراق يدعوهم الى الاسلام كتاباً هذه صورته

(أما بعد) فالحمد لله الذى حلّ نظامكم . ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم نفعل ذلك كان شراً لكم ، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجيزكم الى غيركم ، والاّ كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة اه

٢

وكتب الى المرازبة والقواد كتاباً هذه صورته

(أما بعد) فالحمد لله الذى فض حدتكم ، وفرّق كلمتكم ، وكسر شوكتكم ، فاسلموا تسلموا والاّ فاعتقدوا فىّ الذمة وأدوا الجزية والاّ فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر اه

٣

ولما كان مع أبي عبيدة على حصار دمشق كان الاسقف الذى أقام له النزل يوم مروره على دمشق في اثناء ذهابه لمعونة المسلمين في اليرموك ربما وقف على السور فدعي له خالد فاذا أتى سلم عليه وحادثه فقال له ذات يوم يا أبا سليمان ان أمركم مقبل ولى عليك عِدَةٌ فصالحنى عن هذه المدينة فدعا

خالد بدواة وقرطاس فكتب

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيء من دورهم، لهم عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم الا بخير اذا أعطوا الجزية اه

هذا مارواه البلاذري بشأن هذا الكتاب وهو يؤيد انه كان يومئذ أميراً على جنده وانّ خبر عزله انما أتاهم وهم على دمشق وانما كتمه عنه أبو عبيدة بن الجراح ريثما تم الفتح وقد روي بعض المؤرخين ان أبا عبيدة أجاز كتاب خالد هذا بعد ان فتحت دمشق وأُخبر خالد بالعزل

٤

وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه الى بني الحارث بن كعب

(بسم الله الرحمن الرحيم) لمحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته فاني أحمد اليك الله الذي لا اله الاّ هو (أما بعد) يارسول الله صلى الله عليك فانك بعثتني الى بني الحارث بن كعب وأمرتني اذا أتيتهم الاّ أقاتلهم ثلثة أيام وان أدعوهم الى الاسلام فان اسلموا قبلت منهم وعلّمتهم معالم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه وان لم يسلموا قاتلتهم واني قدمتُ عليهم فدعوتهم الى الاسلام ثلثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثت فيهم ركباناً يابني الحارث أسلموا تسلموا فاسلموا ولم يقاتلوا وانا مقيم بين أظهرهم وآمرهم [illegible] به وأنهاهم عما نهاهم عنه وأعلمهم [illegible] وسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكتب الي رسول الله والسلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته

٥

وكتب فى صلح الحيرة كتاباً هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ماعاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عديّ وعمرو بن عبد المسيح واياس بن قبيصة وحيريّ بن أكّال [١] نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ، عاهدهم على تسعين ومائة الف درهم كل سنة جزاءً عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسهم الا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها [٢] وعلى المنعة فان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم وان غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة وكتب فى شهر ربيع الاول من سنة أثنتي عشرة وشهد فلان وفلان

٦

وكتب الى دهاقين السواد كتاباً هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بن بهيش وصلوبا بن نسطونا انّ لكم الذمة وعليكم الجزية وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الاسفل والاوسط على الفي الف تقبل فى كل سنة ثم كل ذي يد سوى ماعلى بانقيا وباروسما (وفى رواية بسما) وانكم قد أرضيتموني والمسلمين وإنا قد أرضينا كم واهل البهقباذ الاسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الاوسط على اموال ليس فيها ما كان لآل كسرى ومال ميلهم شهد فلان وفلان وكتب سنة أثنتي عشرة في صفر اه

(١) وفي رواية جبريّ
(٢) وفي رواية وسائحاً تاركا للدنيا

﴿ (١) كلمة على الذمة أو أصل الامتيازات ﴾

اعلم ان هذه الكتب وكل ما أعطي من الصحابة من كتب العهد لاهل الذمة سواء كانوا فى العراق أو الشام أو غيرها كانت اصولا ثابتة فى معاملة أهل الذمة والعهد من الرعية غير المسلمين وعهوداً مكينة فى جباية الخراج استمر العمل بها مدة الخلفاء من بني أمية وصدراً من خلافة بني العباس حيث صار الناس غير الناس واختلط السكان واتسعت اصول الجباية باتساع العمران في الخلافة العباسية وعلى تلك الكتب بنى الفقهاء كثيراً من القواعد فى معاملة أهل الذمة وعلة ذلك كله الحديث الشريف الذي مر معنا ذكره فى هذا الكتاب وقد جاء فيه (ان المسلمين يسعى بذمتهم ادناهم) بمعنى ان كل ما أعطاه أحدهم من عهد لا سبيل لنقضه بل يؤكده الآخر وهذه قاعدة من أسمى القواعد التى جاء بها الاسلام لحماية الأمم التى تخضع لسيادة المسلمين من أذى أرباب السيطرة ومنعهم من كل من يريدهم بسوء ما داموا فى عهد المسلمين وذمتهم لا يمالئون عليهم عدواً ولا يخونون لهم جواراً ويعطونهم ما فرضوه على انفسهم ورضوا به من الجزية أو أي نوع تراضوا عليه من المال في نظير هذه الحماية وهو تناهٍ فى العدل فى حكم الأمم المغلوبة لم يسمع بمثله فى تاريخ الدول الفاتحة لا فى ذلك الزمن وما قبله ولا الآن بل جرت سنة كثير من الدول الفاتحة وأخصها

---

(١) نريد بهذه الامتيازات مايسمونه امتيازات الكنائس او امتيازات المسيحيين الخاضعين للحكومة الاسلامية (وهي الذمة) لا امتيازات الاجانب فان هذه تسمى (عهداً) واهلها يعبر عنهم بالمعاهدين وهذه ايضاً قد استفحل مع الزمان امرها واستشرى شرها سيما في المملكة العثمانية التي عاث فيها الاجنبي بتلك الامتيازات وتوسعت الدول المعاهدة بها حتى جعلتها حقاً ثابتاً لها قبل الدول العلية بعد ان كانت منحاً وعهوداً حبية وسيأتى الكلام عليها فى الاجزاء التالية ان شاء الله

الدول المتمدنة الغربية في هذا العصر ان تحكم الأمم المغلوبة لها الخاضعة لسلطانها بغير ما تحكم به في بلادها وابناء جنسها وملتها وتعاملهم معاملة الرفيع للوضيع والغالب القاهر للمغلوب الضعيف لا ان تشترط على نفسها حمايتهم وتكتب لهم العهود والمواثيق

ولقد كان المسلمون يومئذ في إبان عزهم وجدة دولتهم وبسطة جاههم وقوتهم ولم يعملوا بتلك القاعدة لوهن في نفوسهم أو هيبة من عدوهم بل عملا بشرعهم واتباعاً لامر نبيهم ، وأي عصر من عصور الفتح كان أنفذ هيبة وأبسط قوة وأعظم سلطاناً وأكثر فتحاً من عصر أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ومع هذا فقد كانت كل البلاد التي خضعت لسلطان المسلمين بالرضا والاختيار يومئذ يأخذ أهلها من قواد الجيوش العهود التي تتكفل بحماية نفوسهم وأملاكهم وأعراضهم وحرية دينهم ولا يستطيع أحد من القواد أو العمال ان ينقض عهداً من تلك العهود الا ان خان أصحابه المسلمين

روى البلاذري في تاريخه فتوح البلدان ان عمير بن سعد (الانصاري أحد كبار الفاتحين) قدم على عمر بن الخطاب وقال له ان بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عربسوس وان أهلها يخبرون عدونا بعوراتنا ولا يظهرونا على عورات عدونا ولهم علينا عهد، واستشاره في أمرهم فقال عمر فاذا قدمت فخيرهم ان تعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين ومكان كل شيء شيئين فاذا رضوا بذلك فاعطهم اياه وأجلهم واخربها فان أبوا فأنبذ اليهم وأجلهم سنة ثم اخربها

فانظر كيف ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أبى ان ينقض عهد هؤلاء القوم الذي أعطاهم مع انهم نقضوا عهدهم وخانوا دولة المسلمين الحاكمة

عليهم وقد كان في وسع هذا الخليفة العظيم أن يبدد نظامهم ويريهم جزاء عملهم باجلائهم عن بلدهم سواء كان معهم منه عهد أو لم يكن لانهم خانوا المسلمين والخائن لا عهد له ومع هذا فقد أبى عدله ودينه ان يجليهم عن بلدهم الا بعد تعويض ما يفقدونه من المال والمتاع ضعفين

وما زال الخلفاء في كل عصر قائمين بالوفاء بعهود اهل الذمة فيما يتعلق بنوع الجزية ومقدارها كما جاء في كتب العهود التي بأيديهم من الصحابة حتى تغير السكان ودان معظمهم بالاسلام وتنوسيت تلك الكتب وفقدت واماً ما يتعلق بحماية اهل الذمة حيث كانوا وحماية اموالهم واملاكهم وحرية معتقدهم فهذه لما كانت لا تفتقر الى المحافظة على امثال تلك الكتب اذ هي قاعدة اساسية فى الاسلام فقد استمر العمل بها الى الآن الا ما كان أيام ملوك الطوائف ربما أصاب أهل الذمة من جورهم ما أصاب أهل الاسلام ولما آلت الدولة الى آل عثمان توسع بعضهم بتلك المنح الاسلامية وأخصهم المرحوم السلطان محمد الفاتح بما أعطاه لبطريرك القسطنطينية من المنح التي تشبه ترتيب حكومة مسيحية داخل الحكومة الاسلامية ولا يحمل ذلك منه على غير التلطف والمجاملة وحسن الصنيع ولكن عمله ذلك كان أشبه بحلقة صارت بعد ذلك سلسلة كثيرة الحلقات اذ جعلت الدول الاوربية من ذلك الحين تستزيد لمسيحى الشرق من أمثال تلك المنح حتى توسع الدول بعدُ باسمها فسموها امتيازات وما زالت تتشعب هذه الامتيازات وتعظم حتى تناولت الذمي والمُعَاهَد وحتى زال من نفوس الحائزين لها اعتبار كونها منحاً نالوها من دول الاسلام عملا بالشرع الاسلامى لا تميزاً لاهل الذمة عن المسلمين ولا رهبة من دولة من الدول وكان من ذلك ان وقع الجفاء بين المسلمين وبين

الطوائف المسيحية المحكومة بالدولة العثمانية وزالت من النفوس الثقة المتبادلة بين الفريقين من قديم الزمان بسبب تحرش الدول الاوربية بالدولة العثمانية بحجة المحافظة على حقوق المسيحيين التي تكفل بالمحافظة عليها الشرع الاسلامي نفسه وجعل لغير المسلم من الحقوق مثل ما للمسلم فما أخلق تلك الدول المتمدنة ان تعطى للمحكومين منها من المسلمين ولو جزأً مما يعطى الاسلام للمحكومين من دوله من المسيحيين ثم تطالب بعد ذلك الدول الاسلامية بحقوق رعاياها المسيحيين وهيهات هيهات ان تغلب الفضيلة على الشهوات ويبلغ العدل عند الدول الاوربية مبلغه في الاسلام

باب

وفاته وولده

اختار خالد بن الوليد بعد ان أتم فتوحه فى العراق والشام ان يسكن الشام فاتخذ مقراً له حمص وفيها توفي سنة احدى وعشرين فى خلافة عمر وقال بعضهم انه توفى فى المدينة وليس يثبت ومدفنه لم يزل معروفاً يزار الى الان فى حمص وهو ضمن مسجد واقع خارج السور الى الجهة الشمالية من حمص وقد اتصل به العمران وصار حوله لهذا العهد حيّ يسمى (حي سيدي خالد) كما يسمى المسجد ايضاً مسجد سيدي خالد وقد زرته مرة فوجدت عليه من المهابة والوقار ما يأخذ بمجامع القلوب التي يعرف أصحابها أقدار الرجال ، ويتأثرون بذكرى عصر أولئك الابطال

لما حضَرَتْ خالداً الوفاة قال (لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى بدني موضع إشبر الاّ وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشي كما يموت

العير فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل ارجى من لا آله الا الله وأنا مترس بها)

فلله ما أعظم هذه النفس التي استهانت في سبيل المجد بالحياة حتى ما تطيق الموت على فراش السكون ، وتأنف ان تذوق في غير مواقف الحرب كأس المنون ، ولا جرم ان جسما ليس فيه موضع شبر الاّ وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف لجسم فيه نفس عالية تحار في مرادها الاجسام ، وتمنى لقاء الموت فيحجم عنها في ساحات الصدام ، وهذا هو السر في أن حياة الابطال العظام عزيزة طويلة ، وحياة الانذال الجبناء ذليلة قصيرة . (١)

وأوصى خالد قبل وفاته الى عمر وحبس فرسه وسلاحه في سبيل الله ولما مات اجتمع نساء بني المغيرة يبكين عليه فلما بلغ ذلك عمر قال (ماعليهن ان يبكين أبا سليمان مالم يكن نقع أو لقلقة) وقيل انه لم يبق امرأة من بنى المغيرة الاّ جزت لمتها وحلقت رأسها حزناً على ذلك البطل العظيم الذى يحق ان تبكيه الرجال والنساء ، ويذكره المسلمون بأشرف أعماله صباح مساء .

﴿ ولده ﴾

روي ابن قتيبة انه كان لخالد ولد كثير فقتل الطاعون منهم أربعين رجلا فبادوا وقال في أسد الغابة أخرج الثلاثة عن الزبير بن بكار ان ولد خالد بن الوليد انقرضوا فلم يبق منهم أحد وورث أيوب بن سلمة دورهم بالمدينة

ويوجد لهذا العهد قبيلة رحالة في جهات حمص تسمى بني خالد ادعى بعض مشائخها من بضع سنين انها تنتسب الى خالد بن الوليد لاغراض لامحل لذكرها هنا وهي دعوى كاذبة ليس عليها دليل اذ ولد خالد انقرضوا جميعهم في الصدر الاول كما علمت والله أعلم

---

(١) نريد بهذه الحياة حياة الذكر

انتهى الجزء الاول وفيه سيرة أبي بكر ومن اشتهر فى دولته ويليه الجزء الثاني وفيه سيرة عمر ومن اشتهر فى دولته رضي الله عنهم أجمعين اه

﴿ تنبيه ورجاء ﴾

قد اخترت ان أنشر هـذا التاريخ أجزاءً متوالية لفائدتين (الفـائدة الأولى) سهولة نشر الـكتاب وتعميمه (والفائدة الثانية) اطلاع القراء على الـكتاب جزأً بعد جزءٍ حتى اذا رأى أحد منهم خطأً فى الجزء الواحد ينبهني الى اصلاحه فى الجزء الذي يليه لهذا فانى أرجو ممن يطلع على هذا الجزء من السادة العلماء والـكتاب والادباء ويرى فيه خطأً فى النقل ، أو سهواً عن حقيقة ، أو غموضاً فى قول ، أو ضعفاً في رأي ، أو ما أشبه ذلك من أغلاط قد لايسلم منها كتاب ، ولا يعصم عنها مؤرخ ، أن ينبهني اليه ، ويتفضل عليّ ببيان وجه الخطأ فيه لابادر الى اصـلاحه فى الجزء الذي يليه ، اذ العصمة لله وحده والمرء ضعيف بنفسه قويّ بأخيه

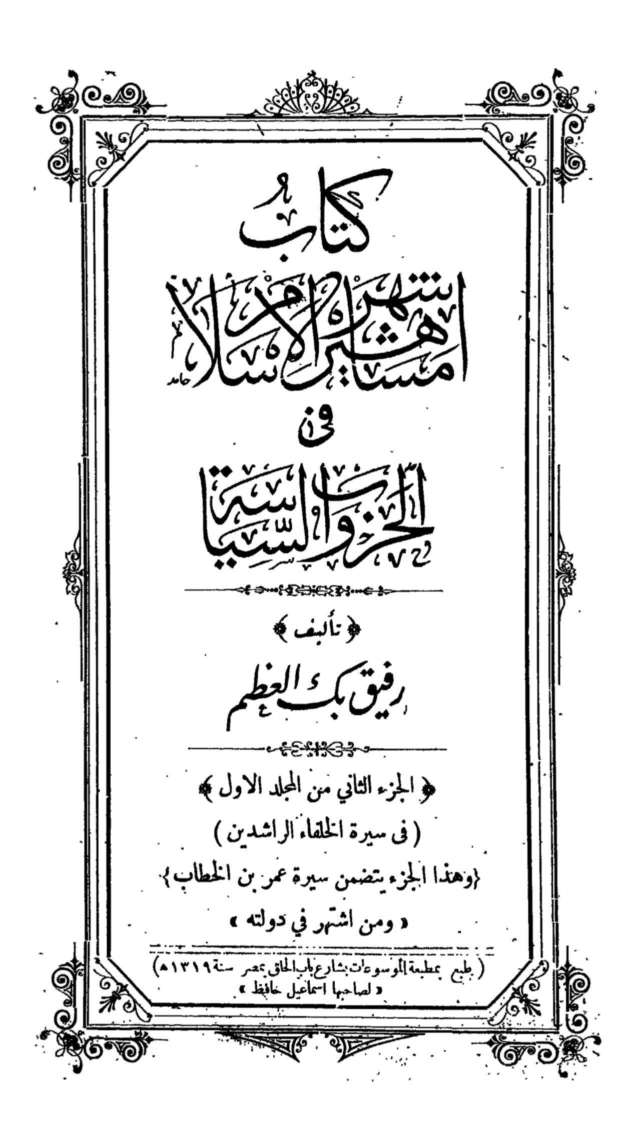
﴿ ايضا ﴾

نفدت الطبعة الأولى من هذا الجزء فاعدت طبعه مصححاً على قدر الامكان وكان بودى التبسط فى بعض المباحث واضافة اشياء خطرت لى من سيرة أبى بكر لـكن منعني من ذلك اتصال اعداد صحف هذا الجزء بالاجزاء التي تليه الى تمام المجلد الاول فلو زدت فيه شيئاً لاختل ترتيب الفهرس كما لا يخفى وما اشد هذا التقيد على النفس

فهرست

الجزء الاول من أشهر مشاهير الاسلام

صحيفة



كتاب
مشاهير الاسلام
في
الحرب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

﴿ الجزء الثاني من المجلد الاول ﴾

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

{ وهذا الجزء يتضمن سيرة عمر بن الخطاب }

« ومن اشتهر في دولته »

(طبع بمطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣١٩ هـ)
« لصاحبها اسماعيل حافظ »

عمر بن الخطاب

باب

حاله في الجاهلية

« نسبه وأصله »

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي بن رباح بن عبد الله بن قرط بن زراح بن عدي بن كعب القرشي العدوي أبو حفص وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وقيل حنتمة بنت هشام بن المغيرة فعلى هذا تكون أخت أبي جهل وعلى الأول تكون بنت عمه لان هاشما وهشاما ابني المغيرة أخوان وهشام والد أبي جهل وأخيه الحارث وأما هاشم فانه والد حنتمة وعم أبي جهل والحارث هكذا صححه في أسد الغابة

شرفه وصناعته

سبق لنا في صدر الجزء الأول من هذا الكتاب ذكر الرهط من قريش الذي انتهى اليهم الشرف في الجاهلية ومنهم عمر بن الخطاب وكانت تنتهي اليه السفارة . كما سبق لنا ذكر حرف الصحابة الذين سترد سيرتهم في هذا الكتاب ومنهم عمر بن الخطاب فانه كان تاجراً ومازالت هذه صناعته في الجاهلية والاسلام حتى ولي الخلافة فحينئذ تركها انشغالاً عنها بصالح المسلمين كما سيمر عليك مفصلا ان شاء الله

﴿ مكانته عند قومه وسيرته فيهم ﴾

مكانة عمر عند قومه تعلم مما سيأتي في ذكر اسلامه وحسبه من ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا ان يعز الاسلام بعمر فاستجيب دعاؤه وقد كان في قومه مشهوراً بالشده عزيز الجانب مع انه لم يكن ذا مال وغنى بل كان قليل المال يتاجر بماله أحياناً الى الشام فقد روى الحافظ بن عساكر في تاريخه ان عمر قدم الشام غير مرة في الجاهلية وأُسر في أحدها واخرج عن زيد بن أسلم عن أسلم عن أبيه في حديث طويل ان عمر أسره في الجاهلية بطريق من دمشق واستعمله في بعض عمله فتغفله وقتله وخرج هارباً من دمشق

وكان في حال صغره قبل ان يتجر يرعى غنم أبيه فقد روى بن عساكر عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال كنت مع عمر بن الخطاب بضحيان (اسم مكان) فقال: كنت أرعى للخطاب بهذا المكان فكان فظاً غليظاً فكنت أرعى أحياناً واحتطب أحياناً فأصبحت اضرب الناس ليس فوقي أحد الا رب العالمين ثم قال

لاشيء مما ترى الا بشاشته   يبقى الاله ويودي المال والولد

هذا كان حال هذا الرجل العظيم في جاهليته وسترى كيف كان حاله في الاسلام والى أية درجة بلغ به علو الهمة ومضاء العزيمة والرأي والاخلاص في خدمة الرسول الاكرم ودين الله القويم

باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

كان المسلمون قبيل اسلام عمر بن الخطاب يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي في أصل الصفا مستخفين لقلتهم وشدة قريش عليهم ولم يكونوا كما يزعم بعض المتخرصين من فقراء الناس وأداني قريش بل كان في ذلك العدد القليل من المسلمين كثير من سادات قريش وأغنيائهم وذوي الشرف فيهم ومنهم أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان المشهورين بالغنى والثروة وسعيد بن زيد وحمزة بن عبد المطلب واضرابهم من صناديد قريش وأشرافهم الا أن معظمهم هاجروا الى الحبشة لاضطهاد قريش لهم وكانوا لقلتهم في حاجة الى الاستكثار من ذوي العصبية والجرأة والاقدام من رجالات قريش ليستطيعوا اعلان دينهم والذب عن نبيهم وكان ممن عرف من قريش بنفوذ الكلمة والبطش وسمو المكانة عمر بن الخطاب وأبو جهل وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتوقع خيراً للمسلمين باسلام أحد هذين الرجلين لهذا قال (اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين اليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام) يعني أبا جهل

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم بأحب الرجلين اليه وهو عمر بن الخطاب فأسلم في ذي الحجة لمضي ست سنين من البعثة وبعد اسلام تسعة وثلاثين رجلا وثلاث وعشرين امرأة وقيل بعد أربعين رجلا واحدى عشرة امرأة وكان له من العمر ست وعشرون سنة

وأما سبب اسلامه فقد جاءت فيه روايات كثيرة ومنها ما أخرجه الحافظ

عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أسلم انه قال .
قال لنا عمر بن الخطاب أتحبون ان أعلمكم كيف كان بدؤ اسلامي قلنا نعم . قال كنت
من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا أنا يوماً في يوم حار شديد الحر
بالهاجرة في بعض طرق مكة اذ لقيني رجل من قريش فقال أين تذهب يا ابن
الخطاب انت تزعم انك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك . قال قلت
وماذاك . قال أختك قد صبأت . قال فرجعت مغضباً وقد كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين اذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه
ويصيبان من طعامه وقد كان ضم الى زوج أختي رجلين قال فجئت حتى قرعت
الباب فقيل من هذا قلت ابن الخطاب قال وكان القوم جلوساً يقرأون القرآن في
صحيفة معهم فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم
قال فقامت المرأة ففتحت لي فقلت يا عدوة نفسها قد بلغني انك صبوت قال فارفع
شيئاً في يدي فاضربها به قال فسال الدم فلما رأت المرأة الدم بكت ثم قالت يا ابن
الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد أسلمت قال فدخلت وأنا مغضب فجلست على
السرير فنظرت فاذا بكتاب في ناحية البيت فقلت ما هذا الكتاب أعطينيه فقالت
لا أعطيك لست من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر وهذا لا يمسه الا
المطهرون قال فلم أزل بها حتى أعطتنيه فاذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فلما مررت
بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي قال ثم رجعت الي نفسي فاذا
فيها (سبح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) قال فكلما مررت
باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم ترجع الي نفسي حتى بلغت (آمنوا بالله
ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) حتى بلغت الى قوله (ان كنتم مؤمنين)
قال فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فخرج القوم

يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني وحمدوا الله عزّ وجلّ ثم قالوا يا ابن الخطاب أبشر فانّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الاثنين فقال (اللهم أعز الاسلام بأحد الرجلين اما عمرو بن هشام وأمّا عمر بن الخطاب) وإنّا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك فأبشر قال فلما عرفوا مني الصدق وقلت لهم اخبروني بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هو في بيت في أسفل الصفا وصفوه قال فخرجت حتى قرعت الباب قيل من هذا قلت ابن الخطاب : قال : وقد عرفوا شدتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعلموا باسلامي : قال : فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افتحوا له فانه ان يرد الله به خيراً يهده قال ففتحوا لي وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرسلوه فأرسلوني فجلست بين يديه فأخذ بمجمع قميصي فجذبني اليه ثم قال أسلم يا ابن الخطاب اللهم أهده قال قلت أشهد أن لا إله الاّ الله وانك رسول الله فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة قال وقد كان استخفى (١). قال ثم خرجت فكنت لا أشاء أن أرى رجلاً أسلم يضرب الاّ رأيته (٢) قال فلما رأيت ذلك قلت لا أحب الاّ أن يصيبني ما يصيب المسلمين قال فذهبت الى خالي (يعني أباجهل بن هشام) وكان شريفاً فيهم فقرعت الباب عليه فقال من هذا فقلت ابن الخطاب قال فخرج اليّ فقلت له أشعرت اني قد صبوت . قال فعلت قلت نعم . قال لا تفعل . فقلت بلى قد فعلت . قال لا تفعل فأجاف الباب دوني وتركني : قال : فلما رأيت ذلك انصرفت فقال لي رجل تحب ان يعلم

(١) هكذا ولعلها وقد كانوا مستخفين

(٢) وفى رواية فلم أشأ أن ارى رجلا يضرب ويضرب الا رأيته ولا يصيبنى من ذلك شئ

اسلامك: قال: قلت نعم: قال: فاذا جلس الناس في الحجر واجتمعوا أتيت رجلاً لم يكن يكتم السر فاصغ اليه وقل له فيما بينك وبينه اني قد صبوت فانه سوف يظهر عليه ويصيح ويعلنه: قال: فاجتمع الناس في الحجر فجئت الرجل فدنوت منه فاصغيت اليه فيما بيني وبينه فقلت أعلمت اني قد صبوت: فقال: ألا ان عمر بن الخطاب قد صبأ: قال: فما زال الناس يضربونني وأضربهم فقال خالي ماهذا: قال: فقام على الحجر فأشار بكمه فقال ألا اني قد أجرت ابن أختي. فانكشف الناس عني وكنت لا أشاء ان ارى احداً من المسلمين يضرب الا رأيته[1] وانا لا أضرب: قال: فقلت ماهذا بشيء حتى يصيبني مثل مايصيب المسلمين: قال: فأمهلت حتى اذا جلس الناس في الحجر وصلت الى خالي فقلت اسمع فقال ما أسمع: قال: قلت جوارك عليك ردٌّ: فقال: لا تفعل يا ابن اختي: قال: قلت بل هو ذاك: فقال: ماشئت: قال: فما زلت أضرب وأضرب حتى اعز الله الاسلام اه

وروي ان عمر لما اسلم: قال: يارسول الله علامَ نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: انا قليل وقد رأيت مالقينا فقال له عمر والذي بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر الا جلست فيه بالايمان ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين حمزة في أحدهما وعمر في الآخر حتى دخلوا المسجد فنظرت قريش الى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة ومن يومئذ سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق لانه أظهر الاسلام وفرق بين الحق والباطل

وأخرج الحاكم عن ابن عباس: قال: لما أسلم عمر قال المشركون قد

(١) يريد الا رأيته يضرب فحذف لفظ يضرب وهو استعمال شائع. والمعنى ان الناس وافوا رغبته ولم يحتج هو الى الضرب بنفسه

انتصف القوم اليوم منا وأنزل الله (يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)

وأنت ترى من هذا مكانة عمر في قومه وسمو منزلته في قبيله وما كان لاسلامه من دخول الوهن على نفوسهم اذ أقروا بظهور المسلمين عليهم ورجحان كفة المؤمنين على كفتهم وحسبك دليلاً على هذا شهادة القرآن كما رأيت ويؤيدها شاهد العيان أيضاً فان المسلمين بعد اذ كانوا يعبدون الله مستخفين أعلنوا بعد اسلام عمر دينهم وأخذوا يبثون بين الناس دعوتهم لا يبالون بما قام في نفوس قريش من الحقد عليهم وتعمد ايصال الضرر والاذى اليهم فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انه قال (كان اسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت امارته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع ان نصلي في البيت حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا) أخرجه في أسد الغابة وأخرج البخاري عن ابن مسعود أيضاً قال (ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر)

ولا جرم ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الرجل الفذ الجليل الذي قوى الله به الاسلام في منبته وأعزه في هجرته ومهد سبيل النشر لدعوته والفتح لاهله فكان رضي الله عنه القدوة الصالحة للمسلمين والمثل المضروب في التقوى والعدل والشهامة ونصرة الدين وتأييد الحق والشدة على الاعداء وإقامة الميزان بالقسط وتعميم دعوة الاخاء والحرية بين الأمم فاسلامه كان من المنن العظيمة التي من الله بها على المسلمين وأيد بها جانب الدين

﴿ صحبته ﴾

صحب عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن صحبته وبذل في نصرته مهجته وما زال منذ أسلم يناضل عن المسلمين وينافح عن سيد المرسلين ويظهر من

الشدة على أعدائه والمظاهرة لأوليائه ما أزعج قريشاً عن أذى النبي صلى الله عليه وسلم وخفف وطأة تعسفهم على اتباعه واضطهادهم للمسلمين قبل الهجرة الى المدينة حتى اذا أذن الله للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالهجرة أخذوا بها حرون مستخفين الاّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فانه لشجاعته وقهره لقريش وشدة بأسه عليهم هاجر على ملأ قريش . فقد أخرج الحافظ عز الدين الجزري والحافظ ابن عساكر عن عليّ رضي الله عنه: قال: ماعلمت أن أحداً من المهاجرين هاجر الاّ مختفياً الاّ عمر بن الخطاب فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهماً واختصر عنزته ومضى قبلَ الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعاً ثم أتى المقام فصلى متمكناً ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم شاهت الوجوه لا يرغم الله الاّ هذه المعاطس من أراد ان تثكله أمه ويؤتم ولده ويرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي: قال عليّ فما تبعه أحد الاّ قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه

وأخرجا عن البراء بن عازب: قال: أوّل من قدم علينا من المهاجرين مصعب ابن عمير أخو بني عبد الدار ثم قدم علينا ابن أم مكتوم الاعمى أخو بني فهر ثم قدم علينا عمر الخطاب فى عشرين راكباً فقلنا مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هو على أثري ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر معه

ومازال عمر في هجرته كما كان في مكة شديداً على المخالفين قوّاماً على الحق منافحاً عن رسول الله مراقباً لاعدائه حريصاً عليه من وصول أذاهم اليه مبغضاً لمن أبغضه لا يفتأ يراقب حركات المنافقين ويستطلع ضمائر الوافدين حتى اذا تفرّس فى أحدهم سوءنية لازمه فى دخوله وخروجه وألزمه حد الادب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والاحجام عنه والخنوع بين يديه . روي ان عمير بن وهب الجمحي

عاهد صفوان بن أمية القرشي بعد وقعة بدر على ان يأتي المدينة ويقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها واستأذن على رسول الله فخرج اليه عمر بن الخطاب وتفرس فيه الشر فأخذ بحمالة سيفه وقال لرجال معه من الانصار ادخلوا على رسول الله واحذروا هذا الخبيث فلما رآه رسول الله قال لعمر اتركه ياعمر ثم سأله عما جاء به فقال جئت لهذا الاسير (يعني أباه وهب لانه كان أسيراً عند المسلمين أسروه في وقعة بدر): قال: اصدقني: قال: ماجئت الا لذلك: قال: بل قعدت أنت وصفوان وجرى بينكما كذا وكذا فدهش عمير وأسلم لساعته

وكان ممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه من قريش سهيل بن عمرو فأسره في وقعة بدر مالك بن الدخشم الانصاري فلما أتى به رسول الله قام اليه عمر وقال دعني أنزع ثنيته يارسول الله فلا يقوم عليك خطيباً أبداً: فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه ياعمر فسيقوم مقاماً تحمده عليه فتركه[1]

ورأى مرة يهودياً ممسكاً برسول الله يطالبه بدين له فعظم ذلك عليه وأخذ بخناق اليهودى: وقال: دعني أقتله يارسول الله: فقال: دعه ياعمر ان لصاحب الحق مقالا

وله من هذا القبيل اخبار كثيرة ايام صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على عظيم محبته له واخلاصه في الذب عنه والشدة على من ناواه

(١) تحقق مقام سهيل هذ الذى قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ايام الردة وذلك ان قريشاً لما وصلهم نعي رسول الله اضطربوا وكادوا يرتدون فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا اليه فقال ياأهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمن هذا الامر كما ذكر رسول الله الى آخر ما قال مما هو مسطور فى التواريخ فامتنع أهل مكة عن الردة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه فى بعض الامور فكان أبو بكر وعمر أفضلهم عنده رأ ياًالصدق لهجتهما وعظيم اخلاصهما ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام فى عمر (ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) رواه الترمذى عن ابن عمر وفى رواية أبى داود عن أبى ذر: قال (ان الله وضع الحق على لسان عمر يقول به) وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحَدَّثون (ملهمون) فان يك فى أمتي أحد فانه عمر (متفق عليه كما فى المشكات) لهذا كان رضى الله عنه يرى الرأى فينزل به القرآن حتي بلغت موافقاته عشرين ونيفاً ومنها آية تحريم الخمر فانه لما قال (اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً) نزلت آية التحريم ومنها آية الحجاب فانه أمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم ان يحتجبن فقالت له زينب: وانك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل فى بيوتنا: فانزل الله تعالى واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) ومنها آية الاستئذان فى الدخول وذلك انه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال: اللهم حرّم الدخول: فنزلت آية الاستئذان

الى هذا المقام وصل عمر رضى الله عنه فى صدق اللهجة وقول الحق وجميل الصحبة وحسبه فضيلة فى نفسه وفضلا على المسلمين فى صحبته كونه كان سبباً فى تحريم الخمر الذى هو آفة الانسانية وجرثومة الشر وعلة العلل الاجتماعية والامراض العقلية والجثمانية فى كل زمان ومكان

هكذا كان عمر رضى الله عنه نافعاً فى صحبته ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص عليه والحب له والمدافعة عنه وشهد معه من المشاهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وحنيناً والفتح وخيبر وغيرها وكان ممن ثبت مع رسول الله فى أحد

أخرج فى أسد الغابة عن الزهرى وعاصم بن عمر قال : لما أراد أبو سفيان الانصراف (عقب وقعة أحد) أشرف على الجبل ثم نادى بأعلى صوته ان الحرب سجال يوم بيوم بدر أعل هبل (أى اظهر دينك) : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : قم فأجبه : فقال الله أعلى وأجل لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار : فلما أجاب عمر أبا سفيان قال أبو سفيان هلم الىّ ياعمر فقال رسول صلى الله عليه وسلم : ائته فانظر مايقول : فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك بالله ياعمر أقتلنا محمداً : قال : لا وانه ليسمع كلامك الآن فقال أبو سفيان أنت أصدق عندى من بن قمئة وأبر (لقول بن قمئة لهم قد قتلت محمداً)

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر غازياً الى ذات السلاسل في جيش أميره عمرو بن العاص وأرسله فى جيش اميره أسامه بن زيد مولى رسول الله وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسافر أسامة بالجيش بعد وفاته وبقى عمر بالمدينة استبقاه أبو بكر كما رأيت في سيرته وبالجملة فان عمر رضي الله عنه خدم الاسلام في صحبته كما خدمه في خلافته وكان مخلصاً في ايمانه مخلصاً لنبيه عظيم الحب له حتى بلغ من حبه له انه لما مات صلى الله عليه وسلم لم يصدق بموته وأصابه من شدة الحزن دهشة وذهول حتى قام فقال . من قال أن محمداً قد مات علوت رأسه بسيفي هذا وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم . والقصة مشهورة أوردنا المهم منها في سيرة أبي بكر رضي الله عنه فكأن عمر ألهم هذا القول حتى أرهب المنافقين فأذهلهم عن الكلام ريثما جاء أبو بكر وسكن اضطراب النفوس ببيانه

باب

﴿ خلافته ﴾

تقدم معنا في الجزء الأول ان أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب قبل وفاته فوليها يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الآخرة يوم وفاة أبي بكر ولما تلي كتاب العهد على المسلمين بايعوه جميعاً ولم ينكل عن بيعته أحد من المهاجرين والانصار مع انه كان توقف بعضهم عن بيعة أبي بكر حالة كونها شورى بين المسلمين كما رأيت في الجزء الاول وانما رضي المسلمون بعهد أبي بكر لعمر بن الخطاب وان خالف قاعدة الشورى وتسامحوا بحق انتخابهم الخليفة لامرين

(الامر الاول) توقعهم الخلاف على الخلافة بين النفر المتطلعين اليها من المهاجرين السابقين فيما لو تركت شورى تتنازعها الاهلية وتتجاذبها العصبية وقيام العذر لأبي بكر في عدم تركها شورى لهذا السبب الذي استشعر به قبل وفاته وقد بسطنا الكلام على هذا في باب خلافته فلا حاجة للمزيد

(والامر الثاني) تفرّس المسلمين في عمر الكفائة على القيام بهذا الامر واقتداره على سدّ ذرائع الفتنة كما تفرّس فيه ذلك أبو بكر وكبار الصحابة الذين استوثق له منهم قبل عهده اليه بالخلافة وقد صدقت في عمر رضي الله عنه فراستهم وتحقق بكفائته رجاؤهم فكانت خلافته رحمة على الأمة كما مرّ في حديث بن مسعود

اخرج الحافظ بن عساكر عن أبي عبيدة قال: قال عبد الله بن مسعود: أفرس الناس ثلاثة. الملك حين تفرّس في يوسف والقوم فيه زاهدون . والمرأة التي

تفرست في موسى فقالت (ياأبت استأجره انّ خير من استأجرت القويّ المتين)
وأبو بكر حين تفرس في عمر فاستخلفه

ثم قد استاء بعضهم من استخلاف أبي بكر لعمر الا ان استياءهم لم يكن لفقد
الكفاءة ممن أسندت اليه الخلافة وانما كان لصرف فاعنهم أو خوفاً من شدة عمر
عليهم كما بسطناه هذا في سيرة أبي بكر ومع هذا فانّ أبا بكر رضي الله عنه لم يقض الاّ
بعد ان جعل الساخط راضياً فقد أخرج الامام أبو الفرج ابن الجوزي في السيرة
العمرية وابن عساكر في تاريخه عن عاصم قال : جمع أبو بكر الناس وهو
مريض فأمر من يحمله الى المنبر فكانت آخر خطبة خطب بها فحمد الله وأثنى عليه
ثم قال: أيها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فانها غرارة وآثروا الآخرة على
الدنيا واحبوها فبحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى وان هذا الامر الذي هو
أملك بنا لا يصلح آخره الا بما صلح به أوّله ولا يحمله الا أفضلكم مقدرة وأملككم
لنفسه أشدكم في حال الشدة وأسلسكم في حال اللين وأعلمكم برأي ذوي الرأي .
لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحي من التعلم ولا يتحيّر عند
البديهة قويّ على الأمور لا يجوز لشيء منها حده بعدوان ولا تقصير يرصد لما هو
آت عتاده[1] من الحذر والطاعة وهو عمر بن الخطاب) ثم نزل فحمل[2] الساخط
أمارته الراضي بها على الدخول معهم توصلا

ومن هذا يعلم ان أبا بكر انما اختار للخلافة عمر رضي الله تعالى عنهما علماً بحقيقته
وسداً لذرائع الفتنة وطلباً لخير المسلمين ومصلحتهم لا محاباة ولا لغرض آخر كما
شهد بذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقد أخرج الحافظ عز الدين الجزريّ

(١) بفتح العين الذخيرة المعدودة لوقت الحاجة (٢) هكذا في السيرة العمرية وفي
تاريخ ابن عساكر وجعل الخ ولم يذكرا متعلق (لتوصلا)

في أسد الغابة عن سويد بن غفلة الجعفي أنه دخل على علي بن أبي طالب في خلافته فقال: يا أمير المؤمنين اني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذي هما أهل له من الاسلام: فقام (أي علي) فخطب الناس خطبة طويلة مما جاء فيها عن أبي بكر واستخلافه لعمر قوله (حتى حضرته الوفاة فرأى ان عمر أقوى عليها ولو كانت محاباة لآثر بها ولده) الى آخر كلامه وربما جاء معنا في مكان آخر

وهذا الذي تحقق عند المسلمين من حسن نية أبي بكر وكفاءة عمر دعاهم الى الرضا ببيعته والاتفاق على قبول خلافته وان خالفت قاعدة الشورى بين المسلمين وقد قام رضي الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً لا يجاريه فيه أحد من قادة الأمم وساسة الحكومات بل كان من عظيم أثره وأثر أبي بكر في الخلافة الاسلامية أن كانا مثلا لمن بعدهما يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقهما من الخلفاء وخالف سيرتهما من الامراء

أخرج في أسد الغابة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال «ان الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة الى يوم القيامة فسبقا والله سبقاً بعيداً وأتعبا والله من بعدهما اتعاباً شديداً فذكرهما حزن للأمة وطعن على الائمة»

ولقد صدق رضي الله تعالى عنه فيما قال فانه لم يخرج قوم من المسلمين على الامراء بعد ذينك الخليفتين الا مطالبين بمثل عدلهما محاجين بسيرتهما حتى فريق الخوارج الذين يذهبون الى عدم الحاجة الى الامام كانوا يحتجون على الخلفاء بسيرة الامامين الأولين وأول ما خرجوا كان خروجهم على علي رضي الله تعالى عنه هذا على مكانته من الدين وتقواه وعدله حتى أن الخوارج لم يستطيعوا أن يأخذوا عليه في سيرته الا مسألة التحكيم التي لم تنبعث في الحقيقة الا عنهم

وحسب عمر رضي الله تعالى عنه من خلافته ان يكون مثلا في العدل وحجة

على الخلفاء والولاة من بعده بل حسبه من سيرته فخراً وذكراً ان كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين أجمعوا على انه أعدل من ساس الأمم وأعظم رجل فى الاسلام ولو قدر المسلمون قدر هذا الرجل العظيم الذى يفتخر به تاريخ الاسلام لشيدوا بأسمه الآثار العظيمة فى كل مكان ليبقى ذكره حياً بين الناس كما هو حيٌّ فى التاريخ وبعد فان أحط البشر عقولا وأضعفهم بصيرة فريق الغلاة من الشيعة الذين يطعنون فى ذلك الرجل العظيم الذى أصبح في حسن السيرة مثلا فى العالمين وحجة على الخلفاء والسلاطين فأيّ عار على المسلمين بإزاء الأمم الأخرى ان يكون فيمن ينتسب للاسلام جماعة يقدحون بمثل عمر بن الخطاب على تفرده بالشهرة وجلالة قدره وجلائل أعماله وآثاره وسبقه بالايمان وخدمته للاسلام فى صحبته وخلافته حتى كان غرة جبين التاريخ الاسلامي وذكرى الفخر الغابر الخالدة مع ان الاسلام يبرأ الى الله من أمثال تلك الفرق التي أسس نحلتها ابن سبأ اليهودى واضرابه من أعداء الاسلام ومريدى الشر بالمسلمين ولا يزال أولئك الناس يدعون النسبة الى الاسلام وهو يبرء الى الله من نحلهم الفاسدة التى لا يقبلها ذو عقل ولا تنطبق على دين ولا حكمة وانما هو التقليد الاعمى والجهل يفعلان فى العقول والاوهام ما لا تفعله السموم فى الاجسام

باب

أول أعماله فى الخلافة

كان أول كلام تكلم به عمر رضى الله عنه يوم استخلف ان صعد المنبر فخطب الناس فقال: انما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده حيث يقود

وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق

وأول عمل عمله فى خلافته ثلاثة أمور: إنتداب الناس مع أبي عبيد الثقفى لحرب الفرس: وعزل خالد بن الوليد وتوسيد الامارة العامة في الشام الى أبي عبيدة عامر بن الجراح: وبعث يعلى بن أمية لأجلاء أهل نجران: فأما خبر أبي عبيد فسيأتي معنا فى باب الكلام على فتوحات عمر (رض) وأما خبر خالد بن الوليد فقدمر معنا ذكره فى سيرته وربما نعود الى شيء منه عند الكلام على فتوح الشام: وأما خبر نجران فنتكلم عليه هنا لأنه لا يخلو من فائدة تاريخية فيها موعظة وذكرى لقوم يعقلون

﴿ إجلاء أهل نجران ﴾

سبق لنا فيما مر من هذا الكتاب كلام على الدعوة الى الاسلام وأن لا إكراه فيها وأن أساسها التبليغ فمن قبلها كان من المسلمين ومن أبى فعليه أن يخضع لسلطانهم وان يعطيهم جزءاً من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه وله عليهم حق الوفاء بما عاهدوه عليه وأن لا يفتن عن دينه ولا يؤخذ منه من الجزاء الا ما رضيه فى عهده وان تكون له الذمة والعهد أنى حل وحيثما وجد من ممالك الاسلام ما دام وافياً بعهده مؤدياً لجزيته لا يخون المسلمين ولا يمالئ عليهم عدوهم وأحسن شاهد على هذا نسوقه اليك فى هذا الفصل خبر أهل نجران اليمن وكانوا من الكتابيين لتعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة ومبلغ محافظة الخلفاء على عهودهم معهم ما لم يخونوا أو يغدروا وتحرير الخبر عنهم انه كان وفدوفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الاسلام فأبوا وسألوه الصلح وان يقبل منهم الجزاء فصالحهم على شيء معلوم يؤدونه كل سنة للمسلمين وكتب لهم بذلك كتاباً جعل لهم فيه ذمة الله وعهده وان لا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا وان يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم واموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم

وبعثهم وأمثلتهم لا يغير ما كانوا عليه ولا يغير حق من حقوقهم ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقا فبينهم النصفُ غير ظالمين ولا مظلومين ولهم على ذلك جوار الله وذمة رسوله أبداً حتى يأتي أمر الله ما نصحوا وأصلحوا وشترط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقرهم على حالهم وكتب لهم كتاباً على نحو كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه كان يتخوفهم ويود إجلاءهم لما روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يبقين في جزيرة العرب دينان: ولما حضرت أبا بكر الوفاة أوصى عمر بن الخطاب باجلائهم لنقضهم العهد بأصابتهم الربا

فانظر كيف ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى ان لا يجتمع في جزيرة العرب دينان لان العرب أمة حديثة عهد بالاسلام وقد عانى صلى الله عليه وسلم ماعانى في جمع كلمتها وتوحيد وجهتها فمن الخطر أن يوجد بين ظهرانيها قوم يتدينون بغير دينها فيفتنون من جاورهم عن الاسلام على حداثة عهدهم فيه وعدم تمكنهم بعدُ من اصوله الصحيحة

هذا من وجه ومن وجه آخر فان النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ولا يخفى ما فيه من الضرر على من جاورهم من أهل اليمن الذين ينضب التعامل بالربا معين ثروتهم ويؤذن بفقرهم على غير شعور منهم لا سيما وان الشريعة الاسلامية قد حرمته تحريما باتا ولا يؤمن من ان النجرانيين باستمرارهم على تعاطي الربا يحملون بعض من جاورهم من المسلمين على ارتكاب الاثم بالتعامل معهم بالربا

مع هذه الاسباب التي تلجئ الى إكراه النجرانيين على الاسلام فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكرههم على ذلك لان شريعته لم تأذن باكراه أهل الكتاب على الاسلام لهذا تركهم على دينهم بعد أن دعاهم الى الاسلام بالتي هي أحسن

فأبوا وأعطاهم كتاب العهد المذكور إلا أنه اشترط عليهم فيه أن لا يخونوا المسلمين ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت ولما استخلف أبو بكر أكد لهم عهدهم الأول مع أنه كان يرى في وجودهم في جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسعه في أمرهم الا ماوسع الرسول (ص) حتى اذا علم انهم خانوا العهد وتعاملوا بالربا أمر في حال مرضه عمر بن الخطاب (رض) باجلائهم عن جزيرة العرب دون أن يفتنوا في دينهم

ولما استخلف عمر (رض) كان أول بعث بعثه بعث أبي عبيد الى العراق كما قدمنا وبعث يَعلَى بن أمية الى اليمن وأمره باجلاء أهل نجران وأن يعاملهم بالرأفة ويشتري أموالهم ويخيرهم عن أرضهم في أي أرض شاؤا من بلاد الاسلام (لا أن يعاملهم معاملة القويّ الغالب للضعيف المغلوب كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الاسلام وبعده حتى الآن فى معاملة الأمم التي تخالف مذهبها وتخضع لقوة سلطانها)

أخرج الطبري عن سالم في حديث مرّ معناما هو بمعناه قال فيه عن عمر انه أوصى يعلى بن أمية باهل نجران فقال

أئتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجلهم مَن أقام منهم على دينه وأقرر المسلم وأمسح أرض كلّ من تجلي منهم ثم خيرهم البلدان وأعلمهم أنا نجليهم بأمر الله ورسوله أن لا يترك بجزيرة العرب دينان فليخرجوا مَن أقام على دينه منهم ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسنا ووفاءً بذمتهم فيما أمر الله من ذلك بدلاً بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف

وكتب لهم كتاباً هذه صورته كما أوردها البلاذري فى فتوح البلدان

وأما بعد فمن وقعوا به من أهل الشأم والعراق فليوسعهم من حرث الارض

وما اعتملوا من شيء فهو لهم مكان أرضهم باليمن »

على هذا الوجه أجلى عمر (رض) النجرانيين النصارى منهم واليهود فتفرقوا فنزل بعضهم الشام وبعضهم النجرانية بناحية الكوفة وبهم سميت

ولم تقف العناية بهم في اجلائهم والمحافظة على ما بيدهم من العهد وتعويضهم عما تركوه من العقار والمال عند هذا الحد بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية ورفق ولم يرفعوا لاحد منهم مظلمة إلاّ أنصفهم ورفع أذى عماله عنهم وشملهم بالعدل وحاطهم بالعناية

من ذلك انهم شكوا مرة الى عثمان رضي الله عنه لما استخلف ضيق أرضهم ومزاحمة الدهاقين لهم وطلبوا اليه تخفيف جزيتهم فكتب الى الوليد بن عقبة بن أبي معيط عامله على الكوفة كتاباً يوصيه فيه بهم ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلة من جزيتهم لوجه الله وعقبى لهم من أرضهم . وستأتي صورة الكتاب في خلافة عثمان رضي الله عنه

وروى البلاذري عن الكلبي انه لما ولي معاوية أو يزيد بن معاوية شكوا اليه تفرقهم وموت من مات منهم واسلام من أسلم منهم وأحضروه كتاب عثمان بن عفان بما حطهم من الحلل وقالوا انما ازددنا نقصاناً وضعفاً فوضع عنهم مائتي حلة تتمة أربعمائة حلة فلما ولي الحجاج العراق وخرج ابن الاشعث عليه اتهمهم والدهاقين بموالاته فردّ جزيتهم الى ما كانت عليه فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة شكوا اليه ظلم الحجاج ونقصهم فأمر فأحصوا فبلغوا العشر من عدتهم فألزمهم مائتي حلة جزية عن رؤوسهم فقط فلما ولي يوسف بن عمر العراق في خلافة الوليد بن يزيد الاموي ردهم الى ما كانوا عليه عصبية للحجاج فلما انقضت دولة الامويين واستخلف ابو العباس السفاح رفعوا اليه أمرهم وما كان من عمر بن عبد العزيز

ويوسف بن عمر فردهم الى مائتي حلة ولما استخلف هرون الرشيد شكوا اليه تعنت العمال اياهم فأمر فكتب لهم كتاب بالمائتي حلة وبالغ بالرفق بهم فأمر أن يعفوا من معاملة العمال وان يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة كي لا يتعنتهم أحد من العمال

هذا ما رواه المؤرخون في شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جزيرة العرب وقد رأيت مما مر مبلغ عناية عمر (رض) بهم لما لم ير بداً من اجلائهم للاسباب التي مر ذكرها وقد كان من السهل اكراههم على الاسلام ودخولهم فيه كما دخل أولئك الملايين من مشركي العرب وعامة سكان الجزيرة العربية طوعاً أو كرهاً وانما هو الشرع الاسلامي منع من اكراه غير مشركي العرب على الاسلام كما منع من نقض العهد وخفر الذمة إلا بسبب مشروع لهذا لما خان النجرانيون عهدهم بتعاملهم بالربا وقد عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يتعاملوا به في الجزيرة ساغ لامير المؤمنين اجلاؤهم الى غيرها بعد ان عوضهم عن المال والعقار بمثله ومازال الخلفاء بعده مبالغة بالرفق بأهل الكتاب وقياماً بواجب السيادة العادلة ووفاءً بعهد الله والرسول يعاملون النجرانيين بأحسن ما تعامل به عامة الرعية من المسلمين ويدفعون عنهم أذى الظلم والاجحاف كما رأيت

﴿ حكم الاسلام في المسيحيين وحكم الاوربيين في المسلمين ﴾

ينتج معنا من هذه الحكاية ثلاثة أمور (الامر الاول) عدم اكراه النجرانيين على الاسلام مع تعين الخطر من وجودهم في جزيرة العرب لحداثة عهد أهلها بالاسلام ذلك لان عدم الاكراه من أصول الشريعة الاسلامية والجهاد الذي يعظم أمره أعداء المسلمين انما شرع لحماية الدعوة لا للاكراه الا جهاد مشركي العرب يومئذ فقد شرع لارغامهم على الاسلام لاسباب حكيمة

لا تخفى على بصير أهمها تطهير نفوس تلك الامة العظيمة من شرور الوثنية واستئصال شأفة الجهل والتوحش من جزيرة العرب التي كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب من آسيا وافريقيا وأوربا بل هي نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك فانتشار أنوار المدنية والدين فيها يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والاشراف على تلك الممالك أيضاً وقد كان ذلك كما هو معلوم

(والامر الثاني) عدم حيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما أمر به من الوفاء بالعهود وتأكيدهم لعهد النجرانيين الواحد تلو الآخر على ضعف هؤلاء وقلتهم وقوة الخلافة الاسلامية وسلطتها وان ذلك لم يكن عن رهبة أو رغبة بل عن محض تمسك بالعهد وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة وسلطان الاسلام من كل ملة ودين

(والامر الثالث) حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) على قاعدة حماية الذمي في نفسه وماله بتعويضه النجرانيين عن أرضهم ومالهم بالمثل من أرض المسلمين ومالهم لما اقتضت الضرورة باجلائهم عن أرضهم الى غيرها من بلاد المسلمين وقد رأيت ما ذكرناه استطراداً في سيرة أبي بكر عن عمر رضي الله عنهما وما فعله من هذا القبيل مع أهل عربسوس من ثغور الروم وكيف انه لما أمر باجلائهم عن أرضهم لخيانتهم جوار المسلمين ونكثهم عهد الامانة والصدق أمر بأن يعوضوا عن مالهم عقارهم ونعمهم ضعفين ومازال الخلفاء في أيام الفتوح العظيمة وما بعدها يحافظون على حق القرار الثابت والملك القديم للاقوام المغلوبين للمسلمين الخاضعين لسلطانهم سواء كانوا من المسيحيين أو غيرهم ولم يؤثر عن أحد منهم انه طرد قوماً من أرضهم أو انتزعها منهم بغير حق ولا عوض ولا عبرة بما ربما يقع من هذا القبيل على بعض الافراد من جور بعض العمال الذين

غلبت شهواتهم على الفضيلة فحادوا عن طريق الشرع فانه قد يصيب أفراد المسلمين من جور هؤلاء أكثر مما يصيب غيرهم وليس في هذا ما يقدح بأصول الحكم الاسلامي الذي يأبى الظلم ويدعو الى الرأفة والعدل

هذا شأن الاسلام في المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة وقد رأيت مما تقدم انه لم يعط للمسلمين من حقوق الغلب التي ينتحلها الغالبون في كل عصر الا ما تدعو اليه الضرورة القصوى وتستلزمه سلامة الملك والدين لا ما تدعو اليه شهوات الملك ورغبات الأمة الغالبة وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم وان لاهل الذمة مالهم وعليهم ما عليهم فبالغوا في الرأفة بأهل جوارهم والداخلين في ذمتهم من أرباب الملل الاخرى فتركوا لهم حرية التملك والدين ولم ينازعوهم حقاً من حقوق المواطنة والجوار بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة وعضواً من أعضاء مجتمعهم لا غنى عن مشاركته في العمل ومشاطرته أسباب السعادة المدنية والحياة الوطنية يؤيد هذا اعتماد الخلفاء الامويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ترتيب دواوين الخراج وترجمة علوم اليونان وتقريب النابغين منهم في علوم الهندسة والطب اليهم واعتمادهم في شفاء عللهم عليهم بل بلغ بالمسلمين اعتبارهم لاهل الكتاب عضواً من جسم هيئتهم الاجتماعية لا يجوز فصله في حال من الاحوال ان جيوش التتار لما اكتسحت بلاد الاسلام من حدود الصين الى الشام ووقع في أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم خضد المسلمون شوكة التتار في الشام ودان ملوكهم بالاسلام خاطب شيخ الاسلام ابن تيمية رأس العلماء في عصره أمير التتار قطلوشاه باطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح له باهل الذمة فقال له شيخ الاسلام : لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لا من

أهل الملة ولا من اهل الذمة فاطلقهم له[1]

وكيف لا يقوم علماء المسلمين وخلفاؤهم بحماية أهل ذمتهم وقد استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم أمته خيراً وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وكما سترى بعد ونحن ننقل اليك هنا على سبيل الاستطراد ما جاء في كتاب كتبه عمر بن الخطاب (رض) الى عمرو بن العاص عامله على مصر وهو قوله

«واعلم يا عمرو ان الله يراك ويرى عملك فانه قال تبارك وتعالى في كتابه (واجعلنا للمتقين إماما) يريد ان يقتدي به وان معك أهل ذمة وعهد وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأوصى بالقبط فقال «استوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحماً» ورحمهم ان أم اسماعيل منهم وقد قال صلى الله عليه وسلم «من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فانا خصمه يوم القيامة» احذر يا عمرو أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً فانه من خاصمه خصمه. والله يا عمرو لقد ابتليت بولاية هذه الامة وآنست من نفسي ضعفاً وانتشرت رعيتي ورق عظمي فأسأل الله أن يقبضني اليه غير مفرط. والله انى لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً ان أسأل عنه يوم القيامة»

---

(١) رأيت هذه الحكاية التاريخية المهمة في نسخة خطية من الرسالة القبرصية التى قدمها شيخ الاسلام ابن تيمية لسرجوان ملك قبرص لافتكاك أسرى المسلمين منه ودفعت هذه الرسالة الى الفاضل الشيخ علي أفندى يوسف صاحب جريدة المؤيد الخطيرة فطبعها من عهد قريب على نفقته ومن الاسف أن يغفل مؤرخو المسلمين أمثال هذه الحوادث المهمة التي هي مرمى غرض التاريخ الصحيح ولو عنوا بنقل كل الحوادث الاجتماعية التي لها علاقة باصول المدنية الاسلامية وعصورها لنفعوا الاسلام والمسلمين

تأمل قول هذا الخليفة العظيم الذي يوصي به عامله بأهل الكتاب ترى الرهبة من الله بادية على كلامه . وعلائم الخشوع والحنان المنبعثة عن وجدانه الطاهر مرتسمة في تضاعيف كتابه حتى كأنما هو واقف بين يدي الله يُسأل عن حقوق خلقه ويحاسَب عن عمله في رعيته . إنّ في هذا لآيات من العدل وغايات في إنصاف الرعية غير المسالمة لا يدرك شأوها الولاة والسلاطين في كل أمة من أمم الارض الآن

وأعظم من هذا وأجل أن آخر وصايا عمر التي أوصى بها عند وفاته كانت بالمهاجرين والانصار وأهل الذمة اذ كتب لمن يخلفه كتاباً قال فيه : وأوصيه باهل ذمة الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وان يقاتل من ورائهم الخ ما جاء في الكتاب كما ستراه في محله ان شاء الله

هذا شأن الحكم الاسلامي في أهل الذمة ومبلغ عناية الخلفاء بالخاضعين لسلطانهم من غير المسلمين أوردناه مؤيداً بالشواهد التاريخية مع انه يكاد يدرك ببداهة الحس لان اليهود والنصارى في الممالك الاسلامية مازالوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق مدى ثلاثة عشر قرناً فلم تنزع منهم أرض ولم يطردوا ويشردوا عن أوطانهم ولم يفتنوا عن دينهم ولو أصيبوا بما يصاب به المسلمون في ممالك النصرانية لما بقي منهم في هذه القرون الطويلة باقية مع ان الاسبانيول مالبثوا ان دوخوا بلاد الاندلس واكتسحوا ذلك الملك الاسلامي العريض حتى فتنوا المسلمين عن دينهم وطردوهم عن ملكهم واغتصبوا تراثهم وسفكوا دماءهم وشردوهم عن بلاد الاندلس تشريداً ما أبقى لهم في بضع سنين باقية ومحا كل ما تركوه من آثار العلم والمدنية في تلك البلاد التي كانت جنة الارض في عصرهم

واذا انتحل للاسبانيول عذر البربرية والتوحش وانهم انما كانوا يومئذ في عصور الجهالة الاوربية فهل يقال انهم كانوا أحط في الاخلاق والمدنية من تلك الامة البدوية التي نشأت في جزيرة العرب على الغارة والسلب وسفك الدماء وعبادة الاوثان ثم لما اندفعت للفتح وأتيحت لها قوة الغلب على الأمم وأخصها أهل الكتاب كانت سياستها في الملك ورأفتها بالمغلوبين ما رأيت فيما تقدم

نقول ولا نكران للحق ان الاسبانيول لم يكونوا في تلك الدرجة من الهمجية بل كانوا وكل الأمم الاوربية في دور تمدن جديد نبتت أصوله بين العرب يومئذ وأظلت فروعه ممالك المغرب وانما هم حملة علوم الدين وتعصبهم الديني هو الذي جعل هذا البون البعيد بين الفريقين وباين في السياسة بين الفاتحين وأين من يوصي الجيوش الفاتحة بالرفق بالمسيحيين واعتبارهم بعد الغلب جزء لا ينفصل عن مجتمع المسلمين له مالهم من رعاية وعليه ما عليهم من حق كما في وصايا الخلفاء التي رأيت ممن يصور للأمم المسيحية المسلمين في صورة وحش ضار يتحفز للوثوب على الشعوب وهؤلاء هم قادة المسيحيين وحملة الدين المسيحي ومنهم مثيرو نار الحروب الصليبية من القسس ومدبرو مكائد جمعية التفتيش الديني (الانكيزسيون) في اسبانيا بل ومنهم كان في هذا العصر عصر المدنية والنور المستر غلادستون وزير انكلترا الشهير بحملاته الخطابية على الاسلام والمسلمين

أليس لعجيب ان يقرر الاسلام مبدأ المساواة بين الشعوب الخاضعين لسلطانه ويحتم على أهله حماية اليهود والنصارى في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ونحلهم ويعاهدهم على هذه الحماية خلفاء المسلمين كلما جاء خليفة يؤكد عهد السابق مدى هذه القرون الطويلة ولا يوجد الى هذا العهد من قادة الأمم النصرانية وحملة الانجيل في الممالك الغربية من يمزق غشاء التعصب الصفيق

وينصف المسلمين في دينهم ويماملهم ولو بحسنة من حسناتهم اللهم ان هذا لمنتهى
الضعف في الوجدان والتجرد عن العدل والتقمص في لباس الاوهام والى الله نبرأ
عنه معاشر المسلمين مهما كان حالنا وأنى بلغ انحطاطنا والتاريخ شاهد عدل

رب معترض يقول انا بالغنا في تعنت الأمم المسيحية والتبرئ من وصمة
التعصب الذميم الذي نرمي به الدول الغربية مع أن المسلمين بشر كأولئك الناس
لا تتنزه نفوسهم عن الظلم والتعصب ولم يخل تاريخ حكومتهم من اعنات رعيتها
من غير المسلمين وان كان دينهم يأمرهم بمحاسنة أهل جوارهم من الكتابيين
فنجيب عن ذلك نعم ان المسلمين ليسوا بملائكة معصومين هبطت عليهم السكينة
من السماء الآن دينهم الذي أمر بالعدل بين الرعية والوفاء بعهود أهل الذمة وجاء
لتأليف بين القلوب ونهى عن ظلم أهل الكتاب والتعدي على حقوق الجوار
هذب نفوسهم واجتث أصول التعصب الاعمى من أفئدتهم فكانوا أحسن الامم
معاشرة مع مجاوريهم من الكتابيين فأطلقوا لهم حرية الدين واقامة الشعائر
والعادات وأمنوهم على المال والارض وحرية المتاجرة وشاركوهم في الاعمال
وحسبك من ذلك أن الشارع سمى الرعية غير المسلمة ذميين أي داخلين في ذمة
المسلمين وعهدهم لا يضارون في عرض ولا نفس ولا مال فأصبح هذا الاسم
علماً على المسيحيين واليهود عند المسلمين يذكرهم بالعهد اذا نسوا ويستلينهم اذا
قسوا وانما تناسى المسلمون هذا الاسم الآن كما تناسوا كثيراً من شعائر دينهم
وتسامحوا بأصول شرعهم، اذا نفخ في المسلمين شئ من روح التعصب على
المسيحيين وجفوا اخوانهم في الوطنية وان لم يكونوا اخوانهم في الدين فانما كان
نافخ هذه الروح ومضرم نار الفرقة والجفاء بين الفريقين حروب الصليب التي
أسعر لهيبها في المشرق خطباء الدين والسياسة في الممالك المسيحية وما تلا ذلك من

تحول قوة لغلب في العصور المتأخرة الى الدول الاوربية وايثالها بسبب ذلك في التحكم الجائر على دول الاسلام والتداخل بشؤون المسيحيين في المشرق تداخلا ممزوجاً بالاغراض السياسية مبنياً على القسوة والجبروت في مناواة دول الاسلام مع مايضاف الى هذا من دس الدسائس للتغرير بالمسيحيين في مناوأتهم لجاوريهم المسلمين والخروج على الحكومة الاسلامية بدعوى التظلم من جور الحكام الظالمين حتى أصبحت المملكة العثمانية منذ قرن تقريباً كميدان حرب تباع فيه أرواح المسلمين والمسيحيين بلا جريرة ولا اثم الا الجهل الذي يزج بهم في غمار الفتن خدمة لمصلحة الدول الاوربية على غير علم بمن يخدمون ومن ثمّ كان المسؤل عن بث روح الجفاء والتعصب في نفوس المسلمين هم قادة المسيحية وساستها وحملة كتابها لا المسلمون أنفسهم

أجل قد وجد في بعض العصور الاسلامية ناس من علماء الدين الاسلامي متعصبون تناسوا وصايا نبيهم وخلفائه الراشدين بأهل الذمة لكنهم أفراد من أهل العلم الناقص لا يبنى على عملهم حكم وإنما تطرق اليهم ذلك التعصب من بعض مذاهب الشيعة الذين يتأولون الآيات بما يوافق مذهبهم الباطل سامحهم الله وهداهم ومع هذا فلن يبلغوا مبلغ علماء الدين المسيحي من التعصب ضد الاسلام والمسلمين كما انه وجد حكام تعسفوا في الحكم وآذوا أهل الكتاب فسلبوهم كثيراً من مزايا التمتع بحسن المجاورة والمعاشرة مع المسلمين لكن أولئك قوم قد نزع الله الرحمة من قلوبهم وقصرت عن مدارك العدل مداركهم فكان المسلم والذميّ في جورهم سواء ولقي ويلقي المسلمون منهم من البلاء أكثر مما يلقى المسيحيون . على أن الدول الاوربية لو تركت المسلمين وشأنهم مع مواطنيهم من المسيحيين ولم تنفث فيهم سم التنافر والجفاء لوجدوا لأنفسهم سبيلا للراحة

ومندوحة عن تحمل الظلم والعناء

ومع هذا فان جور بعض الحكام لا يعتبر أساساً فى نوع الحكم والحكم فى معاملة الذميّ فى الاسلام هو ما رأيت مما مرّ فى هذا الفصل من عناية الخلفاء بالكتابيين ووصاياهم باهل الذمة والعهد واذا قابلنا بين هذا الحكم وبين الحكم فى معاملة المسلم عند الدول المتمدنة المسيحية فى هذا العصر لرأينا الفرق واضحاً والتباين بينهما فاضحاً إذ انّ الاسلام لم يأت بقانونين متباينين لحكم الامم الغالبة والمغلوبة وانما أتى بقانون واحد الناس كلهم فى شرعه سواء واما قوة الغلب التى أتيحت فى العصور المتأخرة للدول المسيحية فقد نزعت من قلوب زعمائها كل حنان ورحمة فى معاملة المسلمين معاملة القويّ القاهر للضعيف المغلوب حتى بلغ بتلك الدول أن جعلن وزارة المستعمرات منفصلة عن جسم الحكومة الوطنية تدير شؤون رعيتها فيها على أساس العسف والاستبداد وان كانت تدار شؤون أمتها الغالبة على أساس الدستور والعدل وحسبك من هذا أن دولة فرانسا التي توسعت فى هذا العصر بدعوى الانسانية والعلم والحرية أصبحت أشد الدول المسيحية وطأة على رعاياها المسلمين ونزع الفرنساويون في الجزائر منازع القوّة والجبروت فانتزعوا من المسلمين أراضيهم وأملاكهم وأوقافهم وحجروا على حرية التعليم عندهم واستبدوا في أموالهم وأرواحهم حتى بات الجزائري في حالة من الضنك والفقر والجهالة ينفطر لها القلب وحتى كانت الدولة الفرنساوية أبغض الدول الى المسلمين في هذا العصر ويتلوها في المرتبة هولاندا في معاملتها القاسية لمسلمي الجاوى ويتلوهما النمسا في معاملتها لمسلمي البوسنه والهرسك ويتلو هذه الروسية وحكومات البلقان وهكذا كل دولة أوربية لها نصيب من ظلم المسلمين وتعنتهم ومع أن دولة انكلترا هي أخف الدول المسيحية وطأة على المسلمين

وأسدهن سياسة في المستعمرات وأطلقهن لحرية التعلم والتملك والمتاجرة والدين في مستعمراتها الشرقية سواء كانت اسلامية أو غير اسلامية الا انا نرى بين الحكومة الانكليزية في حكمها في البلاد الشرقية وبين الأمة الانكليزية في معاملتها الشرقيين بوناً شاسعاً وفرقاً عظيماً اذ بينا نري أساس الحكم الانكليزي في الأمم الخاضعة له خارج الجزيرة البريطانية مبنياً على ما تقدم من حسن السياسة نرى من وجه آخر أفراد الأمة الانكليزية يمتهنون الشرقي امتهاناً لا يطيقه بشر بل لا يجوز صدوره عن بشر ويغالون في حب الذات الى حد يكاد يبغض المسلمين وغيرهم من المحكومين لتلك الأمة ذلك الحكم الانكليزي مهما بلغ من العدل ومن أغرب ما رأينا في الجرائد من هذا القبيل ان أحد أمراء الهند الكبار مر على مدينة رأس الرجاء الصالح في افريقيا الجنوبية من عهد قريب فلم يتيسر له النزول فى فندق من فنادق تلك المدينة لانها كلها تضيف الانكليز ولا سبيل لشرقي مهما كان مقامه أن يدخل مكانا فيه رجل انكليزى بل والانكليز هناك يأبون ان يروا معهم حيثما كانوا رجلا من الشرقيين ورأينا كثيراً من أمثال هذه الحادثة في الجرائد مما يدل على التناهي في الجبروت والاغراق فى حب الذات[1]

---

(١) بعد كتابة هذا الفصل اطلعنا في العدد ٣٥٨١ من جريدة المؤيد الصادرة يوم الاحد غرة ذى القعدة (سنة ١٣١٩) على رسالة من دربان نتال في أفريقا الجنوبية يقول المراسل فيها ما نصه • ارسلت لكم نسخة من جريدة (مكرى) المطبوعة فى نتال فى (بور تليزبيت) وهي ان المؤذن بينا كان واقفا على رأس منارة عالية يؤذن فلم يشعر الاوطاق نارى أصابه من يد أحد المتمدنين الانكليز لانه أزعجه بصوته فسقط المؤذن على أم رأسه أجزاء متفرقة قضت نحبها في هويها (كذا) وقد قبض على الجاني وهيهات ان يلقي عقاب الموت لانه لم يعهد ان انكليزياً يقتل فى وطنى بهذه الديار ولا في الشرق كله ثم ذكر حادثة أخرى وقعت لامام هذا الجامع يأبى القلم أن يسود بذكرها صفحات هذا الكتاب

فأين ما تعامل به المسلمين الدول الاوربية فى هذا العصر الذى دالت به لهن الدولة وأتيح لهن الغلب على الأمم مما كانت تعامل به دولة المسلمين فى ابان مجدها وأيام فتوحها رعيتها من المسيحيين وأين ما عامل به عمر بن الخطاب ومن بعده من الخلفاء أهل الكتاب من النجرانيين مما تعامل به دولة فرانسا مسلمي الجزائر الذين لم يبق لهم أرض ولا مال ونزع ذلك منهم الفرنساويون بلا عوض ولا حق ولا عدل

لا جرم أن الحق والعدل والانصاف يقضي على حملة الدين المسيحي الذين كانوا يصورون المسلمين فى صورة وحش ضار ان يصوروا التمدن الاوربي وأهله فى أقبح صور الحيوانية وأخس لباس التوحش والهمجية بعد ما بسطناه من المقابلة بين حكم الاسلام فى المسيحيين وحكم التمدن فى المسلمين ومن العار على هذه المدنية أن تصل الى أرقى درجات الزهو بالمظاهر والصور وهي تنحط الي دركات التسفل فى الاخلاق والتنائي عن الرحمة والبعد عن فضيلة النفس فتنقض بأهلها على المسلمين انقضاض الجوارح على فريستها الضعيفة ولا ذنب لأولئك المسلمين الا كونهم كانوا أمة عزيزة الجانب قوية السلطان فأتاح الله لهم وسائل الغلبة على الامم وبسط جناح السلطان على جزء عظيم من الارض حكموا أهلها بالعدل وساسوا رعيتهم بقاعدة الاخاء والمساواة وأحيوا تمدن الرومان واليونان ونشروا على الممالك نور المدنية والعلم حتى اذا دالت بحكم تنازع البقاء دولتهم وانطفأ مصباح مدنيتهم واختل نظام ملكهم بتغلب شهوات أمرائهم وجهل قادتهم أصبحوا فى نظر الدول الاوربية ذات الغلب عليهم لا يستحقون الرأفة ولا يجازون بغير الظلم والاستعباد ان هذا لشيء عجاب

يقول الاوربيون إن المسلمين أمة نفخ فيهم روح التعصب والجفاء

والبغض لمن لا يدين بدينهم من الناس وهو قول مبني على الاستقراء الناقص عند الباحثين وعلى الغرض أو التعصب الذميم عند السياسيين وعامة القائلين بهذا القول وانما تسلط هذا الوهم على عامة الاوربيين لما كان يكتبه عن الاسلام رؤساء الدين المسيحي فى أوربا فى القرون المتوسطة من الاضاليل التي كانوا يريدون بها إيقاف تيار الاسلام ومن ثم أصبح الاوربيون حتى هذا العهد كأنما هم فى عالم والاسلام فى عالم آخر لم يتحققوا من أمره وأمر أتباعه شيئاً فى الدين والاخلاق ولو بحثوا عن ذلك أقل بحث مجرد عن الغاية السياسية أو التعصب لأدركوا اخطاءهم ببداهة الحس اذ أن قوماً مضي عليهم ثلاثة عشر قرناً وهم باسطون جناح السلطان على قسم عظيم من الارض يقطنه ملايين من المسيحيين يتمتعون الى الآن بسائر ما يتمتع به الوطني فى وطنه لقوم تشهد لهم بداهة التاريخ بأنهم ألزم الاقوام لأدب الجوار وأبعدهم عن تحكم الغلب وجبروت السيادة لذى يظهر من كل فاتح عظيم

آن للاوربيين ان يمزقوا عن بصائرهم حجب الغرض والوهم ويعلموا ان الاسلام يأمر أهله بالتآلف وحسن المعاشرة والجوار ومحاسنة من أحسن اليهم وان لا يخاشنوا الا من خاشنهم وأراد امتهانهم وان المسلمين بما فطروا عليه من كرم الاخلاق وجميل المعاشرة أعظم الناس اعترافاً بالجميل ورضىً بالقضاء وميلا للفضيلة وقد قضي جهل أمرائهم بتقلص ظل سلطانهم السياسي عن معظم ممالكهم الشاسعة فدالت دولة المشرق للغربيين فاذا حكمهم هؤلاء بالعدل وساسوهم بالرأفة وعاملوهم معاملة النظير امتلكوا قلوبهم واستأنسوا نافرهم واستفادوا من إخلاصهم كما تستفيد الآن دولة انكلترا من اخلاص المسلمين الذين تحت حكمها الواسع لاطلاقها لهم حرية الفكر والدين ونشرها بينهم أنوار المعارف والعلم والا فمن الظلم الفاضح والعار المشين على الدول المتمدنة المسيحية

وأخصها جمهورية فرانسا الجائرة على المسلمين أن تعامل محكوميها من المسلمين بعكس ما تعامل به الدول الاسلامية حتى هذا اليوم رعاياها المسيحيين من منحهم حرية لتمتع بسائر ما يتمتع به رعاياها المسلمون من الحقوق لاسيما في المملكة العثمانية ومن العبث ان تختط الدول الاوربية لنفسها خطة العسف وحب الاثرة والجور في حكمها في المشرق وترجو مع هذا تمكن سلطانها في هذا الجزء العظيم من الارض وفيه ثلاثمائة مليون من المسلمين كانت لهم السيادة عليه والسلطان العظيم فيه ومن الحكمة وحسن السياسة أن يعوضوا عن هذا السلطان بجميل المعاملة وحقوق الوطنية والقرار ولو كانوا أمة صغيرة أو شعباً حقيراً لا يؤبه له كهنود أميركا مثلا لساغ للدول الاوربية أن تعاملهم بما شاءت من ضروب القسوة والاذلال حسبما يوحيه اليها شرع التمدن الحديث وأما أمة كالمسلمين شأنها ما ذكرنا فمن المحال إن ترضى لنفسها الاذلال وإن طال عليها المطال والله ولي الرشد وهو الموفق بين القلوب

باب

فتوح الشام

علمنا مما مر في الجزء الأول كيف أن الجيوش الاسلامية فلت جموع الروم على اليرموك وذكرنا ثمة ما كان من الخلاف بين المؤرخين في ترتيب الوقائع التي كانت قبل ذلك الى فتح دمشق وفي الحقيقة إن تلاحق الوقائع التي حدثت بالشام من أوائل السنة الثالثة عشرة الى أوائل السنة الرابعة عشرة أوجد اضطراباً في الروايات في ترتيب تلك الوقائع واختلافاً بين الرواة في تعيين الزمن لا في أصل

الوقائع بل هذه اتفق عليها ثقات المتقدمين من رواة تاريخ الفتح الاسلامي كسيف ابن عمر الأسدي وابن اسحاق والواقدي ومن تلاهم من مدوني التاريخ كابن جرير الطبري والدينوري وابن واضح وغيرهم من المتقدمين وقد استقصى ابن جرير في تاريخه معظم الروايات الواردة عن المحدثين بأخبار الفتح على اختلافها وترك الحكم فيها للناقد شأن كل المؤرخين في الاسلام ونحن نعتمد ما اعتمده المؤرخون بعدُ في سرد الوقائع المختلف في تعيين زمنها إذ ليس سرد الروايات من الاهمية في شيء ما دام من الثابت حصول الوقائع وما أظن ذلك الاختلاف بين الرواة ناشئاً الا عن حصول عدة من الوقائع في آن واحد أو ردها الرواة متفرقة من طرق شتى فاختلط أمرها على المؤرخين وبعض الرواة أو ان تلاحق بعض الوقائع ببعض أوجب ذلك الاختلاف كما ذكرنا قبل والعبرة في كلا الحالين في تحقيق الخبر لا في تعيين الزمن كما لا يخفى على بصير

﴿ فتح دمشق ﴾

(وانحياز هرقل الى حمص)

لما انتصر المسلمون في وقعة اليرموك كان هرقل في أورشليم وقد جاءها لاجل الاحتفال بعيد تخليص الصليب المقدس الذي استرده من دولة الفرس قبل ذلك ولم يكن هو ورجال دولته موقنين بان قوة المسلمين تبلغ من كيدهم مالم تبلغه جيوش دولة الفرس العظيمة حتى جاءه خبر انتصار المسلمين في اليرموك فنخب قلبه وأسقط في يده فنظر فرأى أن مقامه في أورشليم (القدس) خطر عليه سيما اذا انساح المسلمون في أحشاء البلاد فأسرع بالرحيل الى شمال سورية ولحق بمدينة حمص ليجعلها مقراً لاعماله الحربية ومن ثم أخذ يبث المقاتلة ويذكي العيون ويسرح القواد الى مواقف الحرب وسلم أخاه تذارق (لعله تيودور) القيادة العامة

وتربصه في حمص. وقد أخذ عليه بعض المؤرخين عدم حضوره الوقائع بنفسه وانه لو حضرها لكان ذلك أدعى لتشجيع جنوده وأرجى للنصر على أن هرقل كان ملكا حازما ليس بالجاهل ولا الجبان يدلك على هذا ظفره قبل حربه مع العرب بالفرس (١) لهذا فلابد لتخلف هرقل عن جيشه في حرب المسلمين من عذر

(١) كان الفرس غزوا بلاد الروم ودوخوا ممالك الدولة البزنطية حتى وصلوا الى القسطنطينية وذلك حوالى سنة (٦١٤ م) فأشهر هرقل عليهم الحرب ثانية سنة (٦٢١ م) أي بعد الهجرة بسنة واسترد هذه البلاد والقصة مشهورة جاءت في القرآن الكريم في قوله تعالى (ألمَ غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) ويعني بادني الارض اذرعات وهي أدنى أرض الروم الى العرب وكانت الروم قد هزمت بها في بعض وقائعها وكان سبب نزول الآيات ان النبيّ صلى الله عليه وسلم كان قد ساءه وساء المسلمين ظفر الفرس اولا بالروم لان الروم أهل كتاب وفرح مشركو العرب لان المجوس أميون مثلهم فلما نزلت هذه الآية راهن أبو بكر الصديق أُبيّ بن خلف على أن الظفر يكون للروم الى تسع سنين مصداقاً لما نزل به القرآن والرهن مائة بعير (ولم يكن الرهن يومئذ حراماً) فظفرت الروم وغلبه أبو بكر وأتى الخبر بظفر الروم النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وكانت سنة ست للهجرة واذ كانت حملة هرقل على الفرس ابتدأت سنة (٦٢١ م) أو التي بعدها أي قبل الهجرة بسنة واحدة وكان الروم غلبوا مرة في هذه السنة فتكون استمرت هذه الحرب نحو سبع سنين وانتهت بظفر الروم مصداقاً لما نزل به القرآن الكريم في قوله تعالى (في بضع سنين) والبضع مابين الاربعة الى التسعة وقد جاء في تواريخ الغربيين مايؤيد ذلك وحاصل ماذكره عن هذا الحادث ادوردجيبون الانكليزي في (تاريخ الامبراطورية الشرقية) ان كسرى ابروز ملك الفرس غزا بجيوشه مملكة الرومان الشرقية « البزانطية » في سنة « ٦١٤ م » لاسباب لامحل لذكرها هنا فدوخ سورية ومصر وآسيا الصغرى حتى وصل الى حدود القسطنطينية ولما رأى الامبراطور هراكليوس « هرقل » ذلك الخطر المحدق بعاصمته خشي ان هو حارب الفرس قربها ان تسقط في ايديهم فجهز اسطولا عظيما شحنه بالمقاتلة والمؤن وخرج به في سنة « ٦٢٢ م » من القسطنطينية حتى بلغ هلسبونت « جناق قلعه »

اضطره لهذا التخلف ولعله لما رأى منهم شدة البأس والدربة على الحرب وحسن السياسة في البلاد التي افتتحوها وشعر بميل السوريين اليهم وتأففهم من جور الحكام الرومانيين خامر نفسه شيء من اليأس من امكان دفع المسلمين عن البلاد لاسيما ان الحرس الروماني في البلاد السورية لم يكن في عدد كافٍ لحماية البلاد وانما كان حماتها من العرب المتنصرة ومن نفس سكان البلاد الذين كانوا خليطاً من السريان والعرب واليهود والروم واذا صح هذا الظن فلا يؤآخذ هرقل على انحيازه الى حمص وتباعده عن مواقع القتال أخذاً بالحيطة لنفسه وتمسكا بأسباب النجاة اذا ظفر المسلمون بجنود الروم وانكفأوا على شمال البلاد.

لم يكن المسلمون يومئذٍ على ما عهد فيهم من البداوة جاهلين بأحوال البلاد غير خبيرين بقوة أهلها وطرقها ومسالكها بل كانوا على بصيرة من أمرهم ووقوف على مبلغ قوة عدوهم بمن كان فيهم من سادات قريش الذين اختبروا حالة البلاد في الجاهلية باختلافهم اليها للمتاجرة لهذا أعدوا لهذه الحرب عدتها من التدرب والاناة وحسن البصيرة في ترتيب الجيوش وقيادتها يضاف الى هذا

ومن ثم مخر الاسطول في عباب البحر الابيض حتى انتهى الى الاسكندرون بعد معاناة نصب شديد في البحر وهناك رأى هرقل في جون الاسكندرون مرسى أميناً لسفنه لا يصل اليه كيد البحر ولا كيد العدو فأمر بان ترسو فيه السفن وانزل الجنود الى حدود سورية وكيلكيا «ادنه» ورتب معسكره قرب إِسُس في السهل الذي انتصر فيه الاسكندر المقدوني على ملك الفرس «وهو سهل الاسكندرون» وأخذ يدرب جنوده على فنون الحرب ويمرنهم للطعن والضرب. ولما علم بذلك الفرس انكفأوا لقتاله من داخل البلاد فانتصر عليهم بحسن تدبيره الحربي ومزق جموعهم كل ممزق ثم جهز عليهم حملة ثانية ومازال بهم حتى أجلاهم عن مملكته ولما كانت سنة «٦٢٨ م» استقر الصلح بين الفريقين وكان ولي ملك فارس كسرى ازدشير بعد أن قتل أباه ابرويز فصالح هرقل على ان تعاد تخوم المملكتين الى أصلها اهـ وجاء في تاريخ الكامل لابن الاثير ما يطابق معنى ما ذكره جيبون وفيه زيادة تفصيل

مايصاحب عامة المقاتلين من الشجاعة العربية وكمال الايمان وعدم الرهبة من الموت في سبيل نصرة الأسلام وتعميم دعوة القرآن . لهذا فلا يتوهمن متوهم من بداوة أولئك الفاتحين الشجعان أن حروبهم مع الروم أو الفرس كانت همجية على غير نظام ولا ترتيب بل انهم كانوا على أحسن ما يكون من البصيرة بأمر الحرب يعلم هذا من دقق النظر في كيفية حروبهم مع الروم فى الشام وكيفية قيادتهم للجيوش وتبصرهم في تدويخ البلاد كما سيأتي بيانه في غضون الكلام على فتح دمشق وغيرها وسنفرد له فصلا خاصاً نفصل فيه الكلام على ذلك أحسن تفصيل ان شاء الله تعالي وها نحن ذاكرون هنا كيفية مسير المسلمين الى دمشق بعد اليرموك نقلاً عما ذكره الطبري من رواية سيف وذلك ببعض تصرف واختصار قال

لما هزم الله جند اليرموك وتهافت أهل الواقوصة وفُرغ من المقاسم والانفال وبعث بالاخماس وسُرّحت الوفود استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أُبيّ الحميري كي لا يغتال بردة ولا تقطع الروم على موادّه[(١)] وخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصُّفَّر وهو يريد اتباع الفالّة ولا يدري يجتمعون أو يفترقون فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وانّ المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أو بفِحل من بلاد الاردن فكتب في ذلك الى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفّر فلما جاء عمر فتح اليرموك أقرّ الامراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر الا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالداً الى أبي عبيدة وأمر عمراً بمعونة الناس حتى يصير الحرب الى فلسطين ثم يتولى حربها

ولما انتهى كتاب أبي عبيدة الى عمر بالذي ينبغي ان يبدأ به كتب اليه (أما بعد

(١) أى كي لا تقطع عليه خط المواصلة على الاصطلاح المعروف الآن في فن الحرب

فابدأوا بدمشق فانهدوا لها فانها حصن الشام وبيت مملكتهم واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها وانطلق أنت وسائر الامراء حتى تغيروا على فحل فان فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد الى حمص ودع شرحبيل وعمراً وأخلهما بالاردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من امارته

فسرّح أبو عبيدة عشرة قواد أبا الاعور السلمي وعبد عمرو بن يزيد بن عامر الجرشي. وعامر بن حثمة. وعمرو بن كليب من يحصب. وعمارة بن الصعق بن كعب. وصيفي بن علبة بن شامل. وعمرو بن الحبيب بن عمرو. ولبدة (أو وليدة) بن عامر بن خثعمة. وبشر بن عصمة. وعمارة بن مخش (أو مخشي) قائد الناس ومع كل رجل خمسة قواد وكانت الرؤساء تكون من الصحابة حتى لا يجدوا من يحتمل ذلك منهم فساروا من الصفر حتى نزلوا قريباً من فحل فلما رأت الروم ان الجنود تريدهم بثقوا المياه حول فحل فاردغت الارض ثم وحلت واغتم المسلمون من ذلك وحبس من فيها عن المسلمين وكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق

وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءا. وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين دمشق وفلسطين والامير يومئذ يزيد بن أبي سفيان (١) فقدم خالد بن الوليد وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض ابن غنم وعلى الرجل شرحبيل بن حسنة فقدموا على دمشق وعلى الروم نسطاس ابن نسطوس (وفى رواية باهان) فحصروا أهل دمشق ونزلوا حواليها. فكان

(١) يعنى انه امير على حرب دمشق

أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية وخالد على ناحية ويزيد على ناحية وهرقل (هراكليوس) يومئذ بحمص فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحف والترامي والمجانيق والروم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث وذوالكلاع بينهم وبين حمص يمنع عنهم المدد وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق فاشجتها الخيول التي مع ذي الكلاع وشغلتها عن نصرة الدمشقيين فلما أيقن أهل دمشق أن الامداد لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا وقد كانوا يظنون انها كالغارات قبل ذلك اذا هجم البرد قفل المسلمون فسقط النجم والقوم مقيمون فعند ذلك انقطع رجاؤهم وندموا على دخول دمشق وفي غضون ذلك ولد للبطريق الذي على أهل دمشق مولود فأعد للقوم ولمة فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين الا ما كان من خالد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء عيونه ذاكية وهو معنيّ بما يليه قد اتخذ حبالا كهيئة السلالم وأوهاقاً فلما امسى من ذلك اليوم نهد ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عديّ وأمثاله من أصحابه وقالوا اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها الخندق فلما ثبت لهم وهقان تسلق القعقاع ومذعور وا ثبتا الاوهاق بالشرف فتسلق خالد وأصحابه وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق وأشده مدخلا ولما استووا على السور حدّر خالد عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير فكبّر الذين على رأس السور فنهد[1] المسلمون الى الباب ومال الى الحبال

---

(١) في القاموس نهد الرجل نهض ولعدوّه صمد لهم

بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد الى أول من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار اهل المدينة وفزع الناس ولا يدرون ماالشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى مابقي مما يلي باب خالد مقاتل الا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم الذي أراد عنوة اجتمع من أفلت الى أهل الابواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم الى المشاطرة فأبوا وابعدوا وجاءوا الآن يبذلون لهم الصلح فاجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الابواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضاً وانتهاباً وهذا صلحاً وتسكيناً فاجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحاً وكان صلح دمشق على المقاسمة الدينار والعقار ودينار عن كل رأس فاقتسموا الاسلاب فكان أصحاب خالد فيها كاصحاب سائر القواد وجرى على الديار ومن بقي في الصلح جريب حنطة من كل جريب ارض ووقف ما كان للملوك ومن صوّب معهم فيئاً(١) وقسموا الذى الكلاع ومن معه ولأبي الأعور ومن معه ولبشير ومن معه (وهم القواد الذين أرسلهم أبو عبيدة ليحولوا بين دمشق والامداد) وبعثوا بالبشارة الى عمر وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر أن اصرف جند العراق الى العراق فسرّحهم وهم عشرة آلاف وعليهم هاشم بن عتبة ومعه القعقاع بن عمرو

---

(١) الفيء هو مانيل من المحارب بعد وضع الحرب اوزارها وصيرورة داره دار اسلام وهو الجزية وعشر التجارة وما يُصالح عليه من المال وحكمه ان يكون لسائر المسلمين فيه نصيب وقد فصلنا الكلام على هذا تفصيلاً في كتابنا (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) وبيّنا ثمة ان مارمى اليه مقاصد الاشتراكيين في هذا العصر سبقهم اليه الاسلام لكن على وجه معقول لايصادم أحكام العقل والحس

وذكر البلاذريّ فى سبب فتح دمشق غير ما تقدم من رواية الطبرى وقال ان فتحها كان بمالئة الاسقف الذى كان أعطاه خالد عهداً وأماناً على دمشق حين مروره عليها فى أول مجيئه الشام وذلك بان أرسل اليه الاسقف بعض أصحابه وأعلمه بان القوم فى عيد لهم وان الباب الشرقيّ ردم وليس عليه أحد من الحرس (وقد مرت حكاية هذا الاسقف وصورة الكتاب فى سيرة خالد بن الوليد) وان خالداً لما دخل المدينة كان أبو عبيدة دخلها من باب آخر عنوة فالتقيا فى دخولهما بالمقسلاط وهو موضع النحاسين بدمشق وهو البريص الذى ذكره حسان ابن ثابت فى شعره حين يقول

يسقون مَنْ وَرَدَ البَرِيصَ عليهم بَرَدَى يصفِّق بالرحيق السلسل

ولا يخفى ما فى هذه الرواية من الوهن لان الصحيح الثابت فى الاخبار أن أباعبيدة لم يدخل دمشق عنوة بل دخلها صلحاً

وقد اتفق كثير من الرواة والمؤرخين على أن الذى تولّي عقد الصلح مع الدمشقيين هو خالد بن الوليد وأمضاه له أبو عبيدة بعد أن أطلعه على كتاب عمر (رضى) بعزله عن امارته وممن ذكر هذا الطبريّ فى روايته عن ابن اسحق والبلاذريّ فى تاريخه فتوح البلدان وفى هذا ما يدل على أن خبر عزل خالد لم يأت وهم على اليرموك بل انما أتى وهم على دمشق أو مرج الصفر وكتمه عنه أبو عبيدة ريثما تم الفتح وفى حكاية قيام المسلمين من اليرموك وتربصهم فى الصفر فى انتظار كتاب عمر بالذى ينبغي أن يبدؤا به ما يستنتج منه ترجيح ورود الكتاب بعزل خالد وهم على الصفر والله أعلم

واما صلح أهل دمشق فقد كان كما مر فى رواية الطبرى على دينار على كل رأس وجريب من الحنطة على كل جريب من الأرض وعلى المقاسمة على العقار والدينار

على أن هناك مايوهن رواية من روى أمر المقاسمة فقد جاء فى كتاب كتبه عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة بن الجراح مانصه (وأما الحنطة والشعير التى وجدتموها فى دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهى للمسلمين واما الذهب والفضة ففيهما الخمس) وهذا يدل علي ان المسلمين اختلفوا فى هل يشاطروا الدمشقيين على نصف ماوجدوه عندهم من الدينار والدرهم فكتب ابو عبيدة يستشير فى الامر فأمره بأخذ خمس الفضة والذهب فقط وسيرد معنا هذا الكتاب بجملته فى باب كتبه ان شاء الله

وقال البلاذري فى فتوح البلدان مانصه «زعم الهيثم بن عدي ان أهل دمشق صولحوا على انصاف منازلهم وكنائسهم وقال محمد بن سعد قال أبو عبد الله الواقدى قرأت كتاب خالد بن الوليد لاهل دمشق فلم أر فيه انصاف المنازل والكنائس وقد روي ذلك ولا ادرى من أين جاء به من رواه ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من اهلها بهرقل وهو بانطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون» انتهى مانقله البلاذري من قول الواقدى ويؤيده كتاب خالد بن الوليد الذى اعطاه لاهل دمشق وفيه الامان على كنائسهم ودورهم لايسكن منها شيء وقد مرت صورة الكتاب فى سيرة خالد على انه سواء صحت هذه الرواية أو الرواية الأولى فان المسلمين أجروا نصف كنيسة ماريوحنا مجرى الصلح والنصف الآخر مجرى السيف وهو النصف الشرقى الذى يلي الباب الذي دخل منه خالد بن الوليد وجعلوه مسجداً لهم ومازال كذلك حتى أيام الوليد بن عبد الملك فاشترى النصف الآخر منهم وجعله كله جامعا لم يزل يعرف لهذا العهد بجامع بنى أمية وسيأتى الكلام عليه فى سيرة الوليد ان شاء الله

وأما باقى كنائس دمشق فالمعروف انه كان منها يهدم بعهد من المسلمين

الى خلافة عمر بن عبد العزيز خمس عشرة كنيسة وروى البلاذري ان بعضهم أقطع كنيسة منها لبني نصر فردها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الى النصارى هذا وأما الجزية فانها كانت في بادئ الامر ديناراً على كل رأس كما علمت مما تقدم ثم عدلها عمر بن الخطاب (رض) فجعلها على ثلاث طبقات على الغني بنسبة غناه والمتوسط بنسبة توسطه والفقير بنسبة فقره

الى هنا انتهى ما أجبنا ايراده من الخبر عن فتح دمشق التي كانت أم المدن السورية ومهد الصناعة الشرقية وزهرة البلاد وازدادت بعد الفتح الاسلامي لاسيما في عهد الامويين مجداً على مجدها وعمراناً على عمرانها وأما ولايتها بعد الفتح فقد صارت الى يزيد بن أبي سفيان ثم الى أخيه معاوية ثم قدر لها ان تكون بعد ذلك عاصمة ذلك الملك الاسلامي العظيم الممتد من حدود الهند في الشرق الى شطوط الاطلانتيك في الغرب على عهد الامويين لا عاصمة سورية وحدها وسيأتي الكلام على هذا في محله ان شاء الله

وقد اختلف المؤرخون في الزمن الذي افتتحت به دمشق فروى بعضهم انها فتحت في اواخر سنة ١٣ للهجرة وبعضهم قال في أوائل المحرم افتتاح سنة ١٤ وبعضهم قال انها فتحت في رجب من هذه السنة ولعله الاصح

﴿ بطلان خبر ﴾

سألني بعضهم عن حكاية رآها في تاريخ انكليزي وهي ان خالد بن الوليد لما افتتح دمشق صالح اهلها على أن من يريد منهم الجلاء يمهل بعد سفره ثلاثة ايام اذا مضت وادركه المسلمون فدمه مهدور وان اهل دمشق جلوا وتبعهم المسلمون بعد ثلاثة أيام فقتلوهم ولا يخفى ما في هذه الحكاية من العار على المسلمين يومئذ فيما لو صح عنهم مثل هذا الخبر مع انهم كانوا أوفى الأمم الفاتحة بالعهد وأبعدهم عن

مثل هذا الظلم الذى يأباه دينهم وتتنزه عنه شيمهم العربية واخلاقهم الفطرية فبحثت عن هذا الخبر فيما دونه رواة الاخبار من المتقدمين كالطبري والبلاذري وابن واضح المعروف باليعقوبى وفى تواريخ المتأخرين كتاريخ ابن الاثير الذى هو أوثق التواريخ فلم أجد لهذا الخبر من أثر وانما رأيته فى بعض تواريخ معاصرينا من المسيحيين كتاريخ سورية لجرجى أفندى ينى وتاريخ الوافى لامين أفندى شميل وكلا التاريخين وان كان مؤلفاهما عربيين الا أن عبارتهما تدل على أن مافى التاريخين مترجم عن لغة أعجمية لم تذق طعم العربية البتة وان المؤرخين كانا أبعد الناس عن تحقيق أمثال تلك الحوادث من كتب التاريخ العربية الوثيقة التى لم تغادر كبيرة ولا صغيرة الا أتت على ذكرها تفصيلا فى البعض واجمالا فى البعض الآخر ولم تغفل حادثة من أدنى حوادث الفتح فكيف تغفل مثل هذه الحادثة ولعل بعض مؤرخى الاوربيين الولعين بالبحث عن مساوي المسلمين وستر محاسنهم التقطوا ذلك الخبر من كتب المغازى والقصاصين كفتوح الشام وامثاله من الكتب التى هى أبعد عن الثقة وأقرب للخلط والخبط منها الى التاريخ أوعن كتب مؤرخي الروم وهى لاتخلو عن لغو القول والمبالغة في ذم الفاتح بالطبع

على أنه مما يوهن أساس هذه الفرية ويدل على بطلان هذا الخبر ماقاله بعض مؤرخيهم من أن المسلمين ادركوا أولئك الناس وراء اللاذقية وفتكوا بهم بعد انقضاء الاجل (وكان بزعمهم ثلاثة أيام) ومن البديهي أن البلاد يومئذ كانت كلها دار حرب وكانت الجنود الرومانية والسورية كلها مرابطة فى البلاد واقفة على قدم الأهبة لصد المسلمين الذين لم تكن سلطتهم بعد تجاوزت دمشق وحوران والناس واقفون لهم على قدم الاهبة في كل مكان لما يتوقعونه من انكفائهم على البلاد بعد فراغهم من دمشق فكيف يتيسر لسرية منهم ان تقتحم

البلاد الى ماوراء اللاذقيـة وهذا حال أهلها من اليقظة والاستعداد وما الحامل لجند المسلمين على تتبع أثر قوم لهم عليهم عهد وميثاق فاذا قيـل الطمع فيقال انّ امامهم البلاد لم تزل فسيحة الارجاء كثيرة الغنائم والخيرات وليس فيهم من يشك بمصير البـلاد وأهلها وكنوزها اليهم في أقرب آن وان قيـل غير ذلك من نحو التعصب أو الظلم أو غيره فيقال ان التاريخ يبرئ تلك العصابة المؤمنة بكتاب الله الآمر بالعدل الناهي عن الظلم عن أمثال تلك المساوي الشائنة وقد مرّ معنا فى هذا التاريخ مايدل على ترفع أولئك القوم الفاتحين عن الخسائس التي قضى عليها نظام دينهم الجديد وشرعهم المستقيم وعدا هذا كله فان الفاتحين مهما بلغ بهم فساد الاخلاق والظلم فالسياسة تقضي عليهم بالمجاملة والرفق مع القوم المغلوبين ريثما يتم لهم الفتح والعرب يومئذ قد كان فيهـم من القواد المحنكين مثـل أبي عبيدة وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان فكيف يمكنون جندهم من إتيان مثل ذلك المنكر والبلاد على وشك الفتح وينبغي للمسلمين ان يتألفوا قلوب أهلها بحسن المعاملة وجميل المعاشرة مع أن العرب لم يكونوا في جاهليتهم مع شهرتهـم بسفك الدماء ومثابرتهم على الغزو يعرضون للنساء والاطفال بالقتـل فكيف بهم فى الاسلام وقد حرم عليهم سـفك الدماء ظلما أن يعرضوا الأولئك المساكين بالقتل وربما كان معظمهم من النساء والاطفال انّ هذا لمما تأباه نفوسهم العربية وتمنعهم منه المروءة والدين اذن فذلك الخبر باطل من كل الوجوه واذا ورد فى كتب مؤرخي الروم فمصدره الغرض واذا ورد فى كتب القصاصين فمصدره الجهل ولا يشك فى هذا عاقل البتة

بحث

(في هل كانت دمشق قاعدة الغسانيين)

سبق لنا في التمهيد الذي قدمناه في الجزء الاول عند الكلام على فتوح الشام ان قلنا على سبيل الاستنتاج ان معظم ولاية الشام كانت على عهد الفتح في أيدي العرب وانه كانت عليهم حماية البلاد واليهم ينتهي نفوذ الكلمة والسلطان الى أن قلنا (والظاهر ان دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل انها كانت تحت الحرث الغساني أحد ملوك بني غسان على عهد الفتح الاسلامي فهي اذن عاصمة ذلك الملك العظيم الممتد منها الى الشمال والشرق حتى البادية ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان مأهولا بالعرب)

وقد التمسنا في ذلك الجزء من أهل الفضل والعلم أن يتكرموا علينا ببيان مواضع الخطأ فيما ننقله أو نرتئيه في كل جزء لنبادر الى اصلاحه في الجزء الذي يليه فكان ممن أجاب ملتمسنا الفاضل المدقق جورجي افندي زيدان في مجلته (الهلال) الغراء فأخذ علينا ذلك القول بعبارة تدل على كمال أدب وفضل وتنبئ عن سعة في الاضطلاع وميل عرفناه به للتحقيق ومؤدى انتقاده علينا بهذا الصدد ان العرب لم يكونوا يومئذ الا في البادية وحوران وان دمشق لم تكن تحت بني غسان بل كانت حاضرة ولاية يحكمها ولاة من قبل القياصرة وان حاضرة بني غسان كانت بُصرى في حوران وانه لم يقرأ ان أحداً من ملوك غسان أقام في دمشق أو تولى حكومتها الا اذا كنا اطلعنا على نص لم يطلع هو عليه وأن عرب الشام لم يكونوا إلا آلة بيد الروم يسوقونهم لقتال عرب العراق والفرس عند الحاجة وليسوا في المكانة التي وصفناهم بها ثمة: ونحن مع شكرنا لاحلال صديقنا الفاضل كتابنا محل النظر والانتقاد وإقرارنا بالعجز عن بلوغ

شأو المحققين فى التاريخ نجيبه بما يلي

بنينا ذلك الاستنتاج ثمة على ما رواه الطبري من أن خالد بن الوليد لما جاء من العراق لنجدة المسلمين بالشام فتح كل ما مرّ عليه من البلاد فى مروره على القلمون الاسفل وكان آخر فتحه مما يلي دمشق (قُصَم) وقاتل فيها بنى مَشْجَعة ثم انحدر إلى المرج من ثنية العقاب فقاتل فيه بنى غسان والذي أوهمنا أن الطريق الذي مر عليه خالد منذ دخل البادية الشامية الى أن بلغ دمشق كان مأهولا بالعرب جَعْلُ الطبري آخر الفتح مما يلي دمشق وقبل وصوله الى ثنية العقاب (قُصَم) وانه قاتل فيها بنى مشجعة من قضاعة على انا بعد ان كتبنا ذلك الفصل راجعنا ما كتبه ياقوت فى معجمه عن (قصم) فاذا هو يقول انها موضع بالبادية قرب الشام فذيلنا ذلك الاستنتاج بما يفيد ضعفه اذا صح قول ياقوت تفاديا من ارتكاب الخطأ فى وضع الظن موضع اليقين كما رأيت فى الجزء الماضى الا أن هذا اذا نفى قولنا أن القلمون الاسفل كان مأهولا بالعرب لا ينفي قولنا أن ما يليه شرقا الى شطوط الفرات كان من أماكن العرب بدليل ان ذلك القسم لم يزل من منازل العرب الرّحل الى الآن والبلاد التى فيه كضُمير والقريتين وتدمر والسُخْنة كل سكانها من العرب بل وهناك بعض القرائن التاريخية التى تدل على أن ذلك القسم الذي كان مملكة مستقلة عاصمتها تدمر الشهيرة كان محكوما بالعرب ومن تلك القرائن انفراد مدينة تدمر فى طرف البرية فى وسط منازل العرب

ومنها أن أحد أشراف هذه المدينة المسمى أوديناثوس الذي قام وهاجم سابور ملك الفرس وأفتك منه بلاد ما بين النهرين (الجزيرة) التى كان أخذها من الرومان ثم أسس لنفسه ملكا وبسط سلطته على الجزيرة وسورية فى أواسط القرن الثالث قبل المسيح قد اختلف المؤرخون فى أصله هل هو عربي أم سرياني.

فاذا رجحنا كونه عربياً بقرينة موقع وطنه الجغرافي وهو تدمر ثبت معنا ان هذه المدينة وما حولها من البلاد كانت عربية ولم تزل كذلك

وكذلك لا ينفي قولنا ان القسم الواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط كان مأهولا ببني غسان لان النص صريح على ان خالداً واقعهم فيه يوم عيدهم. وكذلك لا ينفي قولنا ان القسم الذي يلي دمشق من جهة الجنوب الى حوران حتى العقبة والحجاز كان مأهولا بالعرب فانه معلوم بالبداهة وكان اشهر مدنه بصرى واشمسكين واطلعنا في تاريخ الطبري وفي فتوح البلدان على نص يفيد ان شمالي سورية أيضاً كانت بعض مدنه مأهولة بالعرب فقد جاء فيها ان أباعبيدة لما افتتح قنسرين صالحه أهل حاضر قنسرين وكانوا من تنوخ ومضر واهذا الحاضر لما تخوا فدعاهم إلى الاسلام فأسلم بعضهم واقام على نصرانيته بنو سليح من قضاعة ثم اسلموا في خلافة المهدي العباسي وكذلك حاضر حلب وهو غير حاضر قنسرين كان من مدن العرب ولا يبعد أيضاً ان يكون العرب هم الذين مصّروا غزة في الجنوب الغربي من سورية فسميت غزة هاشم نسبة الى هاشم الثريد كما يقولون

وحق لقوم يشغلون بالسكنى قسماً عظيما من سورية ويتوطنون في أحشاء البلاد مع ما اشتهر عن العرب من حب الاستقلال والحرية أن يكون لهم من النفوذ والسلطان في البلاد أكثر مما لغيرهم من العناصر الأخرى التي كانت تقطن هذه الولاية العظيمة كالسريان والأرمن والروم واليهود وبقية الأخلاط الذين هم ليسوا الامن الجالية حاشا العرب والسريان والبلاد وان كانت يومئذ تابعة لدولة الروم الا انه لا يعقل أن يكون الجنس الروماني أكثر الاجناس القاطنين في سورية ولا أقواها أيضاً وإن كانت بيده حكومة البلاد

اذا تقرر هذا فلا بدع أن يكون على الملوك من بني غسان حراسة البلاد

وأن يكون لهم فيها نفوذ أمر وسلطان لاسيما وأنهم رجال حرب كما أنهم أهل ثروة وغنى لان البلاد التي هم فيها كحوران والكرك ومعان وتدمر كلها بلاد زرع وضرع وهي من أخصب البلاد السورية ولم تزل كذلك الى هذا العهد واذا أضفنا الى هذا وهن السلطة الرومانية يومئذ وضعف سلطانها في البلاد لانكون مبالغين فيما قلنا عن استغلاظ شأن العرب في سورية وان كان ذلك من قبيل الاستنتاج

وأما قولنا إن دمشق كانت قبيل الفتح الاسلامي تحت الحارس [1] الغساني فانا وإن لم نقف في شأنه على نص صريح سوى قول للدكتور فانديك سيأتي بيانه إلا أن هنالك من الاخبار التاريخية مايستنتج منه أن عاصمة بني غسان قبيل الفتح كانت دمشق الشام ومن تلك الاخبار ماذكره الطبري في تاريخه عن مجيء خالد ابن الوليد من العراق الى الشام حيث قال مانصه

ثم نزل (يعني خالداً) الكثب حتى صار الى دمشق ثم مرج راهط فلقى عليه غسان وعليهم الحارث بن الايهم (يريد به جبلة) الخ الخبر

وجاء في السير ان النبي صلى الله عليه وسلم أرسل شجاع بن وهب بكتاب الى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه الى الاسلام فأتاه وهو بغوطة دمشق يهيئ النزل لقيصر وقد كان قاصداً إيلياء فشغل عنه الحارث ثم دعاه يوماً وقرأ الكتاب الذي معه وغضب وقال من ينتزع مني ملكي الخ

ولما وفد حسان بن ثابت الانصاري قبل اسلامه على آل جفنة وهم ملوك

---

(١) اسم الحارث يطلق على كل ملك من ملوك غسان كما يطلق اسم قيصر على ملوك الروم وكسرى على ملوك الفرس وملك غسان الذي كان على عهد الفتح هو جبلة بن الايهم

غسان امتدحهم بأبيات قال فيها

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

ومنها

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبرُ بن مارية المعِمّ المُخول

يسقون من وَرَدَ البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

والبريص الذي جاء في الابيات هو قصر لآل جفنة على نهر بردى الذي هو نهر دمشق وجلق من أسماء دمشق وقد تقدم معنا في خبر فتح دمشق ماقاله البلاذري في تاريخه من أن خالداً وأبا عبيدة التقيا في دخولهما الى دمشق بالمقسلاط وانه هو البريص

ولا يخفى على الناقد أن التصاق ملوك غسان بدمشق كما يرى من هذه الروايات يحمل المؤرخ المحقق على الحكم بانهم كانوا قبيل الفتح أصحاب السيادة على دمشق والذي يترجح عندنا أن الفرس لما دوخوا الولايات الرومانية سنة (٦١٤م) أقروا ملوك غسان على ما كان لهم وأقاموهم ملوكا على الشام ولما استعاد هرقل من الفرس البلاد لم يشأ أن ينزع من ملوك غسان الولاية لضعفه فى حرب الفرس وخوفه من شغب القوم فاستمرت بيدهم ولاية دمشق لحين الفتح الاسلامي بل هناك دليل آخر على أن سلطة بني غسان يومئذ تجاوزت ولاية دمشق وربما شملت سورية كلها فقد ذكر المؤرخون أن جبلة بن الايهم بن جبلة وهو آخر ملوك غسان ابتنى بين اللاذقية وطرابلس مدينة سماها باسمه وهي جبلة التي لم تزل عامرة الى هذا العهد فاذا كان ملوك جفنة من بني غسان قبيل الفتح انما كانوا أمراء على عرب البادية وحوران وآلة بيدي قيصر الروم يصد بهم غارات عرب العراق (كما قال صديقنا جرجي أفندي زيدان) فما علاقة جبلة

بسواحل الشام وما الداعي له لتمصير الامصار في أرض ليس له ولا لقومه سلطة فيها ولا سلطان

لا جرم أن سلطة العرب كانت يومئذ مبسوطة على الشام وكانت عاصمة ملوكهم دمشق ولولا ذلك لما تسنى لجبلة أن يبتني تلك المدينة ويسميها باسمه ويؤيد ذلك ماقاله الدكتور فانديك فى المرآة الوضية عندكلامه على دمشق وهو بنصه

وكانت (يعنى دمشق) قبل الاسلام تحت آل جفنة ملوك غسان الذين يقول فيهم حسان بن ثابت وذكر البيتين الثانى والثالث من الابيات التى سبق ايرادها

وليت شعري لماذا استعظم صديقنا على العرب أن يكونوا ملوك الشام قبيل الفتح الاسلامي وهو يعلم أنهم أبناء بجدتها والسابقون الى حومتها وانهم تسلطوا على هذه البلاد مراراً قبل الميلاد وبعده كما ذكر ذلك صديقنا فى مجلته من عهد قريب نقلا عن يوسيفوس المؤرخ القديم ولامراء فى أن الحارث أحد ملوك العرب على عهد طيباريوس قيصر المتوفي سنة ٣٧ للميلاد استولى على دمشق بعد حرب شديدة وقعت بينه وبين صهره هيرودس على أثر طلاق هيرودس لبنت الحارث ومما يؤيد سلطة الحارث على دمشق يومئذ قول بولس في رسالته الثانية الى الكورنثيين وهو بنصه

(وفى دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد ان يمسكنى) وقد سبق ان قلنا ان اسم الحارث كان يطلق على ملوك العرب بالشام وعدا هذا فاننا اذا رجحنا قول القائلين بان أصل اودينا ثوس التدمرى الذى سبق ذكره عربى لا سريانى (والجنسين من أصل واحد) فلا يستبعد ان يكون للعرب من السلطة فى الشام قبيل الفتح الاسلامي ما كان لهم على عهد طيباريوس قيصر

وعلى عهداوديناثوس الذى تملك الجزيرة والشام ثم امتد ملك زوجته الملكة زنوبيا الشهيرة الى مصر وأزعجت سطوتها ملوك ذلك العصر

هذا ما انتهى اليه علمنا فى تحقيق هل كانت دمشق عربية أم لا هذا على غموض تاريخ هذه الامة العربية ومادام العلماء مجدون فى البحث عن آثار الأمم القديمة فستكشف الايام من تاريخ عرب الشام ما كشفته من عهد قريب من تاريخ عرب اليمن (حمير) مما يدل على بلوغ هذه الامة منتهى درجات المدنية فى العصور الغابرة والله أعلم

﴿ وقعة فحل ﴾

رأي المسلمون بعد فتح دمشق أن يناجزوا هرقل الا انهم خافوا ممن وراءهم من جيوش الروم فى بيسان وكانوا ثمانين الفا على قول بعض الرواة كما ذكر ذلك الطبرى فاختاروا مناجزة هؤلاء أولاً فاستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان وسار بجيش المسلمين قاصداً بيسان وعلى الناس شرّحبيل بن حسنة اذ كانت اليه ولاية الحرب في الأردّن فبعث خالد بن الوليد على المقدمة وأبا عبيدة وعمراً على مجنبتيه وعلى الخيل ضِرار بن الازور وعلى الرَّجْل عياضا ولما انتهوا الى أبي الاعور (وقد كان بين الاردّن وبين دمشق يمنع المدد عن أهل دمشق) قدّموه الى طبرية فحاصرها وهم نزلوا بفحل وكان الروم بثقوا المياه بينهم وبين فحل منعاً للمسلمين عن الوصول اليهم فكان عملهم هذا وبالاً عليهم لانهم أصبحوا بعد خروجهم للحرب كالمحصورين وكان به هلاكهم كما كان ذلك يوم اليرموك اذ تركوا النهر وراءهم وعسكروا على الضفة التي تلي جند المسلمين فاصبحوا بين خطرين حتى اذا تمت عليهم الهزيمة لم يروا طريقاً للفرار فأخذتهم سيوف المسلمين وهذا يدل على ضعف معارف قوادهم يومئذ بفنون الحرب وتمكن

الهلع والاضطراب من نفوسهم تمكناً أضاع منهم الحيلة وأفقدهم حسن التدبير

لما رأى المسلمون تلك المياه والوحل نزلوا بفحل ولم يسعهم التقدم الى حيث يقيم العدو ببيسان فكتبوا الى أمير المؤمنين بذلك وأقاموا ينتظرون الجواب وهم في رغد من ريف الاردن والروم في ضنك وقد ظنوا في المسلمين الغفلة عنهم فخرجوا عليهم بقيادة قائد اسمه سقلار أو صقلار ورجوا أن يأخذوهم على غرة والمسلمون حذرون وكان قائدهم شرحبيل لشدة يقظته وحزمه لا يبيت ولا يصبح الا على تعبية واستعداد للحرب فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشدّ قتال كان ليلتهم ويومهم الى الليل فاظلم الليل عليهم وقد حاروا فانهزموا وهم حيارى وقد أصيب قائدهم سقلار والذي يليه (أي القائد الثاني) واسمه نسطوس وركبوهم فلم يعرف الروم مأخذهم فانتهوا في الهزيمة الى الوحل فأدركتهم أوائل خيل المسلمين فأخذوهم وما يمنعون يد لامس

كان المسلمون يسمون هذه الوقعة ذات الرداغ لما لاقوا فيها من الوحل الذى كانوا له كارهين فكان عونا لهم على العدو ولما انتهت الحرب بفحل انصرف أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد الى حمص ومضى بذى الكلاع الحميرى الذى كان مرابطا بين جنود المسلين وحمص ليمنع المدد عن العدو

أوهن المسلمون بفحل قوى العدو وأوقعوا الرعب فى قلوب الروم فتأهب كل أمير لقصد الجهة التى ولي حربها فسار أبو عبيدة الى حمص وسار شرحبيل الى بيسان وطبرية وتجهز يزيد بن أبى سفيان للخروج الى سواحل الشام

﴿ بيسان وطبرية ﴾

سار شرحبيل الى بيسان ومعه عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسهيل ابن عمرو وكلهم من انجاد قريش وساداتها فلما بلغ أهل بيسان ما أصاب جند الروم

بفحل تحصنوا من المسلمين بكل مكان فحصرهم المسلمون أياما ثم خرج بعضهم لقتال المسلمين فأناموهم وصالحهم من بقى على صلح دمشق وبلغ أهل طبرية الخبر فصالحوا أبا الاعور على ان يبلغهم شرحبيل ففعل فصالحوا شرحبيل على صلح دمشق أيضاً ونزل القواد بجندهم فى مدائن الاردن وقراها وكان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة

﴿ مرج الروم ﴾

لما علم هرقل بما أصاب جنده فى دمشق والاردن وبلغه مسير أبى عبيدة الى حمص رأى أن يرسل جيشا الى دمشق إما ليشغل عن حمص جيش المسلمين وإما ليغنم فرصة تفرق الجيوش الاسلامية عن دمشق فتسترد ها جنوده من يزيد بن أبى سفيان فارسل ذلك الجيش بقيادة توذر (لعله تيودور) فنزلا بالجيش فى مرج الروم غربى دمشق وبلغ ذلك أباعبيدة فجاء ونزل بأزاء شنس وخالد بأزاء توذر . فنازلهم لما نزلوا شنس وسار توذر يطلب دمشق فسار خالد وراءه فى جريدة وبلغ يزيد بن أبى سفان إقبال توذر عليه فاستقبله بالجند فاقتتلوا ولحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم الا الشريد وقتل خالد توذراً وقال

نحن قتلنا توزراً وشوذراً   وقبله ماقد قتلنا حيدرا

نحن أزرنا الغيضة الأ كيدرا

وأما أبو عبيدة فقد ناهد بعد خروج خالد شنس فاقتتلوا بمرج الروم وأصابهم ما أصاب توزر وقتل أبو عبيدة شنس وانهزم فلهم الى حمص وتبعهم بعض المسلمين فلما انتهى الخبر الى هرقل أمر عامل حمص بالمسير اليها وسار هو الى الرُّها (اورفا) وفي رواية الى انطاكية وقال للعامل بلغني أن طعامهم (يعنى المسلمين) لحوم الإبل وشرابهم ألبانها وهذا الشتاء قد أقبل فلا تقاتلوهم الآ في كل يوم

بارد فانه لا يبقى الى الصيف منهم أحد

واذا صح صدور هذا الكلام عن هرقل فانه من الغرابة بمكان لان رجلا مثله عجم عود القوم وجرب حربهم وعرف ثباتهم منذ سنتين لكبير عليه أن يعلق آماله على مجرى الطبيعة ويفوه بمثل هذا الهزر من القول الا اذا أراد به تخفيف الهلع عن قلوب الجنود المدافعة وتهوين الخطب على قواده ريثما يتم عليهم أمر القضاء الذى علمه هرقل من خلال الحوادث الماضية وانما يدافع ذلك القضاء بآخر ما عنده من وسائل القوة والتحريض كى لا تهن نفوس الجنود ولا يستولى اليأس على ضمائر الشعب

﴿ ذكر بعلبك وحمص ﴾
(وسواحل دمشق)

علمنا مما سبق أن يزيد بن أبى سفيان كان يتجهز بعد فتح دمشق للمسير الى سواحل دمشق وأن أبا عبيدة قصد حمص ولما جاء توذر الى مرج الروم تربص يزيد وعاد اليه أبو عبيدة ولما انتهى أمر توذر لما انتهى اليه قصد يزيد سواحل دمشق وذلك سنة (١٤) وعلى مقدمته أخوه معاوية بن أبى سفيان فابتدأ بصيدا ففتحها ثم فتح عرقة وجبيل وبيروت وجلا كثيراً من أهلها ممن رغبوا الجلاء وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل فى آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان فقصدهم معاوية ففتحها ورمها وشحنها بالمقاتلة وأقطعهم القطائع وانما تجرأ الروم على غزو السواحل لان المسلمين لم يكن لهم يومئذ أسطول يمنع غارة الروم علي السواحل اذ لم يكن من رأى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب (رض) ركوب المسلمين للبحر وغزوهم فيه

وأما أبو عبيدة فقد قصد حمص عن طريق بعلبك وقدم اليها السمط بن

الاسود الكندى وقدم خالداً الى البقاع فافتتح خالد بلاد البقاع ونزل أهل بعلبك الى أبي عبيدة فصالحوه على أن يكون لهم الامان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم بذلك كتاباً استأني صورته ثم توجه الى حمص فمن قائل إنه وجد السمط قد صالحهم فأجاز صلحه ومن قائل إنه قاتلهم قتالا شديداً وكانوا يغادون المسلمين القتال ويراوحونهم في كل يوم بارد ولقي المسلمون برداً شديداً وطال على الروم الحصار وكان بعض مشايخهم دعاهم الى مصالحة المسلمين فأبوا ولما اشتد عليهم الامر طلبوا من أبي عبيدة الصلح فصالحهم على صلح دمشق وأنزلها السمط بن الاسود الكندى في بني معاية والاشعث بن ميناس في السكون وَالمقدَاد في بَلِيّ وأنزلها غيرهم

وفي فتوح البلدان ان السمط قسم حمص خططاً بين المسلمين وأسكنهم كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة

أما أبو عبيدة فقد بعث بالاخماس وخبر الفتح الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع عبد الله بن مسعود فكتب اليه عمر .. ان أقم في مدينتك وادعُ أهل القوّة والجلد من عرب الشام فاني غير تارك البعث اليك بمن يكانفك ان شاء الله

﴿ تحقيق خبر أجنادين واليرموك ﴾

(واختلاف المؤرخين فيها)

اختلف المؤرخون في وقعة أجنادين واليرموك لافمن قائل ان الأولى كانت قبل فتح دمشق والثانية بعد فتح حمص ومن قائل بالعكس ولقد يحار المؤرخ الناقد في التفريق بين هاتين الواقعتين وتعيين الزمن الذي وقعتا فيه ويكاد يشتبه عليه أمرهما فيتخيل له ان الواقعتين واحدة أو ان الواقعتين كانتا في اليرموك واحدة في خلافة أبي بكر والأخرى في خلافة عمر رضي الله عنهما وذلك لما فيهما

من التشابه في الاسباب والحوادث وقد كنت أظن أن هذا الاضطراب في خبر الواقعتين قاصر على كتبنا وأن الغربيين ربما لم يقعوا في هذا الاضطراب لما عساهم نقلوه من أخبار الفتح عن مؤرخي الروم الذين كتبوها عن مشاهدة لا من طريق الرواية فاذ بالقوم وقعوا فيما وقع فيه مؤرخو العرب فقد راجعت ما كتبه بهذا الصدد المؤرخ الانكليزي اذورد جبون[1] في (تاريخ السلطنة الرومانية) والمؤرخ الفرنساوي نويل ديفرجي في كتابه بلاد العرب[2] فلم أعثر على ما يشفي الغليل ويزيح ستار اللبس فان الأول جعل وقعة أجنادين سنة (٦٣٣ م) الموافقة سنة (١٢ هـ) أي قبل فتح دمشق مع أن الأدلة التاريخية تؤيد حصول وقعة اليرموك قبل دمشق لا أجنادين وأما الثاني فقد قال إن ما رآه في تاريخ أبي الفداء في شأن اليرموك يعروه اللبس والأشكال وأن هذا يوجب الارتياب في كلام الشرقيين أكثر من الارتياب في كلام الغربيين الى أن قال وهذا المبهم من كلامهم يدعو الى الظن انه حدثت واقعتان في هذا المحل (أي في اليرموك) الاولى قبل فتح دمشق والثانيه بعد الاستيلاء على حمص

ولقد نكاد نجاريه في هذا الظن وأن هناك التباساً في الاسم وأن الاسمين ربما يطلقان على مكان واحد لو لم نر أن ياقوت فرق في معجمه بين المكانين فقال ان اليرموك وادٍ في طرف الغور يصب في الاردن وأن أجنادين موضع بالشام من نواحي فلسطين من الرملة من كورة بيت جبرين كما أن الطبري أيضاً قال عن أجنادين انه بلد من أرض فلسطين من عمل بيت جبرين

وبما ان حصول الواقعتين الواحدة قبل فتح دمشق والثانية بعدها أمر

(1) Gibbon's Roman Emqire

(2) Arabie par M. Noel. Desvergers

محقق عند المؤرخين لا خلاف فيه وان اختلفوا في تعيين زمن كل منهما فجعل بعضهم الأولى بمكان الثانية وهذه بمكان تلك وبالعكس فالذي نريد الوصول اليه الآن هو تحقيق أيهما كانت قبل فتح دمشق وأيهما كانت بعدها فالذي اعتمده البلاذري في فتوح البلدان ان أجنادين هي الأولى واليرموك هي الثانية وجاراه على هذا الرأي ابن واضح الكاتب العباسي الشهير باليعقوبي في تاريخه المعروف بتاريخ اليعقوبي[1] وجعل اليرموك بعد حمص وأما الطبري فانه أورد خبر اليرموك كما أوردناه في الجزء الاول أي قبل دمشق وأورد خبر أجنادين مرة قبل فتح دمشق ومرة بعدها الواحدة من رواية سيف والثانية من رواية ابن اسحق على عادته في نقل الروايات على اختلافها وترك الحكم فيها للمطالع وتكاد هذه الرواية تكون أقرب للحق لولم يتوهم الرواة أن أجنادين الأولى هى التى اجتمع عليها الامراء وافاهم اليها خالد بن الوليد وهذه هي التواريخ التى بين أيدينا من كتب المتقدمين الذين نقلوا الاخبار بالرواية وأما المتأخرون فاذ كان اعتمادهم في سرد الوقائع على مادونه أولئك إضطربوا أيضاً في تعيين زمان الواقعتين ومكانهما وليس منهم الا من أورد الخبر على علاته دون تمحيص ولا تحقيق وبما أن بعضهم قال ان أبا عبيدة رجع من حمص الى اليرموك بزعم انها بعد فتح حمص مع أن المرجح أن اليرموك هي الوقعة التي حضرها خالد بن الوليد لما جاء لنجدة المسلمين في سنة ١٣ وفتح حمص كان في سنة (١٤) أو التي بعدها فقد حملني ذلك على اعتقاد خطائهم في تأخير تاريخ وقعة اليرموك مع الظن باحتمال وصول أبي عبيدة الى حمص قبل مجيء خالد من العراق فبسطت في الجزء الأول هذا الاحتمال خطأ اذ الحقيقة التى ظهرت لي في هذا بعد التدقيق في التاريخ أن رجوع أبي عبيدة من حمص انما

(١) هذا التاريخ جزءان طبعا فى ليدن ويوجد منه نسخة فى المكتبة الخديوية .

كان بعد فتحها ويومئذ اجتمع على الامراء في أجنادين واجتماعهم هذا هو غير اجتماعهم على اليرموك وانما تضارب الروايات في هذه الوقائع يدعو الى غموض الحقيقة وتشويش الذهن والذي صح عندي من تحقيق هذه الروايات الآن والتدقيق فيها انّ هناك ثلاث وقائع متشابهات اضطرب في ترتيبها المؤرخون لتشابه البواعث والاسم وهي اجنادين الاولى وحدثت في أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة ١٣ واليرموك وكانت في جمادي سنة ١٣ وأجنادين الثانية وكانت سنة (١٤) أو (١٥)

وقد ساق ابن جرير الطبرى في تاريخه خبر هذه الوقائع الثلاث الا أنه أورد خبر اليرموك وأجنادين الأولى من عدة روايات كلها يخالف بعضها بعضاً ويدل على اضطرابهم في تحقيق هل كانت اليرموك قبل أجنادين أو بالعكس أو كانتا وقعة واحدة ويؤخذ من مجمل هذه الروايات حصول وقعة في أجنادين لم يحضرها خالد بن الوليد وانما هي اما أن تكون لخالد بن سعيد لما بعثه أبو بكر لاطراف الشام وواقع هناك الروم وعليهم باهان أو ماهان على رواية مؤرخي العرب وو ردان على رواية ادورد جبون الانكليزى واما أن تكون مع الامراء في أول دخولهم الشام لما بعثهم أبو بكر في اثر خالد بن سعيد ثم لما واقعوا باهان وأوقعوا به تفرقوا في انحاء الشام فسرب لهم هرقل الجنود فعادوا الى اليرموك واستنجدوا أبا بكر فأنجدهم بخالد بن الوليد فوافاهم وهم على اليرموك ثم لما تمت الهزيمة على الروم في اليرموك وسار الامراء الى دمشق ففتحوها ثم فحل فكان الفتح ثم سار أبو عبيدة الى حمص وفتحها أرسل هرقل جنوداً جديدة الى سورية اجتمعت في فلسطين فعاد أبو عبيدة والامراء الى حيث يخيم جند الروم في أجنادين فكانت وقعة أجنادين الثانية والظاهر ان بعض المؤرخين ومنهم البلاذري واليعقوبي ظنوا أن وقعة

أجنادين واحدة فاعتبروا الاولى وجعلوا مكان الثانية اليرموك مع أن المرجح أن اليرموك هو المكان الذي اجتمع عليه الامراء ووافاهم فيه خالد بن الوليد من العراق بدليل ما قاله ياقوت فى معجم البلدان وهو بنصه

اليرموك واد بناحية الشام فى طرف الغور يصب فى نهر الاردن ثم يمضي الى البحيرة المنتنة كانت به حرب بين المسلمين والروم فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه وقدم خالد الشام مدداً لهم فوجدهم يقاتلون الروم متساندين : وساق مجمل الخبر كما ذكرناه فى الجزء الاول ثم قال: وقال القعقاع بن عمرو يذكر مسيرة خالد من العراق الى الشام فى أبيات

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع ... لغسان أنفاً فوق تلك المناخر

صبيحة صاح الحارثان ومن به ... سوى نفر نجتدهم بالبواتر

وجئنا الى بصرى وبُصرَى مقيمة ... فألقت الينا بالحشا والمعاذر

فضضنا بها أبوابها ثم قابلت ... بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر

والشاهد من كلام ياقوت هو هذه الابيات التى تدل دلالة صريحة على أن خالداً لما جاء الى الشام واقع غسان ثم فتح بصرى وانتهى الى جيوش المسلمين وهم فى اليرموك

وأما أجنادين الاولى فان الذي يرجح انها كانت فى أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة (١٣) هو ما رواه بعض المؤرخين من ان أبا بكر بُشّر بانتصار المسلمين على الروم فى أجنادين وهو بآخر رمق مع أن انتصار المسلمين فى اليرموك كان فى جمادى الثانى بعد وفاة أبى بكر وإنما جاء المسلمين وفاته وهم على اليرموك

فهذا ما وصل اليه الفكر وانتهى اليه البحث فى تحقيق وقعة اليرموك وأجنادين التى قبلها وأما أجنادين الثانية وهى التى كانت عقب فتح حمص واضطر

أبو عبيدة أن يرحل من أجلها عن حمص وحذا حذوه باقي الامراء لمصادمة الجيوش العظيمة التي أرسلها اليهم هرقل واجتمعت في فلسطين ثم في أجنادين فقد ذكر خبرها الطبري سنة (١٥) كما ذكره البلاذري واليعقوبي الا أن هذين زعما أنها وقعة اليرموك

على ان القرائن التي تحف بهذه الوقعة التي حدثت سنة ١٥ تؤيد انها كانت في أجنادين وذلك أن أجنادين من عمل فلسطين واليرموك من عمل الأردن وعمالة الاردن كانت سقطت يومئذ في أيدي الجيوش الاسلامية وهم فيها مرابطون وفلسطين لم تكن كذلك بل كانت على وشك السقوط وبسقوطها يسقط بيت المقدس ومتى سقط بيت المقدس تقطعت بالروم الاسباب وقضى على سلطان دولتهم في سورية بالانقلاب لهذا فلا يعقل ان هرقل يسرب جيوشه الى الاردن ويترك فلسطين معرضة لهجوم عمرو بن العاص الذي كان يقصدها من الأردن ومعاوية بن أبي سفيان الذي عزم أن يأتيها من سواحل دمشق بل المعقول أن هرقل لما جلا عن حمص وأقام في انطاكية أو الرها ووصلته الاخبار بتغلب المسلمين على جيوشه في كل مكان ورأى أن أبا عبيدة قد بلغ حمص من جهة الشمال وقطع طريق المواصلة والامداد ما بينه وبين الجنود الرومية من جهة البر أرسل جيوشاً عظيمة من جهة البحر لتكون مدداً لأهل قيسارية وغزة وايلياء (بيت المقدس) ولعل تلك الجنود أنزلت من يافا وعسكرت بأجنادين لقربها منها اذ المسافة لا تزيد عن ثلاث ساعات بين يافا والرملة وأجنادين من عملها كما قال ياقوت واليك ما رواه الطبري وغيره في شأن قيسارية وغزة وأجنادين

﴿ فلسطين وأجناديه ﴾

لما انصرف أبو عبيدة من فحل الى حمص ونزل عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة على بيسان وافتتحها وصالحهم أهل الأردن قصد عمرو فلسطين وكتب الى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بتفرقهم فكتب الى يزيد بن أبي سفيان بأن يُذْفِئ ظهورهم بالرجال وان يسرّح معاوية الى قيسارية (١) وكتب الى عمرو بصدم الارطبون وكان في اجنادين والى علقمة بن مُجَزِّز بصدم الفيقار وكان في غزة وكان مما كتبه الى معاوية(امابعد اني قدوليتك قيسارية فسر اليها واستنصر الله عليهم واكثر من قول لا حول ولا قوّة الاّ بالله الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير)

فسار كل أمير لما أمر به وسار معاوية الى قيسارية وكان فيها من المقاتلة مائة الف أو يزيدون على مايؤخذ من كلام الطبري فافتتحها وكتب الى عمر بالفتح وبعث بالخبر مع رجلين من بني الضُبيب ثم خاف منهما الضعف فبعث عبد الله بن عَلْقَمة الفِراسيّ وزهير بن الحلاب الخثعميّ وأمرهما أن يتبعاهما ويسبقاهما فلحقاهما فطوياهما وهما نائمان وابن علقمة يتمثل

أرّقَ عيني أخو جُذام كيف أنام وهما أَماميْ

اذ يرحلان والهَجير طامي أخو خُثَيْم وأخو حرامي

وأما علقمة بن مُجَزِّز فحصر الفيقار بغزة وجعل يراسله فلم يشفه مما يريد أحد فأتاه كأنه رسول علقمة فامر الفيقار رجلاً ان يقعد له بالطريق فاذا مرّ قتله ففطن

(١) هذا الاسم معرب قيصرية وهما ثنتان واحدة تسمى قيصرية فلسطين وهي خراب الآن وخربت على عهد الصليبيين والاخرى قيصرية فيلبس وهي بانياس على ما قاله فانديك .

علقمة فقال ان معي نفراً شركائي في الرأي فأنطلق فآتيك بهم فبعث الفيقار الى ذلك الرجل لاتعرّض له نخرج من عنده ولم يعد وفعل كما فعل عمرو بن العاص بالارطبون لما احتال عليه بنفس هذه الحيلة ونجا من القتل

وأمّا بريد معاوية الذي أرسله الى المدينة فوصل الى عمر رضي الله عنه فجمع الناس ليلاً وقال لتحمدوا الله على فتح قيسارية وأباتهم على الفرح

وأما عمرو بن العاص فقد سار بجيشه نحو الأرطبون وكان من كبار القواد ودهاتهم وهو يعادل عند الروم بالدهاء عمرو بن العاص عند العرب فتقدم نحوه عمرو وهو مخيّم باجنادين بجند كثيف وعلى مقدمة عمرو شُرَحْبيل وعلى مجنبتيه عبد الله بن عمرو وجُنَادة بن تميم المالكيّ مالك بن كنانة وقد كان الأرطبون وضع بالرملة جنداً عظيما وبايلياء جنداً عظيما فكتب عمرو الى أمير المؤمنين بالخبر فقال . قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّ تنفرّج: وكان عمر رضى الله عنه من لدن توجه امراء الشام يمدّ كل أمير جند ويرميه بالامداد حتى اذا أتاه كتاب عمرو بتفريق الروم كتب الى يزيد بن أبي سفيان بان يبعث معاوية في خيله الى قيسارية وكتب الى معاوية كتاباً بأمرته على قتال أهل قيسارية وقد مرّ ذكره وذلك ليشغلهم عن عمرو وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق ابن فلان العكيّ على قتال أهل ايلياء وبعث أبا أيوب المالكيّ الى الرملة وعليها التذارق ولمّا تتابعت الامداد على عمر وبعث محمد بن عمرو مدداً لعلقمة ومسروق وبعث عُمارة بن أمية الضّمريّ مدداً لابي أيوب وأقام عمرو على اجنادين لا يقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوَلِيَه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فابلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد فحدثت أرطبون نفسه بانه عمرو بن العاص فوضع له في الطريق من يقتله وفطن له

عمرو فاحتال للتخلص منـه بمثل الحيلة التى احتال بها علقمة على الفيقار ونجا عمرو وعلم الأرطبون بحيلته فقال: خـدعنى الرجل هذا أدهى الخلق: وبلغت عمر بن الخطاب فقال: غلبه عمرو لله عمرو :

لما عرف عمرو ما أخـذ الأرطبون ووقف بنفسه من حالة الروم على ما يريد أن يقف عليه زحف عليهم بجنده واقتتلوا اقتتالا شديداً كقتال اليرموك فانهزم أرطبون فى النـاس وأوى الى إيليـاء ولما وصلها أفرج له المسلمون الذين على حصارها فدخلها ثم ازالهم الى اجنادين

فهذه وقعة اجنادين التى اضطرب فيها المؤرخون وجعلها بعضهم على اليرموك سنة (١٥) مع ان اليرموك كانت سنة (١٣) كما تقدم الدليل على ذلك فى ابيات القعقاع بن عمرو التي يذكر فيها التقاءهم مع خالد بن الوليد بجيش المسلمين وهم على اليرموك على ان وقعة اجنادين هذه لم يذكر الطبري فى سياقها اسم ابى عبيدة وخالد وانهما حضرا بعسكرهما من حمص الا انه لما ساق خبر فتح بيت المقدس بعد اجنادين ذكر فى جملة رواياته عن فتح بيت المقدس ان الذى كان على حصارها هو ابو عبيدة فاذا اضيفت هذه الرواية الى ما ذكره البلاذري فى فتوح البلدان واليعقوبى فى تاريخه من رجوع هذين القائدين بجيش المسلمين من حمص لانجاد بقية الامراء فى اليرموك سنة (١٥) مع ما علمناه مما سبق ان وقعة اليرموك كانت سنة (١٣) لا سنة (١٥) وان المؤرخين ربما وهموا التشابه الوقائع وقرب المكانين احدهما من الآخر بان وقعة اجنادين كانت على اليرموك صح أن اباعبيدة وخالداً حضرا وقعة اجنادين هذه هـذا اذا لم يكن هناك وقعة ثانية فى اليرموك كما كانت وقعتان فى اجنادين الا ان القول بحدوث وقعتين في اليرموك لم يقم عليه دليل واضح في التاريخ وأما القول برخيل أبي عبيدة بجيشه عن حمص

سنة (١٥) أي بعد فتحها وشخوصه الى جنوب الشام لأمداد المسلمين فقد اتفق عليه البلاذري واليعقوبي ومما ذكره اليعقوبي بهذا الصدد قوله عن أبي عبيدة بعد أن فتح حمص

ثم أتاه خبر ما جمع طاغية الروم من الجموع في جميع البلدان وبعثه اليهم من لا قبل لهم به فرجع الى دمشق وكتب الى عمر بن الخطاب : وكتب اليهم عمر انه قد كره رجوعهم من أرض حمص الى دمشق : وجمع أبو عبيدة المسلمين وعسكر في اليرموك الى أن قال وكانت وقعة جليلة الخطب قتل فيها من الروم مقتلة عظيمة وفتح الله على المسلمين وكان ذلك سنة (١٥) وأوفد أبو عبيدة الى عمر وفداً فيهم حذيفة بن اليمان وقد كان عمر أرق عدة ليال واشتد تطلعه الى الخبر فلما ورد عليه الخبر خر لله ساجداً وقال : الحمد لله الذي فتح على أبي عبيدة فوالله لو لم يفتح لقال قائل خالد بن الوليد اهـ

وأما ما نقله البلاذري فقد تقدم ذكره في الجزء الأول ومؤداه أن المسلمين لما بلغهم اقبال الجنود الكثيرة لوقعة اليرموك ردوا ما كانوا أخذوه من أهل حمص وقالوا لهم قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على أمركم فاقسم النصارى واليهود انهم لا يدعوا عامل هرقل يدخل الى المدينة وأغلقوا أبوابها وحرسوها الخ

هذا ما أورده المؤرخون بشأن اليرموك وأجنادين بسطناه هنا مع ما في كثرة هذه الاقوال من التشويش والاختلاف ليكون القارئ على بينة من الحقيقة والله بها عليم



﴿ فتح بيت المقدس ﴾

لما انتهى عمرو من أجنادين ترك أهل ايلياء (بيت المقدس) محصورين وأخذ يتم فتح مدن فلسطين وقراها فقتح غزة ولُدّ ونابلس وبيت جبرين ومرج عيون ويافا وقيل إنّ يافا فتحها معاوية فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس وأخذ يخابر الأرطبون مخابرة حبية ويطلب اليه تسليم المدينة والارطبون ممتنع عليه وكتب لعمرو كتاباً يقول فيه : انك لست بصاحب فتح ايلياء بل صاحبه عمر: فكتب عمرو الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) يستمده ويقول : إني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً (كناية عن شدتها) وبلاداً ادُّخرت لك فرأيك ؛ ولما انتهى الكتاب الى عمر نادى في الناس ثم خرج فيهم حتى نزل الجابية [1]

وفي رواية للطبري أن أبا عبيدة هو الذي كان على حصار ايلياء وأن سبب قدوم عمر الى الشام أن أهل بيت المقدس طلبوا من أبي عبيدة أن يصالحهم على صلح مدن الشام وان يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب فكتب اليه بذلك فسار عن المدينة وكتب الى الامراء أن يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم وان يستخلفوا على أعمالهم فلقوه حيث رفعت لهم الجابية فكان أوّل من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول وعليهم الديباج والحرير فكبر على ذلك الخليفة العظيم الذي ولع بالتقشف وازدرى بنعيم الحياة الفانية أن يرى آثار التنعم بادية على قوّاده على قرب عهدهم بالخشونة وتخلقهم بخلق العفة والجد والقناعة فنزل وأخذ الحجارة فرماهم

«١» قال ياقوت : الجابية من قرى الجولان من أعمال دمشق ثم من عمل دمشق قرب مرج الصُّفّر في شمالي حوران ويقال لها جابية الجولان أيضاً قال الجوّاس بن القعطل

أعبد المليك ما شكرت بلادنا فكُلْ في رخاء الامن ما أنت آكلُ
بجابية الجولان لولا ابن بحدلٍ هلكتَ ولم ينطق لقومك قائلُ

بها وقال: سَرْعَ ما لفتم عن رأيكم ايّاي تستقبلون بهذا الزي وانما شبعتم منذ سنتين سَرْعَ ماندّت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلتُ بكم غيركم: فقالوا يا أمير المؤمنين انها يلامعة (1) وأن علينا السلاح: قال: فنعم اذن: وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل بأجنادين فبينما عمر معسكراً بالجابية فزع الناس الى السلاح فقال ماشأنكم فقالوا ألا ترى الخيل والسيوف فنظر فاذا كردوس يلمعون بالسيوف فقال عمر هذه مستأمنة فلا تراعوا وأمّنوهم فأمّنوهم

واذاهم أهل إيلياء

كان أهل ايلياء في ضنك عظيم وحصار شديد وقد أيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام انهم مأخذون لا محالة وأن دولة الروم دالت وسلطتهم عن البلاد زالت وخافوا اذا سلموا المدينة للمسلمين ان لا يصالحوهم على ماصولح عليه أهل المدن الأخرى لكثرة مالاقى المسلمون منهم من العناء ومابذلوا في حربهم من الدماء ولما تحقق عندهم من أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين لانه محل الاسراء ومقر الانبياء والظاهر انهم خافوا لهذا السبب على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون وقبلتهم المقدسة ان يحرمهم منها الفاتحون مع أن المسلمين كانوا أحرص الناس على الوفاء بالعهود وألزمهم لشرعة الانصاف مع المغلوبين وكانوا اذا صالحوا قوماً على شيء وكتبوا لهم بذلك عهداً صار ذلك العهد سنة لمن بعدهم في معاملة أولئك المعاهدين لا يحيد عنها أحد من المسلمين وانما هو الروع أخذ بقلوب أهل بيت المقدس فرأوا توكيداً للامان وتوثيقاً لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فطلبوا من الامراء احضاره بنفسه ولما بلغهم وصول أمير المؤمنين

(1) قال في القاموس اليلامعة مالمع من السلاح كالبيضة

الى الجابية أوفدوا اليه ذلك الوفد فتلقاهم المسلمون براية الامان فاخبروا أمير المؤمنين انهم نواب في الصلح عن أهل إيلياء وأن أمراء الجند الرومي وهم أرطبون والتذارق لحقا بمصر فصالحهم على إيلياء وحيزها والرملة وحيزها فصارت فلسطين نصفين نصف مع أهل إيلياء ونصف مع أهل الرملة وكتب لهم بذلك كتباً وكتب لأهل إيلياء خاصة كتاباً ستورد صورته في هذا الكتاب ثم جعل على ذينك القسمين أميرين فجعل عَلْقَمة بن حكيم على الرملة وأحوازها وأنزله الرملة وجعل علقمة بن مُجَزِّز على إيلياء وأحوازها وأنزله إيلياء. ونزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه وضمّ عمرو بن العاص وشرحبيل اليه بالجابية فلما انتهيا الى الجابية وافقا عمر (رض) راكباً فقبّلا ركبته وضمهو كل واحد منهما محتضنهما

وكان فتح إيلياء سنة (١٦) وقيل سنة (١٥) ولما أتم عمر عهد الصلح أراد المسير الى بيت المقدس فأتى له ببرذون فركبه فلما سار جعل يتخلج[1] به فنزل عنه وضرب وجهه وقال: لا علّم الله من علمك هذا من الخيلاء ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده ثم دعا بفرسه فركبه ثم سار حتى انتهى الى المسجد الاقصى ليلا فدخله فصلى فيه ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالاقامة فتقدم فصلى بالناس ثم انصرف ودعا بكعب الاحبار (وكان لما دخل المسجد قال: ارقبوا لي كعباً:) فلما أتي به قال له: أين ترى ان نجعل المصلى. فقال: الى الصخرة. فقال: ضاهيت والله اليهودية يا كعب وقد رأيتك وخلعك نعليك. فقال: أحببت أن أباشره بقدمي. فقال: قد رأيتك بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورها اذهب اليك فانا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة: فجعل قبلته صدره

(١) يضطرب ويتمايل.

ثم قام الى كُناسة [١] قد كانت الروم دفنت بها بيت المقدس فى زمان بنى اسرائيل وقال يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا فى أصلها وحثا فى فرج من فروج قبائه وسمع التكبير من خلفه وكان يكره سوء الرعة [٢] في كل شئ فقال ماهذا فقالوا: كبّر كعب وكبّر الناس بتكبيره: فقال: عليّ به: فأتي به فسأله عن سبب تكبيره فقال يا أمير المؤمنين انه قد تنبأ على ماصنعت نبيّ منذ خمسمائة سنة وسرد له خبراً طويلا من الاسرائيليات لا محل لذكره هنا

ولا جرم أن يظهر كعب الاحبار سروره ويكبّر لصير بيت المقدس الى المسلمين وهو اسرائيليّ الاصل يعلم سوء مالاقى بنو اسرائيل من الرومان وما كانوا يلاقونه من النصارى من الاضطهاد والتعصب الذى منعهم من حرية التوجه الى قبلتهم والتمتع بأول معبدلهم كما يعلم جميل معاملة المسلمين لاهل الكتاب واطلاقهم لهم حرية التعبد والسكنى والاعمال حيثما كانوا وأنى أقاموا ولهذا السبب كان اليهود فى سورية يتمنون إدالة دولة الروم ويحرّضون عليهم المسلمين ومن ذلك مارواه الطبري ان عمر بن الخطاب لما نزل الجابية قبيل فتح إيلياء جاءه يهوديّ من يهود دمشق وقال له يا أمير المؤمنين لا ترجع الى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء وما زال ملازماً له حتى تم الفتح وشهد عقد الصلح

(١) الكناسة الزبالة ويراد ببيت المقدس الهيكل الذى بنى على الصخرة وقد كان الروم من زمان بني اسرائيل هدموه وألقوا عليه الزبالة نكاية باليهود فبنى عمر فوقه مسجدا ثم وُسّع بعدُ (٢) جثا أي جلس على ركبتيه وحثا من حثا التراب يحثوه ويحثيه ومعناه ان عمر حثا التراب في ذيل ثوبه والرعة بالكسرة كما في القاموس الهدى وحسن الهيئة أوسؤها وهو ضد والتحرّج أي التنطع ولعله هو الاقرب للمراد من قوله يكره سؤ الرعة

﴿ لا وثنية في الاسلام ﴾

رأيت ماقاله عمر (رض) لكعب الاحبار وهو قول لانحب ان يفوتنا البحث فيه لهذا رأينا أن نفرد له هذا الفصل فنقول

أولع الانسان بالافراط كما اولع بالتفريط في كل شؤونه الروحية والجسمانية ولو أنصف واعتدل ولم يطلق لنفسه العنان ليبلغ مقام الملائكة في أعلى عليين او يهبط بها الى مقر الشرور في اسفل سافلين لكانت السعادة الدائمة به ألزم وطريق النعيم الحيوي لديه أوسع ولما احتاج الى كثير من هذه القوانين وقوّامها وزعماء السيطرة وجنودهم والحكام وأعوانهم والسجون وحراسها ولكان اكتفى بدين واحد قويم وشرع آلهي مستقيم ولم يشوّه وجه الشرائع ولم يدع لتعدد الاديان وارسال الرسل في آن وآن

أجلْ اولع الانسان بالشطط حتى في العقائد فبينا يكون هذا في طرف التفريط مارقاً من كل دين منكراً لكل نحلة هائماً في المادة التي يتناولها حسه وينكر مافوقها عقله يكون الآخر مسلماً لعقيدته بما لا يبعد طبعه عن طبيعته طالباً بخياله مايظن له قدرة فوق قدرته وسلطة أعلى من سلطته وأول مايلاقيه في طلبه يعلق بقلبه ويظنه منتجع عقله والغاية التي يطلبها في سيره فتولع به نفسه ويقوى فيه أمله ويختص به عمله فيغلو في عبادته غلو المادي في مادته حتى يساويه من طرف الافراط بالتوجه تارة للاقمار واخرى للاشجار وآونة للاحجار ووقتاً للارواح وآخر للاشباح الى غير ذلك مما هو داخل في المادة قريب من متناول الحس .

فكأن العقل الانساني في حال الايمان والكفر أسير المادة لا يفلت من شرك الحس ولا يذعن الى مافوق المادة ويصعد الى أفق الكمال الاهنية ريثما يتلقى برهان ربه بواسطة الانبياء ويطمئن الى التسليم بقوة آلهية تفوق قوى المادة

وتعلو عن العقل وتحكم على الكائنات تحكم الصانع المختار ثم لا يلبث أن ينحط عن هذه المرتبة فيعود الى نحيزته الاولى للهبوط الى هوة النقص والتوجه الى مظاهر المادة ولو تدريجاً حتى يلتصق بالحضيض ويعود الى الشرك وهو يظنه الايمان ويخاله منتهى العبادة وإن من دين الا اصيب اهله بهذا المصاب واشركوا مع الله الارواح تارة وأخرى الانصاب توسلا اليه على زعمهم بالحس وارتياحا الى ما تحت النظر والعقل والله سبحانه وتعالى فوق ما يتصورون ليس من المادة ولا المادة منه بل هي مخلوقة له مفتقرة اليه وليس بينه وبين خلقه سبب منها يتوصل به اليه بل هو كما قال فى كتابه الكريم (الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) الآية

ومن الثابت أن العرب كانوا على دين ابراهيم الذي هو كباقي الاديان الآلهية دين التوحيد بالله والايمان بانه تعالى خالق الكون وما فيه وإنكار ما دون ذلك من الاعتقاد بشيء من المادة ومن التمسك في العمل بأهداب الشرك ولكن لم يلبثوا أن تدرجوا في مدارج المادة وهبطوا الى حضيض الشرك وتدرجوا من الاعتقاد بالارواح الى الاعتقاد بالاشخاص ثم الى الاعتقاد بالانصاب والاحجار وغير ذلك مما هو داخل فى المادة واقع تحت الحس وهم مع ذلك كانوا يزعمون انهم مؤمنون لا مشركون وانهم بعبادة المادة يعبدون الله ويتقربون بها اليه كما أخبر عن ذلك القرآن بقوله تعالى (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وهذا من الاغراق فى الجهل والانحطاط في العقيدة والافساد لاصل التوحيد ولم يكن هذا الافساد قاصراً على العرب فقط بل عم سائر أرباب الاديان مما لا محل لبسطه الآن

اذا تمهد هذا علمنا ان الاسلام بما جاء به من آيات التوحيد الخالص من كل

شائبة من شوائب الشرك انما جاء لاستئصال شأفة الوثنية من نفوس العرب وغيرهم من أرباب الاديان بمحو شائبة الاعتقاد باي أثر من آثار المادة وصرف النفوس عن التوجه الى تلك الآثار بالحس لتتوجه الى واجب الوجود بالضمائر والاكتفاء باستحضار هيبة جلاله في القلب وتمكين الاعتقاد بان الأثر الواقع تحت الحس إنما يقوم قوامه بالمؤثر المستحضر في الضمير الخارج عن الحس اذ بغير هذا لا يقوم للتوحيد أثر متين في النفس ينجي من مزلة القدم الى الوثنية المفضية الى الشرك المؤدي الى الجحود وإنما الانسان مادة وهذه أعراض منها تنمو وتعظم في النفس مادامت النفس مستشعرة بشيء من وجوب التعظيم لغير الله تعالى والتوجه لأي أثر من آثار المادة وساء منقلب الظالمين

هذا هو التوحيد الذي جاء به الاسلام ودعا اليه النبي محمد عليه الصلاة والسلام وانما اضطربت العقول وساءت الاوهام لتفاوت الافهام وتباين مراتب المسلمين في العلم بحقيقة الدين والاحاطة باسراره والوقوف على جميع مقاصده حتى على عهد الرسالة واليك الدليل

أخرج الامام أبو الفرج ابن الجوزي في السيرة العمرية عن المغرور بن سويد قال: خرجنا مع عمر بن الخطاب في حجة حجها قال فقرأ بنا في الفجر (ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل) «ولئلاف قريش» فلما انصرف رأى الناس مسجداً فبادروه فقال: ماهذا: قالوا: هذا مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هكذا أهلك أهل الكتاب قبلكم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً، من عرضت له فيه صلاة فليصل ومن لم تعرض له صلاة فليمض:

فلو كان أولئك المصلون يومئذ في مرتبة عمر في العلم واستشعروا من إقبالهم على ذلك المسجد للصلاة فيه تعظيما له كما استشعر به عمر رضي الله عنه وعنهم أجمعين

لما بادروا للصلاة فيه الا اذا عرضت لهم صلاة ولا جرم أن أعظم الناس فهماً للاسلام وعلماً بغوامض الدين ووقوفاً على مقاصد النبوة المحمدية وما كانت تدعو اليه من التوحيد البحت الخالي عن كل شائبة من الشوائب التي مر ذكرها هم أهل السابقة من المهاجرين الاولين الذين تلقوا الدين أنجماً كان ينزل بها الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم من لدن البعثة ولازموا الرسول ملازمة الظل فاكتنهوا اسرار شريعته وأدركوا مرامي غرضه وقلدوه في أعماله وأقواله وانتهجوا منهجه واهتدوا بسيرته فتفوقوا على غيرهم في العلم بالدين وعرفوا حقيقة التوحيد ومن هؤلاء من هم في المرتبة الأولى في فهم مقاصد الاسلام ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ومن تتبع سيرته وأنعم النظر في أقواله وأفعاله وانطباقها على الكتاب الكريم ونهج السنة القويم علم ماهو التوحيد الذي أرشد اليه الاسلام وعرفه أولئك الصحابة الكرام فأرادوا أن يمحوا به كل أثر من آثار الوثنية عن صفحات الضمائر والقلوب وحسب العاقل دليلا على هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب الاحبار لما أشار عليه بجعل المصلّى الى الصخرة: لقد ضاهيت اليهودية يا كعب الى قوله اذهب اليك[1] فانا لم نؤمر بالصخرة ولكننا أمرنا بالكعبة. وقد مر الخبر في الفصل السابق نقلا عن الطبري ولأجله عقدنا هذا الفصل ليكون به عبرة وذكرى لقوم يعقلون.

تقدم معنا كيف تدرّج العرب الى الوثنية حتى أنسوا بلمس الاحجار وعكفوا على عبادة الاصنام وأن أصول التوحيد عند أرباب الاديان كلها أفسدت تدريجاً كما حصل في دين العرب وانما كان مبدأ هذا التدريج الاستسلام للشعور بوجوب تعظيم مظهر من مظاهر المادة يظن أن له صلة بما فوق المادة كالمعابد مثلا

(١) هكذا جاءت هذه العبارة في تاريخ الطبري بهذا اللفظ ولعلها اليك عني

ثم يأخذ هذا الشعور ينمو ويتعدى المظهر الأول الى غيره ويتدرج في أطوار التعبد له حتى تنقلب صورة التوحيد المرتسمة على صفحات الضمائر الى صورة من صور المادة متجسمة للحس ويستحيل الايمان بآله واحد فوق المادة الى آلهة شتى كلها من المادة أو لها صلة بها وهذا هو الشرك التام الجلي ومبدؤه ذلك الشرك الخفي ولم تكن دعوة الاسلام قاصرة على استئصال الوثنية فقط بل كان من مقاصدها الاولى والغايات التي ترمي اليها بل من أولاها بالاهتمام وأجدرها بالعناية تطهير النفوس من كل أثر من آثار ذلك الشعور الفاسد ولو أشبه بدقته دقة الجرثومة الحية التي لا ترى الا بالنظارة المكبرة الا انها اذا وجدت منبتاً صالحا لها تولد عنها مالا يحصى من الجراثيم في بضع ثوان فمن قال بخلاف ذلك أو ظن ان الاسلام يتسامح في تلك الجزئيات أو يبيح تعظيم أي مظهر من مظاهر المادة تعظيما دينيا فقد أخطأ ونسب العبث الى دين الله لهذا ولما أشرب قلب عمر (رض) من التوحيد الحق الصادق لم يتسامح مع كعب الاحبار حتى في خلعه نعليه عند دخوله المسجد الاقصى وآخذه على عمله ذلك كما آخذه على رأيه في جعل المصلى الى الصخرة كما رأيت وسترى من أخباره بهذا الصدد ان شاء الله

هكذا كان فهم كبار الصحابة للدين ومن أمعن النظر في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في إحدى خطبه التي مر إيرادها في هذا الكتاب وهو (ان الله لا شريك له وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوأً الا بطاعته واتباع أمره) يعلم كيف كان اولئك الصحابة الكرام يعلمون الناس التوحيد ويقتلعون من أعماق نفوسهم أصول الشرك ورحم الله امرءاً حاسب نفسه وعرف دينه وتأدب بأدب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونبذ بدع النفوس وأهواءها وتنكب مواضع الزلل ومواقع الخطل وسوء الفهم

والله وليّ الرحمة وهو القاهر فوق عباده

﴿ فتح حماه واللاذقية وقنّسرين ﴾

قيل إن هذه البلاد وما يليها شمالا الى انطاكية فتحها أبو عبيدة قبل مسيره من حمص الى إيلياء أى سنة (١٥) وقيل إنه فتحها بعد عوده من إيلياء سنة (١٦) وعندى أن هذا الاصح

سار أبو عبيدة الى معرّة حمص فصالحه أهلها على صلح حمص وسار الى حماة فصالحه أهلها أيضاً وبعث خالد بن الوليد الى قنسرين وسار هو الى اللاذقية وقيل بل سار اليها عبادة بن الصامت فامتنع عليه أهلها أياماً فاحتال على فتحها بأن أمر الجند أن يحفروا أسراباً فى الارض كل سرب يستر الرجل وفرسه فاجتهد المسلمون حتى حفروها ثم انهم أظهروا القفول الى حمص فلما جنّ عليهم الليل عادوا الى معسكرهم وحفائرهم وأهل اللاذقية غارون يرون أنهم قد انصرفوا عنهم فلما أصبحوا افتحوا بابهم وخرجوا وأخرجوا سرحهم فلم يرعهم الاّ تصبيح المسلمين إيّاهم ودخولهم من باب المدينة عنوة فهرب قوم من نصارى اللاذقية ثم انهم طلبوا الامان على أن يتراجعوا الى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلوا أو كثروا وتركت لهم كنيستهم وبنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بأمر عبادة ثم وسّع بعد

ثم أخذ عبادة يتم فتح عمالة اللاذقية بأمر أبى عبيدة ففتح جبلة وانطرسوس وبانياس والمرقب وغيرها وكل هذه البلاد لم تزل معروفة الى الآن بهذا الاسم وكان فتحها سنة (١٥ هـ) او سنة (١٦)

وأما خالد بن الوليد فانه لمّا وصل الى حاضر قنّسرين زحف اليه القائد ميناس بجيش الروم فاقتتلوا اقتتالاً عظيما وقتل ميناس فأمّا الروم فماتوا على دمه وأما أهل

الحاضر وكانوا من العرب من تنوخ نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا المنازل فارسلوا الى خالد انهم عرب وانهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فدعاهم الى الاسلام فاسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الجاف فتركهم خالد فاسلموا بعد ذلك بيسير وقيل أسلموا فى خلافة المهدي العباسي ولما فرغ من حاضر قنسرين (١) فتحصن أهلها منه فقال: انكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الله الينا فنظروا فى أمرهم وما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص فأبى إلا اخراب القلعة فأخربها

ولعمري ان قوماً بلغ اعتقادهم بالنصر الى هذا الحد لقوم لا تعصم منهم العواصم ولا الحصون ولا تثبت أمامهم الجيوش وانما حملهم على هذا الاعتقاد يقينهم الثابت بوعد الله ورسوله لهم بالنصر اذا نصروا الحق وتمسكوا بعرى الايمان فكانوا ايداً على من ناواهم وعوناً لمن نصح لهم ووالاهم ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الاخيار الذين جمعتهم كلمة الاسلام على الاخوة التى لا تنفصم عروتها والطريق التى لا يضل سالكها الا اذا انحرف عنها وزاغ عن صراطها

﴿ ذكر مسير هرقل الى القسطنطينية ﴾

كان هرقل بعد فراره من حمص قصد انطاكية ثم ارتحل على قول بعضهم الى الرُّها (أورفا) فى الجزيرة ليجمع منها جيشاً يمد به أهل حمص قبل سقوطها فى يد المسلمين وكان المسلمون كما قدمنا فى غير هذا المحل يقظين لا تخفى عليهم من أمر الروم خافية ولما استشعروا بمقاصد هرقل أدرب عليه من الكوفة عمرو بن مالك

---

(١) مدينة كانت على بعد مرحلة صغيرة من حلب ويقول ابن حوقل ان هذه المدينة أخربها الملك باسيليوس ثم تجددت عن يد الامراء من بنى بُسيس التنوخية ثم أخربها عن آخرها تاج الدولة . وأما حاضر قنسرين فقرية قريبة منها

من قِبَل قرقيسيا وعبد الله بن المعتَمّ من قِبَل الموصل والوليد بن عُقبة من بلاد الجزيرة بجيوش المسلمين وطووا بلاد الجزيرة وخلفوا وراءهم عقبة لئلا يؤتوا من خلفهم

وكذلك أدرب من قنسرين مما يلي الشام خالد بن الوليد وعياض بن غَنْم بجيش من المسلمين وعندئذ رحل هرقل الى القسطنطينية وعاد القوّاد الى أماكنهم دون حرب. ولما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما فعله خالد قال: أمّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني.[1] وقد كان عزله كما مر في سيرته وعزل المثنى بن حارثة الشيباني وقال: اني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما

وأما هرقل فانه مضى على وجهه واستتبع أهل الرها فأبوا أن يتبعوه وقالوا نحن ههنا خير منا معك وتفرقوا عنه وعن المسلمين لما وصلوا الى مدينتهم التي كان أول من دخلها منهم وأنبح كلابها وأنفر دجاجها زياد بن حَنظلة وهو صحابيّ وكان مع عمرو بن مالك مسانده

وكان ادراب المسلمين الى الرها ورحيل هرقل عنها سنة ١٦

ولما ارتحل هرقل لحقه رجل كان أسيراً في أيدي المسلمين فأفلت فقال له: أخبرني عن هؤلاء القوم: فقال له أحدثك كأنك تنظر اليهم فرسان بالنهار ورهبان بالليل ما يأكلون بذمتهم[2] الا بثمن ولا يدخلون الا بسلام. يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه: فقال هرقل: لئن صدقتني ليرثُنّ ما تحت قدميّ هاتين:

(١) وفي رواية أن عمر قال هذا القول لما فتح خالد قنسرين وقد ذكرناه في سيرة خالد (٢) يعني من أهل البلاد التي دخل أهلها في ذمتهم

هذه الصفات السامية التي قل أن تجتمع فى فاتح من الفاتحين هي التي مهدت لأولئك الابطال تدويخ الممالك الشاسعة وقلب كيان الدول لا عددهم القليل وعدتهم الضعيفة بإزاء عدة الروم والفرس وعديدهم وضخامة ملكهم ومناعة حوزتهم ولهذا استشعر هرقل بضعف بنيانه وتقلص ظل سلطانه فيئس من عود ملكه فى الشام وما يليها اليه فوقف لما باءعنها بالخسران وعاد بالخذلان وقال مودعاً لتلك البلاد الزاهرة والملك العريض

عليك السلام ياسورية سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود اليك رومى أبداً الا خائفاً حتى يولد الولد المشؤم ويا ليته لا يولد ما أحلى فعله وأمر عاقبته على الروم : وفى رواية انه قال

قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر فاما اليوم فعليك السلام ياسورية تسليم المفارق ولا يعود اليك رومى أبداً الا خائفاً حتى يولد الولد المشؤم وليته لم يولد :

(فتح حلب وانطاكية وغيرهما)

بعد أن تم لأبى عبيدة فتح حماة وقنسرين واللاذقية وغيرها سار الى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهرى فوجد أهلها متحصنين فنازلهم فلم يلبثوا ان طلبوا الصلح والامان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذى بها فأعطوا ذلك فاستثنى عليهم موضع المسجد وكان الذى صالحهم عليه عياض ولما انتهى اليهم أبو عبيدة أنفذ صلحه . وقيل إن أبا عبيدة لم يجد أحداً من المقاتلة بحاضر حلب وان أهل حلب صالحوه على مدينتهم بأن راسلوه من انطاكية ولما تم لهم الصلح عادوا الى مدينتهم وبينا أبو عبيدة فى حلب أتاه الخبر بعصيان أهل قنسرين فوجه اليهم السمط بن الاسود الكندى فأخضعهم وقيل استعصى عليه فتح حلب فتركها

وسار الى انطاكية وكتب الى عمر بذلك فبعث اليه كتاباً يلومه فيه فرجع وفتحها

ثم قصد أبو عبيدة حاضر حلب وكان لحاضر قنسرين يجمع أصنافا من العرب فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم انهم أسلموا بعد ذلك وحاولوا بُعَيد وفاة الرشيد العباسيّ الاستيلاء على حلب فاستنجد أهل حلب مَن حولهم من العرب ولم يستطيعوا استنجاد دار الخلافة لحصول فتنة محمد الامين فيها فأنجدهم العباس بن زفر الهلالي ونازل اهل الحاضر فرحلوا عنه الى قنسرين ثم غدروا بأهل قنسرين فجلوهم هؤلاء عن بلدهم ومن ثم تفرقوا في البلاد فقوم نزلوا تكريت وقوم ارمينيا وغيرها

ثم قصد ابو عبيدة انطاكية وكانت ذات خطر وشهرة وقد التجأ اليها كثير من فالّة قنسرين وغيرها من البلاد وتحصنوا فيها وبعثوا الجيش منهم الى مهروبة على فرسخين من انطاكية لصد المسلمين فلقي أبو عبيدة هذا الجيش ففضه وألجأهم الى المدينة وحاصر أهلها من جميع أبوابها فصالحوه على الجزية والجلاء فجلا بعضهم وأقام بعضهم فأمنهم ووضع على كل حالم منهم ديناراً وجريب حنطة وسار عنهم فنقضوا فوجه اليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهرى ففتحاها على الصلح الأول . ومن يرى ان فتح انطاكية كان قبل إيلياء يقول انها نقضت بعد رجوع ابي عبيدة الى فلسطين فوجه اليها من ايلياء عمرو بن العاص ففتحها وممن قال هذا البلاذري في فتوح البلدان وما نخاله صواباً

وكانت انطاكية بسبب موقعها الجغرافي وحصانتها وتفوّقها على مدن سورية عظيمة الذكر والامر عند عمر وعثمان رضي الله عنهما ولما فتحت كتب عمر الى أبي عبيدة أن يرتب فيها جيشاً من المسلمين من أهل الحسبة والرأى يرابط فيها وان لا يحبس عن ذلك الجيش العطاء وهكذا فعل بعده عثمان رضى الله عنه فقد

أمر معاوية وكان يومئذ والى الشام ان يلزمها قوماً من المسلمين وان يقطعهم القطائع ففعل

وبلغ أبو عبيدة بعد فراغه من أمر انطاكية ان جمعاً من الروم بين معرّة مصرين وحلب فسار اليهم وقاتلهم وفرق جمعهم ثم فرّق خيوله في انحاء البلاد ففتحت بوقا وسرمين وتيزين وجميع أرض قنسرين ثم سار أبو عبيدة الى حلب وقد نقض أهلها فنازلهم وأخضعهم ثم سار أبو عبيدة نحو قورس ففتحها صلحاً وفتح تل عزاز ومنبج وسيّر عياضا وحبيبا فى جيشين من المسلمين فأتما فتح سورية الى حدود الفرات شرقاً وأسيا الصغرى شمالاً وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا وضمّ اليه جنداً من المسلمين وبعث جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي الى أطراف أسيا الصغرى فلقي جمعاً للروم معهم عرب من تنوخ وغسان يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم ثم لحق به مالك بن الاشتر النخعي مدداً من قبل أبي عبيدة وعادوا جميعاً سالمين غانمين وسيّر جيشاً آخر الى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها وأخربها وعاد والظاهر ان الذي دعاه الي اخرابها عدم وجود جند كاف يقوم بحمايتها من هجمات أهل الجزيرة والروم والا فربما يكون أخرب حصنها فقط لئلا يعتصم به أهلها بعد وينتقضوا على المسلمين

﴿ مهاجمة هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين ﴾

هكذا انقضى أمر الروم في البلاد السورية وتم للمسلمين فتحها بعد حروب طويلة استمرت ثلاث سنين ولاقى جند المسلمين في غضونها من العناء وبذلوا من الدماء ما جعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً ومقامها في نظرهم عالياً وكان لرجالات قريش وأشرافها في حرب الشام خاصة من الاثر العظيم والبلاء الجسيم مالم يكن لقوم غيرهم في الفتوحات الأخرى وقتل منهم في وقائع الشام عدد كبير

لا سيما في وقعة اليرموك وكان ممن قتل منهم عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو وخالد ابن سعيد وهشام بن العاصي وسهيل بن عمرو وأبان بن سعيد وأضرابهم من صناديد قريش وأشرافها وكان للنساء القرشيات من البلاء ما كان للرجال أيضاً فقد روى الطبري أن النساء المسلمات قاتلن يوم اليرموك وخرجت جويرية ابنة أبي سفيان (القرشية) في جولة. وقال البلاذري: وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالاً شديداً وجعلت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان تقول: عضدوا الغلفان بسيوفكم:

وبالجملة فقد لاقى المسلمون في فتح الشام أهوالاً شداداً وصادموا أعدواً استماتت في الدفاع عن حوزته والذب عن سلطانه اذ لم يكن هرقل وجنوده بأقل ثباتاً وإقداماً وجراءة من العرب يدلك على هذا ما ظهر من الروم في الوقائع الأولى التي حدثت في اليرموك ودمشق وفحل وأجنادين وغيرها وعدا هذا فانه لما استقرت قدم المسلمين بالشام وتمكن سلطانهم منها في الشرق والغرب وسار أبو عبيدة عن انطاكية بعد أن استخلف عليها وعلى قنسرين وحلب وغيرها من استخلف من القواد لم يستقر لهرقل حال ولم يهدأ له بال فأعاد الكرة على البلاد السورية في سنة (١٧ هـ) بتحريض أهل الجزيرة له ووعدهم له بالمظاهرة والنصرة فلم يفجأ المسلمين الا وهرقل قادم بجند كثيف الى حمص من طريق البحر واستمد أهل الجزيرة وكاتب أهل حمص بالخروج على المسلمين فأبوا عليه وأرسلوا اليه إنا قد عاهدنا المسلمين فنخاف ان لا ننصر وكان أبو عبيدة في حمص فاستمد خالداً فجاءه من قنسرين بمن معه من الجنود فانضم أهل قنسرين بعده الى هرقل وحاصر هذا أبا عبيدة في حمص فاستشار أبو عبيدة القواد فأشار عليه خالد بالمناجزة وأشار غيره بالكتابة الى عمرو مطاولة هرقل ريثما يأتي منه الجواب فعمل برأيهم

وكتب الى أمير المؤمنين يستمده وجاءت لهرقل الجيوش والامداد وكان امداد الجزيرة وحده ثلاثين ألفاً على مارواه الطبرى وبلغ الروم من المسلمين كل مبلغ ووصل الكتاب الى عمر فكتب الى سعد بن أبى وقاص فى العراق ان أباعبيدة قد أحيط به ولزم حصنه فبُثَّ المسلمين بالجزيرة واشغلهم بالمسلمين عن أهل حمص وكان عمر أعد فى كل مصر قدراً من الخيل لكون ان كان وكان فى الكوفة أربعة آلاف فرس فلما وصل كتاب عمر الى سعد بعث بالجند مع القعقاع بن عمرو وعبدالله بن عتبان وسهيل بن عدى وعياض بن غنم وكان عياض قد عاد الى العراق بعد فتح الشام لانه من جند العراق وأشار عليهم بأمر عمر بن الخطاب أن يسلك كل أمير طريقاً الى الجزيرة فيقصد واحد قَرقيسياء والآخر الرقة والثالث نُصَيبين والرابع حرّان والرها واهتم لهذا الامر عمر بن الخطاب (رض) فخرج من المدينة ممدداً لأبى عبيدة حتى نزل الجابية وكان القعقاع تعجل بأربعة آلاف فارس الى حمص ولما بلغ الروم ذلك انفضوا الى مدائنهم وبادروا المسلمين اليها فتحصنوا ونزل المسلمون عليهم فمنعوهم عن امداد هرقل فدب الفشل فى جنوده وراسل طائفةٌ من تنوخ خالد بن الوليد بالتسليم أو الهزيمة وكان خالد بن الوليد لشجاعته وعلو همته لايحب الغلبة الا بفل صفوف الاعداء ومناجزتهم فى الهيجاء فأرسل الى تنوخ والله لولا انى فى سلطان غيرى ماباليت أأقللتم أم أكثرتم أو أقمتم أو ذهبتم فان كنتم صادقين فانفشوا[1] كما انفش أهل الجزيرة فوعدوه بالهزيمة اذا خرج اليهم المسلمون وقال المسلمون لابى عبيدة قد تفرق أهل الجزيرة وندم أهل قنسرين وواعدوا من أنفسهم وهم العرب فاخرج بنا هذا وخالد بن الوليد ساكت فقال له أبو عبيدة مالكَ لاتتكلم فقال: قد عرفت الذى

(١) يقال انفش الرجل أي فتر وكسل

كان من رأيي فلم تسمع من كلامي : قال: فتكلم فاني أسمع منك وأطيعك : قال : فاخرج بالمسلمين فان الله تعالى قد نقص من عدتهم (يعني الروم) وبالعدد يقاتلون وانما نقاتل منذ أسلمنا بالنصر فلا تحفلك كثرتهم

روى الطبري بعد سياق هذا الخبر عن علقمة بن النضر وغيره قالوا فجمع أبو عبيدة الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال

أيها الناس ان هذا يوم له ما بعده أما من حي منكم فانه يصفو له ملكه وقراره وأما من مات منكم فانها الشهادة فأحسنوا بالله الظن ولا يكرهن اليكم الموت أمرؤ قد اقترفه أحدكم دون الشرك توبوا الى الله وتعرضوا للشهادة فاني أشهد وليس أوان الكذب أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة :

وكأنما كان في الناس عقل [1] نشطت فخرج بهم وخالد على الميمنة وعباس على الميسرة وأبو عبيدة في القلب وعلى باب المدينة معاذ بن جبل ونشب القتال فانهم لكذلك اذ قدم القعقاع متعجلا في مائة وانهزم أهل قنسرين بالروم فركبهم المسلمون وتمت الهزيمة وعاد هرقل وجنوده بالخيبة وظهر من يقظة المسلمين واستعدادهم واهتمام أمير المؤمنين بهم في هذه الحادثة ما رأيت مما لا يظن بقوم مثلهم حديثي عهد بالبداوة . ولما ظفر المسلمون جمعهم أبو عبيدة وخطبهم وقال

لا تنكلوا [2] ولا تزهدوا في الدرجات فلو علمت انه يبقى منا أحد لم احدثكم بهذا الحديث !

وتوافى اليه آخر أهل الكوفة في ثالث يوم من يوم الوقعة فكتب المسلمون الى عمر وهو بالجابية بالفتح وبقدوم أهل الكوفة بعد ثلاثة وطلبوا منه الحكم

(١) جمع عقال وهو ما يعقل به البعير (٢) قال في القاموس نكل نكص وجبن

فى ذلك فكتب اليهم ان اشركوهم وقال: جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم ويمدون أهل الامصار

﴿ ما كل حديث تحدث به العامة ﴾

(وندم أبي عبيدة على نقله الحديث لعامة الناس)

كل مسلم اكتنه كنه الدين الاسلامي ووقف على حكمه واسراره يرى من آياته العظمى فى الترغيب والترهيب مالو أحسن استعماله ووضع فى موضعه لكفى لازعاج النفوس الشريرة عن مواطن الرذيلة مهما التصقت بها وامعنت فيها ولجعل النفوس البارة نوراً على نور وألبسها من الفضيلة لباساً لا يصيبه بلى وقد جاء الكتاب الكريم بالترغيب ليكون باعثا للنفوس على العمل الصالح رجاء الثواب الاخروي الذى أعده الله لعباده الصالحين لا ليكون وسيلة لاستدراج النفوس فى مدارج الاستباحة طمعاً فى عفو الله لهذا جاء بازاء الترغيب بالترهيب لترتسم على صفحات النفوس صورة العقاب كما ارتسمت صورة الثواب فيكون لها منها داع الى الخير يذكرها بالثواب ويمكّن منها الرغبة فيه لا الى حد الطمع والغرور ثم الاستدراج في الشرور . وزاجر عن الشر يذكّرها بالعقاب ويمكن منها الرهبة منه لا الى حد الانقطاع الى تقويم أود النفس وتعطيل وظائف الحياة ولا الى حد اليأس والقنوط ثم الاسترسال في الشهوات واقتراف المنكرات[1]: على ذلك الاساس بُني الترغيب والترهيب في الاسلام وكل ماجاء منه في الحديث النبويّ فالمراد منه عين ما أراده القرآن ولكن ما الحيلة وقد أولع كثير من علماء المسلمين بالافراط فى الوعظ ترغيباً وترهيباً وحملوا عامة الناس على طريقتهم فى

---

(١) لنا بهذا الصدد كلام مشبع في كتابنا (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) فليرجع اليه من أحب .

فهم الدين فأكثروا من حمل الحديث وروايته دون التفهم له والعلم بمقاصده ووضع كل شئ منه فى محله والتفريق بين صحيحه وموضوعه حتى أغروا العامة بعقيدة الاباحة لكثرة ما يروون لهم من أحاديث الترغيب ولو موضوعة كفضائل الصيام والصلاة وفضائل الشهور والايام وفضائل التلاوات وجلّها ان لم نقل كلها من الموضوع الذي تستدرج به العامة للاستباحة لاعتقادهم بأن من صام كذا غفر له من السيئات كذا وكذا ومن تنفل بيوم كذا محيت سيئاته الى كذا ولقد بلغ ببعضهم سوء الفهم للدين أن جعلوا لبعض القصائد النبوية من الفضائل مالم يجعلوه للقرآن فقالوا ان البيت الفلاني منها لشفاء الاسقام والآخر لمحو الذنوب والآثام والثالث للنجاة من ظلم الحكام فليت شعري اذا اعتقد العامي أن تلاوة بيت من قصيد يكفى لمحو كل مايقترفه فى يومه من الآثام فالى أية درجة ينتهى فساد أخلاقه وشرور نفسه وماذا ينفعه القرآن بأوامره ونواهيه ووعده ووعيده وحكمه وأحكامه

اللهم ان هذا لغاية الاستهانة بالدين والجهل بمقاصد الاسلام ومنشؤه اضطراب الافهام وتلبس الحقائق بالاوهام منذ أخذ الوضاعون بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدخلوا فى الدين ماليس منه يضاف اليه الاكثار من حمل الحديث على غير تفقه فيه ووضع له فى مواضعه التى أرادها الشارع وقصدها الاسلام ولو تتبع العلماء سيرة الصحابة الكرام سيما خاصتهم الذين لازموا النبي عليه الصلاة والسلام وفهموا هذا الدين حق الفهم لرأوا كيف أنهم كانوا يقلّون من رواية الحديث الا للخاصة أو ماتعلق منه بالاحكام حتى بلغ بعمر رضى الله عنه أن كان ينهى عن رواية الحديث ويقول عليكم بالقرآن كما سترى بعد وما ذلك الا خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كثرت

الرواية والنقل وخوف افتتان العامة بما ليس لهم به علم وبما لم يتفقهوا فيه من الحديث

أبو عبيدة بن الجراح كان من خيرة الصحابة وعلى جانب من التفقه فى الدين والورع والتقوى دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأن يسميه أمين هذه الامة وقد سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً ربما لم يسمعه منه أحد من الصحابة أوسمعه بعض الخاصة فرأى هذا الامين أن يطوى هذا الحديث بين الجوانح ويضن به على العامة كما ضن به عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لان عقول العامة يلابسها الاغترار ونفوسهم يلامسها الضعف وحب الشهوات فهم بالوعيد أولى وبالزامهم ظواهر الشرع أحرى ولكن لما ألجأته الضرورة القصوى وهو محصور مع المسلمين فى حمص ورأى منهم فتوراً عن الحرب لا لوهن فى نفوسهم أو جبن أصابهم كلا وانما هو لرهبة الخالق التى تمكنت من افئدتهم وقلوبهم وأخافتهم من الموت لا لذاته بل لما بعده قام فخطب فيهم وتلى عليهم ذلك الحديث وهو (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) استحثاثاً لهممهم وتخفيفاً لروعهم مما بعد الموت رجاء رحمة الله وعفوه عن ذنوب اقترفوها مما دون الشرك اذا تابوا وأنابوا

قال لهم هذا وهو يظن ان هذا الحديث لا يتعدى اسماعهم لاعتقاده انهم اذا خرجوا لمكافحة الروم لا يبقى منهم أحد يحدّث به أو يلابس نفسه أثر منه لكثرة من كان على حصارهم من جند الروم ولما تم الظفر للمسلمين ونجوا من براثن العدوّ ندم على ان حدثهم بذلك الحديث وخشي من ان يعلق فى نفوسهم شىء منه مع أنه علّقه على التوبة فقام وخطب فيهم فقال

(لا تنكلوا ولا تزهدوا فى الدرجات فلو علمت انه يبقى منا أحد لم أحدثكم

بهذا الحديث)

وتالله إن قوما بلغ بهم الايمان الصادق واليقين الثابت ذلك المقام مقام الرهبة من الله ومن الوقوف بين يدي قدرته بعد الموت لقوم عامتهم أعلم بالدين وأخلص في اليقين من خاصتنا ومع هذا فقد ندم أبو عبيدة على أن حدثهم بذلك الحديث فليت شعرى كيف يكون الحال بعد ذلك العصر وماذا يشترط فى المحدثين وحملة علوم الدين ألا يشترط الوقوف على مقاصد الاسلام والتفقه فى الحديث والعلم بحالة المخاطبين واجتناب الغلو معهم فى الترغيب والترهيب ومراعاة ما يلابس عقولهم من القوة والضعف وأنّى يتيسر هذا وقد نتج عن كثرة الرواية وحمل الحديث بلا تفقه فيه زيغ العقول عن مقاصد الشرع واجتراء الكذابين على وضع الحديث وشحن الكتب الاسلامية بما لا يرضاه الله والرسول وهو ما كان يحذره عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولهذا نهى فى عصره الذي هو خير العصور عن الاكثار من رواية الحديث. فما بالك بما يلى عصره من العصور

ذكر الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الاندلسى فى كتابه جامع بيان العلم[1] وفضله فى باب ذكر من ذم الاكثار من الحديث دون التفهم له والتفقه فيه ما نصه

عن ابن وهب قال سمعت سفيان بن عيينة يحدّث عن بيان عن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال: خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر الى حرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال: أتدرون لم مشيت معكم: قالوا نعم نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا: فقال: انكم تأتون أهل قرية لهم دويّ بالقرآن كدويّ

(١) يوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة الازهر

النحل فلا تصدوهم بالاحاديث فتشغلوهم . جوّدوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمضوا وأنا شريككم : فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر بن الخطاب اهـ

ثم قال ابن عبد البر بعد هذا بقليل ما نصه : قول عمر انما كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن فخشى عليهم الاشتغال بغيره عنه اذ هو الاصل لكل علم هذا معنى قول أبي عبيد فى ذلك : ثم قال بعد ذلك أيضاً : ان نهيه عن الاكثار وأمره بالاقلال من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما كان خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفاً أن يكونوا مع الاكثار يحدثون بما لم يتيقنوا حفظه ولم يعوه لان ضبط من قلّت روايته أكثر من ضبط المستكثر وهو أبعد من السهو والغلط الذي لا يؤمن مع الاكثار فلهذا أمرهم عمر من الاقلال من الرواية اهـ

﴿ القواد الذين حضروا فتوح الشام ﴾

ممن كان له البلاء الحسن من القواد فى فتوح الشام غير القائد العام الذى كان خالد بن الوليد وبعده أبو عبيدة بن الجراح . خالد بن سعيد وعمرو بن العاص ويزيد ابن أبى سفيان وأخوه معاوية وحبيب بن مَسْلَمة الفهرى وعياض بن غَنْم الفهرى وشرحبيل بن حسنة وكل هؤلاء من قريش الاّ الاخير فانه حليف بنى زهرة من قريش وأما غير هؤلاء ممن ليسو من قريش فهم ذو الكلاع الحميري والقعقاع ابن عمرو[1] والسمط بن الاسود الكندي وعلقمة بن مُجَزِّز وعلقمة بن حكيم الفراسي وعبادة بن الصامت ومالك بن الاشتر النخعي ومسروق بن فلان العكيّ

(١) القعقاع وعياض هما من جند العراق لا الشام ووفدا مع خالد بن الوليد أيام مجيئه من العراق وعاد القعقاع بعد فتح دمشق وعياض بعد فتح انطاكية وقيل قبلها الى العراق

وأبو أيوب المالكي وغيرهم

هكذا تم فتح هذا القطر السوري لأولئك القواد البواسل وقد رأيت من حسن ترتيبهم للجيوش وإلمامهم بطرق البلاد وتفننهم بأساليب الحرب وقهرهم للعدو ما يدل على علو كعبهم في فن الحرب وخبرتهم بالبلاد حتى كان أمير المؤمنين وهو بالمدينة يصدر أوامره للامراء في كيف يسيرون وأي المسالك يسلكون وأي البلاد يقصدون كأنما كان ينظر الى هذا القطر على خارطة مصورة بين يديه والعلة في هذا أن القطر السوري بسبب اتصاله بجزيرة العرب من جهة الحجاز كان كجزء طبيعي منها عرف العرب طرقه وبلاده وأحواله كافة كما عرفوا نفس الجزيرة يضاف اليه أن قسما عظيما منه كان مأهولا بالعرب من مضر وكانت صلة الاختلاط والمتاجرة غير منقطعة بين الحجاز وسورية تمتد الى أجيال متطاولة قبل المسيح وكانت قوافل قريش قبل الاسلام تتردد الى سورية أكثر من غيرها لهذا كان كثير من الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب عارفين بطرق البلاد وأحوالها ذوي علاقة تجارية بسكانها

﴿ خلاصة جغرافية ﴾

(ونظرة اجتماعية)

قد رأينا بعد الفراغ من الكلام على فتح سورية أن نأتي على خلاصة جغرافية للبلاد السورية تضمنها أهم المباحث الجغرافية والاجتماعية المتعلقة بهذا القطر قديماً وحديثاً مع بيان صنائعه وعدد سكانه وأقسامه وجباياته كل ذلك على وجه الاجمال الذي يسعه المقام اذ التفصيل ليس من شأن التاريخ العام بل هو من شأن التواريخ الخاصة فنقول

يحد سوريا شمالا ولاية أدنه (كيليكيا) من آسيا الصغرى وشرقا الفرات

والبادية وجنوباً جزء من بلاد العرب ويقال له تيه بني اسرائيل وغرباً بحر الروم أي البحر المتوسط وقد قام في هذا القطر حكومات كثيرة تعددت بتعدد الاقوام القاطنين فيه كالفينيقيين[1] والحثيين والاموريين والكنعانيين وغيرهم من الشعوب ثم رحل اليه بنو اسرائيل من مصر وزاحموا سكان البلاد وأخذوا قسما عظيما منه وغزاه كثير من الدول القديمة كدولة الفراعنة المصريين والماديين والفرس واليونانيين والرومانيين وعرب الاسلام ولم تثبت فيه قدم دولة من الدول الفاتحة كما ثبتت قدم دولة الرومانيين ودولة الاسلام فقد كان ابتداء دولة الرومان فيها من سنة ٦٥ق ٠ م الى سنة (٦٣٣م) حيث ابتدأ الفتح الاسلامي في البلاد السورية وكانت نهايته (٦٣٨م) أو (١٧هـ) وفيها تقلص ظل الروم عن هذا القطر وقد كان عهد الرومانيين مقسوما الى ثلاثة أقسام كبيرة وهو فلسطين وتوابعها ودمشق وتوابعها وانطاكية وتوابعها وكان القسم الشمالي منه يسمى سورية والقسم الجنوبي يسمى فلسطين فأطلق عليه اسم سورية منذ تملكه الرومان ولما تملكه المسلمون أطلقوا عليه اسم الشام وقسمه عمر (رض) الى أربعة أقسام القسم الاول الثغور وسماها هارون الرشيد العواصم وهي حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وحاضرة هذا القسم

(١) الفينيقيون كانوا يسكنون سواحل الشام الجنوبية وبعض الشمالية وكانت عاصمتهم القديمة صيدا ثم ابتنوا صورا حوالى سنة ١٥٠٠ قبل المسيح بعد خراب صيدا وكانوا من أنشط الشعوب وأعرفهم بسلوك البحار وطرق الاستعمار فاستعمروا معظم جزائر البحر الابيض وذهبوا الى سواحل افريقيا الشمالية وأسسوا هناك مدينة قرطاجنة الشهيرة التي يقال انها كانت قرب تونس وقطعوا مضيق جبل طارق الى المحيط وبالجملة فقد كانوا أعظم دول البحار في عهدهم ويشبههم بعض المؤرخين بدولة انكلترا لهذا العهد

حمص والقسم الثانى دمشق والقسم الثالث الأُردُن وحاضرته مدينة الاردن (طبرية) والقسم الرابع فلسطين وهذا قسمه الى قسمين قسم حاضرته الرملة وقسم حاضرته إيلياء (القدس) وكل قسم من هذه الاقسام يسمى جنداً وتحت كل قسم أقسام تدعى كوراً وسيأتى الكلام على هذا بالتفصيل فى غير هذا المحل ان شاء الله

وقد توفرت فى هذا القطر أسباب المكاسب الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة لخصب أراضيه وموقعه الجغرافي ونشاط أهله للعمل الا أن هذه الاسباب كانت تعلو وتسفل بنسبة حال الدول الحاكمة فى هذا القطر ومن المقرر أن عمران الممالك تابع لترقى الدول وقد كانت دولة الرومان الشرقية على عهد الفتح الاسلامى دولة لحقها الهرم والعجز وعفت من ممالكها آثار التمدن الرومانى العظيم لما أصاب أهلها من الانشقاق الدينى والاختلاف المذهبي الذي أودى بحياتهم السياسية وفرّق جامعتهم الملية ولما تولى الامبراطورية هرقل سنة (٦١٠ م) كان أمر المجادلات الدينية فى أشده فخاض الامبراطور نفسه فى غماره واشتغل بالامور الدينية تاركا أمور الدولة السياسية لوزرائه وأرباب دولته ومن ثَمَّ ظهر الوهن فى الدولة فى أتم مظاهره فغزتها دولة الفرس واكتسحت جزءاً من ممالكها عظيما وهو آسيا الصغرى وسورية ومصر وكاد الامبراطور هرقل يزايل بكرسيه الامبراطورى القسطنطينية ويتخذ قرطاجنة عاصمة له لو لم يمنعه عن هذا العزم بطريرك القسطنطينية حتى نهض مرة ثانية بجنان ثابت لمحاربة الفرس واسترد منهم ما انتزعوه من ممالكه كما تقدمت الاشارة اليه فيما مرّ من هذا الكتاب

ولا ريب في أن ما أصاب هذه المملكة من التقهقر يومئذ كان لسورية منه حظ عظيم ونكبت كما نكب ذلك الملك العريض بسوء السياسة والضعف

والانقسام لا سيما وإنها كانت حديثة عهد بممارك الفرس التى لم يكن مضى عليها لحين الفتح الا بضع عشرة سنة: إذن فهذه البلاد لم تكن لما دوّخها المسلمون راقية مراقي العمران ولم تكن أسباب المكاسب الثلاثة متوفرة عند السكان إلاّ ان استعدادها الطبيعيّ لقبول العمران ومافيها من بقايا المدنية الغابرة تكفل برقيّ أهلها في مراقى السعادة مذ بسطت عليها دولة العرب المسلمين جناح السلطان

نعم نحن ليس لدينا نص تاريخي واضح على مبلغ ما وصلت اليه هـذه البلاد من الرقيّ على عهد الخلفاء الراشدين والامويين فى صدر الاسلام لِما أن أخبار تلك العصور انتهت الينا بالرواية ولم يكن تدوين التاريخ الاسلامي معنياً به فى ذلك العصر إلا ان هناك من الادلة والاسباب مايحملنا على الظن بل اليقين بأن البلاد السورية صارت يومئذ الى أبعد غاية من غايات الترقى فى أصول المكاسب الثلاثة الصناعة والتجارة والزراعة

من المعلوم بالبداهة أن العدل أساس العمران ومتى تنظمت أصول الجباية ورفع عن الرعية العسف وخففت المظالم وأطلق للاهلين عنان الحرية توفرت لهم أسباب الراحـة ونشطوا من عقال الخمول فهبوا للاخذ بأسـباب المكاسب وتبسطوا في مناحي العمران وقد رأيت فيما مضى من أخبار الفتح كيف أن سكان البـلاد كانوا يصالحون على مقدار معين من الجزية والخراج لم يتجاوز حد العدل والاسـتطاعة وروعيت فيه بالطبع ثروة البلاد ومقدرة كل فرد من الاهلين وان هذا القدر المعـين فى عصر الفتح استمر على ماهو عليـه مدة الخلفاء الراشدين والامويين وصدراً من خلافة العباسيين وان سببه محافظة الخلفاء على العهود التى بأيدي السكان ويضاف اليـه تجنب تلك الدول لأسباب السَّرَف لقرب عهدها بالبداوة وجدتها فى تأسيس الملك وعدم حاجتها لهذا السبب الى التعسـف فى

الجباية والاكثار من المظالم وقد كانت جباية الاقسام السورية الاربعة فى عهد الامويين على ترقى العمران فى البلاد هي ما يأتي نقلا عن فتوح البلدان

دينار	
١٨٠٠٠٠	الاردُن
٣٥٠٠٠٠	فلسطين
٤٠٠٠٠٠	دمشق
٨٠٠٠٠٠	العواصم (وهى حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وتوابعهم)
١٧٣٠٠٠٠	الجمع

وهذا المبلغ ليس بشئ بالنسبة لعمران البلاد يومئذ وربما بلغت جباية البلاد فى عصور تقهقرها أكثر من ذلك وجبايتها الآن على تدنيها فى العمران وفقد الصناعة منها وضعف التجارة والزراعة فيها أكثر من جبايتها فى صدر الاسلام كما سترى

وهذا دليل على تناهى الخلفاء يومئذ بالعدل وعدم عسفهم فى الرعية يضاف اليه أيضاً جلوس الخلفاء بأنفسهم للمظالم الى عهد عمر بن عبد العزيز وإنصافهم للرعية وقيامهم على وسائل العمران وتمصير الامصار وتأسيس الملاجئ كوضع عمر بن الخطاب لدور الضيافات الخاصة بأبناء السبيل والمنقطعين وترتيبها فى الطرق من الحجاز الى الشام ومنها الى العراق وتأسيس معاوية لمدينة طرابلس الشام وتمصير سليمان بن عبد الملك لمدينة الرملة وتشييد الوليد بن عبد الملك الملاجئ للزمنى والمجذمين وأمره ببناء الفنادق للمسافرين فيما بين الاقطار المتباعدة كما صنع عمر بن الخطاب وعنايته أي الوليد بأصلاح الطرق المسهلة لنقل التجارة وإطلاق الخلفاء الحرية المعتقد بين الطوائف الوطنية من اليهود

والنصارى وعدم إنحياز أحدهم لفريق منهم دون آخر كما كان ينحاز ملوك الروم ويثيرون بين الرعية ثائرة التباغض والشحناء كل هذا وغيره من أسباب الراحة والأمن ودواعى الترقى والعمران يدلنا على رقيّ البلاد على عهد الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين أيضاً وتمتع أهلها بسعادة الراحة والعمران التى لم يتمتع بها هذا القطر فى عهد غير دولة المسلمين الا قليلا على عهد الفينيقيين أيام مجدهم والرومانيين أيام تمدنهم

ولما انقسمت دول الاسلام على بعضها تداول هذا القطر السوري عدة من الدول كالفاطميين والاتراك والاكراد والجراكسة أخذ بالانحطاط تبعاً لانحطاط الدول الحاكمة وأصيب من النكبات بما لم يصب به غيره من الاقطار الاسلامية اذ هاجمته في أواخر القرن الخامس من الهجرة جيوش الصليب واستعرت في أرجائه نيران تلك الحروب المشؤمة مدة جيلين كاملين الله أعلم بما أصاب في غضونها هذا القطر من الخراب والتدمير ثم تبع ذلك هجوم التتار عليها في نصف القرن السابع للهجرة وتخريبهم للمدن والامصار وفعلهم في البلاد وأهلها الافعال الكبار وتلى ذلك هجوم تيمورلنك عليها فى أواخر القرن الثامن بعد اكتساحه لما في طريقه من ممالك الاسلام وفعل في سورية الافاعيل وأجلى عن دمشق خاصة أهل العلم والصناعة واستصحبهم معه في عودته الى سمرقند

على ان موقع هذه البلاد الجغرافي وطبيعة أرضها المشهورة بالخصب وأهلها المعروفين بالجلد حفظ لها ذماء الحياة وأعان أهلها على تحمل المصائب فلم تنحط الى الدرجة التى تفقد معها أصول المكاسب بل استمرت حلب ودمشق الى عهد قريب محطاً لحركة القوافل الآتية من العراق تحمل بضائع العجم والهند وتعود بالبضائع الشامية بل والبضائع الغربية أيضا اذ كان هذا الطريق قبل فتح

ترعة السويس أخصر طريق بين الغرب والشرق

وكذلك الصنائع فانها بقيت حية نامية حتى في العصور المتأخرة على عهد ملوك الطوائف يدلنا على هذا ما بقي منها وما لم يبق أيضاً لوجود أثره الذي ينبئ عنه فأما الباقي منها الى الآن فصناعة الاقمشة الحريرية والقطنية كأقمشة اللبس المعروفة بالشاهية أو القطنية والديما أو الغزلية والالاجا والحامدية وغيرها وكاقمشة الزينة كالستائر والمتكئات وغيرها من أقمشة الحرير والصوف والقطن المختصة بالزينة وأخصها الاطلس المعروف قديما بالدامسقو إلى غير ذلك من أنواع الأقمشة كالشراشف والمناشف والكوفيات والاحزمة كل هذا باق الى الآن وهو في أعلى طبقة من دقة الصناعة ورواء المنظر ومتانة النسيج وبهاء الالوان وتناسب النقش وقد اختصت ببعض هذه الصنائع دون البعض الآخر كثير من البلدان السورية كحلب وحماه وحمص ودمشق وطرابلس والذوق (من لبنان) وغيرها

وصناعة الحفر والنقش على الخشب بالصدف المعروفة (بالمفصص) وهي من الصناعة الخاصة بدمشق وقد ترقت الآن فتعدت الصدف الى النقش بقطع الخشب الملون الدقيقة بحيث لا يظنها الناظر اليها الا منقوشة بالدهان لتماسك الاجزاء الصغيرة والتحامها التحاماً لا يظهر منه أن النقوش انما هي أجزاء صغيرة ملتصقة في الخشب الا بعد إمعان النظر فيها والتدقيق في نقوشها

وصناعة الصابون ومعاملها لم تزل تشتغل الى الآن في حلب ودمشق ونابلس وغيرها

وصناعة النشا في دمشق معامل كثيرة لها تسمى القاعات لم تزل لهذا العهد تصنع كميات عظيمة من النشا الا انه قل تصديره الى الخارج بسبب مزاحمة

النشا الافرنجي له في البلاد التي كان يصدر اليها كمصر وغيرها

وصناعة الدباغة وهي موجودة في معظم المدن السورية الا انها ساذجة لم تترق الا في مدينة زحلة التابعة لجبل لبنان فانها تحسنت الآن وكادت تضاهي الجلود التي تصنع في زحلة الجلود التي تصنع في معامل أوربا

وصناعة البناء والحفر في الاحجار ونقشها نقوشاً ناتئة أو مجوفة وهي صناعة قديمة في البلاد تمتد الى زمن الفينيقيين كما يستدل على ذلك بالآثار الحجرية الباقية الى الآن والظاهر أنها كانت تختلف باختلاف حال الدول وحبها للبذخ وميلها للعمران فالبناء في عصر الفينيقيين ومن تلاهم من الدول في سورية كان ظاهر الفخامة عظيم الضخامة متقن النقش والترتيب كهيكل بعلبك الذي بلغ الغاية في إتقان البناء والتصوير الناتئ على الحجر الصلد ومثله هيكل تدمر أيضاً على أننا لم نر أثراً يشبههما الا أواخر الدولة الرومانية ولما جاء الاسلام وتبسط الامويون في العمران وابتنى الوليد جامع دمشق وبيت المقدس ظهر ثانية فن اتقان البناء وكان أجمل رواء منه في عصر الرومانيين من حيث النقش الدقيق على الاحجار المعروف لهذا العهد بالحفر والتنزيل وأما في القرون الوسطى الهجرية فقد انحطت هذه الصناعة انحطاطاً قليلاً بدليل ما نشاهده منها في بعض المساجد التي بنيت على عهد الملوك الجراكسة وغيرهم كجامع الملك الظاهر بدمشق ثم نهضت في القرون المتأخرة وترقت من فن البناء صناعة الزخرف والحفر والتنزيل ترقياً عظيماً حتى هذا العهد وقد بني في العام الماضي محراب للجامع الأموي كله من القطع الرخام الملونة الصغيرة فكانت على تناسب أوضاعها واتقان صنعها وترتيب أشكالها معجزة من معجزات الصناعة ومثله المنبر الذي أقيم في جانبه وعلى نمطه أيضاً

وصناعة الزجاج وهي اليوم متدنية جداً لا تتعدى صنع القوارير الساذجة

ومما لها موجودة فى دمشق وغيرها

وصناعة الحبال المتخذة من قشر القنّب وهي مترقية عظيمة الخطر وتوجد مصانعها بكثرة في دمشق وتصنع مع الندرة فى بيروت وحماة

وصناعة النحاس ونقشه نقوشاً ناتئة ومحفورة وكانت فقدت منذ خمسين سنة ثم عادت الآن بسبب كثرة رغبات الاوربيين بالآنية النحاسية التى من هذا النوع

وصناعة الصاغة وهى الآن مترقية في معظم المدن السورية

وصناعة أدوات الخيل وهى الآن مترقية وقد تناولت كثيراً من الصناعات كصناعة الهميانات والصناديق الجلد وغيرها: فهذه الصنائع الباقية الى الآن فى سورية ويوجد غيرها أيضاً مما لا أهمية لذكره وأما الصنائع التى اندثرت وإنما تدل عليها آثارها فهي صناعة القيشاني وكانت خاصة بدمشق والموجود منها لهذا العهد فى بعض المنازل والحمامات والجوامع يدل على ترقى هذه الصناعة فى العصور المتأخرة ترقيا عظيما خصوصاً فى القرن التاسع والعاشر الى الثانى عشر وفى جامع الشيخ محي الدين العربي فى الصالحية الذي ابتناه السلطان سليم العثماني فى أوائل القرن العاشر نوع منه بلغ الغاية فى الاتقان ودقة الصنع وبهاء اللون وتناسق النقوش وكذلك الموجود فى جامع الدرويشية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (٩٨٣ هـ) والموجود فى جامع السنانية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (١٠٠٠ هـ) وقد دثرت هذه الصناعة فى القرن الماضي لانحصارها فى عائلة واحدة ضنّ آخر فرد منها بتعليم هذه الصناعة لسواه ومات فماتت معه والخبر عن هذا متواتر مستفيض الى اليوم عند الدمشقيين والظاهر أن أصل هذه الصناعة فارسية بدليل نسبتها الى قيشان المحرفة عن قاشان بلد فى فارس

وصناعة الخزف وقد كانت أيضاً فى أعلى طبقة من الدقة وتدل آثارها على أنها كانت مرتقية فى القرون الوسطى والمتأخرة الهجرية وانما عرفنا ذلك بمشاهدة قطع من مصنوعات الخزف استخرجها الدكتور (هوردوشانو) من التل المعروف بتل الباب الشرقى خارج دمشق لما اشترى من الحكومة هذا التل وأزاحه من بضع عشر سنة فوجدناها تشابه ما اكتشفته جمعية البعثة الاثرية الفرنساوية فى مصر من القطع والآنية الخزفية المصنوعة فى عهد الفاطميين والجراكسة [1] وقد شاهدت بعض هذه القطع المصريه عند صديق لي الماني وعليها اسم العامل بالعربية إلاّ أني لم أعثر فى القطع الدمشقية على اسم للمعمل ولا العامل وأنا أبحث الآن عن ذلك فاذا عثرت على شيء من هذا القبيل ربما أعود لذكره فى مكان آخر على وجه التفصيل

صناعة الفسيفاء وهي قطع صغيرة من الزجاج الملون والمذهب تنقش بها الجدران بأن ترصف على طبقة من الجبس على أشكال شتى جميلة الصنع والترتيب تمثل الانهار والاشجار والابنية الجميلة وهي من أنفس الصنائع التى وجدت بدمشق وهي من مخترعات الروم بدليل ان الوليد بن عبد الملك لمّا ابتنى الجامع الاموي بدمشق استجلبها من القسطنطينية ورصف جدرانه كلها بالفسيفاء على أشكال شتى تمثل الجامع والاشجار والازهار ولكثرة ما طرأ على الجامع من الحريق تساقطت عن جدرانه الفسيفاء إلاّ قليلا منها فى الحائط المقابل للمنبر فى الحرم الداخلي والحائط الغربي والشمالي فى الحرم الخارجي فامّا ما كان منها على الحائط الداخلي فقد تناثر بعضه فى الحريق الذى حدث منذ بضع سنين وأمّا ما كان

(١) راجع مذكرات البعثة الاثرية الفرنساوية المطبوعة باللغة الفرنساوية في عدة مجلدات

منها في الحرم الخارجي فقد أدركته في طفوليتي وقد تشعثت القناطر الحاملة للجدار ولما أريد ترميمها اقتلع ما عليها من الفسيسفاء إمّا عمداً عن جهل بقيمته الأثرية وإمّا اضطراراً فكان يجمعه الاولاد وخدمة الجامع يومئذ ويبيعونه للسياح . والظاهر أن صناعة الفسيسفاء استمرت في الشام الى ما بعد القرن السابع بدليل ما يشاهد منها في جدران بعض جوامع حلب وجامع الملك الظاهر بيبرس بدمشق إلاّ أن القطع غير متماسكة في التركيب ولا منتظمة في الرصف وليس لها من بهاء الصنع ودقة التناسب في النقش ما كان لمثلها في الجامع الاموي وهو يدل على انحطاط صناعة النقش بالفسيسفاء يومئذ انحطاطاً انتهى الى تركها بتاتاً

وصناعة السيوف الدمشقية وقد كان يتنافس بها ويضرب المثل بلين متونها ومضائها وقد دثرت منذ أجلى تيمورلنك صناعها معه الى سمرقند على أنه لم تزل الى هذا العهد صناعة الاسلحة والسيوف موجودة بدمشق وغيرها من مدن سورية الا أنها منحطة عن مرتبتها الاولى

وصناعة الاثواب البيض المعروفة (بالخام الصالحاني) وكانت خاصة بدمشق وبعض قرى جبل قلمون ولم يبق لها اعتبار منذ كثر توارد البضائع الافرنجية التي من نوعها الى سورية وكان من بضع سنين شيخ في صالحية دمشق ومن أرباب هذه الصناعة طاعن في السن قد بلغ من الكبر عتيا يقول إن الصالحية منذ أربعين سنة فصاعداً كانت منازلها كلها أشبه بمعمل واحد يحوك أهله تلك الاثواب البيض من القطن المغزول بالشام وان أهل الصالحية جميعهم كانوا في نعم وغنى زائد من ثمرات هذه الصناعة فأصبحوا الآن في ضنك وعسر لفقدها منهم أو لعدم الحاجة اليها

وقال ذلك الشيخ إنه أدرك أسواق دمشق وكل سوق منها لأرباب

صناعة مخصوصة كسوق الشماعين واللبادين والغلاينية [١] والخراطين وسوق السلاح والعلبية وسوق المراياتية والقبارين وغير ذلك من الاسواق التى لم يبق لصنائع أهلها إلا رسم دارس وعهد طامس اللهم الا العلبية والخراطين فقد بقيت منهم بقية الى الآن لعدم استغناء البلاد عن صناعتهم لهذا اليوم

ومن الصنائع النفيسة التى فقدت من دمشق وكانت خاصة بها صناعة الدهان المعروف عند الدمشقيين (بالعجمي) وهو بأن ينقش باطن سقف الغرفة والجدران المبطنة بالخشب بالجبس الناتئ على أشكال بديعة ويُذهب بعضها وبعضها يُلوّن بألوان غير زاهية وهى من أدق الصنائع النفيسة وأجملها وكان لهذا النوع تركيب مخصوص من الدهان بحيث يستمر لونه لامعاً ذا بهاء ورونق مهما تطاولت عليه السنون ويوجد لهذا العهد كثير من آثار هذه الصناعة فى منازل دمشق ومنها ما هو موجود فى منزل أسعد باشا المعظم الذي يقصده السياح للفرجة وفى منزل عبد الله باشا ومنزل المرادي ومنها ما مضى على بنائه لهذا اليوم نحو مائة وخمسين سنة ولم يزل الدهان الذى فيه زاهياً جميلاً كأنما صنع بالامس. والظاهر أن فقد هذه الصناعة من دمشق قريب عهد لوجود بعض آثارها التى لم يمض عليها الى اليوم أكثر من ستين سنة وإنما أهملت فى السنين المتأخرة لكثرة ما تحتاج اليه من النفقات التى لا يتحملها الآن أهل الترف والبذخ للفقر الذى ألم بالبلاد منذ انحطت فيها أسباب المكاسب وقد تقدم القائمون ببناء الجامع الاموي لهذا العهد بعد الحريق الذى طرأ عليه الى بعض الدهانين الطاعنين فى السن الذين يعلمون شيئاً من هذه الصناعة بدهن السقفين اللذين يليان القبة من الجنوب والشمال بذلك الدهان فأتقنوا صنعه إلا أنهم أدخلوا فيه بعض الالوان

(١) صناع الغلايين التى يستعمل بها التبغ

الزاهية فخالف أصل الصنعة إلا أنه جاء جميلا وافيا بالغرض لا عيب فيه

هذا ما رأدنا بسطه عن حالة سورية الصناعية والاجتماعية وبقي لنا كلام عن حالتها لهذا العهد من حيث الترقي أو الانحطاط سواء كان في العلوم والمعارف أو في الصناعة والزراعة ودرجة ثروة البلاد من هذه الاشياء ومراتب أهل مدنها منها وعدد نفوسها والسكك الحديدية التي أنشأتها الشركات الاجنبية فيها الى غير ذلك مما يتعلق بالحالة الاجتماعية على العموم في هذه البلاد وبما أنها تابعة في هذا كله الى المملكة العثمانية فقد أرجأنا الكلام على ذلك الى الاجزاء التالية التي نخصصها لرجال الدولة العثمانية ونتكلم فيها عن هذه الدولة التي نضرع الى الله تعالى أن يؤيدها بروح القوة والعلم ويصونها عن الزوال بأن يرشد رجالها الى طرق الخير وينزع من نفوسهم حب الشهوات ويزرع فيها حب الملة والوطن لينقذوا الأمة العثمانية من خطر الانحطاط الى دركات الضعف والاضمحلال التي أشرفت عليها لهذا العهد وكاد اليأس من سلامة استقلالها يستولي على نفوس العقلاء من أفرادها الذين بقي فيهم ذماء من الحياة وأثر من الشعور فباتوا يتقلبون على مضاجع الآلام وتساورهم الهموم الجسام ولا سبيل لهم الى إصلاح الحال وتدارك خطر المآل لانهم اذا نصحوا رُموا بالخيانة واذا صدقوا اخرجوا في عرف الجهلاء من عهد الامانة وهي حالة يارباه تؤذن بتسفل الاخلاق وضعف العقول وموت الوجدان فأنقذنا اللهم بفضلك منها وارشدنا للتبرئ من عارها الذي جعلنا عبرةً في الآخرين وألعوبة في أيدي الغربيين انك مجيب الدعاء

باب

فتح العراق وفارس

(إنتداب أبي عبيد ووقعة الجسر وغيرها)

تقدم معنا أن أول عمل عمله عمر (رض) في خلافته هو إجلاء أهل نجران وعزل خالد بن الوليد وانتداب الناس لحرب الفرس فأما الخبر عن الامرين الأولين فقد بسطناه فيما سبق واما الخبر عن حرب الفرس فذلك أن المثنى بن حارثة الشيباني الذي خلف خالد بن الوليد على حرب العراق وفد على أبي بكر في حال مرضه ليفاوضه في شأن الهجوم على بلاد فارس ماداموا مختلفين بينهم على من يولونه الملك بعد شهر براز الذي أدى موته الى تملك سابور ثم قتله وقيام آزرميدخت ثم بوران إلا أن أبا بكر رضي الله عنه لم يسعه إجابة طلب المثنى لمرضه فأوصى عمر بن الخطاب (رض) أن ينتدب الناس بعد توليه منصب الخلافة مع المثنى بن حارثة لحرب الفرس فقام عمر في صبيحة اليوم الذي دفن في ليلته أبو بكر وانتدب الناس لقصد العراق فلم ينتدب له أحد لأن وجه فارس كان أكره الوجوه الى المسلمين وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم فلما كان اليوم الرابع عاد فانتدب الناس وتكلم المثنى بن حارثة فقال يهون على المسلمين

خطب الفرس

يا أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبححنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد (يعني الشق الغربي الذي هو العراق العربي) وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها اهـ

وقام عمر (رض) في الناس فقال

إن الحجاز ليس لكم بدار إلاّ على النُّجعة (١) ولا يقوى عليه أهله إلاّ بذلك أين الطُرّاء المهاجرون عن موعود الله سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فانه قال (لِيُظْهِرَهُ على الدّين كلّه) والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولي أهله مواريث الأمم . أين عباد الله الصالحون اهـ

فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي وثنّى سعد بن عبيد وسليط ابن قيس فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر أمّر عليهم رجلا من المهاجرين والانصار فأبى وقال إن من سبق الى الدفع وأجاب الى الدعاء أولى بالرياسة ثم أمّر أبا عبيد على الجيش وقال له : إسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الامر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبيّن فانها الحرب والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف (٢) ولم يمنعني أن أؤمّر سليطا إلاّ سرعته الى الحرب وفي التسرع الى الحرب ضَياع إلاّ عن بيان والله لولا سرعته لأمّرته ولكن الحرب لا يصلحها إلا المكيث

خرج أبو عبيد في آخر جمادي الأولى أو أوائل جمادي الثانية سنة (١٣هـ) ومعه سعد بن عبيد وسليط بن قيس أخو بني عديّ بن النجار والمثنى بن حارثة الشيباني فتقدمهم المثنى الى الحيرة وكان استقر أمر فارس لبوران فاستدعت رستم من خراسان وتوجته وجعلت اليه حماية البلاد وسلمته قيادة الجند فكتب رستم الى دهاقين السواد أن يثوروا ودس في كل رستاق رجلا ليثور بأهله وبعث جنداً لمصادمة المثنى وبلغ المثنى ذلك فضمّ اليه مسالحه واجتمع اليه المسلمون فسار بهم الى خفّان ونزلها حتى قدم أبو عبيد وكان أول من سار من الدهاقين جابان في فرات

---

(١) النجعة طلب الكلأ (أي المرعى) في موضعه كما في القاموس

(٢) يعني الرجل المتأني الذي يعرف ساعة العمل فيعمل وساعة الكف فيكف

بادَقْلَى فسار اليه أبو عبيد فالتقوا بالنمارق وتقاتلوا فهزم أهل فارس

﴿ موعظة ﴾

لما انهزم الفرس أُسر جابان أسره مَطَر بن فضَّة التَّيْمي فخدعه جابان بأن وعده بشيء يعطيه له فأمنه وخلَّى عنه فأخذه المسلمون فأتوا به أبا عبيد وأخبروه انه الملك وأشاروا عليه بقتله فقال : اني أخاف الله أن أقتله وقد آمنه رجل مسلم والمسلمون فى التوادّ والتناصر كالجسد مالزم بعضهم فقد لزم كلهم : فقالوا له انه الملك وانه هو الذي حاربنا : قال وان كان لا أغدر فتركه

أنظر رحمك الله الى هذا الامير العظيم النفس الصادق الايمان الذى ملك ناصية عدوّه الذي غدر بالمسلمين وأثار عليهم ثائرة البلاد وقابلهم بنكران الجميل وخرق العهد فأبى أن يقتله لعهد سبق له من فرد من أفراد المسلمين الذين بلغ بهم التناصر والتوادد يومئذ أن أميرهم يقوم بحق صغيرهم ويلتزم بما التزم به حقيرهم فأين تلك النفوس البارة والاخاء المتوثق والوجدان الحساس والتناصر النافع مما طرأ بعد ذلك على المسلمين من فساد الاخلاق وضعف اليقين وانحلال عرى الاخوّة حتى باتوا ألباً على بعضهم وحرباً على أنفسهم يتمزقهم الاعداء ويتغلب عليهم الفاتحون وأمراؤهم في تناكر وتخاذل يتربص بعضهم أذى بعض ويتمنى أحدهم زوال ملك أخيه انفراداً باسم الرياسة وطاعة لهوى النفس الشريرة وما يتمنون في الحقيقة الا زوال ملك الاسلام وما يطيعون الا شيطان الخذلان

اللهم قد انفرجت بيننا وبين السلف مسافة الخلف وصوّح نبت الاسلام وتناكرت النفوس وتقطعت أسباب الاخاء وانحطت أخلاق الامراء وتفشى الجهل في قصور العظماء وتنوسيت أصول الدين وغلبت الشهوات وتغلب علينا الأمم وحسبنا من جزائك العادل مالقيناه من جور أمرائنا وتحكم أعدائنا

فاهدنا من الحق والعلم صراطاً نخلص به الى طاعتك فيما أمرت فنوثق عرى الاخاء ونبذ من كانوا اسبب التقاطع والشحناء ونجدد عهد التآلف ونتمسك باسباب التناصر والتكاتف انك مجيب الدعاء

﴿ عود الى خبر أبي عبيد ﴾

انهزمت جنود جابان من النمارق ولحقت بكسكر حيث يخيم قائدا سمه نرسي من الأسرة الكسروية فأمر أبو عبيد بالرحيل ورحل بجنده حتى نزل بكسكر وكان أهل كسكر وما حولها من البلاد ينتظرون مجيء الجالينوس مدداً لهم من قبل رستم فعاجلهم أبو عبيد والتقوا بمكان يدعى السقاطية فاقتتلوا اقتتالاً شديداً فانهزم الفرس وهرب قائدهم نرسي وغلب على عسكره وأرضه وأقام أبو عبيد وسرح القواد لاستخضاع من حوله من أهل السواد فجاء فروخ وفرونداذ المثنى بن حارثة وطلبا منه الجزاء والذمة عن باروسما ونهر جوبر فأبلغهما أبا عبيد فصالحاه على شيء معلوم

﴿ موعظة أخرى ﴾

لما تم الصلح بين أبي عبيد وبين فروخ وفرونداذ جاءآه بآنية فيها انواع أطعمة فارس من الالوان والاخبصة وغيرها فقالوا هذه كرامة أكرمناك بها وقرى لك : قال : أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله: قالوا : لم يتيسر ونحن فاعلون : فقال أبو عبيد فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند فردوه وخرج حتى نزل باروسما فأتاه الاندرزغر بمثل ماجاء به فروخ وفرونداذ: فقال: لهم أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم : قالوا لا: فرده وقال لا حاجة لنا فيه بئس المرء ابو عبيد ان صحب قوماً من بلادهم اهراقوا دماءهم دونه أو لم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم الا مما يأكل أوساطهم

هكذا كان الامراء وقادة المسلمين يفعلون وبمثل هذه الاخلاق يمتازون وبحب المساواة مع عامة الناس في السراء والضراء يوصفون وبمثل هـذه الخصال الجميلة يسودون لا بالاستئثار بفيء المسلمين ولا بالترفع عن عامة المؤمنين ولا باستلاب مال البلاد التي أحرزها المجاهدون بسيوفهم وأسالوا على جوانبها دماءهم وهـذا المبدأ الذي تأسس عليه الاجتماع الاسلامي منذ نبت الاسلام في أرض العرب هو مبدأ الاشتراك المعقول الذي يخبط للوصول اليه زعماء هذا المذهب لهذا العهد خبط عشواء لضلالهم عن طريقه المستقيم وغلوّهم فيه غلوّ الجاهل بخوافيه اذفاتهم أن البداوة وسذاجة الفطرة أصل في قبول الخير والشر وأن الانسان اذا أفسدت الحضارة نحيزته وأخذ حب البذخ بمجامع قلبه استحال تقويم أود نفسه وإرجاعه عن غلوائه والاقلال من اثرته وكبريائه والاخذ على أيدي قادته وزعمائه مالم يكن هؤلاء هم المربون لشعوبهم القائمون على تقويم أخلاق من دونهم لهذا كان زعماء الامة وخلفاؤها في صدر الاسلام قدوتها الصالحة في تربية تلك النفوس الساذجة على مبدأ حب العدل والمساواة ومشاطرة الخير والشر والكف عن الشهوات وعن حب الاثرة بالغنى والجاه والفخفخة الباطلة كما رأيت في قصة أبي عبيد (رض) وبلغ بعمر بن الخطاب (رض) بغضه بداء حب الاثرة وكرهه لاكتناز البعض للمال دون البعض الآخر أن كان يحصي مال عماله قبل أن يسند اليهم الامارة لكي يناقشهم الحساب بعد ذلك عما يزيد عن مقتناهم من المال قبل الامارة ويصادرهم عليه ثم يرده على المسلمين وبلغ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في خلافته أن عاملا من عماله أسرف في جمع المال ومال الى النعم وحاد عن سبيل القصد فكتب اليه كتابا طويلا مما جاء فيه قوله

أيها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب كيف تسيغ شرابا وطعاما وأنت

تعلم انك تأكل وتشرب حراما وتبتاع الاماء وتنكح النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الاموال وأحرزبهم هذه البلاد . فاتق الله واردد الى هؤلاء القوم أموالهم فانك ان لم تفعل ثم امكنني الله منك لاعذرن الى الله فيك ولأضربنك بسيفي الذي ماضربت به أحداً الآدخل النار الخ

فأين هذا الخليفة فى مشربه القويم ومذهبه المستقيم فى تأديب العمال بأدب نفسه وحملهم على طريق القصد وعدم السرف فى أموال العباد ممن يربي عماله على العكس من ذلك ويطلق يدهم فى أموال الناس بل ويحكمهم فى رقاب الرعية ويدني فاجرهم منه ويقصي عفيفهم عنه وكيف يقوم للقائلين بهذا المذهب الآن قائمة بين أقوام أمات شعورهم الاستغراق بالترف وقتلهم الخنوع للشهوات: ان هذا لايتيسر الآن الااذاصبغ أديم الارض بنجيع الانسان وتبدل الاشرار بالاخيار وذلك أمر بعيد

﴿ عود الى خبر أبي عبيد ﴾

رحل أبو عبيد من السقاطية وقدم المثنى في تعبيته حتى قدم الحيرة وكان الجالينوس رجع الى رستم ومن أفلت من جنوده واستحثه على مقابلة المسلمين فوجه بهمن جاذويه ورد الجالينوس معه فاقبل بهمن جاذويه ومعه راية كسرى (درفش كابيان) وكانت من جلود النمر [1] وأقبل أبو عبيد حتى نزل بالمرحة على

لهذه الراية قصة عجيبة جاءت فى أخبار الفرس وماخصها أن أحد ملوك الفرس جار على رعيته واسترسلت حكومته فى الظلم الى حد لايطاق فقام من رعيته يوما رجل حداد خامل بين قومه عظيم في نفسه فخرج من حانوته ورفع على عصا طويلة الجلد الذى يربطه الحداد عادة في وسطه ونادى فى الناس من لايطيق الظلم فليتبعني فاتبعه عامة الناس فقتلوا ذاك الملك ورجال دولته وأسس ذلك الحداد الدولة الكسروية =

ضفة النهر المقابلة للضفة التي فيها معسكر الفرس وتسمى قس الناطف فبعث اليه بهمن جاذويه إما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر اليكم فأشار عليه الناس بعدم العبور وكان من أشدهم إلحاحاً عليه بعدم العبور سليط بن قيس فأبى قبول اشارتهم وترك الرأى وقال لا يكونوا أجرأ على الموت منا وعبر ومعه المسلمون وكان الفرس في عدة لم ير مثلها المسلمون

وهذا وان يكن اقدام من أبي عبيد رضى الله عنه وشمم وشجاعة لا يصدر ان عن غيره الا انه خطأ وقع فيه لامر يريده الله وكانت عاقبة هذا الخطأ أن قتل أبو عبيد اذ هجم على فيل من الافيال وضربه فخبطه الفيل وكانت أسرعت السيوف في أهل فارس وأشرفوا على الهزيمة فلما خبط أبو عبيد وقام عليه الفيل جال المسلمون جولة ثم انهزموا وركبهم الفرس فبادر رجل من ثقيف الى الجسر فقطعه قصد إرجاع المسلمين عن الهزيمة فانتهى الناس اليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا في الفرات ولما رأى المثنى بن حارثة ذلك البطل الجليل هذا الحال بادرهو ونفر من الشجعان فحمى الناس حتى عقدوا الجسر وعبروهم ثم عبروا في آثارهم فأقاموا بالمروحة والمثنى جريح وهرب الناس على وجوههم وقتل سليط بن قيس الذي نصح أبا عبيد على عدم العبور وبقى المثنى في جمع قليل. ولما انتهي الخبر الى عمر بن الخطاب اشتد عليه الامر وبلغه ان بعض الفارين آوى الى المدينة فخطب فقال: عباد الله اللهم ان كل مسلم فى حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز الينا ولم يستقتل لكنا له فئة:

واذ كان المسلمون يعلمون أن الفار من القتال آثم لقوله تعالى فى الكتاب

= فاتخذ ملوكها راية الحداد شعاراً لهم ثم جعلوها من جلود النمر وسموها درفش كابيان وكانوا لا يخرجونها الا حين الحاجة القصوى

الكريم (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله) الآية فقد ندم المسلمون واستحيوا من الفرار وجزع المهاجرون والانصار جزعاً شديداً ولما رأى عمر رضي الله عنه جزعهم قال : لا تجزعوا يا معشر المسلمين انا فئتكم انما انحزتم الي: وبلغ الجزع بمعاذ القارئ احد بني النجار أن كان اذا قرأ هذه الاية بكي فيقول له عمر: لا تبك يا معاذ انا فئتك وانما انحزت الي: وذلك تخفيفاً لروعه ودفعاً لجزعه فرحم الله تلك النفوس الطاهرة ما أخوفها من الله وأشدها تمسكا بالكتاب وأجزعها من الوقوع في الخطأ ورضى عن عمر بن الخطاب ما أرحم قلبه وأعظم على المسلمين حنانه

كانت جنود الفرس عقب وقعة الجسر حاولت العبور الى الضفة الثانية ومطاردة المسلمين ولكن من عناية الله بالمثنى ومن بقى معه من الجند القليل جاء الفرس ما شغلهم عن العبور اذ وصلهم الخبر أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم وانقسموا قسمين قسم معه وقسم مع الفيرزان فتمكن المثنى من جمع القبائل التى حوله وأمده عمر (رض) بجرير بن عبد الله البجلي وقد كان قومه أوزاعا متفرقين فى قبائل العرب فجمعهم له عمر وأمره عليهم وبعث عصمة بن عبد الله من بنى عبد ابن الحارث الضبي فيمن تبعه من بنى ضبة وكتب الى أهل الردة فلم يوافه منهم أحد الا رمى به المثنى وكان ممن قدم على عمر رضى الله عنه بنو كنانة وطلبوا أن يوجهوا الى الشام فقال لهم ذلك أمر قد كفيتموه عليكم بالعراق واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش لعل الله أن يورثكم بقسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس فقام غالب بن فلان الليثي وعرفجة البارقى وقال كل واحد منهما لقومه يا عشيرتاه أجيبوا أمير المؤمنين الى ما يرى وامضوا له فأجابوا الى ذلك فدعا لهم عمر بخير وامر على بنى كنانة غالب بن عبد الله وعلى الازد عرفجة بن هرثمة

وسرحهم فخرج هذا فى قومه وهذا فى قومه حتى قدما على المثنى

وقدم على عمر (رض) هلال بن علّفة التيمى فيمن اجتمع اليه من الرباب فوجهه وقدم عليه المثنى الجُشَمي جُشَم سعد فأمره على بنى سعد وسرحه وجاء اليه ربعىّ فى أناس من بنى حنظلة فأمّره عليهم وخرجوا حتى قدم بهم على المثنى بن حارثة فرأس بعده ابنه شبث بن ربعي وقدم على عمر غير هؤلاء من زعماء العرب فوجههم الى المثنى

وكان الفرس لما أحسوا باجتماع العرب وبكثرة من جاء من النجدة للمثنى ابن حارثة جمعوا كلمتهم وجاء الفيرزان ورستم الى بوران وأخبراها انهما اتفقا على أن يرسلا الى قتال المسلمين مهران بجيش كثيف واستأذناها بذلك ثم بعثا مهران بجنده حتى نزل من دون الفرات والمثنى وجنده فى محل يدعى البويب على شاطئ الفرات لاخر وكانت الجنود اليه متواصلة وجاءه أنس بن هلال النمري ممداً فى أناس من نصارى النمر وقدم عبد الله بن كليب التغلبي المعروف بمردى الفهد فى أناس من نصارى تغلب فلما رأوا نزول العرب بالعجم قالوا نقاتل مع قومنا وانضموا الى جند المسلمين ولله ما تفعل الجامعة القومية فى النفوس

لما اجتمعت جموع العرب والفرس بعث مهران الى المثنى إما أن تعبروا الينا وإما أن نعبر اليكم فقال المسلمون اعبروا الينا فعبروا اليهم وجاءوهم من قبل نهر بنى سليم فى صفوف ثلاثة ولهم ضوضاء وزجل فقال المثنى للمسلمين ان الذى تسمعون فشل فالزموا الصمت ثم تقدم اليهم المثنى وعلى مجنبتيه بشير وبُسر بن أبى رُهم وعلى مجردته المعنّى وعلى الرجل مسعود بن حارثة وعلى الطلائع النُسَيْر وعلى الردء مذعور وكان على مجنبتى مهران الآزادبه مرزبان الحيرة ومردان شاه ثم

خرج المثنى يتعهد صفوف المسلمين ويحضضهم[1] ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن مافيهم تحضيضاً لهم ولكلهم يقول انى لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم والله مايسرنى اليوم لنفسى شيء الا وهو يسرنى لعامتكم فيجيبونه بمثل ذلك وأنصفهم المثنى فى القول والفعل وخلط الناس فى المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا عملا لاسيما وانه كان على شرفه وعلو منزلته شجاعاً ميمون النقيبة فكان المسلمون يحبونه ويعجبون بقيادته كما يعجبون بقيادة خالد بن الوليد

ثم ان المثنى كبّر وكبر المسلمون وكان واعدهم بالهجوم عند رابع تكبيرة فعاجلهم الفرس من الأولى وخالطوهم والتحم القتال وجعل المثنى كلما رأى خللا فى صف من صفوفه يرسل لاهل الصف رجلا يقول ان الامير يقرأكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم فيقولون نعم ويعتدلون ولما طال القتال واشتد حمل المثنى وحمل معه أنس بن هلال ومرذى الفهر وقصد المثنى مهران فأزاله حتى دخل فى ميمنته واضطربت صفوف الاعاجم ولقى غلام نصرانى من تغلب مهران فقتله ثم استوى على فرسه وتضعضع الفرس فانهزموا وبادرهم المثنى الى الجسر فمنع مرورهم منه فهربوا مصعّدين ومصوّبين والسيوف تأخذهم من كل جانب وكان ذلك بحسن قيادة ذلك البطل الجليل المثنى بن حارثة الذي أظهر من البراعة والشجاعة فى هذه الوقعة مايخلد له طيب الذكر الا أنه أظهر يومئذ ندمه على أخذه بالجسر وقال : لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى اياهم الى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فانى غير عائد (يعنى الى مثل هذا الخطأ) فلا تعودوا ولا تقتدوا بى ايها الناس فانها كانت منى زلة لا ينبغى احراج احد الا من

(١) حضضهم كحضهم اى حثهم وأحماهم عليه كما في القاموس

لا يقوى على امتناع: هذا من حسن بصيرته وسديد رأيه وانابته للحق رضي الله عنه

ومات من أعلام المسلمين ممن كانوا اجرحوا في هذه الوقعة ناس منهم خالد ابن هلال ومسعود بن حارثة اخو المثنى فصلى عليهم المثنى وقال والله انه ليُهوّن عليّ وجدي (أي اسفه وحزنه) أنْ شهدوا البويب. اقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكاوا. وأنْ كان في الشهادة كفارة لتجوُّز الذنوب

وكان اشد الناس بلاءً في هذه الحرب من شهدوا وقعة الجسر مع ابي عبيد لاستحيائهم من الفرار في تلك الوقعة ولما انهزم الفرس في البويب انتدب المثنى جرير بن عبد الله البجلي لعبور الفرات وتتبع الفارين فانتدب معه من شهدوا وقعة الجسر وغنموا اغنائم كثيرة وعادوا

﴿ شجاعة النساء المسلمات ﴾

ذكر ابن جرير الطبري ان المثنى وعصمة وجرير أصابوا في أيام البويب غنما ودقيقاً وبقراً فبعثوا بها الى عيالات من قدم من المدينة وقد خلفوهن بالقوادس والى عيالات أهل الايام قبلهم وهم بالحيرة وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبد المسيح بن بُقَيْلة فلما رُفعوا (أي ظهروا) للنسوة فرأين الخيل تصايحن وحسبنها غارة فقمن دون الصبيان بالحجارة والعُمُد فقال عمرو ابتهاجاً بهن: هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش: وبَشَّروهن بالفتح: وكان على الخيل التي اتتهم بالنُّزُل (الضيافة) النُّسير فأقام في خيله حامية لهم

ولا جرم فلو لم يكن لجيش المسلمين ثقة بشجاعة نسائهن وامكان دفعهن العدو المفاجئ لما تركوهن في الفلاة بلا حامية وتقدموا لحرب الفرس وقد رأيت كيف كان النساء المسلمات في اليرموك يقاتلن مع الرجال وكذلك قاتلن في القادسية وكن يأخذن الجرحى من ميدان الحرب ويضمدن جراحهن ويمرضنهن

ذكر الطبريّ في معرض كلامه على فتح ميسان انّ المغيرة سار الى أهل ميسان وخلف الاثقال فلقي العدوّ دون دجلة فقالت أزدة بنت الحارث بن كَلَدة (طبيب العرب المشهور) لو لحقنا بالمسلمين فكنّا معهم (أيّ عوناً لهم) فاعتقدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خُمُرهنّ رايات وخرجن يردن المسلمين فانتهين اليهم والمشركون يقاتلونهم فلمّا رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا انّ مدداً أتى المسلمين فانهزموا واتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدة وهذا العمل من النساء المسلمات لعمري غاية في الجراءة ونهاية في الاقدام وحق لمثلهن أن يدخلن في مصاف الرجال ويأتين بأعظم الاعمال وقد أطنب أدورد جبون في تاريخ الامبراطورية الشرقية بشجاعة النساء المسلمات التي أظهرنها على حصار دمشق ومما قاله عنهن : إن هؤلاء النساء اللاتي تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي بالنبل هن اللاتي اذا وقعت احداهن في الاسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من أيّ انسان يريدهما بسوء

ولقد صدق فيما قال والا فما كان لرجالهن أن يدعوهن يخالطن الرجال في معامع الحرب والقتال ومن البديهي أن الحجاب لم يكن يمنع النساء المسلمات عن مخالطة الرجال في الحل والترحال ولكن كان لهن من الاخلاق الفطرية والعفة الاسلامية ما يغنيهن عن مثل الحجاب الثقيل الذي ابتدعه سكان المدن الاسلامية لما استغرقوا بالرفاه والترف وأفسدت أخلاقهم عوامل الحضارة فاذا كان لنسائنا الآن من العفة وسلامة الاخلاق وطهارة النفس وحسن التربية ما كان لتلك النساء في صدر الاسلام ساغ للقائلين بتخفيف الحجاب في هذا العصر أن يطلبوا إبراز المرأة من وراء الجدر بحلى العفة والكمال ويعطونها حقوق الرجال والا فالكلام عبث لا يجدى والموقف حرج ينبغي للخروج منه اناة

وبصيرة والله أعلم بمصير الامور

﴿ عود الى خبر المثنى ﴾

لما فرغ المثنى من أمر البويب وتشتت جنود الفرس وعاد جرير بن عبد الله البجلى من غزاته فرق المثنى جنوده فى السواد وأخذ يستخضع البلاد التى عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة مع العرب ظفر بها المسلمون بما شاؤا من متاع ومال وبلغت غاراتهم شرقا الى قرب مدائن فارس وشمالاً الى الجزيرة فأوقعوا الرعب فى قلوب الاعداء فقام الفرس لذلك وقعدوا

﴿ كلمة على دولة الفرس قبيل الفتح ﴾

ليس أضر على الامم وأشد خطراً على استقلال الممالك من تنازع السلطة وتهافت الناس على حب الرياسة وميل الزعماء الى الاستئثار بمصالح الملك اذا ضعف جانب المالك وتشعث بناء الدولة وقل ما انتهت الدول فى أواخر عهدها الى هذا الحال من تفرق الرأي وتغلب حب الذات والاستئثار بمصالح الملك ووضع رغبات الجمهور دون رغبات الافراد الا انتهى ذلك بزوال ملكها وتقلص ظل سلطانها وقد كانت دولة الفرس أصيبت فى أواخر عهدها بهذا الداء العضال والمرض القتال ولعله بدأ بها على عهد كسرى ابرويز فى أواسط الجيل السادس بعد المسيح فقد ذكر المؤرخون ان كسرى هذا عسف الناس وشره الى أموال الرعية واستعمل رجلا على استخلاص بواقى الخراج فعسف الرعية وظلمهم فنفرت قلوبهم منه وتحولت انظارهم عنه وكان قد بلغ به الامر ان أقصى أولاده الى بابل ومنعهم من التصرف فاغتنم عظماء المملكة ضعف سطوة كسرى وتفرق قلوب الرعية عنه فأحضروا من بابل ولده شيرويه وأرغموا والده على التنازل اليه عن الملك ثم أرغموا ابنه على قتله فقتله ولما صفا له الملك وشعر بتفرق أهواء زعماء

سلطنته وأحس بضعف نفسه أصابه وسواس أفضى الى ان أمر بقتل اخوته وكانوا سبعة عشر أخاً ذوي مشورة وعلم وأدب وأنبه أختاه بوران وازرميدخت على فعلته فندم وأصابه حزن وغم فمات دون السنة من ملكه فملك الفرس عليهم ابنه ازدشير وكان صغير السن فتكفل به أحد المتطلعين الى الرياسة من أرباب الدولة واسمه بهادرجسنس فحسده قائد جنود الثغور وامتعض من عدم استشارته في تولية ازدشير فاتخذ ذلك ذريعة الى التعنت وبسط يد القوة وطمع في الملك فأقبل بجنده نحو المدائن عاصمة الاكاسرة فدخلها وقتل جماعة من الرؤساء وقتل ازدشير فتولى الملك بعده شهريراز وهو من غير بيت الملك ولم يمكث في الملك الا أربعين يوما وقتله أشياع ازدشير فملكت بعده بوران ثم ملك بعدها رجل اسمه خشنشبنده فانكر الجند سيرته فقتلوه ثم ملكت ازرميدخت وخطبها والي خراسان فاحتالت عليه حتى قتلته فانتصر له ابنه رستم وجاء بجنده الى المدائن فتمكن من ازرميدخت وسمل عينيها ثم قتلها وأقام مقامها بوران فوقع الخلف بينه وبين الفيرزان أحد عظماء الدولة وتنازعا السلطة وتفشت الفوضى في الملك وظهر الخلل والضعف على الدولة ولما انتزع المسلمون منها العراق ودحر المثنى جيوش الفرس وتحفز جند الاسلام للوثوب على عرش الاكاسرة دب في عامة الشعب الفارسي دبيب الشعور بحرج الموقف الذي وقفت فيه دولتهم وأحسوا بالخطر الذي جره عليهم أمراؤهم وقادتهم فهبوا من سباتهم العميق فأقبل رجالهم وذوو الرأي منهم الى الفيرزان ورستم وقالوا لهما: لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وانه لم يبلغ من خطركما ان يقركما فارس على هذا الرأي وان تعرضاها للهلكة ما بعد بغداذ وساباط وتكريت الا المدائن (يعنون البلاد التي احتلها المسلمون) والله لتجتمعان أو

لنبدأنّ بكما قبل أن يشمت بنا شامت ووالله ما جرّ علينا هذا الوهن غيركم يا معاشر الرؤساء لقد فرّقتم بين أهل فارس وثبّطتموهم عن عدوّهم ولولا أنّ في قتلكم هلاكنا لعجّلنا لكم القتل الساعة ولئن لم تنتهوا لنهلكنّكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم لما سمع رستم والفيرزان ما سمعا من القوم تنبها من غفلتهما وخشيا هلاكهما فبحثا مع القوم عن رجل من آل كسرى يولونه الملك ويجمعون عليه كلمة الناس فوجدوا يزدجرد بن شهريار في اصطخر وقد كانت أمه غيّبته هناك وهو طفل اشفاقاً عليه من القتل فجاؤا به وملكوه وهو ابن احدى وعشرين سنة الاّ أنه كان ضعيف الرأي والقلب ومع هذا فقد أطاعه الناس ونبذ الرؤساء شهواتهم الخبيثة تفادياً من الخطر المحيق بالدولة فالتفوا حوله وأطاعوه وتباروا في معونته فرتبوا المسالح والجنود وشحنوا الثغور بالمقاتلة وأعدوا العدة والعديد لقتال المسلمين

﴿ استمداد مثنى ﴾
(ومسير سعد بن أبي وقاص الى العراق)

لمّا بلغ المثنى بن حارثة اجتماع الفرس على يزدجرد وتجهزهم لحرب المسلمين كتب الى عمر (رض) وبيناهو بانتظار الجواب كفر أهل السواد بالعهد ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين بدسائس الفرس فخرج المثنى على حامية حتى نزل بذى قار حتى جاء المسلمين كتاب عمر وفيه . (أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الاعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الاعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ولا تدعوا في ربيعة أحداً ولا مضر ولا حلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً الا أجلبتموه فان جاء طائعاً والا حشرتموه . احملوا العرب على الجدّ اذا جدّ العجم فلتلقوا جدّهم بجدّكم)

فلما وصل الكتاب اهتم المثنى بأمر عمر وأحسن الرأي الحربي والتدبير فنزل بذي قار وفرق الجند على خط واحد من الجل وشراف الى غضي(١) حيال البصرى فكانوا فى أمواه العراق من أولها الى آخرها مسالح(٢) بعضهم ينظر الى بعض ويغيث بعضهم بعضاً أي جعلهم أشبه بحصن واحد ممتد من حيال البصرة الى شراف والجل أى من أول العراق الى آخره وهو ترتيب بلغ الغاية من بعد النظر فى فنون الحرب ونظام الجيوش وتنظيم خطوط الدفاع وأعاد الفرس كذلك مسالحهم وشحنوا بالجنود ثغورهم وباتوا خائفين هائبين والمسلمون متحمسون وهم كالاسد ينازع فريسته

وأما عمر بن الخطاب فانه كتب الى عماله على العرب والكور يستحثهم على استنفار العرب وكل من له نجدة وبأس فمضت الرسل بالكتب ووافاه القبائل الى المدينة ممن كان طريقهم عليها ومن كان طريقهم على العراق انضموا الى المثنى وخرج عمر فى أول المحرم سنة (١٤) فعسكر على ماء قرب المدينة يدعى صرارا والناس لا يعلمون بشئ مما يريد وكانوا اذا أرادوا أن يسئلوه شيئاً رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف فاذا لم يقدر هذان على علم شئ مما يريدون ثلثوا بالعباس فسأله عثمان عما يريد وعن عزمه فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس اليه فأخبرهم الخبر ثم نظر ما يقول الناس فقال العامة سر وسر بنا معك فقال استعدوا وأعدوا فانى سائر الا أن يجئ رأي هو أمثل من ذلك ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليه

(١) فى معجم البلدان جلّ موضع بالبادية على اجادة طريق القادسية الى زُبالة بينه وبين القرعاء ستة عشر ميلا وهو بينها وبين الرمانتين وشراف بين واقصة وقرعاء على ثمانية أميال من الاحساء وغضيّ تصغير الفضاماء لعامر بن ربيعة وقيل حيال البصرة (٢) جماعة المسلحين وفي اصطلاح الحرب الآن النقط العسكرية أو خطوط الدفاع

وجوه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب فقال احضروني الرأي فاني سائر فاجتمعوا جميعاً وأجمع ماؤهم على أن يبعث رجلا من الصحابة ويقيم ويمده بالجنود فان كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون والا أعاد رجلاً آخر وندب جنداً آخر حتى يجيء نصر الله

﴿ الحكم النيابيّ في الاسلام ﴾

علم عمر (رض) ان مكافحة الفرس بات أمراً حتمياً لا بد عنه وان القوة والرأي مناط الظفر بدولة هي أعظم دول الارض رهبةً لذلك العهد فاذا تيسر هدم بنيانها ونزع سلطانها تمهد للمسلمين سبيل السيادة على الأمم ورفعت أعلام الاسلام على صروح الممالك والا كان الخطر على المسلمين عظيماً والامر جللا لا بعد اذ هيجوا أمر فارس والروم واحفظوا الدولتين القيصرية والكسروية لهذا رأى من السداد أن لا يفوته رأي عامة المسلمين وخاصتهم فيمن يوليه أمر هذه الحرب فاستشار العامة فأشاروا عليه بالمسير بنفسه لانهم بأميرهم أرغب ولخليفتهم أطوع واستشار الخاصة فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره وبقائه في المدينة لانهم بقيمة حياته أعرف وعلى وجوده بعيداً عن ساحات القتال أحرص : وكان تخلف عن الجمع عليّ وطلحة رضي الله عنهما الا ان الأول استخلفه عمر على المدينة والثاني كان على مقدمة الجيش فرأى أن لا تفوتهما الشورى فاستدعاهما وجمع الناس جميعاً وقام فيهم خطيباً ولهم مستشيراً فقال

أما بعد ان الله عزّ وجلّ قد جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخواناً والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين ان يكونوا وأمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم . فالناس تبع لمن قام بهذا الامر . ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم

الناس وكانوا فيه تبعاً لهم . ومن قام بهذا الامر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم . يا أيها الناس اني انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلاً وقد أحضرت هذا الامر من قدّمت ومن خلّفت) ويعني بمن خلف علياً وطلحة لانهما لم يحضرا الرأي الأول كما ذكرنا

لعمرك أيّ ملك في العالم يبعثه الوجدان الطاهر أن يضع نفسه عن رضى واختيار في موضع فرد من عامة رعيته ويقول كما قال عمر للمسلمين (من قام بهذا الامر فانه تبع لذوي الرأي منهم « فجعل نفسه تبعاً لذوي الرأي وجعل المسلمين تبعاً لهم فيما يرتأون تمحيصاً للحق والرأي وهذا هو الحكم النيابيّ الذي تقوم به سعادة الأمم ويرتفع شأن الدول ولم يتوصل اليه قوم الاّ بعد جهد وجهاد مع قادتهم المستبدين وأمرائهم القاهرين وقد وضع أساسه الاسلام وبدأ به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما به واخلاصاً لله وارشاداً للمسلمين لما ينفعهم في أمر دنياهم الاّ ان هذا الحكم لم يدم لان العبرة باستمرار العمل والعمل لم يستمر لارتباطه بوجدان الخلفاء وإخلاصهم وعدم ارتباطه بالروابط القانونية والقيود المعروفة وتركه يترقى بطبعه بترقي الأمة وعلى مقتضى حاجة الزمان لهذا لم يستمر الاّ باستمرار دولة الخلفاء الراشدين مع ان حالة القوم البدوية وميلهم الفطريّ للحرية يقتضيان استمرار الحكم النيابيّ في الدول العربية وانما أُرغم القوم على مخالفة الفطرة البدوية مذ قامت دولة بني مروان في وسط الممالك الاعجمية وخالط خلفاؤها الاعاجم من الفرس والروم ورأوا مبلغ تبسط يد الحكومة السالفة في الرعية وسلطانها القاهر الذي هو فوق سلطان الوجدان والحاكم على الحرية والعدل لا المحكوم منهما والنفس تتلوّن أحياناً بألوان البيئة وتتبدّل أخلاقها بتبدّل المنشأ

والمكان فراق أولئك الخلفاء سلطان الحكم المطلق وغُلبوا على أمرهم بحكم لوسط
فتغلبوا على حكم الفطرة وانقادوا لميل النفوس الى التبسط في السيادة حتى بلغ
بعبد الملك بن مروان أن خطب يوما خطبة أشار فيها الى أن من راجعه في أمره
فقد تعرض للقتل مع أن عصر بني مروان هو العصر الذي كان يرجى به استثمار
البذور الديموقراطية التي بذرها الخلفاء الراشدون لاستفلاظ شأن الاسلام
يومئذ وتفرغ الناس الى النظر في الشؤون الادارية بعد انهماكهم في الشؤون
الحربية واشتغالهم بالفتح وما نخال الباعث للأمة العربية على الانقلاب اشهوات
الملوك من بني مروان الا ذلك المزيج الذي تألف منه جسم المجتمع الاسلامي
يومئذ وأخصهم الموالي من النبط والفرس والروم الذين كان يسميهم معاوية بن
أبي سفيان رضي الله عنه (الحمراء) ويتوقع منهم كثيراً من الشر وفي الحقيقة فقد
غُلبت يومئذ الأمة العربية على أمرها بتفرق عصبيتها وتشتت قبائلها في فارس
والروم والشام ومصر وافريقيا والاندلس فلم يغنهم ذلك الفتح عن استبداد
خلفائهم الذين خلا لهم الجو وتفرق عنهم أنصار الحرية الذين كان يؤمل أن
يتعاهدوا ذلك النبات الطيب لانمائه في عصر الحضارة الاسلامية واجتناء ثمراته
الشهية فبسطوا ايد القوة وتبسطوا في الاستبداد ولو علموا أن الحكومة النيابية
شرط في بقاء الدول وسياج للملك يقيه وثبات الدول الناشئة لما نزعوا منازع
الجبروت وهدموا ركن الشورى اذ مطمح نظر الشعوب ومناط سعادة الناس
الحرية والعدل ومتى كان هذان أساس الحكم في دولة من الدول فقد تحصل الناس
على منتهى ما يرجون من بقاء هذه الدولة سائدة عليهم حاكمة فيهم وليس لهم من
وراء ذلك غرض الا الذود عنها والذب عن حوزتها ذوداً عن حوضهم وذباً عن
راحة مجتمعهم

لو استمر بنو مروان سائرين على نهج الخلفاء الراشدين الواضح فى حكم الناس على أصول الشورى وعدم التسلط على حرية الضمائر والافكار إذن والله لما وجد بنو العباس نصيراً لدعوتهم ولا راغباً فى دولتهم وهل يلجئ الناس الى التوثب على الملوك والخروج على الدول والرغبة عنها الى غيرها الا فساد الحكم وإفساد قلوب الرعية بالتسلط الجائر والاستبداد القاهر

لعمرك لو أحسن بنو مروان السياسة والتمسوا وسائل سلامة الدولة لجعلوا لأخلافهم تلك الحكومة الديموقراطية الساذجة التى وضعها لهم الخلفاء الراشدون حكومة ثابتة الدعائم منتظمة الشؤون آخذة بأطراف الحاجة بربطها بقوانين خاصة ترسخ عليها دعامتها وتقوم بها أصولها والطريق الى هذا كان سهلا عليهم لو التمسوا اليه الحيلة باستقصاء أخبار مجاوريهم من الروم الذين قامت لاسلافهم الرومان كثير من الحكومات النيابية كانت آثارها وأخبارها معروفة لذلك الجيل من الروم محفوظة فى مؤلفات القوم والذى أتاح لهم وللخلفاء الراشدين قبلهم أخذ اللازم لقيام الدول من الأصول الادارية وغيرها عن الروم والفرس (كوضع عمر (رض) للتاريخ ووضعه للدواوين على أصول الفرس والروم واتخاذ معاوية الحجاب وضرب عبد الملك للنقود وغير ذلك من الامور التى لم يكن لها أثر عند العرب) كان يتيح لهم ترتيب حكومة ثابتة على أصول التجارب التى عاناها غيرهم من الأمم التى سبقتهم فى الحضارة لو أخلصوا النية ونظروا الى المستقبل بنظر الحكمة والروية ولو فعلوا لوضعوا لدول الاسلام أساساً ثابتاً فى نوع الحكم لا يتأتى لاية دولة اسلامية بعد جيلهم ذلك أن تضع مثله البتة لاسباب عديدة أهمها إلصاق الفقهاء بعبد كل شئ بالدين وحظرهم على الأمة العمل بأى أمر نافع الا ما سبق للصحابة والتابعين وكان عندهم كالتنزيل لا يحيد

عنه أحد من المسلمين ولو نخر عظامهم فساد الحكم المطلق وأكل لحمهم الظلم وذهب بسلطانهم التباعد عن الانتفاع بأصول الترقي عند الأمم الأخرى كما انتفع الاوربيون من المسلمين فى كثير من أصول مدنيتهم السالفة أيام الحروب الصليبية وقبلها وهذا البحث طويل نمسك عنه الآن على وعد العود اليه فى محل آخر ان شاء الله

﴿ عود الى خبر الشورى ﴾

لما انتهى عمر من خطبته أشار عليه طلحة وعلي بما أشار عامة الناس ونهاه العباس وعبد الرحمن بن عوف عن هذا الرأي وقال له الثاني : أقم وابعث جنداً فقد رأيتَ قضاء الله لك فى جنودك قبلُ وبعدُ فانه ان يُهزم جيشك ليس كهزيمتك وانك ان تقتل أو تُهزم فى أنف الأمر خشيتُ أن لا يكبّر المسلمون وأن لا يشهدوا أن لا إله الا الله أبداً :

ونعم هذا الرأي والاخلاص من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اذ أن المسلمين يومئذ كانوا أحوج الى حياة عمر والاسلام لم يمتد ويتأصل فى الجزيرة والفتنة لم تركد فلو أصيب عمر بشيء لصدق ما قاله عبد الرحمن بن عوف لان هيبة عمر وعزيمته واناة أبي بكر قبله وروّيته مهدت لمن جاء بعدهما السبيل ومكنت للاسلام والمسلمين السلطان فى الارض

بينا المسلمون فى المشورة وافى عمر كتاب سعد بن أبي وقاص وكان عامله على صدقات هوازن بمن انتخبه له من أهل النجدة لحرب الفرس وهم الف فارس فقال بعض المسلمين لعمر (رض) قد وجدته : قال فمن : الاسد عادياً : قال مَن هو : قالوا سعد : فانتهى الى قولهم فأرسل اليه فقدم عليه فأمّره على حرب العراق وانتدب معه الناس فكان أهل اليمن ينزعون الى الشام وكانت مضر تنزع الى

العراق فقال عمر (أي لأهل اليمن) أرحامكم أرسخ من أرحامنا ما بال مُضَر لا تذكر أسلافها من أهل الشام

﴿ وصية عمر لسعد ﴾

لما أمّر عمر سعداً رضي الله عنهما أوصاه فقال

يا سعدُ سعدُ بني وهيب لا يغرّنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله عزّ وجلّ لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الاّ طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الامر الذى رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعث الى أن فارقنا فالزمه فانه الامر . هذه عظتي إيّاك إن تركتها ورغبتَ عنها حبِط عملك وكنت من الخاسرين

ثم لمّا أراد أن يسرّحه دعاه فقال

اني قد ولّيتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فانك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه الاّ الحق . فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم انّ لكل عادة عتاداً فعتاد الخير الصبر . فالصبرَ الصبرَ على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله . واعلم أنّ خشية الله تجتمع في أمرين في طاعته واجتناب معصيته وانما أطاعه مَن أطاعه ببغض الدنيا وحبّ الآخرة وعصاه من عصاه بحبّ الدنيا وبغض الآخرة . وللقلوب حقائق ينشئها الله إنشاءً . منها السر ومنها العلانية . فأمّا العلانية فان يكون حامده وذامّه في الحق سواءً . وأمّا السرّ فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس فلا تزهد في التحبّب فانّ النبيين قد سألوا محبّتهم وإنّ الله اذا أحبّ عبداً حبّبه واذا أبغض عبداً بغّضه .

فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك فى أمرك

﴿ مسير سعد ﴾

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من اليمن وألف من غيرهم وكان فيهم من السَّراة وزعماء العرب عدد وافر منهم حُمَيْضَةُ بن النعمان البارقى وشداد بن ضَمْعَج الحضرمي وعمرو بن معدى كرِب على مَذْحج ويزيد ابن الحارث الصُّدائى وبشر بن عبد الله الهلالي وشُرَحبيل بن السمط الكندي واضرابهم من صناديد العرب وقادتها

وشيعهم عمر رضى الله عنه الى الاعوَص وهنالك خطب فيهم خطبة أمرهم فيها بالعدل والرحمة واللين وان ينهوا اشؤونهم اليه ولا يؤخروا شيئاً من الشكوى عنه وستأتى الخطبة فى باب خطبه ان شاء الله

سار سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه بمن اجتمع لديه من الجنود حتى نزل زَرُود من أرض العرب مما يلى العراق وأمده عمر بأربعة آلاف مقاتل ووافاه الأشعث بن قيس فى ألف وسبعمائة فكان عدد جيشه الذى شهد القادسية نحو ثلاثين ألفاً بمن انضم اليه من جند العراق الذين كانوا مع المثنى ولما رحل سعد عن زورد كتب اليه عمر (رض) : أن ابعث الى فَرْج[1] الهند رجلا ترضاه يكون بحياله ويكون ردءاً لك من شيء أتاك من تلك التخوم : فبعث المغيرة بن شُعْبة فى خمسمائة فكان بحيال الأُبلة من أرض العرب ونزل على جرير وهو مرابط هنالك يومئذ، ولما بلغ سعد شَرَاف نزل وكتب بمنزله الى عمر بن الخطاب (رض)

(١) هو الثغر وموضع المخافة والأبلة هى التى كانت ثغر العراق يومئذ لقربها من مصب الفرات فى خليج فارس

فكتب اليه عمر: اذا جاءك كتابي هذا فمشّر الناس وعرّف عليهم[1] وأمّر على أجنادهم وعبّهم ومُر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدّرهم وهم شهود ثم وجّهم الى أصحابهم وواعدهم القادسية واضمم اليك المغيرة بن شعبة في خيله واكتب اليّ بالذي يستقر عليه أمرهم

فبعث سعد الى رؤساء القبائل فأتوه فقدّر الناس وعبأهم تعبية تشبه بسائر ترتيبها تعبية الجيوش في هذا العصر وسنأتي على تفصيل الخبر عن هذا في غير هذا المحل ان شاء الله ورضي الله عن عمر بن الخطاب ما كان أعلمه بفنون الحرب وأشدّه احتياطاً على المسلمين وأبعده نظراً في أمور الفتح فانه ما كان يأمر أميراً بحركة مالم يأخذ لها العدة ويسد الفروج ويستوثق من معرفة أحوال البلاد وقوة العدوّ ومبلغ كفاءة القواد والجنود

لما أعدّ سعد لكل شيء عدته وفرغ من تعبية جيشه كتب بذلك الى عمر وجاءه في غضون ذلك المعنّى بن حارثة أخو المثنى وزوجته خصفه التيمية بوفاة المثنى ووصيته لسعد ومؤداها أن لا يقاتل سعد عدوّه من أهل فارس اذا اجتمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم وان يقاتلهم على حدود أرضهم مما يلي أرض العرب ولما انتهى الى سعد رأى المثنى ووصيته ترحّم عليه وأمّر أخاه المعنّى على عمله وأوصى بأهل بيته وخطب امرأته وتزوجها

وكانت وفاة المثنى على أثر انتقاض جراحة كانت أصابته في وقعة الجسر الماضية واستخلف على جيشه بشير بن الخصاصية وقد كان رضي الله عنه على جانب من الشجاعة والاقدام والنظر البعيد في شؤون الحرب لا يدانيه فيه الا خالد بن الوليد وكان منذ وفوده على أبي بكر في أول خلافته يهوّن عليه أمر الفرس حتى

---

(١) قال في القاموس العريف رئيس القوم أو النقيب وهو دون الرئيس

ولاّه قتالهم ثم ولّى خالداً فقاتل تحت رايته ثم لما سافر خالد الى الشام وبقي المثنى أميراً على مافتحه وخالد من أرض العراق دفعه الاقدام على أن يتوسع في الفتح ويرمي بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويدوّخ ذلك الملك العريض فوفد على أبي بكر في حال مرضه فلم يسعه اجابة سؤله وأوصى به عمر وأشار عليه بأن يرسل معه الجنود الى فتح بلاد فارس فبعث معه أباعبيد فكان منه ما كان من الانفراد بالرأي والوقوع في التهلكة ومازال المثنى بعده يقاتل الفرس ويستخضع الخارجين من أهل العراق ويسعى بتثبيت دعائم الاسلام ثمة حتى وافاه سعد فوافته منيته قبل أن يراه ويحقق أمله في تدويخ بلاد الفرس فخسر المسلمون بوفاته شهماً مقداماً وقائداً عظيماً بلغ من إخلاصه ونصيحته وعلمه بفنون الحرب أن أوصى سعداً قبل وفاته بوصية وافقت رأي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء كتابه الى سعد يوصيه به بمثل وصية المثنى

وأما نسبه فهو المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل ابن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الربعي الشيباني وكانت منازل قومه في العراق ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع مع وفد قومه فرضي الله عنه وأرضاه

انتظر سعد جواب كتابه الذي بعث به الى عمر فجاءه الجواب يوصيه فيه بأن لايقاتل الفرس الاّ في أطراف بلاد العراق ممايلي البادية وأن يلاقيهم في القادسية ويوصي جمعه بالامانة والصبر والثبات وان يتيقظ لخديعة الفرس ومكرهم وستأتي صورة الكتاب في كتبه ان شاء الله

فارتحل سعد بالناس حتى نزل بعُذَيب الهجانات فوافاه كتاب عمر رضي الله عنه يوصيه به ويسأله عن جغرافية البلاد وعمن يلي أمر الفرس في ميادين

القتال وعن مبلغ قوّة العدوّ وعن منازل المسلمين ومعسكراتهم ذلك لكي يكون على بصيرة فيما يأمره به من الشؤون الحربية في تلك الأصقاع النائية عنه ثم جاءه منه كتاب ثالث يأمره فيه بالتوقف ثم كتاب رابع يوصيه فيه بالوفاء بالعهد والذمة وبأن يفي بأمان من يؤمَّن من الاعاجم ولو بالاشارة اذا لم يفهمها وظنها أماناً وستأتي هذه الكتب في بابها الا هذا الكتاب فانّا رأينا أن نأتي به هنا لضرورة إيراده وهو بنصه (عن تاريخ الطبري)

إني قد ألقي في رَوْعِي انكم اذا لقيتم العدوّ هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقيّة عليه فان لاعب أحد منكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه (١) باشارة أو بلسان كان لا يدري الاعجمى ما كلّمه به وكان عندهم أماناً فاجروا ذلك له مجرى الامان واياكم والضَّحِك. والوفاءَ الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وانّ الخطأ بالغدر هلكة وفيها وَهْنُكم وقوة عدوّكم وذهاب ريحكم واقبال ريحهم واعلموا اني أحذركم أن تكونوا (أي بعدم الوفاء) شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم اهـ

﴿ كلمة فى التاريخ الاسلامى ورأفة عمر بالمحاربين ﴾

هذا الكتاب يدلنا على أمرين الامر الاول أن الرأفة فى الحروب ورفع السيف عن المغلوب ليست من خصائص المدنية الجديدة في هذا العصر وحدها بل هي من خصائص الدين الاسلامي أيضاً وقد سبق بها العرب على بداوتهم سبقاً بعيداً لا يشق غبارهم فيه بقية الامم وحسبك من ذلك أن من شرط الأستئمان في الحروب القانونية عند الامم المتمدنة لهذا العهد إلقاء السلاح ورفع الراية البيضاء وكان شرطه عند المسلمين أهون من ذلك وهو انّ مجرد الاشارة ولو

(١) قال فى القاموس لاعبه أى لعب معه والقرف بالتحريك من المقارفة والقراف للمخالطة

نشأت عن هزل أو سوء تفاهم كانت تحتم على المسلم اجراءها مجرى الامان

والامر الثاني ان ما يتخرص به بعض المؤرخين من الغربيين ومايذكرونه من المثالب الشائنة عن الفتح الاسلامى منشؤه اما الغيظ والضغينة واما سوء الفهم المتأتي عن تشويش التاريخ الاسلامى وإلقاء المؤرخين من المسلمين الكلام على عواهنه وخلطهم غثه بسمينه بحيث يصعب الوقوف على مجرى الشؤون الحربية والسياسية يومئذ وتفريق الحق من الباطل ومعرفة النافع من الضار إلا لمن يدقق النظر ويستقصي حوادث التاريخ استقصاء الناقد البصير وماذلك الا لتجنب مؤرخي الاسلام لفلسفة التاريخ واكتفاء أكثرهم بالتافه من الحوادث وتوسعهم فى أخبار الحروب الاسلامية دون الذرائع العلمية التى ترقت بها الامة فى الشؤون الاجتماعية والعمرانية والسياسية حتى أن المدنية الاسلامية التى طبقت شهرتها الافاق كادت تكون مع قرب عهدها وبقاء آثارها وآثار أهلها الى الان أشبه فى الغموض بمدنية الامم البائدة التي ينقب الباحثون فى تاريخها عن دفائنها الارضية وآثارها العافية ليقفوا على تاريخها الغابر بل بلغ بغموض تاريخنا وإغماض طرف مؤرخينا عن حاجات التاريخ ان أحدنا لو أراد أن يعلم كيف كانت حالة قومه الاجتماعية منذ قرن مضى لا يجد الى ذلك سبيلا هذا فيما قرب عهده من العصور فما بالك بالقديم والا فأين هو لعمر أبيك التاريخ الذي يفصل لنا أخبار السلف التى تتعلق بمدنيتهم الغابرة وأصول معيشتهم وصنائعهم وعوائدهم وأزيائهم وأصول حكومتهم المتعلقة بالادارة والقضاء والسياسة والجندية وأصول التعليم والمدارس والمصانع وغير ذلك مما يتعلق بترقي هذه الامة وحالتها الاجتماعية التى أدهشت أهل المغرب أيام الحروب الصليبية فرأوا عندها من النظام السائد والتبسط فى العمران والقيام على شؤون

الادارة والحرب مالم يخطر لهم فى بال

اللهم انا لا نرى في التواريخ الاسلامية خبراً من هذا القبيل الا بطريق العرض مستوراً فى ثنايا الاخبار وربما ألم بعض المؤرخين بشئ من ذلك كالخطيب فى تاريخ بغداد والمسعودي فى تاريخه الكبير الا أننا لسوء الحظ لم نر من هذه التواريخ الا شذرات منقولة فى تضاعيف الكتب والاصل مفقود العين الا أجزاء من تاريخ الخطيب متفرقة في بعض المكاتب لا تشفى الغليل .

فاذا كان هذا شأن التاريخ الاسلامى في عصور الترقي والحضارة وذلك شأن المؤرخين في اغفال تدوين المهم من أخبار التاريخ وتبسطهم في سرد أخبار الحروب فلا جرم ان يظن الجاهل والعدو أن الامة الاسلامية انما وجدت لازعاج العالم بالحرب والقتال وان تتشوش الحقائق المندمجة فى أخبار الفتح فيصعب وقوف الناس على مجرى السياسة والحرب يومئذ ومبلغ نظامهما فى عصر الخلفاء الراشدين وأخصهم عمر بن الخطاب (رض) الذي يشهد ذلك القليل الذي وصلنا من اخبار سياسته انه وضع للحرب والسياسة أصولا بلغت الغاية من الرأفة والعدل لو استقصيت ودونت في كتاب على حدة وعمل بها الخلفاء والسلاطين في كل عصر وأضافوا اليها ماتمس اليه الحاجة التابعة لترقى الدول والزمان لما وجد الاعداء سبيلا للقدح فى الفتح الاسلامى وكذلك لو عني المؤرخون أيضاً بذكر وتدوين الوسائط المدنية فى عصور الترقي الاسلامية لكانت لهذا العهد منوالا تنسج عليه الامة اومنبهاً يحرك فيها باعث الجد لاسترجاع مافات والتوثق من حفظ استقلالها وصون حياتها مما هو آت

﴿ خبر القادسية وغيرها ﴾

لما انتهى سعد الى عذيب الهجانات قدم أمامه زُهرة بن الحويّة الى

القادسية[1] وجاء على أثره بعد أن ترك خيلا وجنداً تحوط الحريم فلم يجد في القادسية جنداً من الفرس فأخذ يبث السرايا للغارة والارهاب ووقف مكانه موقف المدافع تبعاً لاشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) وبعث عيونه الى الحيرة وغيرها ليأتوا له بالخبر فعادوا فأخبروه أن كسرى قد ولّى رُستَم بن الفرخزاد الارمني حربه وأمره بالعسكرة فكتب بذلك الى عمر (رض) فكتب اليه عمر

أما بعد لا يُكربنّك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه وابعث اليه رجالا من أهل النظر والرأي والجلد يدعونه فان الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفَلَجاً[2] عليهم واكتب اليّ في كل يوم

وأما رستم فانه جاء حتى عسكر بساباط بين المدائن والقادسية بمائة الف مقاتل أو يزيدون كما في رواية البعض وتقدم سعد الى نفر من قادة المسلمين ذوي منظر وآراء وعليهم مهابة فبعثهم الى يزدجرد يدعونه الى الاسلام أو الجزية وهم النعمان ابن مقرّن وبُسْر بن أبي رهم وحَمَلَة بن جُوَيّة الكناني وحَنظلة بن الربيع التميمي وفرات بن حيّان العجليّ وعديّ بن سهيل والمُغِيرة بن زُرارة بن النبّاش وعطارد ابن حاجب والاشعث بن قيس والحارث بن حسّان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معدي كرب والمُغيرة بن شُعبة والمثنّى بن حارثة فخرجوا من العسكر حتى قدموا المدائن دعاةً ليزدجرد فطوَوا رستم حتى انتهوا الى باب يزدجرد فحبسوا ارثما جمع

---

(١) القادسية على حافة البادية وحافة سواد العراق لهذا اختارها الخليفة عمر لمقام جيش سعد لقربها من البادية وعدم اقدام الفرس على التوغل فيها فيما لو تقهقر أمامهم جيش المسلمين

(٢) قال في القاموس الفلج الظفر والنصر

يزدجرد وجوه دولتـه واستشارهم فيما يجيبهم به فلما اجتمع رأيهم أذن لهم فادخلوا عليه وجرى بينه وبينهم كلام طويل سيرد معنا فى سيرة سـعد بن وقاص (رض) ولما لم يجب يزدجرد طلب المسلمين أرسل سـعد المغيرة بن شعبة الى رستم وكان رجلا داهية ذا بصيرة ورأي الا أنه أبى أن يجيب الى الاسلام أو الجزية تبعاً لرأي قومه ومشورتهم فأعلن الحرب على المسلمين وكانت بينـه وبين المسلمين الى أن قُتل حروب شديدة انتهت بفلّ جموع الفرس فى القادسية وتقدم جيش المسلمين الى عاصمة الاكاسرة كما سترى تفصيل الخبر فى سيرة سعد بن وقاص ان شاء الله وكان مقام المسلمين فى القادسية منذ وصلوا الى ان ظفروا اشهرين

لما فرغ سعد من حرب القادسية أقام فيها بعد الفتح شهرين وكتب الى عمر فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن فسار الى المدائن لأيام بقين من شوال سنة (١٥) وقيـل (١٦) والتقى بجيش للفرس في مكان يدعى برس فهزمه فانضم الى فالّة القادسـية فى بابل فأرسل اليهم زُهرة بن الحوية فقاتلهم وهزمهم ثم سار سـعد الى المدائن وهى بهُرَسير[1] ودخلها بعد حصار شهرين وهرب منها كسرى الى حلوان فغنم المسلمون من ذخائر كسرى وأموال الفرس فى المدائن مالا يعد ثم دعا سعد الدهاقين الى الاسلام أو الجزية ولهم الذمة فلم يبق غربي دجلة الى أرض العرب سواديّ الا آمن واغتبط بملك الاسلام ثم بعد ان ملك المسلمون ايوان كسرى جعلوه مسجداً وان سعداً ليصلي فيه بالناس والتماثيل من الجص قائمة فيه ثم أرسل سعد جيشاً من المسلمين بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الى حلوان وماسبذان فافتتحهما وفرّ كسرى من حلوان الى الري وقيل

(١) المدائن هى عاصمة الاكاسرة وموقعها على دجلة على مرحلة من الجنوب الغربي من بغداد وتسمى قديماً طيسيفون ويسميها الافرنج اكطزيفون

الى اصفهان وكان ذلك سنة (١٦) وأقام سعد فى المدائن الى سنة (١٧) وفتحت جيوشه فى غضونها تكريت والموصل ثم تحوّل الى الكوفة بعد ان اختطها بأمر عمر بن الخطاب (رض) كما سيأتي ذكره فى محله ان شاء الله

﴿ مسح سواد العراق وترتيب الجزية والخراج ﴾

(كيف يكون الاستعمار)

انّ من الاصول السديدة فى الفتح والاستعمار أن يؤسس على مبدأ حفظ الثروة المحلية لاهلها لتكون هـذه الثروة مادة ينتفع منها الفاتح وأصلاً تنمو بنمائه ثروة الدولة وتدوم بدوامه مادة العمران وكلما تبسّط أهل المملكة فى العمران وجد المستعمر من وسائل الكسب عندهم مالم يجده فيما لو نضب مَعِينُ ثروتهم وانكمشت عن العمل أيديهم وقلّ ان تراعى الدول الفاتحة هـذا الاصل السديد والمرمى البعيد في الممالك المفتتحة بل معظم الفاتحين الى هذا العهد يعتبرون البلاد التي أخـذت عنوة ملكاً حلالاً لهم يجوز انتزاع الثروة من أهلها بطرق الاكراه التدريجية ليستأثر بها أهل ملتهم ويستغنى منها وطنهم على زعمهم ولم نعهد في هـذا العصر دولة من الدول المتمدنة الاوربيـة تراعى حفظ الاصل فى الثروة لأهله في المستعمرات الافريقية والاسيوية الاّ دولة انكلترا فربما كانت أحسن الدول قياماً على ذلك الأصل في مستعمراتها الـكثيرة الشاسـعة وأخفهنّ وطأة على الرعية مع أنَّ دعوى التمدن العريضة تستدعي الرأفة والعناية بسكان المستعمرات من سائر الدول الاوربية وتسـتلزم مراعاة الاصول الاقتصادية في حكم البـلاد المفتتحة كما هي مرعية في الممالك الاوربيـة وهيهات هيهات فان غلبة الشهوات تمحى عن لوح الذاكرة كل علم نقشته عليه أقلام العلماء في ديار المدنيـة وليت جهلة الـكتّاب من الافرنج الذين يرمون الفتح الاسلامي وأهله بوصمة التخريب

والتدمير ويسمونهم بسمات البداوة يحثون في التاريخ الاسلامي عن أصول الاستعمار والفتح عند العرب ويتعلمون منهم ما يفيدون به دولهم المتمدنة في وضع أساس العدالة وحفظ اصول الثروة لأهلها في الممالك المفتتحة

إن مبدأ الفتح الاسلامي الذي يسم جهلة الافرنج اهله بالبداوة والتخريب إنما كان في عهد عمر بن الخطاب الخليفة الثاني للمسلمين الذي قهرت جيوشه دولتي الفرس والروم ورفعت اعلام دولته على اخصب ممالك الارض لعهده فكان من جميل سياسته في هذه الممالك وعظيم عدله في الرعية ان حفظ على الاهلين مادة ثروتهم وكف يد المسلمين عن انتزاع ارضهم وراعى في ترتيب الجزية والخراج ثروة الافراد وخصب الارض وجدبها ونوع النبات والشجر المستنبت فيها وكان شديد الحرص على استبقاء الفلاحين يعتملون في ارضهم لا يرضى بمزاحمة المسلمين لهم ولا انتزاع ارضهم منهم ومن ذلك ما رواه في آثار الاول وترتيب الدول عن عبد الله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه امر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد يتقدمون الى الرعية بأن عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون

وعن شريك بن عبد الرحمن ان شريك بن أبي سمى الغطيفي أتى الى عمرو ابن العاص فقال انكم لا تعطونا ما يحسبنا (يكفينا) أفتأذن لي بالزرع فقال له عمرو ما أقدر على ذلك : فزرع شريك من غير اذن عمرو فلما بلغ ذلك عمراً كتب الى عمر بن الخطاب يخبره ان شريك بن سمى الغطيفي زرع بارض مصر : فكتب اليه عمر بن الخطاب أن ابعث الي به فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو بن العاص أقرأه شريكا: فقال شريك لعمرو قتلتني يا عمرو فقال له عمرو أنا قتلتك أنت صنعت هذا بنفسك فقال له اذا كان هذا من رأيك فأذن لي بالخروج من غير كتاب ولك عهد

الله ان أجعل يدي في يده (يعني انه لا يهرب) فأذن له بالخروج فلما وقف على عمر قال : تؤمنني يا أمير المؤمنين : قال ومن أي الاجناد أنت : قال من جند مصر : قال فلعلك شريك بن سمي : قال نعم يا أمير المؤمنين قال : لاجعلنك نكالاً لمن خلفك : قال أو تقبل مني ما قبل الله من العباد : قال او تفعل : قال نعم : فكتب الى عمرو أنّ شريكا جاءني تائباً فقبلت منه

وأخرج في فتوح البلدان عن ابراهيم التيمي قال لمّا افتتح عمر السواد (يعني سواد العراق) قالوا له اقسمه بيننا فانّا افتتحناه عنوة بسيوفنا فأبى وقال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين وأخاف أن قسمته إن تفاسدوا بينكم في المياه :قال: فاقرّ أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤسهم الجزية وعلى أرضهم الطسق (الخراج) ولم يقسم بينهم

وأخرج عن يزيد بن حبيب : قال : كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص حين فتح السواد (أما بعد) فقد بلغني كتابك تذكر انّ الناس سألوك ان تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم فاذا أتاك كتابي فانظر ما أجلب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال او كراع فاقسمه بينهم بعد الخمس واترك الارض والانهار لعمّالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين فانك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شيء وفي كتاب الخراج لابي يوسف بحث طويل بهذا الصدد فليرجع اليه

وبلغ من حرص عمر رضي الله عنه على حقوق أهل العراق وحفظ أرضهم لهم ان أحد بني الحارث بن كلدة طلب من عمر أرضاً يفتلي[1] فيها خيله فكتب الى أبي موسى الاشعري انّ أبا عبدالله سألني أرضاً على شاطئ دجلة يفتلي فيها خيله فان

(١) في القاموس فلا الصبي والمهر فَلْواً وفلاءً عزله عن الرضاع او فطمه كافلاه وافتلاه .

كانت فى غير أرض الجزية ولا يجزأ اليها ماء الجزية فاعطه اياها وقيل بل كتب بذلك الى المغيرة بن شعبة فى ولايته كتابا غير هذا وهو بمعناه كما تراه فى محله ان شاء الله وهذا وأيم الله من الاغراق فى العدل وحقه ان يكون شرعة حق يسلكها فى هذا العصر دول الاستعمار مع المسلمين وهيهات هيهات: وأما كيفية ترتيب عمر للجزية والخراج فى العراق فهو انه لما أزال عن العراق ملك الفرس وتوطدت دعائم الاسلام وانبسط عليه عدل عمر بن الخطاب رأى ورأيه العدل ان ينظم شؤونه الادارية ويرتب فيه الوضائع على نحو ترتيب كسرى أنوشروان الا انه خوفا من اجحاف العراقيين أو تظلمهم رأى ان تمسح أرض السواد وتفرز أجزاء بنسبة الخصب وما يحمله كل جزء من الشجر وان يحصى السكان فتضرب عليهم الجزية على نسبة حال الافراد من الغنى والفقر فبعث عثمان بن حنيف الانصارى الى العراق العربى وحذيفة بن اليمان الى العراق العجمي فمسحا الارض ووضعا عليها الخراج بنسبة حالها ومذ درعها فجعلا على جريب (١) النخل عشرة دراهم وعلى جريب الكرم عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وكتبا بذلك الى عمر فأجازه وفى رواية لابى يوسف انه جعل على جريب النخيل ثمانية دراهم

وأخرج ابو يوسف والبلاذري عن الشعبي ان عثمان بن حنيف لما مسح السواد وجده ستة وثلاثين ألف ألف جريب (أي ستة وثلاثين مليونا) وفى رواية انه استثنى النخيل وفى رواية ان عمر الغى النخل فى ولاية المغيرة بن شعبة على العراق

(١) في القاموس الجريب اسم لمكيال وللمزرعة واما مساحته فقد ذكر الطبري في تاريخه ان المسلمين لما غنموا بساط كسرى وجدوه ستين ذراعاً طولا وستين عرضاً قال وهو مقدار جريب فعلى هذا تكون مساحته ٣٦٠٠ ذراعاً مربعاً

والظاهر انه أراد باستثناء النخل من الخراج تسهيل تجارته واصداره الى البلاد لانه مادة التجارة فى العراق .

وبلغ خراج العراق فى ولاية عثمان بن حنيف مائة ألف ألف درهم (أي مائة مليون درهم) وذلك عدا الصوافى التي اصطفاها عمر لبيت المال وكانت لآل كسرى أو لمن هرب وترك أرضه وبلغ خراجها سبعة آلاف ألف درهم (أي سبعة ملايين) واقطعت هذه الصوافى بعد ذلك للصحابة

وأما الجزية فقد أحصى عثمان بن حنيف من تجب عليه من سكان السواد فبلغوا خمسمائة وخمسين ألف شخصاً فجعلها على ثلاث مراتب ثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثنى عشر وذلك بنسبة حال الافراد فاذا اعتبرنا فى هذا العدد متوسط الجزية الذى هو أربعة وعشرين درهما فيكون مجموع الجزية ثلاثة عشر مليونا ومائتى ألف درهم اذا أضيفت الى مبلغ الخراج بما فيه خراج الصوافى فيكون مجموع الجباية فى العراق على عهد عمر بن الخطاب (رض) مائة وعشرين مليوناً درهما ومائتى ألف درهم [1] كانت تنفق فى اعطيات الجند وارزاق المسلمين مما عدا الخمس فانه يرسل الى المدينة وينفق مايلزم من الجباية لاصلاح الجسور وحفر الانهر ومن الانهر التى احتفرها عمر فى العراق النهر المعروف بنهر معقل قرب البصرة ونهر سعد ابن عمرو بن حرام قرب الانبار وغيرهما

وأخرج الامام أبو الفرج بن الجوزي فى مناقب عمر عن عمر بن ميمون

ورأيت في مناقب عمر للامام ابي الفرج بن الجوزي ان جباية العراق العربي المعروف بالسواد والعراق العجمى المعروف ببلاد الجبل بلغت مائة وعشرين مليوناً (واق) قال والواق درهم ودانقين ونصف هذا ماقاله ابن الجوزي واما الدانق فقد كان كل درهم اربعة دوانق وهو الدرهم البغلي واما الدرهم الطبري فقد كان ثمانية دوانق وقيل بالعكس

قال : رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال كيف فعلتما (يعني بالعراق) أخاف أن تكونا حملتما الارض مالا تطيق : قالا لا فقال عمر لئن سلّمني الله لأدعنّ أرامل أهل العراق لا يحتجن الى أحد بعدي أبداً فما أتت عليه الاربعة الا أصيب وروى أبو يوسف في الخراج ان عمر كان يجبي الخراج ثم يخرج كل سنة عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله انه من طيّب ما فيه ظلم مسلم ولا معاهد: وهل بعد هذا العدل عدل يؤثر عن الملوك والخلفاء ويذكر عن الدول لا والله. هكذا كان ما يسمونه الاستعمار الآن على عهد عمر بن الخطاب اذ تأسس على قاعدة حفظ الثروة المحليه لاهلها لتكون مادة ينتفع منها الفاتح واصلا تنمو بنمائه ثرولة الدولة وانما اخذ عمر (رض) هذه القاعدة من القرآن الكريم الذي هو اول كتاب الهي قرر هذه القاعدة وذلك انّ عمر لما ألح عليه بعضهم بقسمة الارضين في العراق والشام أبى الا ابقائها بيد اهلها وانتفاع المسلمين بخراجها فقط وقال كيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض قد حيزت وقسمت ما هذا برأي وجمع الناس للشورى واحتج على من رأى قسمة الارضين بالكتاب الكريم كما ترى ذلك مبسوطاً في كتاب الخراج لابي يوسف وقال اني قد وجدت حجة الله تعالى في كتابه وتلى الآيات التي نصت على الفيء وقسمته وعلى مستحقيه من المسلمين وهي ما أفاء الله على رسوله) الى ان قال بعد ذكر ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمجاهدين والانصار (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ذنوبنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم) وقال لهم عمر (رض) هذه الآية عامة لمن جاء بعدهم (أي بعد من ذكروا في الآيات) فقد صار هذه الفيء بينهم جميعا فكيف

نقسمه لهؤلاء (يعني الفاتحين) وندع من تخلف من بعدهم بغير قسم فاجمع على تركه وجمع خراجه ووافقه على ذلك المخالفون وتم الامران تبقي الارضين بيد اهلها لتكون مادة يستمد منها اهلها والفاتحون مادة الحياة وهذا هو قانون الاستعمار العادل واساسه المتين

لما تمهد أمر العراق لعمر بن الخطاب (رض) بعث عتبة بن غزوان واليا على البصرة وولى سعد بن أبي وقاص الصلاة وامارة الحرب العامة على كل ماغلب عليه من البلاد وجعل مقره الكوفة ولمّا عزله ولى عمار بن ياسر ثم المغيرة بن شعبة ثم أباموسى الاشعري ثم عمر بن سراقة وغيرهم وولى على الخراج النعمان بن مقرن على ماسقت دجلة وسويدا أخاه على ماسقى الفرات ثم ولى عملهما حذيفة بن أسيد وجابر بن عمرو ثم حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وهما اللذان مسحا العراق كما تقدم

(عود الى خبر الفتح)

غزوة فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمي أحد أبطال حروب الردة عاملا لعمر على البحرين وهي من بلاد العرب مما يلي خليج فارس وكان يباري سعد بن أبي وقاص لصدع صدعه القضاء بينهما وطار عليه بالفضل في أيام حروبه في الردة فلمّا ظفر سعد بالفرس ودوّخ عاصمة ملكهم واستعلى وجاء بأعظم مما جاء به العلاء رأى العلاء ان يباري سعداً ويؤثر أثراً في الاعاجم ونعمت المباراة والمنافسة في الفتح والجهاد لو لم تكن بدون اذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان لا يأذن بخوض جيوشه في البحار تربصاً بهم لأوان الفرصة وانتظاراً للوقت المناسب وأمّا العلاء فقد تسرع وندب الناس لمهاجمة الفرس من جهة البحر فأجابوه فجهز

جيشا عدته ١٢ ألف مقاتل فيهم من الرؤساء الجارود بن المعلّي والسوّار بن همّام وعلى الجميع خُلَيْد بن المنذِر بن ساوى فحملهم فى البحر الى فارس فخرجوا الى اصطَخْر وعليها المرابطة وعليهم قائد اسمه الهِرْبَذ فما عتم ان قابلهم الفرس حتى حالوا بينهم وبين سفنهم واجتمعت عليهم جموع فارس فقاتلوهم قتالاً شديداً وشجعهم خليد بخطبة خطبها فيهم فتراموا على الموت وقُتِل الجارود وسوّار فاستمات ابناهما عبد الله بن السوّار والمنذر بن الجارود فقاتلا حتي قتلا وجعل خليد يومئذ يرتجز ويقول

يا آلَ تميم اجمعوا النزولَ وكاد جيش عمر يزولُ

وكلكم يعلم ما أقولُ

فنزلوا واقتتل القوم وقتل من الفرس مقتلة عظيمة ثم خرجوا يريدون البصرة وقد غرقت سفنهم فلم يجدوا الى الرجوع سبيلا وأخذ الفرس عليهم الطرق فلما أحسوا بالخطر عسكروا وامتنعوا ودافعوا العدوّ مدافعة الابطال الصناديد

وكان لما بلغ عمر بن الخطاب تسيير العلاء لهذا الجيش أدرك بفراسته مايصير اليه من الهلاك فى تلك البلاد النائية فاشتد غضبه على العلاء وكتب اليه بعزله وأمره بأثقل الاشياء عليه وذلك ان ينضم بمن معه الى سعد بن أبي وقاص ويكون تحت امارته وكتب الى عُتبة بن غزْوان والى البصرة بالخبر وأمره ان يندب الناس الى نصرتهم قبل ان يجتاحهم الفرس فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر فانتدب عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن والاحنف بن قيس وأمثالهم من قادة العرب وفرسانهم فخرجوا فى اثنى عشر الفا على البغال يجنبون الخيل كى لا يفنيها الركوب وعليهم أبو سَبْرَة بن أبي رُهم أحد بنى مالك وساحل (أى مشى على الساحل) أبو سبرة والمسالح فى الاهواز وهم

رده له حتى التقى بخليد بحيث عسكر وأخذت عليه الطرق وحصرهو وجنوده الليوث البواسل فاستصرخ أهل اصطخر أهل فارس على المسلمين فأقبلوا عليهم من كل فج فالتقواهم وأبو سبرة وتوافت للمسلمين أمدادهم وتواصلت جنودهم فلم يتمكن الفرس من حصرهم أو قطع المادة عنهم وقاتلهم المسلمون وغنموا منهم غنائم كثيرة وعادوا بذلك الجيش المحصور ببركة رأى عمر وأخذ الحيطة اللازمة لسلامة جيش يريد التوغل فى بلاد العدو وكان لاهل البصرة فضل عظيم بانقاذ جيش العلاء والظفر بالفرس

ولما رجع الجيش الى البصرة استأذن عتبة عمر بالحج فاذن له فلما قضى حجه استعفاه فابى ان يعفيه وعزم عليه ان يرجعن الى عمله فانصرف على غير رضاه فمات فى بطن نخلة فدفن وبلغ عمر وفاته فاثنى عليه بفضله وولى مكانه أبا سبرة بن رُهْم بقية السنة ثم استعمل المغيرة بن شعبة فى السنة الثانية فاستمر فيها الى ان جرى بينه وبين أبي بكرة ماجرى مما سيأتي فى محله ان شاء الله فعزله عمر واستعمل مكانه أباموسى الاشعري

خبر الهرمزان

﴿ وفتح الاهواز وتُستَر والسوس وغيرها ﴾

كان الهرمزان أحد البيوتات السبعة فى أهل فارس وكان شهد القادسية مع الفرس وانهزم بهزيمتهم فجاء الى الاهواز [1] وتولّى أمرها وأخذ يغير على

(١) الاهواز اسم ولاية واقعة بين ولاية البصرة وولاية فارس ونحن نلخص هنا ماذكره فى شأنها ياقوت في معجمه وهو.

الاهواز جمع هوز وفى قول جمع خوز فهي على القول الاول محرفة عن حوز والحوز مصدر حاز الرجل الشيء يحوزه حوزاً اذا حصله وملكه والحوز في الارضين ان يتخذها رجل ويبيّن حدودها فيستحقها فلا يكون لاحد فيها حق فذلك الحوز.

أهل ميسان فقلق منه عامل البصرة عُتبة بن غزوان فاستمد سعداً فأمدّه بنعيم بن مُقرّن ونعيم بن مسعود وأمرهما ان يأتيا اعلى ميسان ودستميسان ووجّه عُتبة سلمى بن القين وحرملة بن مريطة وكانا من المهاجرين فنزلا على حدود أرض ميسان وهناك قوم من العرب يقال لهم بنو العم بن مالك فاتفقوا معهم على المعاضدة وان يثوروا بالهرمزان وكان من زعمائهم غالب الوائلى وكُليب بن وائل ونَعيم ونُعَيم وبلغ ذلك الهرمزان فسُقِط في يده فانهزم فتبعه المسلمون وقتلوا من قومه ماشاؤوا حتى انتهى الهرمزان الى جسر سوق الاهواز فعبره وأقام بها ونزل المسلمون بحياله فلما رأي مالا طاقة له به طلب الصلح فكتبوا الى عتبة بن غزوان بذلك فاجاب عتبة الى الصلح على الاهواز كلها ماخلا نهر تيرى ومناذر وماغلبوا عليه من سوق الاهواز فانه لا يُرد عليهم وجعل سُلمى بن القين على مناذر مسلّحةً وأمرها الى غالب وحرملة على نهر تيرى وأمرها الى كليب فكانا على مسالح البصرة وكتب عتبة بذلك الى عمر ووفد اليه وفداً منهم سلمى وحرملة وكانا من الصحابة وغالبا وكليبا واوفد معهم بعض وجوه أهل البصرة وفيهم الاحنف بن قيس فأمرهم عمر ان يرفعوا حوائجهم فكلّهم قال : امّا العامة فانت صاحبها ولم يبق الاّ خواص أنفسنا : فطلبوا لانفسهم الاّ الاحنف بن قيس فانه تكلم فاغرب وأعرب عن حاجات البصريين فأجابه عمر اليها وقال : هذا الغلام سيد أهل البصرة ! ثم كتب الى عتبة بن غزوان فيه بان يسمع منه

وعلى القول الثاني الاخواز مواضع فى خوزستان ـ وموقع الاهواز بين البصرة وفارس وكورها اى اقسامها سوق الاهواز ورامهُرمُز وايذج وعسكر مكرم وتُستر وجنديسابور وسوس وسُرَّق ونهر تيري ومناذر وكان خراجها ثلاثين ألف ألف (٣٠ مليون) درهم وكانت الفرس تقسط عليها خمسين ألف ألف وعاصمة هذا القسم هرمزدار سابور او سوق الاهواز

ويشرب برأيه ؛ وقيل بل احتبسه عنده فى المدينة وسيأتى الكلام على هـذا في فى سيرة الاحنف ان شاء الله

ثم ان عمر ردّ سلمى وحرملة وغالباً وكليباً الى مناذر ونهر تيرى فكانوا عدة فيه لكون ان كان

ثم وقع بين الهرمزان وبين غالب وكليب اختلاف في حدود الارضين فحضر ذلك سلمى وحرملة لينظر افيما بينهم فوجدا غالباً وكليبا محقّين والهرمزان مبطلا فحالا بينه وبينهما فكفر الهرمزان أيضا ومنع ماقبلَهُ واستعان بالاكراد فكثف جنده فكتب الامراء الى عتبة بذلك فكتب عتبة الى عمر (رض) فامدّهم عمر بحُرْقوص بن زهير السعديّ وكانت له صحبة وأمّره على القتال وعلى ماغلب عليه من البلاد فجاء فقاتل الهرمزان فهزمه ففر الى رامهُرمُزْ وافتتح حرقوص سوق الاهواز وأقام بها واتّسقت له بلاد سوق الاهواز الى تُستَر ووضع الجزية وكتب بالفتح الى عمر ثم بعث جزْءَ بن معاوية في أثر الهرمزان بأمر عمر فانتهى الى قرية الشغر وأعجزه بها الهرمزان فمال جزء الى دَوْرَق (وهى مدينة سُرَّق) وفيها قوم لا يطيقون منها فاخذها جزء صافية وكتب الى عمر بذلك والى عتبة وانه دعا من هرب الى الجزاء والمنعة فاجابوه فكتب عمر اليه والى حرقوص بن معاوية بن زهير بلزوم ماغلبا عليه وبالمقام حتى يأتيهما أمره وذكر الطبري في غضون هـذا الخبر انّ جزءَ بن معاوية استأذن عمر (رض) فى عمران البلاد فاذن له فشق الانهار وعمّر الموات : وهكذا كان دأب هؤلاء الفاتحين الذين يرميهم الاعداء بالهمجية والتدمير والتخريب فانهم ماوطئوا أرضاً الا عمروها وأنصفوا أهلها فى الحكم والمعاشرة والجوار

واما الهرمزان فاقام فى رامهرمز وطلب الصلح فصولح على مالم يغلب عليه

المسلمون من أرضه فاقام الهرمزان على صلحه يجبي الى الامراء ويمنعونه وان غار عليه اكراد فارس منعوه وكان ذلك فى سنة (١٧) وقيل في سنة (١٦) ثم كفر (أى جحد) مرة أخرى وذلك ان كسرى يزدجرد حرّضه على العصيان وحرّض أهل الاهواز عامة فانتهى ذلك الى الامراء فكتبوا الى عمر (رض) والى المسلمين بالبصرة فكتب عمر الى سعد أن أبعث الى الاهواز بعثا كثيفا مع النعمان بن مقرّن وعجّل وابعث سويد بن مقرّن في نفر من وجوه المسلمين ذكرهم له. وكتب بمثل ذلك الى أبي موسى الاشعري وكان عاملا على البصرة بعد عتبة بن غزوان وأمره ان يسرّح الى الاهواز جندا كثيفاً وفيهم نفر من سادة المسلمين ذكرهم له ومنهم البطل الشهير البراء بن مالك وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وأشباههم وان تكون امارة الجيشين جيش الكوفة وجيش البصرة الى أبي سبرة ابن أبي رُهم فخرج النعمان فى أهل الكوفة فاخذ وسط السواد حتى قطع دجلة بحيال ميسان ثم أخذ البر الى الاهواز وانتهى الى نهر تيرى فجازها ثم جاز سوق الاهواز وخلف حُرقوصا وسُلمى وحرملة أمراء الاهواز ثم سار الى رامهرمز وبها الهرمزان ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان اليه بادره الشدّة ورجا أن يقتطعه وقد طمع الهرمزان فى نصر أهل فارس. وقد أقبلوا نحوه ونزلت أوائل أمدادهم بتُستَر فالتقى النعمان والهرمزان بأربك فاقتتلوا قتالاً شديداً انتهي بانتصار المسلمين وانهزام الهرمزان الى تستر ثم توافى الامراء واجتمعوا على تستر وكتب أبو سبرة يستمد أمير المؤمنين فامدّهم بأبي موسى والظاهر ان جنود الفرس التي كانت جاءت مدداً للهرمزان كانت كثيرة العدد لهذا حاصروهم أشهراً وقتل البطل الصنديد البراء بن مالك مائة مبارز فى غضون مدة الحصار وقتل مثل ذلك مجزأة بن ثور ومثله كعب بن سور وقتل مثل ذلك كثير من

أبطال البصرة والكوفة وعند نهاية الحصار جاء رجل الى النعمان فاستأمنه على ان يدله على مدخل للمدينة فندب النعمان نفراً من الشجعان فدخلوا معه المدينة وأناموا من على الباب وفتحوه ودخلها الجنود فلما شعر بذلك الهرمزان فرّ الى القلعة واعتصم بها ثم طلب الامان على ان ينزل منها على حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فنزل فأوثقوه واقتسموا ما أفاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وقتل ليلتئذ جمع من المسلمين فيهم البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وقتلهما الهرمزان بنفسه

وخرج أبو سبرة فى أثر الفلّ الى السوس وأحاط بها بجنده وكتب بذلك الى عمر فكتب عمر برد أبي موسى الى البصرة وان يسير زرّ بن عبد الله بن كليب الى جندى سابور وأمّر على جند البصرة المقترب الاسود بن ربيعة أحد بنى ربيعة بن مالك

ثم ان أبا سبرة أوفد الى المدينة وفداً فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فلما اقتربوا من المدينة ألبسوه حلته الملوكية وتاجه ودخلوا به المدينة ليراه المسلمون على هذه الصفة وانطلقوا الى المسجد يطلبون أمير المؤمنين فوجدوه نائماً فى ميمنة المسجد متوسداً برنسه فجلسوا دونه وليس فى المسجد غيره: فقال الهرمزان أين عمر: فقالوا: هو ذا: فقال أين حرسه وحجابه: قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا ديوان فقال فينبغى ان يكون نبياً: فقالوا بل يعمل عمل الانبياء وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوي جالسا ثم نظر الى الهرمزان فقال الهرمزان: قالوا نعم: فتأمله وتأمل ما عليه وقال: الحمد لله الذى اذل بالاسلام هذا وأشياعه يامعشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة ثم قال هيه ياهرمزان كيف

رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله : فقال يا عمر إنّا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلّى بيننا وبينكم فغلبناكم اذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا: فقال عمر انما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرّقنا

هذا هو القول الحق الذي لا مراء فيه اذ ما محق الامم وذهب باستقلال الشعوب الاّ التفرق وما مهد للمسلمين سبيل النصر على الدول الا اجتماع تلك القبائل المتفرقه على كلمة الاسلام وتمسكهم بعرى الاخوّة والوئام هذا على اغراقهم في البداوة وبعدهم عن أسباب الحضارة وجدّتهم في سياسة الملك وبالله لو استمرت عرى اجتماعهم متوثقة وأمور دولتهم متنسقة الى عهد الحضارة الاسلامية التي استراح فيها المسلمون من عناء الفتح وأخذوا أنفسهم بالعلوم وتبسطوا في مناحي العمران لما تطرّق اليهم الوهن ولما فترت منهم الهمم ولكن سُلّط عليهم أمراؤهم ففرقوا كلمتهم وأفسدوا عليهم أمرهم فتباغضوا تباغض الاعداء وتناسوا ايّاً رباه روابط الاخاء التي ربطت تلك القبائل البدوية بعراها ففتحت لهم ممالك الارض أقصاها وأدناها وبعد فان المسلمين لم يكونوا في عصر أحوج الى الوئام وأفقر للالتئام منهم في هذا العصر الذي ملأ فراغ الوجود عبراً تهز أعصاب الاموات وتثير في النفوس الخامدة بواعث الشعور بما هو آت ومع هذا فلا يزال أولياء أمورهم في تخاذل وتباغض لا يودون اجتماعاً ولا يقبلون نصحاً ولا تؤثر فيهم الزواجر ولا تعظهم العبر يفرّقون بين الاخ وأخيه والوطن وبنيه تزاحماً على اسم الرياسة وتواطؤاً مع الزمان على هذه الامة الاسلامية التى تمزّقها الاعداء والفاتحون وزاحمها على أرضها الغربيون وطاردها في حماها المتغلبون وهي مستغرقة في بحران الغفلة مستسلمة لاحكام القضاء استسلام الجبان للعدو القاهر لا تلتمس لها مخرجاً من هذا الضيق ولا تفتأ تمبد رؤساءها الذين

قذفوا بها الى هذا المكان السحيق وقالوا بعداً للقوم الجاهلين

ثم ان عمر رضي الله عنه قال للهرمزان ماعذرك وماحجتك فى انتقاضك مرة بعد مرة فقال أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك . قال لا تخف ذلك فاستسقى الهرمزان ماء فأتى له به فى قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم أستطع ان أشرب في مثل هذا فأتى به فى اناء يرضاه فأظهر الجزع وقال اني أخاف ان أقتل وأنا أشرب الماء فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه : فاكفأه فقال عمر : أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش : فقال لا حاجة لى في الماء انما أردت ان أستأمن به فقال له عمر : انى قاتلك : قال : قد آمنتنى : فقال كذبت : فقال أنس صدق ياأمير المؤمنين قد آمنته : قال ويحك ياأنس انا أومن قاتل مجزأة والبراء والله لتأتيني بمخرج أو لأعاقبنك : قال : قلت له لا بأس عليك حتى تخبرنى وقلت لا بأس عليك حتى تشربه : وقال له من حضر مثل ذلك فاقبل على الهرمزان وقال خدعتنى والله ولا أنخدع الا لمسلم فاسلم الهرمزان وفرض له على الفين وانزله المدينة . وربما كان بعض الوفد هو الذي علمه هذه الحيلة شفقة عليه من القتل والا فما نخاله يعلم من أخلاق العرب الوفاء الي هذا الحد والله أعلم

خشي عمر رضي الله عنه أن يكون سبب خروج الهرمزان على المسلمين عدة مرار مع كونه عاهدهم ودخل في ذمتهم ناشئاً عن سوء معاملة المسلمين لاهل ذمتهم فى فارس والعراق فاستدعى الوفد الذي وفد عليه مع الهرمزان وسألهم عن ذلك وقال لعل المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى : فقالوا لا ما نعلم الا وفاء وحسن ملكة : قال فكيف هذا وما سبب غدر أهل فارس : فلم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه ويبصر به مما يقولون الا ما كان من الأحنف بن قيس فقال : ياأمير المؤمنين أنا أخبرك انك نهيتنا عن الانسياح فى البلاد وأمرتنا بالاقتصار على مافى

أيدينا وإن ملك فارس حي بين أظهرهم وانهم لا يزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه وقد رأيت انالم نأخذ شيئاً بعد شيء الا بانبعاثهم وان ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز أمته فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربون جأشا: فقال عمر صدقتني والله وشرحت لي الامر عن حقه ونظر في حوائجهم وسرحهم. وقدم الكتاب على عمر باجتماع أهل نهاوند فتحرك في نفسه أن يأذن بالانسياح بعد ان كان متوقفا فيه لقلة جيوش المسلمين بالنسبة لاهل فارس وعظيم قوتهم وضخامة سلطانهم

قدمنا ان أبا سبرة ذهب في أثر المنهزمين من جنود الهرمزان الى السوس وحاصرها فسلمت له وقيل بل كان على حصارها أبو موسى الاشعري وكان يزدجرد بعث أحد قواده واسمه سياه في ثلثمائة مقاتل فيهم نحو سبعين رجلا من أشراف فارس وعظمائهم الى السوس وأمره أن ينتخب من كل بلدة مر بها من أحب فمضى سياه الى السوس وقد سلمت ودخلت في حوزة المسلمين فتحول سياه ونزل بين رامهرمز وتستر وقد عظم عنده أمر المسلمين وعلم بفراسته انهم ظافرون بالدولة الفارسية لا محالة فدعا الرؤساء الذين كانوا معه وقال لهم: قد علمتم انا كنا نتحدث ان هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في ايوانات اصطخر ومصانع الملوك ويشدون خيولهم بشجرها وقد غلبوا على ما رأيتم وليس يلقون جندا الا فلوه ولا ينزلون بحصن الا فتحوه فانظروا لانفسكم

قالوا رأينا رأيك. قال فليكفني كل رجل منكم حشمه والمنقطعين اليه فاني أرى ان ندخل في دينهم. وانما أمرهم بان يكفوه الجند تلافيا لما عساه يحدث منهم

فيما لو أسلم أشرافهم فلبّى الرؤساء أمره ثم وجّهوا أحدهم واسمه شيرويه الى أبي موسى في عشرة من الاساورة فقدم عليه وقال له: انّا قد رغبنا في دينكم فنسلم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب وان قاتلنا أحد من العرب منعتمونا منه وننزل حيث شئنا ونكون فيمن شئنا منكم وتلحقونا باشراف العطاء(١) ويعقد لنا الامير الذي هو فوقك بذلك: فقال أبو موسى بل لكم مالنا وعليكم ماعلينا: قالوا لا نرضى: فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه ان أعطيهم ماسألوه ورأى منهم مرة تقصيراً في الحرب فلامهم على ذلك فاعتذروا اليه بقلة العطاء فكتب بذلك الى عمر (رض) فكتب اليه ان ألحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء وأكثر شيء أخذه العرب: ففرض لمائة منهم في الفين ولستة منهم في الفين وخمسمائة فقال الشاعر

ولمّا رأى الفاروق حسنَ بلائهم　　وكان بما يأتي من الأمر أبصرا
فسنَّ لهم الفين فرضاً وقد رأى　　ثلاثمئينَ فَرْضَ عكٍ وحميرا

وفي هذه الابيات استحسان لما صنعه عمر رضي الله عنه بالحاق القوم بأفضل العطاء تأليفاً لقلوبهم وحذراً من أمر يأتي من قبلهم ولا جرم ان الانتفاع بناس كهؤلاء لا يفوت ذلك الخليفة العظيم الذي أدهش بحسن سياسته يومئذ ملوك الفرس والروم فرضي الله عنه وجزاه عن هذه الأمة خير الجزاء

﴿ خبر جندى سابور ﴾
(وأمان عبد امضاه جيش المسلمين)

روى الطبري ان أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل على

(١) كذا في تاريخ الطبرى ولعله باشرف العطاء أى اعلاه أو بالاشراف من أهل العطاء والعطاء هو في عرفنا الآن المرتب أو الماهية وسيأتي الكلام عليه في هذا الكتاب

جُنْدَى سابور وزِرّ بن عبد الله بن كُلَيب محاصرهم فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال فلم يَفْجأهم يوماً الا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج الاسواق وانبث أهلها فحار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم ان مالكم: قالوا ارميتم الينا بالامان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزاء على ان تمنعونا: فقال المسلمون مافعلنا: فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا: فسأل المسلمون فيما بينهم فاذا عبد يدعى مُكْنِفاً كان أصله منها هو الذي كتب لهم: فقالوا انما هو عبد: فقالوا انّا لانعرف حركم من عبدكم قد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدّل فان شئتم فاغدروا: فامسكوا عنهم وكتبوا بذلك الى عمر فكتب اليهم

انّ الله عظّم الوفاء فلاتكونون أوفياء حتى تَفُوا مادمتم فى شك أجيزوهم وفوا لهم: فوفوا لهم وانصرفوا عنهم

ولو لم يعلم هذا العبد من اخلاق أولئك الفاتحين السامية انهم يجيزون أمانه وان أخلاقهم الكريمة ونفوسهم الشريفة فوق كل فاتح محارب لمارمى لقومه بالامان واستنزلهم من المعاقل ولو أنصف جهلة المتعصبين من المؤرخين وتتبّعوا أخبار هذا الفتح وبحثوا عن سيرة أولئك الفاتحين وأخلاقهم البارة بالانسانية لكفوا أنفسهم مؤنة التهجم على ثلب المسلمين ووصفهم بالهمجية والتخريب فى أيام فتوحهم العظيمة ولكن ما الحيلة وانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور

(الانسياح فى بلاد فارس)

أشرنا فيما تقدم الى مارآه الأحنف بن قيس من لزوم انسياح (١) الجيوش الأسلامية فى بلاد فارس تخلصاً من عصبية الملك واستخضاعاً للفرس وقد انتهى

(١) الانسياح هو الذهاب في الارض

عمر (رض) الى رأي الأحنف وعرف فضله وصدقه فأعدّ لذلك العدة وقسم الجيوش وأمّر الامراء من أهل الكوفة والبصرة فأمر أباموسى الاشعريّ ان يسير من البصرة الى منقطع ذمّة البصرة أي آخرها فيكون هنالك حتى يبعث اليه وبعث بألوية مَن ولّى مع سهيل بن عديّ حليف بني عبدالاشهل فقدم سهيل بالألوية ودفع لواء خراسان الى الأحنف بن قيس : ولواء ازدشير خرّه وسابور الى مُجاشِع بن مسعود السُّلميّ : ولواء إصْطَخر الى عثمان بن العاص الثقفيّ : ولواء فَسَا ودار بجرْد الى سارية بن زنيم الكنانيّ : ولواء كرمان مع سهيل بن عديّ : ولواء سِجِسْتَان الى عاصم بن عمر : ولواء مكران الى الحكم بن عمير التغلبيّ : فخرجوا فى سنة (١٧ هـ) فعسكروا ليسيروا الى هذه الكُوَر فلم يتيسر مسيرهم حتى دخلت سنة (١٨) وأمدّهم عمر (رض) بجماعة من جند الكوفة : فأمدّ سهيل بن عديّ بعبدالله بن عبدالله بن عِتْبان : وأمدّ الأحنف بعلقمة بن النَّضْر وبعبدالله بن أبي عقيل وبربْعيّ بن عامر وبابن امّ غزال : وأمدّ عاصم بن عمرو بعبد الله بن عمير الأشْجَعيّ : وأمدّ الحكم بن عُمير بشهاب بن المُخارق المازنيّ

سارت هذه الجيوش كل جيش فى وجهته وافتتحت فى غضون خمس سنين أعنى الي نهاية خلافة عمر (رض) القسم الأعظم من بلاد فارس الشرقية والغربية صلحاً وحرباً فبلغت ولاية اذربيجان شمالاً وسجستان (من ولاية افغانستان) ومكران (من ولاية بلوخستان أي السند) شرقاً وبحر الهند وخليج فارس جنوباً وكردستان والجزيرة غرباً وكانت أعظم وقائع المسلمين فى فارس بعد انسياح الجيش وقعة نهاوند واحسن الفتح فتح خراسان : فأما فتح خراسان فقد اختلف فيه هل كان فى خلافة عمر بن الخطاب أو خلافة عثمان رضي الله عنهما لهذا نرجئ الكلام عليه الى سيرة الأحنف بن قيس : واما فتح نهاوند فنذكر طرفاً

من خبره هنا لأهميته ولكثرة ماعاناه المسلمون فى هذا الفتح من المشاق وما لاقوه من شدّة العدوّ وعدّته فنقول نقلا عما رواه الطبري فى تاريخه

(خبر نهاوند)

كان الذى هيج أمر نهاوند كسرى يزدجرد فانه جمع اليه عظماء الفرس وخوّفهم من اجتماع الجيوش الاسلامية على فارس وأنذرهم بذهاب الملك اذا لم ينهضوا نهضة رجل واحد لصد المسلمين فأجمعوا رأيهم على اعداد الجيوش فى نهاوند وكتبوا الى البلاد فحشروا الجنود الفارسية الى نهاوند وكانت عدتها ١٥٠٠٠٠ مقاتل فلما انتهى الخبر الى صاحب حلوان كتب بذلك الى سعد بن أبى وقاص وكتب هذا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فجمع عمر الصحابة واستشارهم فى الامر فنهم من أشار عليه بالنهوض بنفسه الى فارس ومنهم من أشار عليه بالمقام وبتسريح جنود الشام ومنهم من رأى غير ذلك وممن رأى ان يذهب الى حرب القوم بنفسه عثمان بن عفان (رض) فانه قام فقال (١) بعد ان تشهد أرى ياأمير المؤمنين ان تكتب الى أهل الشام فيسيروا من شامهم وتكتب الي أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين الى المصرين البصرة والكوفة فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين فانك اذا سرتَ بمن معك

(١) هكذا كانت العادة عند المسلمين اذا اجتمعوا عند الخليفة للشورى يقوم أحدهم عند ابداء الرأي خطيباً ويشير بما يراه ويشبهه في هذا العصر حال مجالس الشورى عند الأمم الأوربية ولكن شتان بين أهل شورى يفضي بهم البحث لاختلافهم في المنازع والغايات الى المجادلة ثم المنازعة والمقارعة ثم الضرب والملاكمة وبين أهل شورى وجهتهم واحدة وأخلاقهم رزينة ونياتهم سليمة فلا يسفه أحدهم رأي الآخر ولايتطاول في الكلام على سواه بل يبدي رأيه مع الأدب والرزانة فان قبل كان بها والا فلغيره أن يقول ما يشاء

وعندك . قل في نفسك ماقد تكاثر من عدد القوم وكنت أعز عزاً وأكثر .
ياأمير المؤمنين انك لاتستبقي من نفسك بعد العرب باقية (١) ولا تمتع من الدنيا
بعزيز ولا تلوذ منها بحريز . ان هذا اليوم له مابعده من الايام فاشهد برأيك
وأعوانك ولا تغب عنه : ثم جلس فعاد عمر فقال

ان هذا اليوم له مابعده من الايام فتكلموا : فقام علي بن أبي طالب رضى
الله عنه فقال

أما بعد ياأمير المؤمنين فانك إن أشخصت أهل الشام من شامهم سارت
الروم الى ذراريهم . (٢) وإن أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة الي
ذراريهم . وانك إن شخصت من هذه الارض انتقضت عليك الارض من
أطرافها وأقطارها حتى يكون ماتدع وراءك أهم اليك مما بين يديك من العورات
والعيالات . أقرر هؤلاء في أمصارهم واكتب الى أهل البصرة فليتفرقوا فيها
ثلاث فرق فلتقم فرقة لهم في حرمهم وذراريهم ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا
ينتقضوا عليهم ولتسر فرقة الى اخوانهم بالكوفة مدداً لهم . ان الاعاجم ان ينظروا
اليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب فكان ذلك أشد لكلبهم وألبتهم
على نفسك . واما ماذكرت من مسير القوم فان الله هو اكره لمسيرهم منك وهو
أقدر على تغيير ما يكره . واما ماذكرت من عددهم فانا لم نكن نقاتل فيما مضى

(١) يريد لاتبالي بنفسك اذا أصيب العرب بشيء وفي قوله هذا ومن بقية الخطبة دليل على ما أعده الفرس من القوة والعدة لمكافحة المسلمين يومئذ مما استكبر أمره الصحابة ورأوا لزوم اعداد القوة المماثلة لقوة الفرس الحاسمة لخطر هجومهم على المسلمين (٢) جمع الذرية وهو ولد الرجل والنساء الواحد والجميع ومراده ان الروم يسيرون الى الشام حيث لايبقى الا النساء والاطفال فيكتسحون البلاد ويسبون الذرية

بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر :

فقال عمر : أجل والله لئن شخصت من البلد لتنتقضن علي الارض من أطرافها واكنافها ولئن نظرت الي الاعاجم لا يفارقن العرصة وليمدنهم من لم يمدهم وليقولن هذا أصل العرب فاذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب فأشيروا علي برجل أوليه ذلك الثغر غدا واجعلوه عراقيا : قالوا أنت أفضل رأيا وأحسن مقدرة وأنت أعلم باهل العراق : فقال أما والله لأولين أمرهم رجلا ليكونن لاول الأسنة اذا لقيها غدا : فقيل من يا أمير المؤمنين : فقال النعمان بن مقرن المزني ! فقالوا هو لها :

وكان النعمان (١) يومئذ بالمدينة وقيل كان بالبصرة مع القواد الذين أمده بهم عمر لما افتتح رامهرمز وقيل بل كان على خراج كسكر وكان كتب الى عمر يستعفيه من امارة الخراج ويطلب منه الحاقه بجيش من جيوش المسلمين وذلك لان امارة الحرب كانت أحب الى اقيال الصحابة من امارة الخراج لاعتبارهم الثانية من دواعي الراحة والرفاهية اللتين لم تألفهما نفوسهم العالية لميلها الى اكتساب الفضيلة والشرف من ساحات الحرب والقتال . واليك كتاب النعمان الى أمير المؤمنين ومنه ترى بما اذا شبه نعيم كسكر وكيف كان يأنف ذلك النعيم

أما بعد ان مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب الى جنبه مومسة تلون له وتعطره فأنشدك الله لما عزلتني عن كسكر وبعثتني الى جيش من جيوش المسلمين

---

(١) هذا البطل الجليل هو النعمان بن مقرن بن عائذ بن سيحان ويتصل نسبه بأد بن طابخة المزني نسبة الى مزينة من ولد عثمان بن عمرو قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أربعمائة من مزينة وقيل هاجر ومعه سبعة اخوة له وكان معه لواء مزينة يوم فتح مكة وحضر حرب القادسية وغيرها من حروب الفرس واستشهد بنهاوند

فكتب اليه عمر أن ائت الناس بنهاوند فاني قد وليتك حربهم فسر من وجهك ذلك حتى تأتي ماه فاني قد كتبت الى أهل الكوفة ان يوافوك بها فاذا اجتمع لك جنودك فسر الى الفيرزان ومن تجمع اليه من الاعاجم من أهل فارس وغيرهم واستنصروا الله وأكثروا من قول لا حول ولا قوة الا بالله

وكتب الى الكوفة بشخوص الجيش الى نهاوند وعليهم حذيفة بن اليمان حتى يلتقي بالنعمان فتكون له امارة الجيش وكتب الى سلمى بن القين وحرملة بن مريطة وغيرهم من الامراء الذين كانوا بالعراق العجمي وفارس أن يشغلوا الفرس عن جيش نهاوند فتقدم بعضهم الى تخوم أصبهان وبعضهم الى تخوم فارس فقطعوا عن نهاوند أمداد فارس ولما قدم جيش الكوفة على النعمان جاءه كتاب عمر ان معك حد العرب ورجالهم في الجاهلية فأدخلهم دون من هو دونهم في العلم بالحرب واستعن بهم وأشرب برأيهم وسل طليحة وعمراً وعمراً ولا تولهم شيئاً

ويعني بالعمرين عمرو بن معدي كرب الزبيدي وعمرو بن أبي سلمى العنزي وهما وطليحة بن خويلد الاسدي من زعماء العرب في حروب الردة لهذا أمره عمر باستشارتهم ونهاه عن تأميرهم لانه رضي الله عنه كان لا يرى تأمير احد من زعماء الردة وان أذن لأهل الردة بالجهاد واستنفرهم للفتح وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يرى هذا ولا ذاك كما رأيت فيما مر من سيرته وانما ساغ لعمر (رض) ان يأذن لهم بحضور الفتوح للحاجة اليهم في إبان الفتح ولحصول الاطمئنان من جهتهم سيما بعد تبسط المسلمين في البلاد وحصول العرب على ذلك الملك العريض بفضل الاسلام

تقدم النعمان وتقدم امامه عمرو بن أبي سلمى وطليحة الأسدى

لاستكشاف حال العدو فخاف عمرو التوغل ورجع ومضى طليحة على وجهه وكان بطلا شجاعاً حتى بلغ نهاوند وعاد فأخبر النعمان بأن ليس بينه وبين نهاوند شيء يخشاه فتقدم النعمان حتى نزل على نهاوند وعلى جيوش الفرس قائد اسمه الفيرُزان وآخر اسمه بهمن جاذَويه ووافى النعمان امداد أهل المدينة فيهم المغيرة بن شعبة

وكذلك وافى أهل نهاوند كل من غاب عن القادسية والايام قبلها من أهل الثغور ونزلوا ونزل النعمان ولما أريد بناء فُسطاط للنعمان بادر أشراف أهل الكوفة فبنوا له فُسطاطا (وهو السرادق) وهم أربعة عشر منهم حُذَيفة بن اليمان وعُقبة بن عمرو والمُغيرة بن شُعبة وبَشير بن الخَصاصية وحَنظَلة الكاتب بن الربيع وابن الهوْبَر وربعيّ بن عامر وعامر بن مَطَر وجَرير بن عبد الله الحِميَريّ والأقرع بن عبد الله الحميريّ وجرير بن عبد الله البجَليّ والاشعث بن قيس الكنديّ وسعيد بن قيس الهمداني ووائل بن حُجْر فلم يُرَ بناء فُسطاط بالعراق كهؤلاء وفي هذا دليل على حسن الرابطة التي جعلها الاسلام بين اشراف العرب

وأنشب النعمان القتال فاقتتلوا يوم الاربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم في ذلك سجال وفي يوم الجمعة لجأ الفرس الى خنادقهم وحصرهم المسلمون فاقاموا عليهم ماشاء الله والاعاجم لا يخرجون الا اذا أرادوا الخروج فاشتد ذلك على المسلمين وخافوا أن يطول عليهم الامر فجمع النعمان أهل الرأى والنجدة للشورى فاجتمعوا وأبدى كل واحد منهم رأيه وكان من رأي طليحة الاسديّ ان يبعث النعمان خيلاً تفاجئ الاعداء في خنادقهم وتخالطهم ثم تخرج بهم وتستطرد لهم حتى يقاربوا الجيش فيبادرهم القتال ويقطع عليهم خط الرجوع فانتهى النعمان الى رأي طليحة فأمر القعقاع بن عمرو وكان على المجرّدة ففعل وأنشب القتال مع العجم فلما خرجوا انكص ومازال يتأخر نا كصاً شبه المنهزم حتى اقترب بهم من

جيش المسلمين وكان النعمان على تعبية فاخذ يمر على الصفوف ويحرّض المسلمين على القتال وكلهم سامعون مطيعون ثم حمل النعمان وحمل الناس وراية النعمان تنقض نحوهم انقضاض العقاب فاقتتلوا بالسيوف قتالا شديداً وكانت وقعة لم يسمع بمثلها قط وسال الدم فى أرض المعركة فزلق به الناس والدواب وأصيب فرسان من فرسان المسلمين فى الزلق وزلق فرس النعمان فى الدماء فصرعه وتناول الراية نُعَيم ابن مقرّن ثم دفعها الى حذيفة وجاء المغيرة بن شعبة وقال اكتموا مصاب أميركم لئلا يهن الناس واقتتلوا الى الليل وتمت الهزيمة على الفرس فانكفأوا فى الخنادق فقتلوا ولم يفلت منهم الا الشريد ونجا الفيرزان فاتبعه نعيم بن مقرّن وقدّم القعقاع قدامه فادركه عند ثنية همذان فتوقل الجبل فتوقل القعقاع في أثره وأخذه ولما بلغ الفلّ همذان جاءت خيل المسلمين فى آثارهم فنزلوا عليها فخرج اليهم خُسْرَوشْنوم فاستأمنهم وضمن لهم همذان ودستبى وان لا يؤتى المسلمون من قبلهم فأجابوهم الى ذلك وآمنوهم فأقبل كل من كان هرب واطمئن الناس

وقتل فى وقعة نهاوند ناس من المسلمين ويقال انّ ممن قتل يومئذ طليحة الأسديّ وعمرو بن معدى كرب الزبيديّ ودخل المسلمون المدينة بعد هزيمة الفرس واحتووا ما فيها وما حولها وجمعوا الاسلاب الى صاحب الاقباض (١) وهو السائب بن الاقرع وجاءهم الهربذ صاحب بيت النار مستأمناً ودلهم على ذخيرة لكسرى كانت عنده على شرط ان يعطوه الامان على نفسه وعلى من شاء فاعطاه حذيفة ذلك فأخرج له تلك الذخيرة فى سفطين (٢) وهى جوهر ثمين

(١) امين المال والغنائم (٢) قال في القاموس السفط محركة كالجوالق أو القفة اه قوله الجوالق معربة عن چوال التركية وهو مايسميه الشاميون الآن العِدْل أوالكيس وما يسميه المصريون الزكيبة

كان أعده لنوائب الزمان فاجمع رأي المسلمين على رفعه الى عمر وقسم حذيفة الغنائم فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الراجل ألفين ورفع مابقي من الاخماس الى السائب بن الاقرع فقبض السائب الاخماس فخرج بها الى عمر مع ذخيرة كسرى وتقدم الرسول بخبر الفتح وهو طُرَيف بن سهم أخو بني ربيعة وكان عمر متململا ينتظر أخبار نهاوند فلما جاءه الرسول وأخبره خبر الفتح واستشهاد النعمان بكى حتى اخضلت لحيته وترحم على النعمان وكان رضي الله عنه رقيق القلب محبا للمسلمين حريصا على حياة القواد يحزن حزنا شديداً اذا أصيب أحد منهم

ثم وصل السائب بالاخماس فوضعت في المسجد وأمر عمر نفراً من أصحابه منهم عبد الرحمن بن عوف بالمبيت فيه ودخل منزله فاتبعه السائب بالسَّفَطَيْن وأخبره خبرهما وان الناس رضوا بأن يكونا له فقال له عمر: يا مُلَيكة والله مادروا هذا ولا أنت معهم فالنجاء النجاء عوذك على بدئك حتى تأتي حذيفة فيقسمهما على من أفاءهما الله عليه: فأقبل راجعا حتى انتهى الى حذيفة فأقامهما فباعهما فأصاب أربعة آلاف الف (أربعة ملايين)

هذه هي العفة التي قل أن تكون في بشر فضلا عن ملك يكون له من السلطة على الناس ما كان لذلك الخليفة العظيم ولقد صدق والله من قال الهرمزان ان عمر ليس بنبي ولكنه يعمل أعمال الانبياء وحقاً ان هذه الاخلاق أخلاق الانبياء الذين استهانوا بالدنيا ومتاعها والا فاي حرج على عمر رضى الله عنه لو قبل هدية خصه بها المسلمون ورضي الجيش كله برفعها اليه وان كانت من فيئهم ومما غنموه بسيوفهم لو لم يكن متخلقاً بأخلاق النبوة المحمدية مخلصاً لله في السر والعلانية ليس له رغبة في غير الكفاف من العيش وسعادة المسلمين وغناهم وراحتهم فرضى الله عن نفسه الطاهرة ما أشرفها وأسماها ومن للأمة بعمر ثانٍ

يرد اخراها الى أولاها ويبذل نفسه فى سبيل سعادتها

ثم لما جيء بسبي نهاوند الى المدينة جعل أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة لا يلقي منهم صغيراً الا مسح رأسه وبكى وقال: أكل عمر كبدي: وكان نهاوندياً فأسرته الروم أيام حربهم مع الفرس وأسره المسلمون بعدُ فنسب الى حيث سبي

ولما تم فتح نهاوند جاء أهل الماهين ماه بهرذان وماه دينار وطلبوا من حذيفة الامان على أن يؤدوا الجزية فكتب لاهل كل ماه عهداً هذه صورته (عن الطبري)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى حذيقة بن اليمان أهل ماه دينار أعطاهم الامان على أنفسهم وأموالهم وأرضيهم لا يُغيَّرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة [1] ما أدوا الجزية في كل سنة الى من وليهم من المسلمين على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته . وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقرَوْا (أضافوا) جنود المسلمين من مرَّ بهم فآوى اليهم يوماً وليلة ونصحوا . فان غشوا و بدلوا فذمتنا منهم بريئة . شهد القعقاع بن عمرو ونُعيم بن مقرّن وكتب في المحرم سنة ١٩ .

(١) قد مر معنا لفظ المنعة في عهود أهل الذمه عدة مرار في هذا الكتاب ولم نذكر شيئاً عنها ونقول هنا المنعة محركة هي الحماية والامتناع بالعشيرة وكان المسلمون يشترطون على أنفسهم للذميّ المنعة أي انه يصير كواحد منهم يمنعونه من كل غاصب ومحارب ومن كل من أراده بسوء ولهذا السبب لم يكلف أهل الذمة بالدخول مع المسلمين في محاربة اعداء وطنهم دفاعاً عن الحوزة لتحمل المسلمين ذلك دونهم من عهد الفتح وهذه هى العلة في انّ الدول الاسلامية لا تعمم احكام الجندية ولا تأخذ من أهل الذمة عسكراً لحراسة البلاد أو للحرب مع أعدائها من أي جنس كانوا وهي نعمة لا يزال يقدرها قدرها كثير من عقلاء المسيحيين في المشرق ويتمنون اصلاح حال الحكومات الاسلامية لتدوم عليهم بدوامها سلطة الاسلام

ومما يستنبط من هذا الكتاب ان العرب لما أمعنوا في بلاد فارس وكثرت مخالطتهم للفرس والروم أخذوا باصول الحضارة وتمكنوا من سياسة الملك وعرفوا لوازم العمران فجعلوا اصلاح الطرق التي هي عون الأمم التجارية والحربية اجبارياً على أهل البلاد كما رأيت في هذا الكتاب وكما جاء في كتاب عياض ابن غنم لأهل الرها من الجزيرة وكان فتحها في سنة ١٨ في السنة التي فتحت بها نهاوند والماه وربما كانوا رأوا الطرق في التشعث والخراب تابعة لسائر العمران في مملكتي الفرس والروم يومئذ لما كانتا عليه من التناهي في الظلم واغفال شؤون العمران فاشترطوا على أهل البلاد اصلاحها وانما قلنا انهم شعروا بهذه الحاجة لما أمعنوا في البلاد وكثرت مخالطتهم لتلك الأمم لانا لم نر في كتب العهد السابقة على ذلك التاريخ شرطاً كهذا الشرط وهو وجوب اصلاح الطرق وهذا يخبرنا عن بدء انتظام الشؤون العمرانية في الدولة العربية لاسيما اذا أضفنا اليه انصراف همة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه منذ السنة السادسة عشرة للهجرة الى تمصير الامصار في العراق وشق الانهر واصلاح الجسور كما رأيت وسترى في هذا الكتاب

وكان الذي عقد صلح الماه مع المسلمين أحد أبناء البيوتات من آل قارن واسمه دينار وبه سمي الماه الواحد ماه دينار وكان سبب صلحه ان أحد ابطال المسلمين وهو سماك بن عُبيد العبسي أسره عقب فراره من وقعة نهاوند ثم منّ عليه بالاطلاق فعرف له هذا الجميل وطلب منه أن يقدمه الى الامير ليصالحه على بلده فقدمه الى حذيفة فكتب له حذيفة ذلك الكتاب وجعله على عمله فوفى للمسلمين بالعهد وأحسن الجوار وكان يختلف الى الكوفة كلما كان عمله تابعاً لعامل الكوفة فاختبر اخلاق المسلمين أيام الفتح وعرف أحوالهم ووقف على سيرتهم

ولمّا كان من أهل الكوفة ما كان من الانشقاق والخروج على العمال ومنابذة الخلفاء قدم عليهم دينار في خلافة معاوية فقام بالناس في الكوفة فقال

يامعشر أهل الكوفة أنتم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع . بخل وخب (أي خداع) وغدر وضيق (الشك والتردد) . ولم يكن فيكم واحدة منهن فرمقتكم فاذا ذلك في مولديكم فعلمت من أين أتيتم فاذا الخب من قبل النبط والبخل من قبل فارس والغدر من قبل خراسان والضيق من قبل الاهواز :

وانما أحببت ايراد هذه الحكاية هنا لما لها من العلاقة بما قام في فكري منذ ولعت بالتاريخ من جهة تغير أخلاق أهل العراق من العرب دون أهل الشام في أيام الخلفاء علي ومعاوية رضى الله عنهما ومن بعدهما وسأبسط الكلام على هذا في محله ان شاء الله

والى هنا نقف بالقلم عن التبسط في تاريخ فتح بلاد العجم اكتفاء بما أجملناه من خبر انسياح الجنود الاسلامية في تلك البلاد والاطراف التي بلغوها في خلافة عمر رضى الله عنه وانما توسعنا في بعض الاخبار دون البعض الآخر التماساً لبعض الشوارد التاريخية التي لها مناسبة بما علقناه وسنعلقه عليها من الشروح والاستنباطات التاريخية والدينية والاجتماعية ولو أوردنا كل أخبار الفتح وعلقنا عليها الشروح وتتبعنا المناسبات لاحتجنا لكتابة أكثر من مجلدين في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفي هذا من المشقة ما ربما يبطئ بنا كثيراً في ابراز هذا التاريخ على أن الفائدة التي قصدناها حاصلة ان شاء الله وفي القليل أحياناً ما يغني عن الكثير وفيما يأتي من هذا الجزء غنية عما تركناه والله ولي التوفيق

باب

﴿ فتح الجزيرة ﴾

الجزيرة هي الجزء الشمالي من الاراضى الواقعة بين الفرات ودجلة وأما الجزء الجنوبيّ فانه العراق وكلاهما كانا من منازل العرب من بكر وربيعة ومضر وكان رحيل العرب الى هذه البلاد من أزمان متطاولة قيل إنها تمتد الى ما بعد سيل العرَم حيث رحلت هذه القبائل ونزلت بهذا القسم من الارض وقاعدة الجزيرة هي الموصل وقد كان فتحها وفتح تكريت فى سنة (١٦ ﻫ) على يدى عبد الله بن المعتم وربعيّ بن الأفكل وكان بعثهما سعد بن أبي وقاص من العراق وقيل بل كان فتح الموصل على يدي عياض بن غنم [1] لما فتح الجزيرة بين سنة ١٨ وسنة ٢٠ وتحرير الخبر أنا ذكرنا فى فتوح الشام كيف أن هرقل ملك الروم هاجم المسلمين في حمص بعد استقرارهم فى بلاد الشام وأنّ عمر كتب الى سعد بن أبي وقاص بان يمد أبا عبيدة فى حمص بالقعقاع بن عمرو ويشغل جيوش الجزيرة عن امداد هرقل بجيوش من المسلمين عليها عياض بن غنم فسار القعقاع حتى أدرك أبا عبيدة في حمص وقد ظفر بالروم وتفرقوا وحاصر عياض بعض مدن الجزيرة

(١) قد مر معنا كثيراً اسم هذا الفاتح الكبير في هذا الكتاب لهذا رأينا هنا بمناسبة فتحه للجزيرة ان نذكر شيئاً من نسبه وسيرته فهو عياض بن غنم بن زهير ابن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي أبو سعد وقيل أبو سعيد وابو عبيدة بن الجراح ابن عمه وقد قاتل معه بالشام ومع خالد بالعراق كما رأيت في هذا الكتاب وصار اليه فتح الجزيرة وولاية أبي عبيدة بالشام وتوفي سنة عشرين وكان صالحاً فاضلا شجاعاً سمحاً يسمونه لكرمه زاد الركب لانه كان يطعم الناس زاده فاذا نفد نحر لهم جمله وكان اسلامه قبل الحديبية رضي الله عنه وارضاه

ثم لما بلغه شخوص عمر (رض) للجابيـة شخص للسلام عليه هو وخالد وأبو عبيدة ومعظم الامراء فطلب أبو عبيـدة من عمر رضى الله عنهما أن يعينه بعياض ففعل وأبقاه عنده ولما مات أبو عبيدة فى طاعون عمواس سـنة (١٨) استخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بتوليته عمل أبي عبيدة وهو حمص وقنَّسرين وأضاف اليه الجزيرة وأمره بالمسير الى فتحهـا فسار ومعه من القواد ميسرة بن مسروق العبسى وسـعيد بن عامر بن حذيم الجُمَحِيّ وصفوان بن المعطّل السلمى ويقال وخالد بن الوليد والاصح أن خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة

وقد تضاربت الروايات في زمن مسير عياض الى فتح الجزيرة وفى هل سار من قبل سعد وهو فى العراق أم من قبـل أبي عبيدة والصحيح الذي يستنتج من مجموع تلك الروايات هو ما ذكرناه .

وكان فتح الجزيرة كله صلحاً ومنه ما كان بعد قتال قليل وأهم البلاد التى فتحت هى الرقة والرهـا (أُورْفَا) ونصيبين وحرّان وسميساط وسـنجار وقرقسيا (وكان فتح هذه على يدي حبيب بن مسلمة الفهري) وسروج وجسر منبج والموصل وآمد وغيرها وهكذا حتى بلغ عياض بادية الشام غرباً وأرمينيا وكردستان شرقاً ثم دخل الدرب[1] فبلغ بدليس (بتليس الآن) من كردستان وجازها الى خلاط وانتهى الى العين الحامضة ثم عاد فضمّن صاحب بدليس خراج خلاط ثم عاد الى الرقة وانصرف منها الى حمص ومات سنة ٢٠ فولى عمر مكانه سـعيد بن عامر بن حذيم فلم يلبث الا قليلا حتى مات فولى عمر عمير بن سـعد بن شهيد الانصاري أحد الأوس وقيل هو عمير بن سعد بن عبيد وقتل أباه سعد

(١) قال في القاموس الدرب باب السكة الواسع والباب الاكبر وكل مدخل الى الروم اه وهو المقصود بقولهم أدرب أى دخل الدرب

يوم القادسية

فقتح عمير عين الوردة ويقال لها رأس العين وهي مجتمع العيون التى يجري منها نهر الخابور ويصب فى الفرات ثم سلك الخابور حتى أتى قرقيسيا وقد نقض أهلها فافتتحها وصالح أهلها على صلحهم الاول ثم أتى حصون الفرات حصناً حصناً ولم يلق فيها كيداً حتى بلغ النأوسه والوسة وهيت فوجد سعد بن عمرو بن حرام الانصارى وقد بعثه أمير الكوفة ليغزو مافوق الانبار فلما اجتمع عمير وسعد صالح عمير أهل هيت وانصرف الى الرقة

وكان عياض بن غنم رضى الله عنه أعطى كتباً فى الصلح لاهل الجزيرة وقد تقدم معنا فى أواخر باب فتح بلاد العجم بمناسبة الكلام على العمران فى عصر عمر ان من تلك الكتب ما اشترط فيه على أهل الذمة اصلاح الطرق والجسور وها نحن ننقل هنا كتاباً منها كتبه لاهل الرُّها وهو بنصه عن فتوح البلدان

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من عياض بن غَنْم لاسقف الرُّها انكم ان فتحتم لي باب المدينة على أن تؤدوا اليّ عن كل رجل ديناراً ومُدَّيِ قمح فانتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم وعليكم ارشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين شهد الله وكفى بالله شهيدا:

باب

﴿ فتح مصر وبرقة ﴾

كان عمرو بن العاص شديد التطلع الى مصر راغباً فى فتحها لانه جاءها مرة فى الجاهلية ورأى من ثروة اهلها وسهولة أمرها ما أطمعه فى فتحها فلما قدم عمر

ابن الخطاب الجابية فى سنة (١٨) اختلى به وفاتحه بما فى نفسه وهوّن عليه أمر مصر ورغب اليه أن يوليه فتحها فتردد عمر رضي الله عنه فى الامر لان جيوشه متفرقة فى الشام والجزيرة وفارس تكافح دولة الفرس والروم فما زال به عمرو حتى استرضاه وأذن له بقصدها وجهز معه أربعة آلاف مقاتل كلهم من علّ وقال له سر وأنا مستخير الله فى مسيرك وسيأتيك كتابي ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره

فسار عمرو بن العاص ووافاه كتاب عمر يأمره فيه بالانصراف فلم يفتحه حتى دخل أرض مصر وسيأتى الكلام على هذا فى سيرة عمرو ثم تقدم عمرو حتى بلغ الفرماء فقاتله بها الروم نحواً من شهر فهزمهم وتقدم الى القواصر ولا يدافع الا دفاعاً خفيفاً ثم الى بُلْبَيْس ثم أتى أم دنين ثم مصر وأبطأ عليه الفتح فاستمد عمر فأمده باربعة آلاف ثم استمده مرة أخرى فأمده باربعة آلاف آخرين وكتب اليه انى قد أمددتك باربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف . الزبير بن العوام . والمقداد ابن الاسود . وعُبادة بن الصامت . ومَسلَمَة بن مخلد . واعلم ان معك اثنى عشر ألفاً ولا تغلب اثنا عشر الفاً من قلة :

كان القبط فى مصر يكرهون سيادة الروم ويودّون التخلص منها ولو بسيادة المسلمين فلما بلغ عمرو مصر وظفر بجنود الروم تواطأ على صلحه المقوقس مع قومه وصالحوه على شىء معلوم وبعد ان تم الصلح شخص عمرو بجنده الى الاسكندرية وكان فيها جمع كثيف من الروم فحاصرها مدة طويلة ثم أخذها عنوة وكتب بالفتح الى عمر واستقرت قدمه في البلاد فأخذ في تنظيم شؤونها وترتيب خراجها وتقرير أسباب الراحة والامان بين أهلها وما زال والياً عليها حتى عزله

عثمان بن عفان رضى الله عنه وقدرأينا ان نرجئ تفصيل الكلام على فتح مصر وجغرافيتها وحالتها الاجتماعية على عهد ذلك الفاتح العظيم عمرو بن العاص الى سيرته التي نوفيها حقها من البيان ان شاء الله

لما استتب لعمرو الامر بمصر سار الى برقة وتسمى قديماً انطابلس وهي واقعة بين مصر وطرابلس الغرب ومن فرضها الشهيرة بنغازي فصالحه اهلها على الجزية وسار الى طرابلس الغرب ففتحها عنوة وكتب الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب : امابعد انا قد بلغنا اطرابلس وبينها وبين افريقيا (١) تسعة ايام فان رأى أمير المؤمنين ان يأذن لنا في غزوها فعل: فنهاه عمر فولى على برقة عقبة بن نافع الفهري وعاد وربما ذكرنا ذلك في سيرته ببيان أطول ان شاء الله :

انتهى ما أردنا ايراده من أخبار الفتح فى خلافة عمر (رض)

﴿ باب ﴾

تعبية الجيوش وبراعة القواد وديوان الجيش

وعدنا فيما سبق أن نفرد فصلاً خاصاً في هذا الكتاب نبين فيه كيفية تعبية الجيوش على عهد عمر بن الخطاب وبراعة قواده وتفننهم في أساليب الحرب ووفاء بالوعد أفردنا هذا الفصل لهذه الغاية ولبيان أصول التجند وديوان الجيش على عهده فنقول

---

(١) يريد بافريقيا تونس وهكذ كان يسميها الرومان ثم سماها العرب بهذا الاسم أيضاً والظاهر انّ الجغرافيين سموا القارة كلها بهذا الاسم بعدُ من قبيل تسمية الكل باسم الجزء

اعلم انّ العرب أمة حربية قلّ أن يماثلها فى ذلك العصر شعب من الشعوب فى الشجاعة والاقدام والتعوّد على أساليب القتال لدأب أفرادها منذ نعومة الاظفار على الفروسية وتعلّم فنون الحرب وأسلافهم للقتال وحبهم للغارة التى تقتضيها حالتهم الاجتماعية وعوائدهم البدوية الاّ انه كانت تنقصهم الجامعة والعدة أسمى آلات الحرب فكانوا مع كونهم أمة واحدة من جنس واحد قبائل متفرقة الاهواء والمنازع يقاتل بعضها بعضاً ويثب بعضها على بعض ولم يكن عندهم من آلات الحرب والقتال وأنواع السلاح الا الرمح والسيف والدرع والسهم ولم يكن لعامتهم حظ بالجيد من أنواع هذا السلاح لفقرهم وربما كان أجودهم سلاحاً أهل اليمن لخصب أرضهم وتقدم بلادهم فى الحضارة وعراقتهم فى الملك من عصور التبابعة ولذلك كان الفرس فى واقعة القادسية يشبهون سهام العرب بالمغازل لدقتها وسذاجة صنعها ولما جاء الاسلام جمع هذه الأمة على كلمته وضم قبائلها الى رايته فلم يلبثوا ان دبت فيهم روح الاجتماع وشعروا بالحاجة الى الطاعة والانقياد والتكاتف والاتحاد وكان من ذلك ان خضدوا شوكة الدولتين فارس والروم لمّا دفعهم أبو بكر وعمر الى قتال الأمم وفتح الممالك وأظهروا فى قتال جنود الدولتين من التفنن في أساليب الحرب والتعود على الطعن والضرب ما رأيت فيما تقدم من هذا الكتاب مما جعل النصر حليفهم والقوّة رائدهم فى كل مكان

فمن ذلك انهم كانوا لا يقتحمون جنداً ولا يمعنون فى داخل البلاد ما لم يجعلوا وراءهم رداء أى مدداً يحمى ظهورهم ويؤمن طريق الرجعة ولا يمكن العدوّ من أن يقطع على موادهم كما رأيت ذلك في وقعة اليرموك حيث كان ردءهم يزيد بن أبي سفيان وعند مسير الجيش الى اصطخر لانقاذ العلاء حيث قامت المسالح من البصرة الى الاهواز يمد بعضها بعضاً ويواصل بالمدد ذلك الجيش كي لا يقطع عليه الفرس

طريق الرجوع ويهلك مع جيش العلاء

ومنها انهم كانوا لا يحاصرون مدينة مالم يقطعوا عنها طرق المواصلة مع جيش العدو كما رأيت في فتوح دمشق حيث أرسل أبو عبيدة عشرة قواد ومعهم الجيوش فنزلوا بين فحل ودمشق وأرسل ذا الكلاع بجيش فكان بين حمص ودمشق وبعث عَلْقَمَة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين فلسطين ودمشق ثم زحف هو وخالد ويزيد بن أبي سفيان على دمشق وحاصرها حتى فتحها ثم سار منها الى فحل

ومنها انهم كانوا يبدأون العدو بالقتال في أطراف بلاده التي تلي البادية كي اذا أصابهم هزيمة تكون جزيرة العرب من ورائهم فلا يسع جيش العدو تتبع أثرهم واقتحام صحارى بلادهم كما رأيت ذلك في عملهم باليرموك والقادسية وكانوا يجتهدون أن يجعلوا هذه الوقائع الأولى كبيرة عظيمة لتكون مقدمة للنصر وباعثاً على توهين شوكة العدو وإلقاء الرعب في قلوب جيوشه لهذا كانت وقعة القادسية واليرموك من أهم ما دون في تاريخ الحروب الاسلامية وكل ما كان بعدهما من النصر انما تأتى عن كسر حدة الجيوش الرومية والفارسية وخضد شوكتهم واضعاف قوتهم في هاتين الواقعتين

ومنها براعتهم في اقامة خطوط الدفاع على طول البلاد اذا أراد مهاجمتها العدو كما صنع المثنى بن حارثة الشيباني في العراق حيث رتب المسالح من أوله الى آخره بحيث ينظر بعضها الى بعض ويمد بعضها بعضاً: ومنها ترقب الفرص واغتنامها كما صنع خالد في فتح دمشق واستعمال التأني والحيلة في الحرب توصلا للفتح كما صنع ذلك عمرو بن العاص بدخوله بنفسه على جيش الارطبون بحجة انه رسول من قبل المسلمين ليقف من حال جيشه على مالم يقف عليه بواسطة الرسل

وكما صنع عبادة بن الصامت فى فتح اللاذقية باظهاره القفول عنها وحفره الاسراب لاختفاء جنده فيها

ومنها اليقظة الدائمة لحركات العدو وسكناته والاستعداد لصد غاراته كما كان ذلك لما حاول هرقل مهاجمة جيش المسلمين من جهة الجزيرة ووقف المسلمون على خبره قبل أن يبدأ بشيء من ذلك فأدربت عليه الجنود من جهتين من جهة الشام بقيادة خالد بن الوليد ومن جهة العراق بقيادة من ذكر في محله من القواد حتى أوقفوه عن حركته ولم يمكنوه من المهاجمة ولا الوصول الى الجزيرة

ومنها توهينهم قوة العدو باشغال جيوشه بالحرب عن أن يمد بعضها بعضاً عند الحاجة كما كان ذلك لما هاجم هرقل حمص واستنجد بأهل الجزيرة فاسرعت القواد من العراق وشغلت أهل الجزيرة عن نصرة هرقل ريثما تمت هزيمته وغلب عليه جيش أبي عبيدة بن الجراح

ومنها براعتهم في سرعة اجتماع جيوشهم بعضها الى بعض عند وجود الخطر الكبير ومظنة الخوف من غلبة العدو على جيوشهم اذا كانت متفرقة كما كان ذلك في اجتماع الامراء على اليرموك بعد ان تفرقوا في أنحاء البلاد وإنما تيسر لهم هذا الاجتماع بمحافظتهم على خط الرجوع وعدم تمكن العدو من قطع طرق المواصلات بين تلك الجيوش وبين الردء الذي هو جيش يزيد بن أبي سفيان

هذا وأشباهه من مكائد الحرب التي مر ذكرها في غضون أخبار الفتح كلها تدل على براعة القواد المسلمين يومئذ وتفوقهم فى أساليب الحرب وأصول القيادة على قواد جيوش الروم والفرس لا سيما الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان مع بعده عن مواقف القتال يصدر أوامره الى القواد فى الاعمال الحربية وكيفية الهجوم

والدفاع على وجه يدل على انه من أعاظم قواد الجيوش فى العالم هذا فضلاً عما كان يوصي به القواد من الرفق وحسن المعاملة مع المغلوبين وعدم التسلط بالايذاء عليهم وبدوام اليقظة والسهر والرفق بجيوش المسلمين وعدم القائهم فى المهالك والتريث فى الحرب والتبصر فى أمور القتال الى غير ذلك مما مر بيانه فى هذا الكتاب ولا حاجة لاعادته هنا

وأما تعبية العرب للجيوش فى إبان الفتح الذي مر ذكره فى هذا الكتاب فقد بلغ الغاية فى الترتيب وحسن النظام والانتظام ونحن نذكر لك هنا مالم يسبق معنا ذكره فى هذا الكتاب من تعبيتهم للجيوش فى وقائعهم الشهيرة وهي وقعة اليرموك ووقعة القادسية ومنهما تظهر لك مرتبتهم فى فنون الحرب ومكانهم من البصيرة فى تعبية الجيوش التي تشبهها من كل الوجوه تعبية الجيوش فى هذا العصر كالطلائع والمجردات (الكشاف) والميمنة والميسرة (الجناحين) والقلب والساقة والردء (المدد) والرجل (المشاة) والركبان (الفرسان) وكان الغالب على العرب قبل الاسلام حب المبارزة والمهاجمة عند الالتقاء مع العدو فصاروا فى الاسلام يفضلون الزحف صفوفاً (كراديس) لقوله تعالى « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وكان الامراء والقواد يتفاوتون فى المراتب فنهم الامير العام (المشير الآن) ويليه خليفته (الفريق الآن) ويليهما أمراء التعبية كأمير الميمنة والميسرة والقلب وغيره (وهم الالوية الآن) ويليهم خلفاؤهم (الميرالايات الآن) ويليهم امراء الكراديس (الصفوف) ويليهم العرفاء وامراء الاعشار (الجاويش) والنقباء ولعلهم رؤساء المائة وفضلا عن هذا فقد كان يكون مع الجيش الرائد الذي يرتاد المواضع الموافقة لنزول الجيش والقاضي وأمير الاقباض أي الذي ينتهي اليه حفظ الغنائم وقسمة الفيء والترجمان

والكاتب والاطباء لمداوة الجرحى كما ترى ذلك كله مبسوطاً فيما يلي من ذكر تعبية الجيوش في اليرموك والقادسية

روى الطبري في تاريخه ان خالداً بن الوليد عبّى جيش المسلمين يوم اليرموك تعبية لم تعبّ العرب مثلها فجعل القلب كراديس وأقام فيه أباعبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شُرَحبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس من هذه الكراديس قائداً فجعل القعقاع بن عمرو وعلى كردوس من كراديس أهل العراق ومذعور بن عديّ على كردوس وجعل غير هذين بضعة وثلاثين قائداً كل قائد على كردوس منهم عياض بن غنم القرشي وحبيب بن مسلمة القرشي وسهيل بن عمرو القرشي وعكرمة بن جهل القرشي في عدة مثلهم من قريش وأما من كان من غير قريش فنهم ذو الكلاع الحميريّ والسمط بن الاسود الكنديّ وضرار بن الازور الاسديّ وجارية بن عبد الله الأشجعيّ واضرابهم من صناديد العرب الذين نضرب صفحاً عن ذكر أسمائهم حباً بالاختصار وكان القاضي أبو الدرداء والقاصّ [1] أبو سفيان بن حرب وكان على الطلائع قباث أشيم الكناني وكان على الاقباض عبد الله بن مسعود وكان القارىء المقداد بن عمرو وكان من السنة أن تقرأ سورة الانفال عند القتال وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ويحرض المسلمين على القتال

هكذا كانت تعبية الجيش على اليرموك وأما على القادسية فربما كانت أرقى من ذلك وأحسن نظاماً وترتيباً فقد ذكر الطبريّ انّ سعد بن أبي وقاص قدّر

(١) في القاموس القاص من يأتي بالقصه ولعله هنا الذي يحمل اوامر الامير الى الصفوف ويأتيه بأخبارهم .

الناس وعباهم بشراف كما أمره عمر (رض) فأمّر أمراء الاجناد وعرّف العرفاء على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات أزمان النبيّ صلى الله عليه وسلم: قال الطبرى وكذلك كانت الى ان فرض العطاء: وأمّر على الرايات رجالاً من أهل السابقة وعشّر الناس وأمّر على الاعشار رجالا من الناس ولهم وسائل فى الاسلام وولّى الحرب رجالا فولّى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورَجالها وركبانها فلم يفصل (أي من شراف) الا بتعبية فامّا أمراء التعبية فاستعمل زهرة ابن عبدالله بن قتادة بن الحَوِيّة من ملوك هَجَر فقدّمه ففصل بالمقدمات من شراف حتى انتهى الى العذيب: واستعمل على الميمنة عبدالله بن المُعْتَم: واستعمل على الميسرة شُرَحْبِيل بن السمط الكنديّ وكان غلاماً شاباً وكان قاتل أهل الردة فعرف ذلك له (مر خبره فى ذلك فى سيرة أبي بكر) وجعل خليفته خالد بن عُرْفطة وجعل عاصم بن عامر التميمي ثم العمرىّ على الساقة وسوّاد بن مالك التميميّ على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجل حمّال بن مالك الاسديّ وعلى الركبان عبدالله بن ذي السهمين الخثعمىّ فكان أمراء التعبية يلون الامير (أي بعده فى المرتبة) والذين يلون أمراء التعبية أمراء الاعشار والذين يلون أمراء الاعشار أصحاب الرايات والذين يلون أصحاب الرايات والقواد رؤس القبائل: قال الطبرىّ وبعث عمر الاطبة[1] وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن ابن ربيعة الباهلي ذا النور وجعل اليه الاقباض وقسمة الفيء وجعل داعيتهم[2] ورائدهم سلمان الفارسيّ والترجمان هلال الهَجَريّ والكاتب زياد بن أبى سفيان

---

(١) جمع طبيب وهو جمع قلة وذلك لان الاطباء يومئذ قليلون فكان يرسل مع الجيش ولو عدداً قليلا لمداوة جرحى الحرب (٢) داعيتهم اي الذي يدعو الي دينهم ويبلغ العدوّ مطالبهم ورائدهم الذي يرتاد لهم مواضع النزول

وأنت ترى من هذا أن تعبية الجيش على عهد عمر بن الخطاب كانت وافية بالغرض من كل الوجوه وما نخال ان تعبية جيوش الدول المتمدنة يومئذ كالفرس والروم كانت أرقى من تعبية جيوش المسلمين وانما كان الفرق بين الجيشين بالعدد الحربية كما قدمنا ومع ذلك فان العرب لما خالطوا تلك الجيوش ورأوا ما عندها من أدوات الحرب وعدتها كالأوهاق [1] والمجانيق والسلالم وغيرها من أدوات الحصار وما شابهها بادروا الى استعمالها فى حروبهم معهم كما رأيت ذلك فى الكلام على حصار دمشق وبالطبع كما انهم استعملوا أمثال هذه الآلات فقد استعملوا أيضا أنواع السلاح الجيد الذي كانوا يغنمونه من هذه الجيوش ومن ثم تكافأ المسلمون بالقوى الحربية يومئذ مع أعدائهم وانما كانت تفضلهم جيوش الفرس والروم بكثرة العدد ويفضلهم العرب بالشجاعة العربية التي فاقت حد الوصف وألقت الرعب يومئذ فى قلوب الأمم كما رأيت ذلك فى أخبار الفتح يضاف اليه علم أمير المؤمنين عمر (رض) ويقظته وسهره الدائم على أمور المسلمين وتعزيزه جانب الملك بسد الثغور وإعداد المرابطة واقامة المسالح فى الاطراف التى يأتى من قبلها الخطر وأمره للعمال بادرار أرزاق الجند ومواصلته بالاخبار وشحن الاماكن المخوفة بالجنود واقامة الحراس على المناظير التي توقد فيها النيران لتخبر عن الجهة التى يقبل منها العدو . وبالجملة صرفه العناية فى كل ما يعود بالقوة والعز على المسلمين ويرفع شأن الخلافة كما رأيت وترى ذلك فى هذا الكتاب . ويضاف اليه براعة القواد المسلمين وتفوقهم فى أساليب الحرب واعتقاد المسلمين بالنعيم الأخروي الذى كان يحبب اليهم الموت فى ميادين الحرب ونيل الشهادة بين صفوف الاعداء : وصبرهم على المكاره وتحملهم لشظف العيش

(١) الحبل يرمي في أنشوطة فتؤخذ به الدابة والانسان كما في القاموس

ورضاهم بالكفاف من القوت واستخفافهم بجنود الاعداء قلوا أو كثروا واعتقادهم بالحصول على النصر الذى وعدهم الله به اذا نصروا الحق وعدلوا بين الناس

كل هذه من الاسباب التى رجّحت جانب المسلمين علي جانب الاعداء ومهدت طرق الغلبة لجيوش العرب والذي وفّر هذه الاسباب انما هو اجتماع العرب بعد التفرق واتحادهم علي كلمة الاسلام بعد التخاذل والانقسام كما عرفت ذلك مما قاله عمر للهرمزان وهو: انما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا: وحسبك فى مهاجمة الأمة العربية لدولتي الفرس والروم وإقدامهم على التغلغل في أحشاء المملكتين القديمتين فى آن واحد ومهابتهم التي خامرت النفوس دليلا يؤيد قول عمر بن الخطاب (رض) وشاهداً يشهد بفضل الاسلام الذى جمع على كلمته تلك القبائل المتفرقة التى ما كانت لتحلم بالسيادة على الشعوب لولا ذلك الاجتماع: هذا وأمّا أصول التجنيد فى عهد عمر (رض) وأعطيات الجند وديوان الجيش فالكلام عليه طويل وانما نجتزئ عنه بما يأتى

الجهاد فرض على المسلمين يحتم عليهم حماية الدعوة والذب عن حوزة الاسلام الاّ انه من فروض الكفاية التى اذا قام بها البعض سقط عن الكل وعلى هذه القاعدة بنى التجنيد فى الاسلام فكان أبو بكر وعمر يستنفران الناس للجهاد فمن أجاب كان جنديا له حظ فى الفيء والغنائم واستمر ذلك فى ولده الى ماشاء الله ولا يؤخذ من هذا أنّ الجندية على هذا الوجه اختيارية بل هي باعتبار كونها فرضاً اجبارية وللخليفة اذا تخلف المسلمون عن هذا الفرض اجبارهم عليه عند الحاجة وكان أبو بكر رضى الله عنه يسوّي بين الناس في قسمة الفيء ويضرب في المغانم للفارس منهم ثلاثة أسهم سهمان لفرسه وسهم له وللراجل سهم ولا يفضل الخيل

بعضها على بعض وبقي الحال على ذلك صدراً من خلافة عمر (رض) أي الى سنة (١٥) حيث دوّن عمر الدواوين وفرض العطاء كما سترى في باب آثاره في الخلافة ولم يسوّ في قسمة الفيء بين الجند بل جعلهم على مراتب وطبقات باعتبار السابقة فقد روى ابن جرير الطبري ان عمر لما فرض العطاء فرض لاهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية الى ان أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلثة لاف ثلثة آلاف في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولي الايام قبل القادسية (أي الحروب التي كانت قبلها) كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لاهل القادسية وأهل الشأم ألفين ألفين وفرض لاهل البلاء (أي الذين عرف بلاؤهم في الحرب) البارع منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة وفرض لمن بعد اليرموك والقادسية ألفاً ألفاً وكانت هذه الطبقات هي الاصل في ترتيب العطاء ومن جاء بعدهم من الطبقات ممن لم يشهد تلك المشاهد الكبيرة كان يلحق كل قوم منهم بأهل طبقة من تلك الطبقات يسمون الروادف والرديف لغة التبع وقد فرض لهؤلاء الروادف على درجاتهم للمثنى منهم خمسمائة خمسمائة ثم للروادف الثليث بعدهم ثلثمائة ثلثمائة وسوّى كل طبقة في العطاء قويّهم وضعيفهم عربهم وعجمهم وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين مائتين وخمسين وفرض للنساء مثل ذلك أيضاً فجعل لنساء الجند من الخمسمائة الى المائتين وجعل للصبيان مائة وعلى هذا الترتيب ضبطت اعطيات الجند في ديوان الجيش وكان من أراد الالتحاق بالجيش بعد تدوين عمر (رض) الديوان يقيد في ديوانه على هذا الترتيب ثم كان على عهد عثمان رضي الله عنه ومن بعده يزاد وينقص العطاء على مقتضى الظروف والاحوال كما سترى بعد. وأما المغانم فقد ضرب أحد عماله بالشام للفارس بسهمين وللراجل بسهم فأجازه

ويظهر مما تقدم ان عمر (رض) كان يسوّى بين الجنود الاعاجم من الفرس والروم الذين تأخر اسلامهم وبين العرب كل منهم فى طبقته باعتبار السابقة أيضاً بل ربما ميّز بعضهم أحياناً فى العطاء تأليفاً لقلوبهم كما صنع ذلك مع سياه الفارسى وقومه لما أسلم وأسلموا معه كما رأيت ذلك فى خبر فتح تستر والسوس

وكانت أصول اعطاء العطاء لاهله على مافى رواية ابن جرير الطبرى هكذا يدفع العطاء الي أمراء الاسباع وأصحاب الرايات والرايات على أيادى العرب فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والامناء فيدفعونه الى أهله فى دورهم: ولنا كلام آخر على تدوين الديوان والفئ وحكمه سيأتى فى باب آثاره فى الخلافة ان شاء الله

باب

(علائق عمر مع الملوك)

كانت علائق عمر قبيل وفاته مع ملك الفرس حربية كما رأيت وتوفى رضى الله عنه وجيوشه تطارد يزدجرد فى بلاده وتدوخ ملكه وأما علائقه مع ملك الروم فقد كانت سلمية واستقر بين دولتيهما الصلح منذ أتم عمر (رض) فتح الشام والجزيرة وجرت بينه وبين ملك الروم المكاتبات الودادية وذكر مؤرخو العرب ان هذه المكاتبات كانت مع هرقل ولكن لم يذكروا هل كانت مع هرقل الأول الذى انتزع منه عمر بلاد الشام أم مع ابنه هرقل الثانى المعروف بهرقل قسطنطين لان هرقل الاول توفي سنة (٦٤١م) الموافقة سنة (٢١هـ) وتولى الملك ابنه المذكور فى هذه السنة أى قبل وفاة عمر (رض) بسنتين وسواء كان حصل التواد والمكاتبة مع هرقل الاول أو الثانى فقد بلغ من توثق عرى العلائق الحبية يومئذ بين الفريقين ان كانت تتردد بينهما الرسل بالمكاتبة

وانّ أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزوج عمر بن الخطاب أرسلت مرة مع رسول جاء المدينة من قبل ملك الروم هدية من الطاف المدينة الى أمبراطورة الروم امرأة هرقل وأرسلت لها هذه في نظيرها عقداً نفيساً من الجواهر فأخذه منها عمر وردّه الى بيت المال هذا على ما في رواية نقلها في كنز العمال وأما الطبري فذكر ان امّ كلثوم أرسلت تلك الهدية مع بريد عمر ونص رواية الطبريّ بتصرف واختصار

قالوا وترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسأله عن كلمة يجتمع فيها العلم كله . فكتب اليه أحبّ للناس ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لها تجتمع لك الحكمة كلّها واعتبر الناس بما يليك تجتمع لك المعرفة كلّها . الى أن قال بعد ان أورد مكاتبات أخرى جرت بينهما . وبعثت امّ كلثوم بنت علي بن أبي طالب الى ملكة الروم بطيب ومشارب واحفاش من احفاش النساء ودسته الى البريد فأبلغه لها وأخذ منه وجاءت امرأة هرقل وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيّهم وكاتبتها وكافتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر فلمّا انتهى به البريد الى عمر أمره بامساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال انه لا خير في أمر أبرم من غير شورى ثم أخبرهم الخبر وسألهم عن أمر العقد فكلهم أشار بدفعه لام كلثوم . فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم فأمر برده الى بيت المال ورد على امّ كلثوم منه بقدر نفقتها

وقد ذكر الطبري هذه الرواية في أخبار سنة (٢٨) في غضون الكلام على غزو المسلمين في البحر وان عمر ترك غزو البحر فترك ملك الروم غزوه وكاتبه وسالمه وهو دليل على رهبة ذلك الخليفة العظيم التي دبت في قلوب الملوك فرأى هرقل ان مسالمته خير من مناوأته ففعل وكان من الغانمين

باب

(أهم الاحداث في عصره)

أهم الاحداث فى خلافة عمر رضى الله عنه طاعون عمواس وعام الرمادة فاما طاعون عمواس فاختلف فى سنة حدوثه هل كانت سنة ١٧ أوسنة ١٨ وروى الطبرى انه ظهر فى العراق ومصر واستقر بالشام وفتك بالناس فتكاذريعا ومات به فى الشام عدة من اعلام المسلمين منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد ابن أبي سفيان ولما اشتدت على الناس وطأته خطب الناس عمرو بن العاص فقال : أيها الناس انّ هذا الوجع اذا وقع فانما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه فى الجبال ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا فى الجبال ورفعه الله عنهم

وروى الطبري عن ابن عباس أنّ عمر خرج فى تلك السنة غازياً وخرج معه المهاجرون والانصار فلما بلغ سَرْغ وافاه أمراء الاجناد فى الشام وأخبروه خبر الطاعون وأشاروا عليه بالرجوع فجمع الناس واستشارهم فى الرجوع فمنهم من أشار عليه به ومنهم من أشار عليه بالقدوم وكان ممن أشار عليه بالرجوع مهاجرة الفتح فأصبح وقد عزم على الرجوع فقال له أبو عبيدة بن الجراح أفراراً من قدر الله : قال نعم فراراً من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو أنّ رجلا هبط واديا له عدوتان (ضفتان) احداهما خَصِبة والاخرى جَدِبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله : ثم قال لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك اذا أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالامس فقال ماشأن الناس فأخبر الخبر فقال عندى من هذا علم : فقال عمر فانت عندنا الامين المصدّق فماذا عندك : قال

سمعت رسول الله يقول (اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه) فقال عمر فلله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم[1]

ولما زال الطاعون وبلغ عمر ما أصاب الناس من كثرة الموت حتى كادت تضيع المواريث قدم الشام ونزل الجابية وقسم المواريث وسد الثغور واستعمل بدل من ماتوا من العمال كما سترى ذلك في الباب التالي وكانت هذه المرة هي المرة الرابعة التي قدم بها الشام ولم يأتها بعد ذلك

واعلم ان طاعون عمواس كان عظيم الخطر على المسلمين وأفنى منهم أكثر من عشرين ألفا وهو عدد يوازي نصفهم بالشام وربما تخوف من ذلك المسلمون يومئذ واستشعروا الخطر من قبل الروم وفي الحقيقة لو تنبه الروم لهذا النقص الذي أصاب جيش المسلمين في سورية يومئذ وهاجموا البلاد لصعب على الجيوش المرابطة دفعهم ولكن ربما كان اليأس تمكن من نفس هرقل فأقعده عن مهاجمة المسلمين خصوصا اذ كان أهل البلاد راضين بسلطة المسلمين مرتاحي القلوب الى سلطانهم العادل وسيرتهم الطيبة الحسنة وبدون الاستعانة بهم لا يتيسر لهرقل مهاجمة البلاد لاسيما اذا أضفنا الي هذا ملل القوم من الحرب واخلادهم الى الراحة من عناء المقاومة لقوم أصبح النصر حليفهم في كل مكان ودب الرعب من سطوتهم في قلب كل انسان

وأما عام الرمادة فسمي بذلك لريح كانت تسفي ترابا كالرماد وأصاب الناس بالحجاز مجاعة شديدة وكان قحط عظيم أهلك الضرع والزرع وعانى عمر (رض) بسبب ذلك النصب وآلى ان لا يأكل سمنا ولا عسلا حتى يحيي الناس ويكون واياهم

---

(١) اتخذ المتأخرون هذا الحديث ورجوع عمر الى الحجاز حجة على مشروعية الحجر الصحي المعروف بالكورنتينا

سواء بالخصب والجدب وجعل يأكل الزيت حتى قرقر بطنه فقدمت السوق يوماً عكة سمن ووطب [1] من لبن فاشتراهما غلام لعمر باربعين درهما ثم أتى عمر فقال يا أمير المؤمنين قد أبر الله يمينك وعظم أجرك قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن ابتعتهما بأربعين درهما فقال عمر تصدق بهما فانى أكره ان آكل اسرافاً وقال كيف يعنينى شأن الرعية اذا لم يصبنى ما أصابهم وكتب عمر الى أمراء الامصار يستغيثهم فبعث عمرو بن العاص الطعام الى المدينة وبعث أمير الشام باربعمائة راحلة عليها الطعام وقالوا انه أبو عبيدة بن الجراح وهو خطأ لان عام الرمادة كان بعد طاعون عمواس الذى توفى به أبو عبيدة بن الجراح ويدلك على هذا ارسال عمرو بن العاص الطعام من مصر وانما كان فتح مصر بعد الطاعون اذ كان عمرو بن العاص عام الطاعون بالشام ولما قدم عمر بن الخطاب لقسمة المواريث استأذنه بقصد مصر وأذن له وسار وكان ذلك سنة ١٧ أو سنة ١٨ والذى دعا عمرو بن العاص لاحتفار الترعة الموصلة بين النيل وبحر القلزم انما هو عام الرمادة وقال بعضهم ومنهم ابن الاثير ان عمراً أصلح بحر القلزم وأرسل فيه الطعام وهو غير مفهوم وانما أرسل الطعام فى البر ثم استأذن عمر بحفر الترعة ووصل بين النيل وبين بحر القلزم احتياطاً من مثل ذلك الحادث وتقريباً للمسافة بين المدينة وبين مصر وسنستقصى الخبر عن ذلك فى سيرة عمرو بن العاص إن شاء الله تعالى

ولما اشتد الضيق على المسلمين استسقى عمر بالناس ودعا ودعا معه العباس رضى الله عنهما ففرجها الله على الناس وأرسل عليهم من سماء رحمته السحاب الثقال فسقت الارض وأنعشت النفوس وانفرجت الأزمة وللحديث

---

(١) العكة القربة الصغيرة والوطب سقاء اللبن أى وعاؤه

الاستسقاء كلام طويل بين العلماء لا نحب الخوض فيه فليرجع اليه من شاء فى كتب المحدثين

باب

﴿ آثاره فى الخلافة ﴾

(كتابة التاريخ الهجرى)

لم يكن للعرب قبل الاسلام تاريخ يؤرخون به الا الحوادث الشهيرة عندهم فانها كانت بمثابة التاريخ فكانوا يقولون حدث ذلك في عام الفيل مثلا وولد فلان بعد عام الفجار بكذا وهلم جرا واستمر ذلك فى الاسلام الى مضي سنتين ونصف من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أى الى سنة ست عشرة من الهجرة وفيها رأى عمر لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث بعد اذ انتشر الاسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط الشؤون والاعمال فى الحكومة الاسلامية فجمع الصحابة الكرام واستشارهم في ذلك وسألهم من أيّ يوم نكتب التاريخ فأشار عليه عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه بان يجعل التاريخ من السنة التى هاجر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ففعل

﴿ تدوين الدواوين وفرض العطاء ﴾

من البديهي ان حاجات الدولة تترقى بترقى العمران وامتداد السلطان وقد كانت دولة الاسلام فى خلافة أبى بكر وصدراً من خلافة عمر فى مبادئ الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخرج الا الصدقة التى كانت تؤخذ من الاغنياء وترد على الفقراء [1] وأما المغانم والفيء فكانت قليلة لم

(١) علمت من هذا الفصل وغيره حكم الفيء في الاسلام ووجوه صرفه التي أبانها

تحوج أخماسها التي يبعث بها المدينة الى صرف العناية في ترتيب الشؤون الادراية على أصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم وانما كانت العناية منصرفة الى الشؤون الحربية والفنون العسكرية ولما توسع المسلمون في الفتح وانتشروا

الكتاب الكريم وزيادة في الفائدة تشرح لك هنا حكم الصدقة ووجوه الصرف التي قررها للصدقة الاسلام ومنها تعلم ان الأمة الاسلامية انما سعدت واعتزت وقويت في صدر الاسلام بالعمل بهذا واشباهه من قواعد الاسلام التي ترمي كلها لغرض واحد وهو سعادة المسلمين : الصدقة تؤخذ على السائمة من غنم وابل وبقر بنسبة معلومة في كتب الشريعة لا محل لبسطها هنا وهي ليست كالفيء من حق سائر المسلمين بل هي والعشور التي تؤخذ من المسلمين لمن سمي الله عز وجل في كتابه الكريم بقوله تعالى (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) قال ابو يوسف اما المؤلفة قلوبهم فقدذهبوا واما العاملون عليها (يعني ولاة الصدقة) يعطيهم الامام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وبقية الصدقة للفقراء والمساكين بسهم وللغارمين وهم الذين لايقدرون على قضاء ديونهم سهم وفي ابناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون وفي الرقاب سهم في الرجل يكون له الرجل المملوك أو أب مملوك أو أخ أو أخت أو أم أو ابنة أو زوجة أو جدة أوعم أوعمة أو خال أوخالة وما أشبه هؤلاء فيعان في شراء هذا ويعان منه المكاتبون وسهم في اصلاح طرق المسلمين: في كلام طويل يرجع اليه من شاء في كتاب الخراج وانما نقول هنا ان الأمة الاسلامية لو عملت بالكتاب الكريم ولم يحد أولياء أمورها عن هذا النهج القويم لما عرف فرد من أفرادها شقاء الحياة التي تعانيها الطبقة النازلة الآن وأيّ شريعة في العالم تقضي على الامة بوفاء دين العاجزين عن وفاء ديونهم من أفرادها واعالة فقرائها ومواساتهم بقسم من مالها وأيّ شريعة في العالم تأخذ من الاغنياء قسماً من مالهم لتشتري به الارقاء وتجعلهم أحراراً سعداء اللهم ليس غير هذه الشريعة شريعة تجعل الناس في سعادة الحياة كلهم سواء وتريد المسلمين على التكافل والتضافر والاخاء ولكن أضاعها أهلها فخسروا وكانوا من النادمين فانا لله وانا اليه راجعون

في الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت في مناحي العمران وأخذ يزداد الفيء من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وأمرائه بضبطها ولا قبل لهم باحصاء مستحقيها وتوزيع الاعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل الا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدها في قيود خاصة دعا عمر رضي الله عنه الصحابة واستشارهم في كيفية تدوين الديوان . فقال علي بن أبي طالب تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئاً وقال عثمان: أرى مالاً كثيراً يسع الناس . وان لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الامر (ينبسط أو يلتبس) : فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دوّنوا ديواناً وجنّدوا اجناداً [1] فدوّن ديواناً وجنّد جنداً : فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطيّة كما في القاموس وتوسعوا بمسماه بعد فأطلقوه على كل دفاتر الحكومة الادارية وغيرها ثم على المكان الذي يكون فيه الديوان فسموه ديواناً

ولما كتبت الدواوين كُتب ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية واستمر كذلك الى عهد عبد الملك بن مروان في الشام والحجاج بن يوسف عامله على العراق فنقل عبد الملك في الشام الديوان الى العربية ونقله الحجاج في العراق الى العربية وسببه كما نقل ذلك في فتوح البلدان ان عبد الملك بن مروان بلغه

---

(١) قال في القاموس الجُند بالضم العسكر والاعوان والمدينة وصنف من الخلق على حدة اه والعرب كانوا يسمون كل ناحية لها جند يقبضون أرزاقهم به جنداً فيقولون جند قنسرين وجند الاردن وغيرها وهي من ترتيب عمر بن الخطاب (رض) كما سترى

عن أحد كتاب الروم أمراً ساءه فأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان الى العربية فسأله ان يعينه بخراج الأُردن سنة ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى به عبد الملك بن مروان فدعا بسرجون كاتبه فعرض عليه ذلك فغمه وخرج من عنده كئيباً فلقيه قوم من كتاب الروم فقال اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم

وكذلك فعل الحجاج في العراق والذي نقله الى العربية هو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم وكان يكتب بين يدي زادان فرّوخ الفارسي كاتب الحجاج ولما قصد نقل الديوان الى العربية بذل له مردان شاه بن زادان مائة الف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فأبى ونقله والقصة طويلة ستر د في سيرة الحجاج ان شاء الله

وأنت تعلم ان قوام الدولة هو المال وروحها التي تحتاج في جسمها فتدير حركته هو الديوان ومع هذا فلما لم يكن العرب يومئذ في الدرجة التي تؤهلهم لادارة شؤون الديوان على أصول الدول المترقية في الحضارة عهد الخلفاء بهذا العمل الى الاعاجم من الفرس والروم ورضوا بكتابة الديوان بلغة الكتّاب الغريبة عن لغتهم مع ما في هذا من الغبن الظاهر وتعريض أموال الدولة لتلاعب الكتاب وانما دعاهم الى تسليم الدواوين الى الأعاجم وترتيبها على نحو ترتيب دولتي الفرس والروم ضرورة التوسع في الفتح والترقي في مراقي الحضارة والخروج عن حالة البداوة الى حالة تستلزم تقليد الأمم الراقية في وسائل العمران اذلم يروا الهم مندوحة عن هذا الامر كالم يروا امانعاً في الدين يمنعهم من مبارات الأمم في أصول الحضارة والمدنية وأخذ العلم النافع ولو عن مشركي الفرس. ومن البلاء ان ألصق بعض الفقهاء بعدُ كل شيء من أمورنا الدنيوية بالدين وحرّموا على الأمة العمل بأي شيء نافع مادام

لم يصبغ بصبغة إسلامية ولو تمحلاً : ولوكان الدين يضيق على هذه الامة الى الحد الذي توهمه أولئك الفقهاء لما قلد عمر رضي الله عنه الفرس والروم فيما اقتضته حاجة الدولة في عصره من وضع التاريخ والديوان وترتيب الجيوش وإعداد العدة الحربية نحو ذلك واذا قيل ان عمر رضي الله عنه مجتهد له أن يفعل بما يرى فيه المصلحة وعلى والأمة أن تعمل فكيف ساغ مثل الحجاج بن يوسف أن يبدل أمراً اجتهد به الخلفاء الراشدون وأقروه فأصبح شرعاً لا ينبغي لاحد سواهم التصرف فيه والعدول عنه .

ألهم ان طبيعة الاجتماع تقضي بأخذ الأمم بعضها عن بعض كل مايصلح للترقي في مراقي الكمال وشأن الامم هذا شأن الأفراد في إحراز العلم بالمسابقة والاكتساب ومعاذ الله أن يرضى الاسلام بالحرج للمسلمين ويمنعهم عن المسابقة مع السابقين ليكونوا أدنى الأمم والشعوب وانما توهم بعضهم أن من لوازم الدين صبغ كل شيء بصبغة الدين جعلنا نحكم بعقولنا القاصرة في الدين ونعتقد ان الأخذ بأي سبب نافع من أسباب المدنية التي نتوصل بها الى مسابقة الأمم والغلبة على الدول زيغ عن صراط الدين حتى بلغ بنا هذا الاعتقاد الفاسد أن صرنا نحرم الامر الذي يدعونا الدين اليه ويحثنا عليه وأقرب شاهد من هذا القبيل نتلوه عليك هذا الشاهد الملخص من تاريخ السلطان سليم الثالث العثماني رحمه الله

تولى هذا السلطان العاقل منصب السلطنة في أوائل الجيل الماضي وقد اضطرب أمر الدولة وأشرفت على السقوط في هوة الدمار لتغلغل الفساد في جسم الفرق اليكجرية يومئذ وانحلال قوى الدولة بانحلال قوى الجندية العثمانية وانحطاط نظامها في جانب نظام الجند الاوربي الذي ظهر يومئذ بمظهر جديد مبني على الاصول العلمية والاختبارات الفنية فخشي السلطان انه لم يأخذ بأصول الجندية

الجديدة ولم يبارِ بترتيب الجيوش المنظمة جيرانه من الدول الاوربية أن تكتسح هذه الدول مملكته العظيمة اذ ظهرت له بوادر الخطر يومئذ باحتلال نابليون لمصر وتحفز الروس للوثوب على القسطنطينية ونزوع أهالي المورة للثورة فعزم عزماً أكيداً على تنظيم الجندية العثمانية وقبول الاصلاحات الاوربية في البحرية والعسكرية وإلغاء الجندية الينيجرية ورأى أن تعريض حياته الشخصية للخطر مع جنود الينيجرية خير من تعريض المملكة لهجوم الدول الاوربية ومصير الدولة العثمانية للزوال وهو شمم وعلو نفس وأقدام قل أن صدر مثله عن أحد من الملوك الآفيما ندر اذ معظمهم يجعلون حياة الدولة والملك فداءً عن حياتهم الشخصية ولا جرم فانّ لكثير من أفراد هذه الاسرة العثمانية كثيراً من الايادي البيضاء على الامة وكل امرئ يذكر بفعله وأجهل المؤرخين من يغمط فضل الرجال لما سنحت الفرصة لذلك الملك المقدام وأراد إبراز هذا العمل من القوة الى الفعل كان أول المقاومين له علماء الدين وفي مقدمتهم عطاء الله أفندي شيخ الاسلام في عصره فحرضوا عليه العامة وأثاروا عليه الضغائن بحجة أنه يريد التشبه بالافرنج وما زالوا يكافحونه مع الينيجرية ويكافحهم حتى تغلبوا عليه وخلعوه ثم قتلوه وجرت بعد ذلك أمور يطول شرحها على عهد خلفه السلطان مصطفى والذي يليه السلطان محمود وكان قصاراها إهراق سيول من الدماء أنفذ بعدها السلطان محمود رحمه الله بماضي عزيمته إرادته في الاصلاح وقضى على نظام الينيجرية وأهلها شر قضاء وتالله لو لم يفعل ذلك لما بقي لدولة آل عثمان باقية الى الآن اذ هي الآن على ضخامة قوتها وترتيب جندها على النظام الجديد ومجاراته لأحسن جنود الدول في فنون الحرب قد غلبت على أمرها وانتزعت الدول الاوربية كثيراً من ممالكها الاوربية والافريقية فكيف بها لو كانت على حالها القديم من ضعف الجندية وفساد النظام

لا جرم أنها كانت ذهبت لا قدر الله مع الذاهبين وأصبحت مثلا في الغابرين ولو سئل ساعتئذ عطاء الله أفندي هل بهذا يأمر الدين ويريد تلاشي المسلمين لاجابك بالبراءة الى الله من ذنبه واستغفر الى ربه

على ان الدولة العثمانيـة حرسها الله قد قدت هذه القيود الثقال وقبلت من الاصلاح في أمورها السياسية وأمور الأمة المعاشية ماجعلها تدخل في مصاف الدول الاوربية وان كانت الأمة العثمانية لم تزل في دور الانحطاط وأماغيرها من الدول الاسلامية كدولة مراكش مثلا فانها لم تزل الى الآن على ما كانت عليه منذ مئات من السنين فليس لديها نظام للجندية ولا للادارة ولا للقضاء وليس عندها مدارس تعلم الناشئين الفنون الحديثة والاصول الحربية وتكسب الأمة ملكات العلم بحاجات العصر وترشد الدولة الى أسباب المنعة والقوة والمانع من هذا كله هو زعم تحريم الدين لمثل هذه المنافع الدنيوية ومعاذ الله أن يكون الدين رائد هلاك الأمة والمانع من ترقي المسلمين ولو كشفت الأمة المراكشية عن بصائرها حجاب الغفلة وقامت دولتها بواجب الخدمـة الصحيحة فنبذت عنها أوهام الواهمين وتخرصات الجاهلين فأخـذت بحظ من أصول المدنية النافعة لـكانت أحسن دول الاسـلام حالا وأعظمهن قوة لخلو بلادها من أهل الملل من غير المسلمين الذين تجعلهم الدول الاوربيـة في الممالك الاخرى ذريعـة لمد يدها الى الشؤون الداخلية والتعرض بالاذى للدول الاسلامية وتالله ان أمة يبلغ عددها الثمانية ملايين كلهم من جنس واحد ودين واحد لو رزقها الله سلطانا عظيم النفس عالي الهمة محبا للاصلاح يرتب شؤون دولته على نمط جـديد ويصرف همتـه في إعزاز شأن الملك لـكانت أمـة عزيزة الجانب منيعة الجناب ولـكان لها جيش منظم يزيد عدده عن النصف مليون يحمي ذمارها ويرد الغارة عن ديارها ولـكن

أين من يسمع ويعقل ومن ينصف ويعمل

هذا وأما فرض العطاء فان عمر أمر بان يحصى الناس بالديوان ويبدأ من ذلك بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ومن يليه من ذوي القربى ثم باهل السابقة والذين حضروا الفتوح على درجاتهم التي اختارها لهم عمر ثم بالفقراء والمساكين والنساء والاطفال كما هو مبين فى مظانه من كتب الاحاديث والتاريخ وقد أشرنا اليه في باب ديوان الجيش: وقال قائل لعمر يومئذ يا أمير المؤمنين لو تركت فى بيوت الاموال عُدّةً لكون إن كان: فقال كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقانى الله شرها وهى فتنة لمن بعدي بل أُعدّ لهم ما أمرنا الله ورسوله. طاعةً لله ورسوله فهما عدتنا التي بها أفضينا الى ما ترون فاذا كان هذا المال ثمن دين أحدكم هلكتم:

على ان العطاء على ذلك الوجه لم يستمر الا مدة الخلفاء الراشدين ثم لما تغير حال الدول وانتشر الاسلام وكثر المسلمون خصّ الخلفاء العطاء من غير الخمس بطبقة الجند فقط على نسبة اختاروها الا على نسبة الفيء كله أى خصصوا لهذا قدراً مخصوصاً من الفيء يختلف باختلاف الدول واستأثروا بالباقى وبالخمس لانفاقه فى وجوه المصالح العامة لان العطاء كان يعطى للمسلمين باعتبار انه فيء أخذوه بسيوفهم اذ كانوا كلهم جنوداً محاربين فاتحين ثم لما خصصت الجندية بطبقة مخصوصة من الناس تغير نظام العطاء أيضاً واضطر الدول بحكم الضرورة لاقتصاد الاموال وادخارها فى بيت المال لانفاقها على المصالح الأخرى التى تقوم بها الدول وتقتضيها أبهة الملك هذا بقطع النظر عما خصص منها للانفاق على ترف الدولة وشهوات الملك لان هذا تابع بالطبع لحال الملوك من عفةٍ وشرَهٍ وامساك وبذل

وأمّا الكلام على الفيء الذي هو أصل العطاء، وعلى حكمه وحكم الخمس وماهو وحكم الجزاء والجزية المستثناة من الخمس الى غير ذلك مما يتعلق بهذا البحث فبسوط فى كتب الفقه وكتب التفسير المطوّلة فليرجع اليه من أحب

وانما زيادة فى الفائدة نقول هنا إنّ الفيء هو كل ماصالح عليه العدوّ بعد وضع الحرب أوزارها وحكمه أن يرفع منه الخمس الى الامام ليقسمه بين أهله الذين نص عليهم القرآن والباقي يوزع على الجند الفاتحين للبلاد والمرابطين فى الثغور والقائمين على حراسة الدولة الا الجزية فانها مستثناة من حكم الخمس أى لا يرفع منها الخمس بل تعطى للجند القائمين بحماية أهل الذمة وحراسة البلاد

واعلم انّ الاسلام هو أول شريعة نصت على مصرف الفيء أى وجوه الصرف والانفاق من أموال بيت المال ووضع مايعرف الآن (بالبودچه) ومعناها تقرير وجوه النفقات السنوية للحكومة فقد روى الطبريّ فى تاريخه عن ابن عباس قال: لما فتحت القادسية ودمشق قال عمر للناس اجتمعوا فاحضروني علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام فاجتمع رأي عمر وعليّ على ان يأخذوا من قِبل القرآن فقالوا (ما أفاء الله على رسوله مِن أهل القُرَى) يعنى من الخمس (فللّهِ وللرسول) من الله الامر وعلى الرسول القسْم (ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الاية ثم فسروا ذلك بالآية التي تليها (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) الآية فأخذوا الاربعة الاخماس على ماقسم عليه الخمس فيمن بدىء به وثُنّى وثُلث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم ثم استشهدوا على ذلك أيضاً: بقوله تعالى: (انما غنمتم من شيء فانّ لله خمسه) فقسم الاخماس على ذلك واجتمع على ذلك عمر وعليّ وعمل به المسلمون بعدُ هذا ماذكره الطبريّ وانما كان عمل المسلمين بذلك مدة الخلفاء الراشدين

وأما من يليهم الى اواسط الدولة العباسية فقد عملوا بهذا بما وصل اليه الامكان ثم لما توسع أمر الدول وتبسط الخلفاء فى مناحى الحضارة أخذ يتغير ذلك الترتيب كما علمت هذا مما تقدم وربما بدأ هذا التغيير فى عهد ولاية معاوية على الشام كما سترى فى قصته مع أبي ذر فيما يلي من هذا الكتاب

﴿ ترتيب العمال ﴾
(وتقسيم الولايات)

لما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كانت الحرب قائمة فى الشام وكان الامراء من علمنا مما تقدم فى محله فجعل امارة مايفتح من الشام الى أبى عبيدة وجعل امارة الحرب في كل جهة لأمير مخصوص فجعل إمارة الحرب فى دمشق ليزيد بن أبى سفيان وامارة الأردن لشرحبيل بن حسنة وامارة فلسطين لعمرو بن العاص وقد مر تفصيل ذلك وبيانه الآن ان الامارة العامة كانت لابى عبيدة فالمخابرة والصلح وكل مايتعلق بامور الحرب السياسية كان منوطاً به ولما تم فتح الشام واستقرت فيها قدم المسلمين أبقى أباعبيدة أميراً عاماً على الشام وجعل مقره حمصاً وأضاف اليه جند قنسرين ثم أضيف الى هذا القسم جزء من الجزيرة لما فتحها عياض بن غنم وولي جند قنسرين بعد وفاة أبي عبيدة ثم جعل دمشق جنداً وعليها يزيد بن أبى سفيان ثم معاوية بعده ثم جعل الاردن كذلك جنداً وفلسطين جنداً وقسمه الى قسمين أحدهما حاضرته ايلياء والآخر حاضرته الرملة وقد مر الكلام على ذلك فلا حاجة للتفصيل والمراد من الجند هو أنهم كانوا يسمون كل ناحية بها جند يقبضون ارزاقهم منها جنداً فبدلاً من ان يقولوا ولاية قنسرية مثلا يقولون جند قنسرين ويسمون الولاية أيضاً كورة جمعها كُوَر وروى الطبرى فى أخبار سنة (١٧ هـ) ان عمر لما جاء الشام فى هذه السنة رتب الشواتي والصوائف

(أي الجنود التي تغزو في الصيف والجنود التي تغزو في الشتاء) وسدّ فروج الشام ومسالحها [1] وأخذ يدور بها واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كلّ كورة (أي على السواحل جميعها سواء كانت تابعة لكورة دمشق او غيرها)

وجعل أبا عبيدة على حمص وخالد بن الوليد تحت يديه على قنسرين وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان وعلى الاردنّ معاوية (بعد شرحبيل) وعلى فلسطين علقمة بن مجزّز وعلى الاهراء [2] عمرو بن عبسة وجعل على كل عمل عاملاً فقامت مسالح مصر والشام والعراق على ذلك الترتيب الذي رتبه عمر (رض) الى عهد العباسيين

وذكر في فتوح البلدان أن معاوية كتب الى عمر بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل فكتب اليه في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها [3] واتخاذ المواقيد لها

(١) تقدم معنى المسالح والفروج في خبر فتوح سعد بن أبي وقاص

(٢) المخازن التي تخزن فيها الحبوب وغيرها من أموال الفيء

(٣) المناظر وتسمى لهذا العهد المناطير هي قباب مبنية على رؤس الجبال العالية بين كل بلد وآخر بحيث يتقارب بعضها من بعض ويشرف بعضها على بعض وكان يقام فيها حراس يوقدون النار عند ما يرون اقبال العدوّ من جهتهم فيوقد حراس المنظار الذى يليهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر الى المدينة أو الثغر أو المسلحة في زمن قليل فيسرعون لامداد الجهة التي أقبل منها العدوّ ولم تزل آثارها قائمة الى الآن في كثير من انحاء سورية وقد شاهدت بنفسي المناظر القائمة على الجبال بين دمشق وحماه الى ناقوق ومعظم الموجود من بقاياها الى الآن هو من آثار الدول التركمانية والكردية والجراكسة التي شيدوها في أيام الحروب الصليبية وعنوا بها اعتناءً عظيماً جداً

وكذلك كان تقسيم العراق وفارس فكان ذلك الوجه قسمين قسم تابع للبصرة وعليه عتبة بن غزوان ثم المغيرة بن شعبة ثم أبو موسى الاشعرى وقسم تابع للكوفة وعليه سعد بن أبي وقاص ثم عمّار بن ياسر ثم غيره وغيره وكانت عمالة عامل هذا القسم أى قسم الكوفة كما فى رواية ابن جرير الطبرى تمتد ما بين الكوفة وحلوان والموصل وماسبذان وقرقيسياء الى البصرة ثم امتدت هذه العمالة حتى تجاوزت فارس الغربية وكانت تقسم الى أقسام عليها عمال من قبل عامل الكوفة وكانت مسالحها وثغورها مما يلي الجزيرة وأرمينيا الموصل وقرقيسياء وثغورها فيما يلى فارس تابعة لتقدم الجيوش فى الفتح وتجاوزها حدود البلاد الاسلامية بالطبع

وكان يتبع كل أمير حرب كاتب وقاض يقضي بين الناس كما رأيت فى باب تعبية الجيش وغيره ويتبعه أمير يسمى عامل الاقباض يحصي الغنائم فاذا فتحت البلاد وتقررت الجباية كان عامل الخراج وكان عامل الاقباض فى حرب فارس السائب بن الاقرع وعامل الخراج النعمان بن مقرّن ثم غيره وغيره وقدم بيان ذلك فى غضون أخبار الفتح فلا حاجة للمزيد

وأنت ترى انّ ذلك الترتيب هو غاية فى اصابة الغرض وبعد النظر فى تنظيم شؤون الدولة بالنسبة لذلك العصر وربما نحا عمر (رض) فى بعضه نحو فارس والروم ولعله بدئ سا ذجاً ثم ترقّى بترقي المسلمين وتقدمهم فى الفتح فى خلافة عمر (رض) بحيث تم هذا الترتيب فى سنة (١٧) كما رأيت

(ضرب النقود)

كانت العرب قبل الاسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدرهم والدينار واستمرّ ذلك الى ان جاء الاسلام ومضى صدر من خلافة عمر وكان الشائع استعماله بينهم يومئذ الدراهم البغلية وهي دراهم فارس وكان وزن هذا الدرهم

زنة مثقال من الذهب فلما كانت سنة (١٨ هـ) ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير انه زاد في بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وجعلها فى أواخر خلافته كل عشرة دراهم بزنة سبعة مثاقيل كما ذكر ذلك المقريزي فى النقود الاسلامية الا ان عمر (رض) لم يضرب الدينار وانما ضربت الدنانير على عهد عبد الملك بن مروان . وأما نسبة الدرهم الى الدينار فقد كانت تختلف باختلاف الزمان كما سنذكر ذلك فى سيرة عبد الملك بن مروان ان شاء الله: وأما نسبة الدرهم والدينار الى نقود هـذا الوقت لا باعتبار الوزن بل باعتبار قيمة المقومات من كل شئ بالدرهم أو الدينار فذلك يحتاج أولاً الى الوقوف على نسبة حقيقية لاجور العمال بالدرهم فى صدر الاسـلام ليقاس عليها مثلها فى هذا العصر وتعلم القيمة الاعتبارية يومئذ للدرهم وتقاس على مثلها فى هذا العصر وكل ماقيل من هذا القبيل اذا لم يبن على ذلك التقدير الصحيح فحدس وتخمين ليس من الحقيقة على شئ لان الدرهم من الفضة دنئ القيمة الآن اذ ربما ساوى كل أربعين درهماً باعتبار الوزن ديناراً والدينار يتراوح ثمنه بين ١٢ فرنكاً و ١٦ فرنكاً وهـذه القيمة ربما كانت فى بعض بلاد أوروبا لهـذا العهد قيمة أجرة عاملين أو ثلاثة وفى بعض بلاد المشرق قيمة أجرة أربعة عمـال الى الثمانية من ذوى المهن لا ما يسمونه العامـل البسيط

فالدرهم والدينار لا يصح ان تكون قيمتهما الاعتبارية فى صـدر الاسلام كقيمتهما الآن بل أغلى وربما كان الدينار أجرة عشرين عاملاً أو أكثر والفرق بينهما لا يعـلم الآ من تحقيق عمل العامل فى ذلك الوقت وعسانا نتوفق الى الوقوف على حقيقة ثابتة من هـذا القبيل فنبسطها عند الكلام على النقود الاسلامية فى خلافة عبد الملك بن مروان ان شاء الله

(وضع البريد)

البريد اسم للمسافة التي بين كل محطة وأخرى من محطات البريد وهي أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعوا به الآن فأطلقوه على أضبار (أكياس) البريد وأصله على مايقال من وضع الفرس والذي رتبه دارا ملك الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد ثم استعمله الرومان وغيرهم من الأمم وربما نأتي على شيء من تفصيل خبره في غير هذا المحل

ثم استعمل في الاسلام وأقيم له عامل مخصوص يسمى عامل البريد وهو منفصل عن سلطة الولاة مكلف خلا عن أعمال البريد بنقل أخبار الولاة والبلاد لدار الخلافة وان يكتب المهم من هذه الاخبار للخليفة ليكون على علم من أحوال الرعية والولاة وقد كانت هذه الوظيفة تارة لصاحب البريد وتارة منفصلة عنه يسمى عاملها صاحب الاخبار وسنستقصي الكلام على هذا عند وصولنا الى الكلام على دولة الخلفاء من بني امية وبنى العباس ان شاء الله

وروى المؤرخون ان أول من وضع البريد في الاسلام هو معاوية بن أبي سفيان ولعله هو أول من رتبه على أصول معروفة ووضع له الخيل وأقام له المحطات والا فالبريد استعمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل معاوية اذ قد جاء ذكره كثيراً فى سيرته ومنه مامر فى فصل علائقه مع الملوك عندما قال عن الرسول الذى أتى بالعقد هدية من امبراطورة الروم انه بريد المسلمين وفى مناقب عمر للامام ابن الجوزي أن عمر لما أبعد نصر بن حجاج عن المدينة الى البصرة بسبب تغزل بعض النساء به قلق نصر للرجوع الى المدينة وكتب عمر الى عامله بالبصرة كتابا فمكث الرسول عنده أياما ثم نادى مناديه ألا ان بريد المسلمين يريد ان يخرج فمن كانت له حاجة فليكتب فكتب نصر بن حجاج كتابا ودسه فى الكتب الى أمير المؤمنين

فمن هذا الخبر وغيره يستدل على أن أول واضع للبريد في الاسلام هو عمر ابن الخطاب الا انه ربما لم يكن على الوجه الذى كان بعد ولم يبلغ من الاتقان مبلغه في عصر الامويين والعباسيين وانما هو بدئ ساذجا ثم ترقى بترقى الزمان

﴿ تمصير البصرة والكوفة ﴾

مصرت البصرة سنة (١٥ هـ) عن يد عتبة بن غزوان بامر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان فى مكانها محل يسمى الخريبة تقيم فيه مسالح كسرى لتمنع العرب من العيث ومصرت الكوفة سنة (١٧ هـ) عن يد سعد بن أبي وقاص وكان البناء أولاً بالقصب فدب الحريق فى الكوفة والبصرة فارسل سعد الى عمر نفراً يستأذنونه فى البنيان باللبن (الطوب) فقال افعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان وكتب الى أهل البصرة بمثل ذلك فخططوا المناهج (الشوارع) على عرض عشرين ذراعا وطول أربعين ذراعا والازقة سبعة أذرع والقطائع ستين ذراعاً وبنوا المسجد الجامع فى الوسط بحيث تتفرع الشوارع وكان أمرهم عمر بتخطيط الشوارع على ذلك الوجه الا انه لما ازدحمت السكان فى المدينتين أخلوا بذلك الاصل ولم يراعوا حالة التنظيم فتقدموا فى البناء فى الشوارع والساحات حتى اذدحمت المنازل وضاقت الشوارع واختلت أصول التنظيم التى وضعها لهم عمر رضى الله عنه وانما كان الباعث على ذلك بعد القوم عن أسباب الحضارة وعدم مراعاتهم لاصول التأنق فى البنيان لقرب عهدهم بالبداوة وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا بهذا الصدد فى مقدمته الشهيرة أغنانا عن الكلام فليرجع اليه من شاء

(التوسعة فى المسجدين)

فى سنة (١٧ هـ) حج عمر (رض) فبنى المسجد الحرام ووسع فيه وهدم على

قوم أبوا ان يبيعوا دورهم ووضع أثمان دورهم فى بيت المال حتى أخذوها واستأذنه أهل المياه التى على الطريق بين مكة والمدينة فى ان يبنوا منازل فى هذا الطريق فأذن لهم وشرط عليهم انّ ابن السبيل أحق بالظل والماء . وكذلك صنع بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه هدمه ووسع فيه وأدخل دار العباس فيما زاد فيه

(جملة مآثر)

ومن مآثره ان أقام دور الضيافات وأدرّ عليها الارزاق : عن ابن سعد قال اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة فى الطريق ما يصلح من ينقطع به وفى بعض الروايات انه فعل مثل ذلك أيضا بالطريق بين الشام والحجاز (ومنها) انه مر يوم مجيئه الشام على قوم من المجذمين ففرض لهم شيئا من بيت المال ومنعهم بذلك عن التكفف بين الناس (ومنها) أمره عمرو بن العاص بمصر بحفر الترعة التى وصلت بين النيل وبين البحر الاحمر فى عام الرمادة واستمرت كذلك الى عهد الفاطميين ثم ردمت كما سترى تفصيل الخبر عنها فى سيرة عمرو بن العاص (ومنها) ما تقدم ذكره من حفر الترع واقامة الجسور في العراق العربي والعراق العجمى (ومنها) ما تقدم ذكره أيضا من وضع الديوان واقامة الكتاب له وفرض العطاء للعساكر والمجاهدين وتقسيم الجيوش وترتيبها كما ستراه مفصلا فى سيرة سعد ابن أبي وقاص رضى الله عنه وغير ذلك من الآثار الجليلة التي تمكن من ايجادها ذلك الخليفة العظيم مع اشتغاله بالفتوح وانصراف همته لتوسيع نطاق سلطان الاسلام جزاه الله عن هذه الأمة خير الجزاء وربما نأتي على اجمال آخر من آثاره عند ذكر أوائله فى غير هذا الباب ان شاء الله

باب

(أخلاقه ومناقبه)

سياسته وعدله

كانت العرب على جانب من خشونة الطباع وجفاء الخلق والاعتزاز بالعشيرة والأنفة عن الخضوع لحكم السلطان يعلمه من وقف على تاريخ هذه الامة ولما جاء الاسلام هذب أخلاق فريق منهم وهم الصحابة لمعاشرتهم للنبي عليه الصلاة والسلام ووقوفهم على حقائق الدين وإشراب قلوبهم حب الايمان والفريق الآخر الذين لم يتمكن من قلوبهم الاسلام لقرب عهدهم منه بقي في نفوسهم شيء من آثار الجاهلية لا ينتزعه الا تمادي الزمان لهذا لم يسع أبا بكر الصديق رضي الله عنه الا أن يعاملهم بالقوة الممزوجة بالرفق كما رأيت ذلك في سيرته وأخباره معهم أيام الردة ولما استخلف عمر رضي الله عنه وجد أن لا مناص له من ان يحذو في معاملتهم بالشدة عند الحاجة حذو أبي بكر خوف النزوع الى الثورة والخروج عن حدود الاسلام وقيود الاخوة والرجوع الى الفرقة والشقاق والعصبية المضرة وقد كان رضي الله عنه شديداً بطبعه فساس أولئك الاقوام بمزيد الشدة والارهاب لما كان يتوقعه من حصول الفتن والدسائس ولو لم يقابل شدته اغراقه في العدل وكرمه في بذل المال وحكمته في وضع الثواب في محله والعقاب في محله لما استقام له أمر الخلافة كما انه لو لم يستعمل مع العرب تلك السياسة لما استقام أمر المسلمين ولخيف من حصول فتن كبرى تنكمش لها أعصاب الاسلام كما حصل ذلك بعد وفاته رضي الله عنه الا انه لم يتأت عن تلك الفتن من الضرر

مايوازى الضرر الذى كان يتأتى عنها فيما لو حصل ذلك فى أوائل خلافة عمر (رض) وانما خف ضرر تلك الفتن بعد لان الاسلام كان ملأ أكناف الارض والعرب كلهم تفرقوا في أنحاء البلاد واشتغلوا بامور الفتح وذاقوا لذة الملك والسلطان وأسسوا ذلك الملك العريض الذى استحال ان تدك أساسه عواصف الفتن فى خلافة عثمان وعلىّ ومعاوية رضى الله عنهم وانما كان الفضل فى هذا للعمر بن الخطاب الذى أخذ على الأمة سبيل النزوع الي الجاهلية الأولى ودفعها فى غمار الفتح وشغلها بمحاربة الأمم عن محاربة نفسها وربّاها على الخضوع لأولى الامر فيما لا يكون به حيف على النفوس ولا مساس بالدين ولا حجر على الحرية ولا تمييز بين الطبقات وهذا منتهى ماتوصف به رجال السياسة من الفضل والدهاء والعلم بسياسة الأمم وإحكام أمور الدول وحسب عمر انه كان كالشمس المشرقة على الآفاق لاتخفى عليه خافية من أمور الرعية ولا يفوته ظالم فينتصف منه أو مظلوم فينصفه حتى قيل انّ علمه بمن نأى من عماله كان كعلمه بمن كان عنده لانه جعل عليهم عيونا حيثما كانوا ينقلون اليه أخبارهم فى معاملة الرعية حتى كانت أخبار الجهات كلها عنده تأتيه بها البرد صباح مساء (١) ويا ويح العامل الذي تبدر منه بادرة أذًى لاحد من

(١) هكذا حال الدول عند ماتبدأ فى سلم الصعود ومتى انقلبت الى الهبوط انقلبت عندها هذه القاعدة رأسا على عقب بجعل الامراء العيون على الرعية لاعلى العمال ليكونوا عونا للولاة على الرعية كما هى الحال الآن في ممالك الاسلام حيث لايستطيع أحد ان يشكو ظلم العمال وسوء الاحوال حتى أوغل الولاة في الظلم وساموا الناس سوء العذاب وخربوا العمران وانتشر أمر الدول الاسلامية فى الشرق والغرب واختل الملك وقوى عليها العدو ويا ويح من تبدر منه بادرة شكوى من هذا الخطب فانه للحال يزج به فى ظلمات السجون أو ينفى من الارض وهذا ماجعل الامم الاوربية لهذا العهد تتسلط على الممالك الاسلامية وترمى المسلمين بوصمة العجز عن ادارة شؤون الحكومات

الرعية أو يهفو هفوة فى شأن من الشؤون فانه لا يلبث أن يأتيه نذير عمر بالعزل أو التأنيب من حيث لا يشعر فلهـذا املأت رهبته القلوب وخافـه العمال وانقاد له الناس واستكانت لديه النفوس العاتية

أخرج ابن الجوزى فى المناقب عن عمر بن مرة قال : لقى رجلا من قريش عمر فقال لن لنا فقد ملئت قلوبنا مهابة . فقال . أفى ذلك ظلم . قال لا . قال فزادني الله فى صدوركم مهابة . وأخرج عن عبد الله بن جبير انه سمع عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما يحدث قال : مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة .

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن زيد بن أسلم عن أبيه أنّ نفراً من المسلمين كلموا عبـد الرحمن بن عوف فقالوا : كلم عمر بن الخطاب فانه قـد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم اليـه أبصارنا : قال فذكر ذلك عبـد الرحمن بن عوف لعمر : فقال أو قد قالوا ذلك فوالله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله فى ذلك ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى ذلك . وايم الله لأنا أشد منهم فرقاً (خوفاً) منهم مني : وأخرج بن عساكر هـذا الحـديث من طريق آخر وزاد عليه قول عمر : فاين المخرج وقام يبكي يجر رداءه ويقول عبد الرحمن بيده أف لهم بعدك : والظاهر ان عمر رضى الله عنه انما استعمل مع العرب هـذه الشدة لعلمه باخلاقهم الجافية

وتلصق بهم عار الانحطاط الى دركات الضعة والذل واستسلامهم لعقيدة الرضا بالقضاء والصبر على الضيم ولو تخطفهم الامم وأصبحوا يساقون بعصا الاستعباد كاليهود ولقـد شافهني مرةً أحد علماء الالمـان بكلام من هذا القبيل علمت منه مرتبتنا في نظر العالم المتمدن بين الامم وكنت والله لا أعلم انا انتهينا في نظرهم الى هذا الحد فانا لله وانا اليه راجعون

وانهم ان تظاهر لهم باللين فقد فتح لهم باب الادلال والتعجرف المعروف فيهم يدلك على هذا ما رواه الحافظ ابن عساكر عن الاصمعي قال : كلم الناس عبد الرحمن بن عوف ان يكلم عمر بن الخطاب في ان يلين لهم فانه قد أخافهم حتى أخاف الابكار في خدورهن : فكلمه عبد الرحمن فالتفت عمر اليه فقال : ياعبد الرحمن انى لا أجد لهم الا ذلك والله لو انهم يعلمون مالهم عندي من الرأفة والرحمة والشفقة لاخذوا ثوبي من عاتقي : والذى زاد عمر هيبة فى النفوس انه كان لا يراعى فى الحق كبيراً ولا يبالى شريفاً ولا أميراً الا فيما تقضى به الضرورة السياسية وهذا فيما لا يُمَس به حق من حقوق الرعية ومن هذا القبيل حكايته المشهورة مع جبلة بن الأيهم ملك غسان فانه لما أسلم ووفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب وبينما هو يطوف يوما وطئ على إزاره أعرابيّ من بنى فزارة فضربه على وجهه فشكاه الاعرابي الى أمير المؤمنين فاستدعى عمر جبلة وقال له امّا ان ترضيه وامّا ان يضربك كما ضربته فكبر ذلك على جبلة وقال ألا تفرّقون بين الملك والسوقة : قال لا قد جمع بينكما الاسلام : فاستمهله الى الغد ثم أخذ قومه وفرّ بهم ليلا ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية فارسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع وهذه مرتبة من انصاف الرعية واقادتهم حتى من الملوك لم يبلغها أحد غير عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ومن بدائع أخباره فى انصاف افراد الرعية من الولاة ما نقله فى حسن المحاضرة عن أنس قال أتى رجل من أهل مصر الى عمر بن الخطاب فقال ياأمير المؤمنين عائذ بك من الظلم : قال عذت معاذاً : قال سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ويقول أنا ابن الاكرمين : فكتب عمر الى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم : فقال عمر أين المصريّ خذ السوط فاضرب فجعل

يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الاكرمين ثم قال للمصري ضعه على صلعة عمرو : قال يا أمير المؤمنين انما ابنه الذى ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو : مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً : قال يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتني (يعني) المصرى

هذا منتهى الانصاف للرعية والعدل بين طبقات الامة وبمثله علّم الناس ان لا كبير فوق الحق ولا أمير الا دون الشريعة حتى نفسه رضي الله عنه فقد كان ينصف غيره منها ولا يعتبر نفسه امام الحق والعدل الا كواحد من الناس فقد جاء فى كنز العمال عن الشعبي قال كان بين عمر وبين أبيّ بن كعب خصومة فقال عمر اجعل بيني وبينك رجلا . فجعلا زيد بن ثابت فأتياه فقال عمر أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤتى الحكَم . فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال ههنا يا أمير المؤمنين . فقال له عمر هذا أول جور جرت فى حكمك ولكن أجلس مع خصمي فجلس بين يديه فادعى أبيّ وأنكر عمر فقال زيد لأبي أعف لامير المؤمنين من اليمين وما كنت لاسألها لاحد غيره فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء (وفيه) عن عبد الله بن عكيم قال قال عمر بن الخطاب . انه لا حلم أحب الى الله تعالى من حلم امام ورفقه ولا جهل أبغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه ومن يعمل بالعفو فيما بين ظهريه تأتيه العافية ومن ينصف الناس من نفسه يُعطى الظفر فى أمره والذل فى الطاعة أقرب الى البر من التعزز بالمعصية وخلا : هذا فقد كان رضي الله عنه حريصا على ان لا يشكى منه ويرشد الى كل ما فيه راحة الناس وسلامة الأمة وتنكب طرق الخطأ أو الجور حتى بلغ به الامر ان كان كلما اجتمع اليه ناس من الامصار أو جماعة من كبار الصحابة يسألهم عن سيرته بين الناس ويستطلع

طلع ضمائرهم من جهة سياسته فى الرعية ولا يأبى قبول النصيحة (ومن) ذلك ما جاء فى كنز العمال عن النعمان بن بشير ان عمر بن الخطاب قال فى مجلس وحوله المهاجرون والانصار . أرأيتم لو ترخصت فى بعض الامور ما كنتم فاعلين فسكتوا فقال ذلك مرتين أو ثلاثا . فقال بشير بن سعد لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح (وهو السهم المعوج قبل ان يراش وينصل) فقال عمر . أنتم اذن أنتم اذن (استحسانا لقولهم) . وفى المناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخى قال قال عمر (رض) وهو على المنبر أنشدكم الله لا يعلم رجل منى عيبا الا عابه فقال رجل نعم يا أمير المؤمنين تديل بين البردين وتجمع بين الادمين ولا يسع ذلك الناس قال فما أدال بين بردين ولا جمع بين أدمين حتى لقى الله . وقوله يديل بين بردين أي يلبس قميصا ويخليه ويلبس غيره (وذكر) بعض المؤرخين انه خطب يوما فقال . أيها الناس من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومه . فقام رجل فقال . والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . فقال عمر . الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه

الا انني لم أقف على سند لهذه الخطبة وهى ان صحت فربما تكون من قبيل الخبر الاول لا خطبة . وأنت ترى من هذه الاخبار الى أية درجة بلغت حرية الضمائر وحب العدل بالمسلمين يومئذ ومنها تعلم انهم انما سادوا بقول الحق وتعشق الحرية واستقلال الضمائر لا بالذل والخنوع والتقيد بقيود العبودية التى ما تقيد بها قوم الا ضربتهم بالهلاك وسودت عليهم الامم كما سودت الغربيين الآن على مائتى مليون من المسلمين اتخذوا رؤساءهم أولياء من دون الله فقذفوا بهم الى هوة الدمار واقفروا من آثار ملكهم العظيم الديار .

وفى كنز العمال عن سلمة بن شهاب العبدي قال قال عمر بن الخطاب أيها

الرعية إنّ لنا عليكم حق النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير وانه ليس شيء أحبّ الى الله تعالى وأعم نفعاً من حلم امام ورفقه وليس شيء أبغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه

(ومن سياسته) في تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحجة الواضحة في الاعمال وانّ لهم ماتكنه السرائر ماجاء في كنز العمال أيضا من حديث عُتبة بن مسعود قال. سمعت عمر بن الخطاب يقول. انّ ناساً كانو يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانّ الوحي قد انقطع وانما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً آمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته. ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه ولم نصدقه وان قال ان سريرته حسنة. وانما يعرض بهذا بالمنافقين تنبيها لهم الى انه مراقب لاعمالهم

ومع انه كان يأخذ الناس بهذه الطريقة ويحملهم على الاستقامة في الاعمال فانه كان يحذرهم من خيانة السرائر وينهاهم عن التردد في الامور ويرشدهم الى الجمع بين العزيمة والنية سوقاً لهم الى الاستقامة في العمل والحزم في الرأي فقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه عن عمر بن مُجاشع قال. قال عمر بن الخطاب القوّة في العمل ان لا تؤخر عمل اليوم لغد. والامانة ان لا تخالف سريرةٌ علانيةً واتقوا الله عز وجلّ فانما التقوى بالتوقي ومن يتّق الله يَقِه.

وهكذا رضي الله عنه كان في رعيته كالوالد الرؤف يواليهم بالنصائح ويرشدهم الى سبيل الخير والسعادة ويأمرهم بالتقوي والعدل والتألف والاجتماع وينهاهم عن التحزّب والتفرّق وخصوصاً قريشا فانه كان لا ينام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة من نصيحة لانهم قدوة الناس وأئمة العرب

أخرج الطبري عن ابن عباس أنّ عمر قال لناس من قريش بلغني انكم

تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وأيم الله ان هذا السريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأي فلان . قد قسموا الاسلام أقساماً . أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فانه أدوم لألفتكم وأهيب لكم في الناس اللهم ملوني ومللتهم وأحسست من نفسي واحسوا مني ولا ادري بأينا يكون الكون وقد اعلم ان لهم قبيلا منهم فاقبضني اليك .

ومن جميل سياسته انه كان يعلم من نفسه الشدة فلا يرضى لعماله ان يكونوا مثله لهذا عزل خالد بن الوليد عن الامارة وجعل بدله أبا عبيدة بن الجراح وكان عماله جميعهم ممن عرفوا باللين والاناة كأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وعتبة ابن غزوان وحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وأضرابهم الا بعض القواد فربما كانوا على شيء من الشدة وذلك يكون في مثلهم بالطبع ومع شدته رضي الله عنه فقد كان يوصي عماله بالرفق والعدل والاناة وعدم الايغال في العقوبة وبلغ به كرهه للايغال في العقوبة ان أرسل مرة الى أبي موسى الاشعري وقد اشتد في العقوبة على بعضهم يهدده بالعقاب اذا عاد الى مثلها

جاء في كنز العمال عن ابن عمر قال: كنت مع عمر في حج (أو عمرة) فاذا نحن براكب: قال عمر أرى هذا يطلبنا: فجاء الرجل فبكى: قال ما شأنك ان كنت غارماً أعناك وان كنت خائفاً أمناك الا ان تكون قتلت نفساً فتقتل بها وان كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم: قال اني شربت الخمر وأنا أحد بني تيم وان أبا موسى جلدني وحلقني وسود وجهي وطاف بي الناس وقال لا تجالسوه ولا تؤاكلوه فحدثت نفسي باحدى ثلاث ، اما ان اتخذ سيفاً فاضرب به أبا موسى . واما ان آتيك فتحولني الي الشام فانهم لا يعرفونني . واما ان الحق

بالعدو فآكل معهم واشرب . فبكى عمر ، قال ما يسرني انك فعلت وان لعمر كذا وكذا واني كنت لاشرب الناس لها في الجاهلية وانها ليست كالزنا . وكتب الى أبي موسى ما صورته

سلام عليك أما بعد فانّ فلان بن فلان التيمي أخبرني بكذا وكذا وأيم الله اني ان عدت لاسوّدن وجهك ولأطوفنّ بك في الناس فان أردت ان تعلم حق ما أقول فعد . فأمر الناس ان يجالسوه ويؤاكلوه فان تاب فاقبلوا شهادته . وحمله عمر (أي أركبه) واعطاه مائتي درهم

ومن جميل سياسته اهتمامه باهل الذمة الذين دخلوا في عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين ووصاياه للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم وأذاهم وبلغ اهتمامه بهم ان كان اذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شئ عنهم يستدعي ذوي امانة من المسلمين الذين أقاموا في بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصي سيرة العمال معهم ومن ذلك ما رواه الطبري في تاريخه ان عمر (رض) كتب الى أمير البصرة ان يبعث له جماعة من ذوي الرأي والبصيرة فارسل اليه وفداً فيهم الاحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلماً أو حيفاً فاجابوه بالسلب ولم يطمئن لقولهم حتى استوثق من الاحنف وكان يثق بصدقه ثم صرفهم

ومن أجمل ما يؤثر عنه من الرفق بأهل الذمة ما جاء في كنز العمال انّ عمر مرّ بشيخ من أهل الذمة يسئل على أبواب المساجد فقال ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه

ومن حسن سياسته تقدمه الى قواده بان لا يمسكوا الجند في الغزو أكثر من أربعة أشهر وسببه انه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه وأرّقني أن لا خليل ألاعبه

فلولا حذار الله لا شيء مثله لزُحزح من هذا السرير جوانبُه

فكتب عمر الى عماله ان لا يغيب أحد بالغزو : ونعم الرأي

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن حكيم بن عمير قال كتب عمر بن الخطاب ألاَ لا يجلدنّ أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان ان يلحق بالكفار .

ومن سياسته انه كان يحبس عن العمل كثيراً من كبار الصحابة منهم من كان لا يستعمله خوفاً على دينه من ان يدنسه بالولاية فقد اخرج ابن سعد عن عمران بن عبد الله قال : قال أُبيّ بن كعب لعمر بن الخطاب مالك لا تستعملني: قال اكره ان تدنس دينك

ومنهم من لا يستعمله خشية ان يحمله على رقاب الناس أو خشية ان تحدثه نفسه بالامارة اذا بعد عن مراقبته وهؤلاء هم بنو هاشم لما كان يتفرّسه فيهم من التطلع الى الامارة ففي مروج الذهب للمسعودي عن عبد الله بن عباس أنّ عمر أرسل اليه فقال يا ابن عباس انّ عامل حمص هلك وكان من أهل الخير وأهل الخير قليل وقد رجوت ان تكون منهم وفي نفسي منك شيء لم أره منك وأعياني ذلك فما رأيك في العمل قال لن أعمل حتىّ تخبرني بالذي في نفسك . قال وما تريد الى ذلك . قال أريده فان كان شيء أخافه على نفسي خشيتُ منه عليها الذي خشيتَ وان كنت بريئاً من مثله علمت اني لست من أهله فقبلت عملك هنالك فانني قلّما رأيت أو ظننت شيئاً الا عاينته : فقال يا ابن عباس انني خشيت ان يأتي عليّ الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلمّ الينا ولا هلمّ اليكم دون غيركم :

اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلّم استعمل الناس وتركـكم : قال (اي ابن عباس) والله قد رأيتُ من ذلك فَلمَ تراه فعل ذلك: قال (أي عمر) والله ما أدري أضنّ بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم أم خشي أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولا بدّ من عتاب فقد فرعت لك فما رأيك قال: (أي ابن عباس) أراني لا أعمل لك : قال ولم : قلت ان عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قذى في عينك قال : فأشر عليّ ! قلت اني أرى ان تستعمل صحيحا منك صحيحا لك

ومن سياسته تقدمه الى العمال بان لا يأذنوا لاحد من جنود المسلمين ان يزرع أو يزارع في البلاد المفتتحة وان لا يقطعوا أرضاً لاحد منهم البتة وذلك لامور الامر الأول كي لا يزاحم المسلمون أهل الذمة والعهد في أرضيهم ويضيقوا عليهم في معيشتهم والامر الثاني كي لا يألف الجند الاعمال في الارض في إبان الفتح فتميل نفوسهم الى الراحة من عناء الحرب والأمة حربية لم يأن لها اطراح لامة القتال واعتزال الحرب والاخلاد الى الراحة والترف والامر الثالث كي تبقى الارض في يد أهلها مادة تستمد منها الدولة ما يقوم بشؤونها العسكرية والادارية ولا يحتكرها المقتطعون من جنده فتعدم مادة القوة عن الدولة الاسلامية فيما بعد ولا تجد من المال ما يكفي لمن يقوم من الجند بحراسة البلاد وقد مرّ الشاهد على سياسته هذه في غير ما محل من هذا الكتاب ومنه ما كتبه الى عمال العراق وعمرو بن العاص في مصر كما رأيت ذلك في فصل (كيف يكون الاستعمار) وأخباره في سياسته طويلة نكتفي منها بما تقدم دلالة على الباقي

﴿ نظرة في بعض الاخبار المتعلقة باهل الذمة ﴾

قد رأيت في هذا الباب وفي باب اجلاء عمر لاهل نجران وسترى في باب اخباره واقواله كيف كانت سياسة عمر مع اهل الذمة وكيف كان شديد الحرص

على راحتهم حاثاً للعمال على انصافهم وعدم ايذائهم ومن كان هذا شأنه مع القوم فيستحيل على العقل التصديق بما يناقض سيرته هذه معهم وقد اورد بعض ارباب السير ونقلة الحديث خبرين عن عمر يتعلقان بأهل الذمة احدهما امره لعامله في العراق بختم رقاب اهل الذمة من الفرس بالرصاص والثاني تقدمه الى العمال ان لا يحدث النصارى في امصار المسلمين (اي التي مصرها المسلمون خاصة كالبصرة والكوفة) بيعة ولا يرفعوا صليبا على ان هذين الخبرين وماشابههما قد وهّن روايتها اهل الحديث وحفاظه وقالوا إنها موضوعة وقد اورد الامام الشوكاني في نيل الاوطار الحديث الثاني عن البيهقي وعن الحافظ الحراني باختلاف بينهما باللفظ وقال عن الاول في اسناده ضعف وعن الثاني في اسناده حنش وهو ضعيف. ويريد بحنش احد المطعون بهم في رواية الحديث .

فلا ندري ماهو الباعث لفريق الوضاعين على وضع امثال هذه الاحاديث أهو الجهل بمقاصد الاسلام الذي جاء للتأليف بين القلوب والتعارف بين الشعوب (يا ايها الناس انّا خلقنا كم من ذكر وأنثى وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا انّ أكرمكم عند الله اتقاكم) ام ذلك شيء دس في الاخبار وتناقله الرواة مع الغفلة عن مقاصد الشرع

ليس بعجيب على الكذابين أو المنافقين او الجاهلين ان يدسوا ماشاؤا في الاخبار انما العجيب ان ينقلها بعض المؤرخين والعلماء الأعلام على علاتها كما نقل ابن الجوزي وهو امام معروف الخبر الثاني في مناقب عمر دون التنبيه على ضعفه وانما جرّ بلاء التشيع ونفث روح التفرق وانسى المسلمين اصول التآلف والتحابب حتى بين أنفسهم انتشار امثال هذه الاحاديث والأخبار في كتب الخاصة مع علمهم بان منها الكاذب ومنها ضعيف السند وانما دعاهم الى نقلها توهم

انها قربى يتقرب بها الى الدين او يتعصب بها له مع ان التعصب للدين هو التمسك به والذود عن حوضه واعزاز جانبه وجانب اهله بارشادهم الى ان السيادة على الامم انما هي بمسابقتهم في مضمار الحياة الاجتماعية لا بايذاء الغير في دينه وحريته والله تعالى يقول (لكم دينكم ولي دين) ولو اراد الاسلام ايذاء الذمي في حريته الدينية والشخصية لامر باكراه اهل الكتاب على الاسلام كما أمر باكراه مشركي العرب • ومن ثم فلو فرض ورود امثال تلك الاخبار سواء عن عمر (رض) او عن غيره فلا ينبغي لها ان تحمل على ما يناقض اصول الدين بل تحمل على الضرورة السياسية التي ربما تدعو اليها سياسة الفتح كما يدل عليه تخصيص امر عمر لو صح الخبر عنه بمصرٍ مخصوص اذ لا بد لكل فاتح من اظهار الشدة في بادئ الامر بما يشبه ما يسمونه الآن الادارة العرفية او العسكرية ريثما تثبت قدمه في البلاد وتسكن الى حكمه نفوس المغلوبين هذا من جهة ومن جهة ثانية فربما كان لجدة العرب في الدين وعدم تمكن عامتهم منه لقرب عهدهم به دخل في مثل تلك السياسة التي يراد بها المحافظة على عقائد العرب يومئذ من ان يتطرق اليها اهل جوارهم من الكتابيين بشيء من الافساد لقرب عهدهم بالوثنية واغراقهم في الجهل كما كان لهذه السياسة دخل في اجلاء اهل نجران ومن هذا القبيل الخبر الذى نحن بصدد الكلام عليه وهو خبر تقدم عمر الى عماله بعدم احداث النصارى بيعاً في الامصار التي مصرها المسلمون هذا على فرض صحته وهو لم يصح كما رأيت وعلى هذا القصد ينبغي ان يحمل كل ما جاء من الاحاديث والاخبار التي من هذا القبيل لا على قصد ايجاد النفرة بين المسلمين واهل الكتاب لا سيما والمحذور الذى كان يدور في خلد الصحابة ويخشاه النبي صلى الله عليه وسلم على العرب يومئذ كان قد زال بزوال اسبابه ولا يحمل هذه الاخبار على غير هذا المحمل الذى بسطناه

الآجاهل بمقاصد الاسلام غير عالم بان الدين الذي يأمر أهله بمعاشرة أهل الذمة بالمعروف ومعاملتهم بالانصاف وعدم ايذائهم فى حال من الاحوال لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم لا يناقض نفسه ويأتي بما يخالف عدله ولكن العقلاء الذين يضعون الامور موضع النقد والمحاكمة قليل وآفة السلم الفهم بما يوافق الهوى لا الحق والسلام

﴿ أخباره مع عماله ﴾

﴿ ووصاياه لهم ﴾

كان رضى الله عنه شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم وبلغ به ذلك أن أقام عليهم العيون يوافونه بأخبارهم وجعل أحد الصحابة وهو من من أهل التقى والصدق واسمه محمد بن مَسْلَمَة قاصاً أى محققاً لأخبارهم ومقتصاً لآثارهم فاذا شكا أحد من الرعية أحداً من العمال أرسل محمداً المذكور يقتص الخبر ويحقق الشكوى تحقيقاً علنياً لا فى السر كي لا يؤخذ العامل بوشاية واش أو سعاية مفترٍ فيذهب ويجمع اليه الناس فى المسجد وربما طاف عليهم فى أحيائهم يسألهم عن علمهم بسيرة الامير وبأسباب الشكوى منه ومن ذلك ما ذكره الطبرىّ فى تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش الى نهاوند فى أخبار سنة (٢١) قال ونزل بسعد (أى ابن أبي وقاص) أقوام وألبوا عليه فيما بين تراسل القوم واجتماعهم الى نهاوند ولم يشغلهم ما دَهَمَ المسلمين من ذلك وكان ممن نهض الجرّاح بن سنان الأسديّ فى نفر فقال عمر انّ الدليل على ما عندكم من الشرّ نهوضكم فى هذا الامر وقد استعدّ لكم من استعد وأيمُ الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وان نزلوا (يعنى الفرس) بكم فبعث عمر محمد بن مَسلَمَة والناس فى الاستعداد للاعاجم والاعاجم فى الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العُمّال الذى يقتص آثار

من شُكي زمان عمر [1] فقدم محمد على سعد ليطوّف به على أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الامصار الى نهاود فطوّف به على مساجد أهل الكوفة لا يتعرّض للمسئلة عنه فى السر وليست المسئلة فى السرّ من شأنهم اذ ذاك . وكان لا يقف على مسجد فيسئلهم عن سعد الاّ قالوا لا نعلم الاّ خيراً ولا نشتهي به بدلا ولا نقول فيه ولا نعين عليه : الاّ من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه فانهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءاً الى ان قال الطبرىّ وخرج محمد به (أى بسعد) وبهم الى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها ولم يسعهم إثباتها فردهم عمر وخشى اذا أبقى سعداً على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمر فعزله احتياطاً وسأله من خليفتك على الكوفة فقال له عبد الله بن عبد الله بن عتبان فأقرّه

ومنه تعلم كيف كان رضى الله عنه مراقباً لعماله كثير التحقيق عن أخبارهم لا يتعجل فى أمرهم اذا جاءته شكاية على أحدهم بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته فان ثبت عليه شئ مما يدعيه الشاكي عزله وله بهذا الصدد أخبار كثيرة مع عماله ربما نأتى على شئ منها فى سيرة أشهر المشهورين من رجاله ان شاء الله تعالى

وكان رضى الله عنه لا يحب أن يفرّق عماله فى المعاملة بين الحر والعبد ولا بين القويّ والضعيف أخرج ابن جرير الطبرى عن الاسود بن يزيد قال كان الوفد اذا قدموا على عمر (رض) سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً فيقول هل يعود مرضاكم فيقولون نعم فيقول هل يعود العبد فيقولون نعم فيقول كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابه فان قالوا لا عزله

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة المفتشين لهذا العهد

وكان رضى الله عنه لا يغفل عن أن يرسل الاوامر الى عماله تباعاً فى أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا أو يغدروا ومن ذلك انه لما وفد عليه الاحنف بن قيس وسأله عن حال الذمة فى ولاية البصرة وصرفه كما تقدم الخبر عن ذلك فى الفصل السابق كتب معه كتاباً الى عتبة بن غزوان أمير البصرة يوصيه فيه بأهل الذمة هذه صورته (عن تاريخ الطبرى)

أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً

وبلغه مرة ان حرقوصاً عاملاً له على الاهواز نزل جبل الاهواز والناس يختلفون اليه والجبل كؤود يشق على من رامه فكتب اليه ما صورته نقلا عن تاريخ الطبرى فى حوادث سنة (١٧)

(أما بعد) بلغنى انك نزلت منزلا كؤوداً لا تؤتى فيه الا على مشقة فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد وقم فى أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصفُ لك الدنيا ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك .

هذه لعمرى الرأفة بالرعية وهذا منتهى الحنان وغاية الحرص على راحة الناس فاللهم ان خليفة لا يغفل حتى عن أمثال هذه الجزئيات لخليفة لا يخلفه الزمان ولا يوهن له سلطان ولا يمحى ذكره عن صفحات الجنان فرضى الله عنه وأرضاه

ومن وصاياه للعمال ما أخرجه الطبرى عن أبي عمران الجوني قال كتب عمر الى أبي موسى: انه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم فأكرم من قبلك من وجوه الناس وبحسب المسلم الضعيف من العدل ان ينصف فى الحكم وفى القسم

ومراده بهذه الوصية أن يكرم أبو موسى وجوه الناس ليألفوه ويرفعوا اليه حوائج المسلمين وأمور الضعفاء كي يكون عارفاً بحاجات الرعية من كل الطبقات فينصف هذا في الحكم وذلك في القسم ولا يفوت عدله فرداً من أفراد الرعية الذين لا يصلون اليه

وأخرج عن أبي فراس قال خطب عمر بن الخطاب فقال : يا أيها الناس اني والله ما أرسل عمالاً اليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم (وفي رواية ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الي فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه (١) فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيت ان كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته انك لتقصه منه : قال إي والذي نفس عمر بيده اذاً لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم

وعن أبي رواحة قال كتب عمر بن الخطاب الى العمال : اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم اياكم والرشا والحكم بالهوى وان تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار

وروى الطبري ان عمر كان يقول في عماله : اللهم اني لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني : ومع كل هذا التشديد على العمال فانه رضي الله عنه كان دائماً قلقاً على الرعية خائفاً من ان يجار عليهم بأمر لا يصله

(١) يعني يمكن خصمه من الاقتصاص منه أو يقتص له منه

خبره لهذا عزم قُبَيل قتله ان يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليبحث عن أمور الرعية ويقضي حاجاتهم : فقد أخرج الطبرى عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب لئن عشت ان شاء الله لاسيرن في الرعية حولاً فاني أعلم ان للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها الي وأما هم فلا يصلون الي فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البحرين فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين . والله لنعم الحول هذا . ونحن نقول نعم الخليفة هذا ولا والله لا تخلفه خليفة فى المسلمين ولا يدانيه ملك من ملوك الارض أجمعين

هكذا كان قلقه على الرعية وتطلعه الى أخبار العمال مع تحريه فى انتخابهم أهل الامانة والتقى والكفاءة لولاية أمور الرعية حتى كان أكثر عماله ناهجين فى العدل منهجه سالكين فى الزهد والورع والعفة طريقه فمن عماله سلمان الفارسى وكان عاملا له على المدائن وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم فكان يلبس الصوف ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقاص يا أبا عبد الله اذكرك الله عند همك اذا هممت وعند لسانك اذا حكمت وعند يدك اذا قسمت : فجعل سلمان يبكى فقال له يا أبا عبد الله ما يبكيك : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان فى الآخرة عقبة لا يقطعها الا المخفون وأرى هذه الاساودة (جمع سواد وهو المال الكثير) حولي فنظروا فلم يجدوا فى البيت الا اداوة وركوة ومطهرة

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى فعذل على ذلك وقيل له انك بالشام وأمير المؤمنين وحولنا الاعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك : فقال ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر

رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان عامله على حمص سعيد بن عامر بن حذيم فشكاه أهل حمص اليه وسألوه عزله : فقال عمر اللهم لاتفل فراستي فيهم . ماذا تشكون منه : قالوا لايخرج الينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحداً بليل وله يوم فى الشهر لايخرج الينا : فقال عمر عليّ به فلما جمع بينه وبينهم فقال ماتنقمون منه : قالوا لايخرج الينا حتى يرتفع النهار : فقال ماتقول ياسعيد : فقال ياأمير المؤمنين انه ليس لاهلى خادم فاعجن عجينى ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى ثم أتوضأ وأخرج اليهم : قال وماذا تنقمون منه . قالوا لايجيب بليل . قال قد كنت أكره أن أذكر هذا اني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم . قال وماذا تنقمون منه . قالوا له يوم فى الشهر لايخرج الينا . قال نعم ليس لي خادم فاغسل ثوبي ثم أجففه فأمسي . فقال عمر الحمد لله الذي لم يفل فراستى فيكم ياأهل حمص فاستوصوا به اليكم خيراً . ثم انّ عمر بعث اليه بألف دينار وقال استعن بها . فقالت له امرأته قد أغنانا الله عن خدمتك فقال لها ألا ندفعها الى من يأتينا أحوج ما كنا اليه قالت بلى فصرها صرراً ثم دفعها الى من يثق به وقال انطلق بهذه الى فلان وبهذه الى يتيم بنى فلان ومسكين آل فلان حتى بقى منها شيء يسير فدفعه الى امرأته وقال أنفقي هذه ثم عاد الى خدمته فقالت له امرأته ألا تبعث بذلك المال فتشترى لنا منه خادماً فقال سيأتيك أحوج ماتكونين اليه

هكذا كان معظم عمال عمر رضى الله عنه فكيف لايكون عصره أسعد العصور على المسلمين وأعظمها بركة على الرعية ولا جرم فالخليفة الصالح لايختار من العمال الا الصلحاء العدول والناس على دين ملوكهم والعمال يسلكون طرائق ملوكهم فان كان الملوك ظالمين ظلم العمال وان كانو عادلين عدلوا

وكان رضي الله عنه يكره احتجاب العمال عن الرعية ويبالغ في حب ظهورهم للناس فان بلغه أن عاملا احتجب عن الرعية نكل به أشد تنكيل فقد روى الطبري أن سعد بن أبي وقاص لما بني دار الامارة في الكوفة وكانت الاسواق قريبة منه وغوغاؤهم تمنع سعداً الحديث ادّعى الناس عليه مالم يقل وقالوا قال سعد سكّن عني الصويت وبلغ عمر ذلك وان الناس يسمون الدار قصر سعد فدعا محمد بن مَسلَمة فسرّحه الى الكوفة وقال أعمد الى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودك على بَدئك فخرج حتى قدم الكوفة فاشترى حطباً ثم أتى به الى القصر فأحرق الباب وأُتي سعد فأخبر الخبر فقال . هذا رسول أُرسل لهذا الشأن وبعث لينظر من هو فلما عرفه أرسل اليه رسولاً بان أدخل فأبى فخرج اليه سعد فأراده على الدخول والنزول فأبى وعرض عليه نفقة فلم يأخذ ودفع كتاب عمر الى سعد وفيه

بلغني انك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد وجعلت بينك وبين الناس باباً فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الاموال وأغلقه ولا تجعل على القصر بابا يمنع الناس عن دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك اذا خرجت:

فحلف له سعد ماقال الذي قالوا ورجع محمد بن مسلمة من فوره حتى أذا دنا من المدينة فَنِيَ زاده فتبلغ بِلحاء الشجر فقدم على عمر فسأله فأخبره الخبر كله فقال له هلا قبلتَ من سعد : فقال لو أردت ذلك كتبت لي به أو أذنت لي فيه : فقال عمر ان أكمل الرجال رأياً من اذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عَمِلَ بالحزم أو قال به ولم ينكل

وأخبره محمد بيمين سعد وقوله فصدق سعداً وقال : هو أصدق ممن روى

عليه وأبلغني

جاء في كنز العمال عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان اذا بعث عماله شرط عليهم ان لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا ابوابكم دون حوائج الناس، إن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلت بكم العقوبة. ثم يشيعهم فاذا أراد أن يرجع قال: اني لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على أعشارهم ولا على أبشارهم [1] ولا على اعراضهم ولا على اموالهم ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسموا فيهم فيئهم وتحكموا بينهم بالعدل فان أشكل عليكم شيء فارفعوه الي: ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تجمروها [2] فتفتنوها ولا تعتلوا عليها فتحرموها جودوا القرآن: (وفي رواية) وأقلوا من الرواية

وكان اذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله في الحال ففى المناقب لأبي الفرج بن الجوزي عن بن سعد قال، كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان ابن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال.

ألا هل أتى الحسناء انّ حليلها بميسان يُسقى فى زجاج وحنتم

فى أبيات يقول فى ختامها

لعل أمير المؤمنين يسؤه تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ عمر قوله قال. نعم والله انه ليسؤني من لقيه فليخبره انى قد عزلته: فقدم عليه رجل من قومه فاخبره بعزله فقدم على عمر فقال والله ما أحب شيأ مما قلت ولكن كنت أمرءاً شاعراً وجدت فضلاً من قول فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لا تعمل لى على عمل ما بقيت. وفي رواية عن عثمان الحزامي عن أبيه قال

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم (٢) قال في القاموس جمره تجميراً جمعه والقوم على الامر تجمعوا الى ان قال والجيش حبسهم في أرض العدو ولعله هو المراد

لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب الى النعمان بن نضلة (بسم الله الرحمن الرحيم) حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير . أما بعد فقد بلغني قولك

لعلّ أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدّم

وايم الله انه ليسوءني وعزله

ومن عجيب سياسته مع العمال انه كان يحصي اموالهم قبل العمل وما زاد بعده يصادرهم على كله او بعضه ومن هذا ما رواه الطبري ان عمر استعمل عُتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال له ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معي وتجرت فيه . قال ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه فصيّره في بيت المال .

وروى ان خالداً لما أدرب هو وعياض الى بلاد الروم انتجعه من العراق رجال منهم الاشعث بن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب الى أبي عبيدة أن يحصي مال خالد ويصادره على النصف فدعاه وتلا عليه أمر أمير المؤمنين وصادره على نصف ماله حتى الخفين أخذ منهما واحداً وترك له الآخر . وكان خالد بن الوليد أميراً على قنّسرين من قِبَل أبي عبيدة لا من قبل عمر ففي رواية أخرى للطبري أن عمر كان لا يخفى عليه شيء في عمله فكتب اليه من العراق بخروج من خرج من الشام وبجائزة من أجيز فدعا البريد وكتب معه الى أبي عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قَلَنسُوَتَهُ حتى يعلمهم من أين أجاز الاشعث أمن ماله أم مِن اصابة أصابها (يعني من المغنم) فان زعم انها من اصابة أصابها فقد أقرّ بخيانة وان زعم انها من ماله فقد اسرف واعزله على كل حال واُضمم اليك عمله . فكتب ابو عبيدة الى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر فقام البريد فقال أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من اصابة فلم يجبه حتى اكثر عليه

وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً فقام بلال (مولى رسول الله) صلى الله عليه وسلم اليه فقال ان أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته وقال ماتقول أمن مالك أم من اصابة قال لا بل من مالى فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال (نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا) وأقام خالد متحيراً لا يعلم أمعزول هو أم غير معزول وأبو عبيدة لا يخبره كرامةً له وكأن عمر لما أبطأ عليه الخبر علم بالذى كان فكتب الى خالد بالقدوم عليه فعتب خالد على أبي عبيدة لانه لم يعلمه بأمر عمر من قبل فقال أبو عبيدة اني والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بداً وقد علمت ان ذلك يروعك . ثم ان خالداً رجع الى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ثم أقبل الى حمص فخطبهم وودعهم ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال لقد شكوتك الى المسلمين وبالله انك في أمري غير مجمل [1] يا عمر فقال عمر من أين هذا الثرى . قال من الانفال والسهمان مازاد على الستين ألفاً فلك فقوم عمر عروضه [2] فخرجت اليه عشرون ألفاً فأدخلها بيت المال ثم قال يا خالد والله انك علي لكريم وانك الي لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء . ثم ان عمر كتب الى الامصار اني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت ان يوكلوا اليه ويبتلوا به فأحببت ان يعلموا ان الله هو الصانع وان لا يكونوا بعرض [3] فتنة . ويقال انه عوضه عما أخذه منه وكتب الى الناس : وهكذا أيضاً شاطر سعد بن أبي وقاص على ماله وشاطر أبا هريرة ولما أبى ان يشاطره ضربه وصادر غيرهم أيضاً ورد أموالهم لبيت المال . وهذا أمر لا يعجب من صدوره عن عمر (رض) على شهرته بالعدل لانه لا بد أن يكون له في هذا رأي سديد ومرمى بعيد ولعل الحامل

---

(١) مجمل من أجمل في الطلب أتأد واعتدل ولم يفرط (٢) متاعه (٣) بطريق

له على ذلك هو لانه كان يرى أنّ هذا المال حق المسلمين فينبغى له أن يكون لعامة المسلمين حتى لا يتكاثر به الاغنياء ويتعالوا به على الفقراء ويدلنا على هذا ما رواه ابن جرير الطبرى فى تاريخه عن السائب بن يزيد قال . سمعت عمر بن الخطاب يقول والله الذى لا اله الاّ هو (قالها ثلاثا) مامن أحدٍ الاّ له فى هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحقّ به من أحد الاّ عبد مملوك وما أنا فيه الاّ كأحدهم ولكنّا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجل وبلاؤه فى الاسلام والرجل وقدمه فى الاسلام والرجل وغناؤه (كفايته) فى الاسلام والرجل وحاجته والله لئن بقيت ليأتينّ الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه

وأخرج عن حبيب بن أبي وائل قال . قال عمر بن الخطاب لو استقبلت من أمرى مااستدبرت لاخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين

ولا يخفى على من له إلمام بأصول المذاهب الاشتراكية القائمة فى هذا العصر فى أوروبا أنّ من الاغراض التى ترمي اليها جعل الاموال حقاً يشترك فيه الناس من كل الطبقات والاسلام قد قرر قاعدة الاشتراك الاّ ان بين مذهب الاشتراكيين ومذهب المسلمين فرق فى انّ المسلمين يعتبرون هذا الحق فى ثمرة رأس المال وهى الفضول وانّ الاشتراكيين يعتبرونه فى رأس المال نفسه وهو خطأ أداهم اليه الافراط والغلوّ كما شرحنا ذلك فى كتابنا تنبيه الافهام . وبالله لو علم اولئك الناس أنّ الاسلام قرر قاعدة الاشتراك على أصول الحق والعدل التي لا تصادم نواميس الاجتماع وانّ أهله بانوا لا يعرفون شيأ من هذه القاعدة ولا غيرها من القواعد التى تضمن سعادتهم الاجتماعية وحياتهم الملية

لأخذتهم الحيرة من هذا الامر وربما انبه قادتهم وزعماؤهم الى قبول الاسلام وجعله أساسا للسعادة التي ينشدونها للانام واكتفوا في بث دعوتهم مؤنة المقاومة التي يلاقونها من أهل الجدل والخصام

﴿ كلمة في الحرية والطاعة ﴾

(أو الحكومة العسكرية والحكومة القانونية ﴾

أخذت على نفسي أن لا أغفل في هذا الكتاب خبراً يمر على القارئ من الاخبار التاريخية المهمة مالم أردفه ببيان مفيد لاسيما فيما يرجع للاخلاق ويمثل صورة الفضائل والرذائل ويفرق بين السعادة والشقاء ومما ينبغي ان لا يفوتنا النظر فيه حادث خالد بن الوليد الذي هو أهم حادث في تاريخ الحرية العربية في الاسلام وكيف لا يكون كذلك وهو يمثل نتائج الحرية والعدل في صورة من الكمال تتزلزل لها أقدام الظلم وتخشع امامها قوى الكون البشري الهابطة من أعلى عليين والصاعدة من أسفل سافلين ألا وهي الطاعة للرئيس والخضوع للقانون

الحرية فضيلة معناها تخلص الانسان من الاسر وتملصه من ضيق الحجر وجواز تصرفه في كل حق من حقوق الانسانية التي سوّغها العقل وقضت بها أصول الاجتماع والتعاون بحيث يكون الانسان مالكا لارادته لا بهيمة تتحرك بارادة سواه مالكا لثمرة عمله لا حق لآخر بحرمانه منها مالكا لأمنه لا سلطان لآخر في سلبه منه ومتى فقد الشخص واحدة من هذه الثلاث سلب منه معنى الحرية وصار كالحيوان يتعب ليأكل سواه ويشقى ليسعد غيره ويسعى ليموت هو ويحيا من عداه

ربما يتوهم ان الحرية بهذا المعنى هي الانطلاق عن كل قيد مادام ليس لارادة النفس على مايعلم من حالها من قيد وليس الامر كذلك اذ كما أنّ التفريط بالحرية طرف للرذيلة كذلك الافراط فيها أيضا وفي كلا الطرفين رجوع للبهيمية

وفقد لفضيلة الحرية وانما هناك وسط ترجع اليه وقيد تتقيد به بل قيدان وهما القيد النفسي والقيد الخارجي فأما القيد النفسي فهو إمّا الزاجر الديني وإمّا الفضيلة الذاتية والقيد الخارجي هو الوازع وليس في كلا القيدين معنى للعبودية أو منع للحرية وانما هو إمساك للنفس عن الاندفاع مع تيار الهوى والشهوة الذي يلحق الانسان بالبهائم ففي مطاوعة الارادة للزاجر النفسي مطاوعة للفضيلة ووقوف عند حد الانسانية وفي مطاوعتها للوازع مطاوعة للشرع وخضوع للقانون

الانسان ميال بطبعه للسعادة اذا أُرشد اليها وحُثّ عليها والشرائع انما هي شرعة السعادة البشرية وقوام الحياة الأجتماعية فالوازع الذي يزع الناس بالشريعة لا يحاول بما يزع به قهراً للنفوس ولا حجراً على الارادة بل يماشي الارادة ويساعد النفوس على نيل السعادة لهذا فطاعة الوازع من مستلزمات السعادة لا يأباها العقل ولا يهضم بها حق من حقوق الحرية مادامت طاعته يراد بها طاعة القانون الذي هو أصل في السعادة لا طاعة الوازع نفسه من حيث كونه آمراً بهواه وشهواته لا مأموراً من القانون ومهيمناً عليه

اذا تقرر هذا فاعلم ان الأمة العربية كانت في جاهليتها على جانب من الاغراق في الحرية يكاد يكون إفراطاً فيها كما يعلم ذلك كل مطلع على تاريخ هذه الأمة لان حب الحرية خُلُقٌ تأصل في نفوسها منذ نشأت في فضاء البوادي المتسع مطلقة عن كل حجر . ومن هذا الافراط نشأ ما يسمونه العصبية ذلك لأنهم كانوا أشتاتاً في التجزؤ الى بطون وقبائل لا تجمعهم جامعة الجنس وليس ثمة وازع يضمهم الى كلمة واحدة فكانوا يفزعون عند الحاجة الى العصبية بان تتحد العشيرة الواحدة ضد الأخرى دفاعاً عن الحوزة وصد الغارة أو جلباً للمغنم ومع ما في هذا الامر من ضعف النظام الاجتماعي وفقد الرابطة القانونية فانهم كانوا به وَلِعين وعليه

حريصين لانه نتيجة مغالاتهم في الحرية وحبهم للانطلاق عن كل قيد ، ولما جاء الاسلام ببيانه وبسط عليهم جناح حنانه وجمعهم على كلمته وضم شتيتهم الى رايته كان من مبادئه الاولى في النصح والارشاد تحذيرهم من التفرق وتعليمهم لأصول الطاعة وأمرهم بالخضوع الى الوازع ليكونوا يداً واحدة وقوة واحدة ومن ذلك قوله تعالى في الكتاب الكريم « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم » وانما أرادهم على الطاعة لأولي الامر لانها طاعة للشرع الذي فيه سعادتهم بردهم في الحرية الى حد الوسط بلا شطط عليهم في التقييد ولا ارسال لهم منه ولا حمل لهم على طاعة الوازع لنفسه بل لما يزعهم به من الشرع العادل يدلك على هذا قول أول خليفة في الاسلام وهو أبو بكر (رض) في احدى خطبه التي مرّ ذكرها في الجزء الأول « أطيعوني ما أطعت الله (في تنفيذ أوامره) فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » وقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) أعينوني على نفسي بالامر بالمعروف وإحضاري النصيحة وأعينوني على أنفسكم بالطاعة وقوله أنه لم يبلغ حق ذي حق « يعني نفسه » أن يطاع في معصية الله وكثير من أمثال هذا الكلام مما مر في باب خطبه وغيرها من هذا الكتاب وإذ كانت البداوة أصلاً في سلامة الفطرة وقبولها للخير وقد رأى القوم ان هناك نظاماً يضم أشتات الافكار الى وجهة واحدة ويقوم بحراسة الحقوق قياماً يغني عن العصبية مع استبقاء ما ألفوه من الاصول الديموقراطية في حالتهم الاجتماعية لم تأنف نفوسهم السامية من مثل تلك الطاعة وخضعوا لحكم الاسلام واجتمعوا على الرضى بسيادة الخلفاء ومن ثم تعلم ان دولة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين كان قيامها بالقانون لا بالقوة وحياتها بالشريعة لا بالسيف وبعبارة اوضح انها كانت دولة قانونية تستند الى الشرع الآلهي لتقوم لا دولة عسكرية

تستند الى القوة الجبرية لتسقط وتنحل وشتان بين دولة تستند الى القانون الذي هو سيف لا يفل حده وبين دولة تستند على قوة القهر التي لا تلبث أن تني أو تنحل وتهوي بالدولة الى خضيض الاضمحلال وتعاجلها بالانحلال

لمّا علمت الامة العربية يومئذ ان الطاعة على ذلك الوجه ركن من أركان الحرية لا سبب لسلبها منهم وان ليس فيها سلب لارادتهم ولا قهر لنفوسهم ولا حيف عليهم ولا هضم لحقوقهم وان ليس للوازع فوق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر يراد به الاشتطاط عليهم والاستئثار بالامر دونهم راضت لاولياء الامر نفوسهم العاتية ولانت اخلاقهم الجافية فألفوا اطاعتهم في الحق ومعاونتهم على المعروف واليك الدليل

خالد بن الوليد من سادات قريش وابن عم عمر بن الخطاب وفي مرتبته في الشرف الذي انتهى الى الرهط من قريش فوصله في الاسلام كما رأيت في صدر الجزء الاول من هذا الكتاب وخلا هذا فانه كان محبوباً من المسلمين كبير الجاه عند الناس له من قلوب الجند مكانة ليست لسواه اذا أمر طاعوا واذا أشار قبلوا جاءه أمر أمير المؤمنين بالشخوص الى حيث يقيم أبو عبيدة فامتثل وسئل فتردد وهابه أبو عبيدة وهو ابن عمه وأميره أن يأمر فيه بأمر الخليفة فقام اليه مولى (عبد) من موالي رسول الله (صلى) فنزع عمامته عن رأسه وعقله بها وسأله ماسأله حتي أجاب فأعاده قلنسوته الى رأسه وعممه بيده وقال نسمع ونطيع لولاتنا (يعنى عمر) ونفخم موالينا [1] « يعني خالداً » هذا كله على ملأ الناس ومشهد من عامة المسلمين فما الذي أسكت مثل هذا الامير الجليل في مثل هذا الموقف فلم ينتصر لنفسه ولم ينصره أحد من المسلمين هذا على ماعرف به من علوّ النفس

(١) المولى يطلق على السيد وعلى العبد

وإباء الضيم

أسكته أمران الأول علمه أنه لا يطاوع بسكوته وخضوعه هوى أمير المؤمنين بل يطاوع وجدانه ويطيع قانونه ودينه والامر الثاني علمه بانه فيما صنع غير مسلوب الارادة بقوة عمر (رض) ولا مغلوب له على أمره بل هو حر في أن يناقشه الحساب ويسأله عن سبب ما صنع وينتصف لنفسه منه اذا اشتط عليه او جار وقد كان ذلك كما رأيت وأنصفه عمر (رض) ولولا أن يعلم خالد أن له سلطاناً في نفسه يناقش به عمر وارادة لا يغلبه عليها الا الحق لاستحال على عمر ان يعامل مثله بتلك الشدة لما يعرفه في القوم من حب الحرية واستقلال الارادة وعزة النفوس وحسبك دليلاً على هذا ان أمير المؤمنين عمر (رض) لم يسعه بعد أن عامل خالداً بتلك المعاملة الا ان يعتذر عما صنع للناس ويجهر بالسبب على ملأ المسلمين دفعاً لشبه الضمائر وإعلاناً لسلامة حريتهم من مساس القوة والحجر وذلك انه قام يوماً فخطب فيهم خطبة في شأن العطاء : رواها ابن الجوزي فى المناقب : قال في آخرها

واني اعتذر اليكم من خالد بن الوليد فاني أمرته أن يحبس هذا المال على ضَعَفَة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فنزعته وأمَّرت أبا عبيدة بن الجراح .

فقام أبو عمرو بن حفص بن المغيرة (بن عم خالد) فقال والله ما اعتذرت يا عمر ولقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغمدت سيفاً سلّه رسول الله « صل » ووضعت أمراً نصبه رسول الله « صل » وقطعت رحما وحسدت بن العم

فقال عمر (رض) انك قريب القرابة حديث السن مغضب في ابن عمك .

ثم نزل ولم يزد على ان ردّ عليه رداً جميلاً

وهذا نهاية ما يقال في اطلاق الحرية للرعية يناقشون بها عن أنفسهم ويكفون الايدي عن حقوقهم ومع وصول العرب الى هذا الحد من الجرأة في الرد على مثل عمر بن الخطاب ومناقشته الحساب فانهم كانوا أطوع له من بنانه لعلمهم بانهم انما يطيعون بطاعته الله والرسول في الشرع الذي كان عمر منفذاً له مهيمناً عليه ولو كانت الحكومة ثمة حكومة عسكرية لكان خالد اول من لجأ الى القوّة وضرب بجيوشه وجه الدولة وناصب خليفة المسلمين العداوة وتوثب على الخلافة ومعاذ الله ان يحدّث خالد نفسه بشيء من ذلك ما دام لا أمر يومئذ للقوّة وإنما كان الآمر الناهي عند سائر المسلمين هو الشرع والوجدان لا القوة ولا الرئاسة ولقد بلغ بفريق من المسلمين في دولة الخلفاء الراشدين غلوهم في الخضوع للوجدان والشرع دون الوازع وهم الحرورية وغيرهم من فرق الخوارج ان قالوا لعليّ رضي الله عنه قولهم المشهور « لا حكم الا الله » وتغالوا في هذا القول حتى أنكروا لزوم الخلافة وسفكوا دماء آلاف من الناس في سبيل تأييد معتقدهم الشاذ حتى أفضى الامر الى فنائهم كما سترى بعد .

اذا تمهد هذا علمنا انّ حكومة الخلفاء الراشدين قامت على دعامة الشريعة لا القوة وكانت حكومة دستورية لا عسكرية وانّ الحرية لازم من لوازم الطاعة وسبب متين يتوصل به الى السعادة وشد عرى الصلة والاتفاق بين الحاكم والمحكوم لهذا كانت دولة الخلفاء الراشدين من أعظم الدول قياماً على الحق والحرية والعدل وبلغ المسلمون على عهدها مبلغاً من القوّة والغنى وقهر الأمم وفلّ جيوش الدول ما عهد مثله في تاريخ دولة قبلهم ولا بعدهم قط ومذ اختلط العرب بالاعاجم وابذعرّوا في أطراف البلاد وتفرقوا على قلتهم في الممالك وضعفت

عصبيتهم عن مقاومة أعداء الحرية من المتوثبين على الخلافة والدخلاء في دولتهم من الأمم الأخرى الذين ألفوا الاستعباد وفطروا على حب الاستبداد انحطت دول الاسلام عن مقامها وأخذت بالتقهقر في سيرها وانقطعت صلة الاتفاق بينها وبين رعيتها فأصبحت ورعيتها على طرفي نقيض تريدهم على الخضوع لهوى الامراء وشهواتهم ويريدونها على العدل والاستقامة واتباع الشرع والقانون وهذا خطب عظيم اذا طال أمره والعياذ بالله في أمة دمرها تدميراً اذ لا يزال يضرب الامراء عقلاءها بجهلائها وفضلاءها بسفهائها حتى يفنى الفريقان كما فنيت أمة الرومان واليونان وعرب المسلمين هذا اذا أبقى الاستبداد لافراد الأمة أفئدة تهوي الى الحرية ونفوساً تطلب النزوع الى الحياة الطيبة والرقي الى مرتبة الانسانية وأما اذا بلغ الاستبداد من عامة الأمة مبلغه فأصابها الفالج العام الذي يصيب الأمم في أواخر عهدها فيذهب بقواها ويميت أعضاءها عن الحركة وعقولها عن الادراك فدمارها يكون بيد غيرها لا بيدها والمآل الى هذا أشنع والموت بيد المتغلبين أفظع وحسبك دليلا على هذا مايقاسيه المسلمون من ضروب القهر والشقاء من بعض الدول الاوربية التي آل اليها لذلك السبب ملك المسلمين وتسلطت على أقوام كثيرين منهم ولو كان ثمة قوم لهم قلوب يفقهون بها وآذان يسمعون بها فاذا ذكروا يذكرون لما خنعوا لهذا الاستعباد ولكانوا أنداد الأمم الاوربية فى مضمار المنافسة الحيوية ولكن يا حرقة الفؤاد فومنا فى واد والغربيون فى واد

(حضه الناس على الكسب)

الانسان مدني بالطبع يتعاون على العمل ويتبادل مع أخيه العوض والعوض انما هو ثمرة العمل فكل يعمل للآخر ليبادله العوض ورب صنعة يتعاون عليها جمع

من الناس كل فرد منهم يشتغل بفرع منها فاذا ترك أحدهم نصيبه من العمل بذلك الفرع خسر الكل لهذا كان أس الحياة الاجتماعية العمل وأصلها الكسب وليس في الوجود شرع ينهى عن الكسب بل كل الشرائع تأمر به ولو مع الرفق في الطلب والاسلام من الشرائع التي حثت السعي للرزق وأمرت بالكسب الا انه أمر بالرفق في الطلب والتوكل على الله مع السعي ليكون الرجاء بالكسب أقوى والقناعة لجرثومة اليأس أقطع والعزيمة على السعي أمضى واذ كان عمر رضي الله عنه أعلم الصحابة بالدين وأفقههم فيه وخشي أن يلابس نفوس العامة شيء من ظواهر الآيات التي أمرت بالتوكل والقصد ورأى بعضهم حمل معنى التوكل على محمل الزهد وترك السعي جعل دأبه حض الناس على السعي وحثهم على العمل والكسب ومن ذلك ماجاء في كنز العمال عن معاوية بن قرة قال: لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال ما أنتم فقالوا متوكلون: فقال كذبتم ما أنتم متوكلون انما المتوكل رجل ألقى حبه في الارض وتوكل على الله. وفي المناقب لابي الفرج بن الجوزي عن محمد بن سيرين عن أبيه قال شهدت مع عمر بن الخطاب المغرب فأتى عليّ ومعي رزيمة[1] لي فقال ماهذا معك فقلت رزيمة لي أقوم في هذا السوق فاشتري وأبيع فقال يامعشر قريش لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة فانها ثلث الامارة

وفيه عن حواب التيمي قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يامعشر القراء ارفعوا رؤسكم فقد وضح الطريق واستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على المسلمين

وفيه عن الحسن قال: قال عمر رضي الله عنه من تجر في شيء ثلاث مرات فلم يصب فيه شيئاً فليتحول الى غيره

---

(١) تصغير رزمة وهي الكارة من الثياب

وفيه عن الاكيدر العارض قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا المهنة فانه يوشك أن يحتاج أحدكم الى مهنة

وفي كنز العمال عن عمر قال : لولا هذه البيوع صرتم عالة على الناس

وفي المناقب عن بكر بن عبد الله قال : قال عمر مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس

وفيه عن ذكوان قال : قال عمر اذا اشترى أحدكم جملا فليشتره عظيما سميناً فان أخطأه خيره لم يخطئه سوقه

وفيه عن محمد بن عاصم قال : بلغني انّ عمر بن الخطاب كان اذا رأى فتىً فأعجبه حاله سأل عنه هل له حرفة فان قيل لا سقط من عينه

وفي العقد : قال عمر بن الخطاب لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم انّ السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وانّ الله تعالى انما يرزق الناس بعضهم من بعض وتلا قول الله جلّ وعلا (فاذا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)

وفيه : قال عمر بن الخطاب يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس

وفيه قال عمر بن الخطاب حَسَبُ الرجل ماله وكَرَمُه دينه ومروأته خُلُقه

نهيه عن التنطع
(وتحذيره من الابتداع)

الاسلام دين اليسر ودين الفطرة يأمر بالاعتدال في كل الاعمال حتى العبادة وينهى عن التنطع الناشيء عن التوسع والابتداع ولم يكن العرب على صلابتهم في الدين يعرفون هذا التنطع الذي ابتدعه الاعاجم بعد لعدم توسعهم في

التأويل ووقوفهم عند ظاهر الشرع لهذا لما انتشر الاسلام في أنحاء الارض وعم سائر الشعوب في دولة الخلفاء الامويين والعباسيين وأكثر الاعاجم من الابتداع وغالوا بالتنطع والتشدد بما ليس من الدين كان يعيبهم العرب على ذلك ويهزأون بهم ويتباعدون عن بدعهم فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد عن الاصمعي قال . قدم أبو مهدية الاعرابيّ من البادية فقال له رجل يا أبا مهدية أتتوضؤن بالبادية قال والله يا ابن أخي لقد كنا نتوضأ فتكفينا التوضئة الواحدة ثلاثة أيام والاربعة حتى دخلت علينا هذه الحمراء (وهي الموالي من الاعاجم) فجعلت تليق استاها بالماء كما تلاق الدواة .

وانما أراد بقوله فتكفينا التوضئة الواحدة الخ الاغراق بالتهكم على تنطع الاعاجم لانهم (أي العرب) كانوا حقيقة يفعلون ذلك بالوضوء معاذ الله أن يكونوا في هذه المرتبة من التهاون بالفرائض وهم أبناء أولئك الذين نشروا هذا الدين وعلى عهدهم أنزل القرآن . ومن هذا تعلم انّ التنطع أمر لا يريده الدين وانما كان منشؤه الابتداع والتوسع ومن هذا القبيل توسعهم في حديث السواك وهو (لولا ان أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك) ومع انّ الحديث يتضمن الندب والاستحباب فقد كاد بعضهم ينزله منزلة الواجب وكتبوا فصولاً وأبواباً مخصوصة في فوائده واستعماله وحمله الى آخر ماقالوه في شأنه مما لم يكن منشؤه الا التنطع حتى فيما ليس من الدين

كان من الصحابة نفر ولعوا بالعبادة وانقطعوا الى التجهد لكن بما لايخرج عما جاء به الكتاب ورأوه من نبيهم عليه الصلاة والسلام فخشي عمر أن يسري الى العامة حب الانقطاع الى العبادة والتنطع في الدين فينشأ عن ذلك تعطيلٌ لوظائف الاجتماع الدنيوية وتوسعٌ في التأويل وتجرؤ على الابتداع فجعل ينهى الناس عن

التنطع ويحذرهم من الابتداع ومن نهيه عن التنطع ما أخرجه أبو الفرج بن الجوزي عن محمد بن عبد الله القرشي عن أبيه قال . نظر عمر الى شاب قد نكس رأسه فقال له ياهذا . ارفع رأسك فان الخشوع لا يزيد على ما في القلب فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فانما أظهر للناس نفاقاً على نفاق

وأخرج عن أبي عمرو الشيباني قال . خبر عمر بن الخطاب برجل يصوم الدهر فجعل يضرب به بخفقته وجعل يقول كل يادهر كل يادهر

وعن سعيد بن المسيب ان عمر بن الخطاب قال عجلوا الفطر ولا تنطعوا تنطع أهل العراق

وعنه عن أبيه قال كنت جالساً عند عمر (رض) اذ جاءه راكب من أهل الشام فطفق يسأله عن حالهم فقال . هل تعجل أهل الشام الافطار . قال نعم . قال لن يزالوا بخير ما فعلوا ذلك ولم ينتظروا النجوم انتظار أهل العراق

وعن محمد بن سيرين ان عمر بن الخطاب خرج من الخلاء يقرأ القرآن فقال له أبو مريم يا أمير المؤمنين أتقرأ القرآن وأنت غير طاهر . فقال له . مسلمة (هكذا) أمرك بهذا

وأما تحذيره من الابتداع فقد أخرج الامام أبو الفرج أيضاً عن عابس بن ربيعة قال . رأيت عمر نظر الى الحجر فقال . أما والله لولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك ثم قبله

وعن عبد الله بن سرجيس قال . كان الاصلع (يعني عمر) اذا استلم الحجر قال : اني لاعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ماقبلتك

وعن نافع قال : كان الناس يأتون الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه

وسلم تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت : وهذا الاثر يوافق ماتدمناه في فصل (لاوثنية في الاسلام)

وليت عمر يأتي في هذا العصر بدرته وسيفه وينظر الى مصير صار اليه المسلمون من تقديس الاحجار والاشجار واذا كانت تلك شجرة واحدة وبويع تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعندنا الآن عدد لا يحصى من الاشجار كالجميز في مصر والميس والزيتون في الشام وهي من الاشجار التي كانت تعتبر مقدسة عند الوثنيين القدماء فقدس عوام المسلمين بعضها بحجة ان هذه دفن تحتها فلان الصالح وتلك لمسها فلان الشيخ الى غير ذلك من الاعذار التي ينتحلونها بعقولهم القاصرة عن مرتبة التوحيد التي وضع الله فيها مثل أبي بكر وعمر فانا لله وإنا اليه راجعون

وأخرج عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل فقال : ياامير المؤمنين انا لما فتحنا المدائن أصبت كتاباً فيه كلام معجب: قال أمن كتاب الله : قال لا فدعا بالدرة فجعل يضربه بها ويقول (الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) الى قوله تعالى : وان كنت من قبله لمن الغافلين : ثم قال انما أهلك من كان قبلكم انهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والانجيل حتى درسا وذهب مافيهما من العلم اه

(ادبه وتأديبه)

(أدبه مع رسول الله)

تقدم معنا في باب صحبته كلام على أدبه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبه له وقيامه دائماً بين يديه يغني عن الاسهاب في هذا الباب وحسبه أدباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تفانيه في حبه تفانياً أذهله عن حقيقة موته فقال في ذلك اليوم (من قال إن محمداً قد مات علوت رأسه بسيفي هذا) والقصة طويلة مر معنا في

هذا الكتاب ، لخصها

أدبه مع نفسه

عن أنس قال دخلت حائطاً (بستاناً) فسمعت عمر يقول وبيني وبينه جدار : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك الله

وقال السيوطي قال عبد الرحمن بن عامر بن ربيعة رأيت عمر أخذ تبنة من الارض فقال ياليتني كنت هذه التبنة ياليتني لم أك شيئاً ليت أمي لم تلدني . وعن سفيان بن عيينة قال : قال عمر بن الخطاب أحب الناس الي من رفع الي عيوبي. وأخرج الطبري عن سلمان ان عمر قال له أملك أنا أم خليفة فقال له سلمان إن جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة فبكى عمر : ولشد ما كان وأبو بكر يهربان من صفات الملوك ويقومان بحقوق الخلافة خوف الاتسام بسمة الملوك الجبارين التي يأباها الاسلام وتنهى عنها شريعة محمد عليه الصلاة والسلام

(تأديبه لنفسه)

كان عمر رضي الله عنه شديداً على الناس سريع العقوبة يتناول المسيء بالدرة التي قيل فيها « لدرة عمر أهيب من سيوفكم » ومع هذا فقد كان سريع الانابة رقيق القلب لا يلبث أن يعاقب حتى يندم لطهارة وجدانه وسلامة قصده

اخرج الحافظ عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أبي غنية يحيى بن عبد الملك بن سلامة بن صبيح التميمي قال : قال الأحنف بن قيس : كنت مع عمر ابن الخطاب فلقيه رجل فقال يا أمير المؤمنين انطلق معي فاعذني على فلان فانه قد ظلمني فرفع عمر الدرة فخفق بها رأسه فقال : تدعون امير المؤمنين وهو معرض لكم حتى اذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه اعذني اعذني : قال فانصرف

الرجل وهو يتذمر قال « اي عمر » عليّ الرجل « اي ردوه عليّ » فألقى اليه المخفقة. وقال امتثل « اي اقتص بمثل الضربة » فقال لا والله ولكن أدعها لله ولك : قال ليس هكذا اما ان تدعها لله ارادة ماعنده او تدعها الي فاعلم ذلك : قال ادعها لله : قال « اي الاحنف » فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين وجلس فقال « يخاطب نفسه » يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله وكنت ضالاً فهداك الله وكنت ذليلاً فأعزك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته ما تقول لربك غداً اذا أتيته : قال فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبةً حتى ظننا انه خير أهل الارض

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن إياس بن سلَمة عن أبيه قال : مرّ عمر بن الخطاب « رض » في السوق ومعه الدرّة فخفقني بها خفقةً فاصاب طرف ثوبي فقال أمِطْ عن الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فقال . ياسلمة تريد الحج . فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق بي الى منزله فاعطاني ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم انها بالخفقة التي خفقتك . قلت ياأمير المؤمنين ما ذكرتها قال وانا ما نسيتها :

هذه هي الفضيلة وذاك هو الوجدان الحساس الذي جعل ذلك الخليفة العظيم يطلب العفو من شخص عن خفقة أصابت ثوبه لم يقصد بها أذاه وانما قصد تنبيهه الى كشف الاذى عن طريق الناس والله أعلم بما عانى من القلق ريثما آن أوان الحج ووجد سبيلاً لاسترضاء ذلك المسلم عنه وطلب الصفح منه مع انه خليفة المسلمين الذي أنيط به العقاب فعاقب بمعروف ولم يتجاوز في مس طرف الثوب بدرّته حد التنبيه الي إماطة الضرر عن الطريق فاين هذا الانصاف والرحمة من جبروت الخلفاء والسلاطين الذين بسطوا ايد القوة بعدُ على الناس وتحكموا فيهم

تحكم المالك في العبيد لا رحمة تشفع ولا جاه ينفع ولا فضيلة تمنع : وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون

(تأديبه للمسلمين)

بلغ برأفة عمر بالمسلمين وحملهم على الطريق الواضحة وتأديبهم بآداب النبوّة انه كان إذا أراد تنبيههم الى أمر نافع وصرفهم عن أمر ضار يتقدم الى أهله بذلك التنبيه ليكونوا قدوة الناس وأسوة المسلمين في التأديب ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير في تاريخه عن سالم وابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر قال كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال : انى نهيت الناس عن كذا وكذا وانّ الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الاّ اضعفت عليه العقوبة لمكانه مني

ورُوي عن عكرمة بن خالد قال دخل ابن لعمر بن الخطاب عليه وقد ترجل ولبث ثياباً حساناً فضربه عمر بالدرة حتى أبكاه فقالت له حفصة لم ضربته قال رأيته قد أعجبته نفسه فأحببت ان أصغرها اليه

ومن أخباره في التأديب التي تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة عقوبته لغلاظ القلوب ما جاء في كنز العمال عن أبي عثمان النهدي قال : استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من بني أسد على عمل فجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبّله. فقال الاسديّ : أتقبّل هذا يا أمير المؤمنين والله ما قبّلتُ ولداً قط : قال عمر فانت والله بالناس أقل رحمةً هات عهدنا لا تعمل لي عملاً أبداً : فرد عهده

جوزي هذا العامل بالعزل والابعاد بتاتاً عن العمل « التوظف » لكلمة قالها لعمر (رض) أحسّ منها عمر بغلظة فؤاده فخشي إن هو عهد اليه بالعمل ان يكون فظاً غليظ القلب على الرعية فعزله : فهل كان للامراء والسلاطين من بعده

بصر يبصرون به أو سمع يسمعون به فيعلموا أنّ عمر بن الخطاب الذى أرهب أبناء الحرية وصناديد العرب وسادات قريش واستخضع لحكمه الفرس والروم الصابئة منهم وأهل الكتاب فكانوا كلهم بالسمع والطاعة له سواء انما ساسهم بمثل هذه السياسة وكان بهم رؤفا كرأفة الوالد بالبنين وعليهم عطوفاً كعطف المرضع على الطفل

أجلْ كان منهم من علم ذلك وعمل به وهم الخيرة الطيّبون الذين ساسوا وعمروا وجاء غيرهم فخربوا ودمروا فكانوا صواعق من العذاب انقضّت على المسلمين فقضت على ما شيّده غيرهم بالدمار وشوّشت نظام الملك وقتلت العقول وجردت سيوف الاستبداد على الأمة فأعدمتها رشدها وأفسدَتْ اخلاقها وذهبت بعلومها وطأمنت من اشرافها وأفقدتها عزها وشممها فأذلّتها ذلاً ها نحن اولاء نشاهد نتائجه الآن بالعيان حيث نظلم ونهان من كل انسان وليس فينا روح تدب ولا نائم يهب بل كلنا أموات يحسبنا العالم المتمدن من الرفات فلوبنا متفرقة وأهواؤنا شتىّ ونفوسنا خامدة الا عن السفاسف وخُطانا قاصرة الا عن أماكن الفساد وشأننا كله شأن من رضي بالذل وانغمس في الجهل واستسلم للقضاء حتى ساعة الفناء قلت

ومن ينم عن شؤونٍ كلها خطر فليس يخطئْ مَنْ ينعيه للناس

ومن تأديبه لاشراف قريش وقهره لنفوسهم مع ما عرفوا به من الكبرياء والسيادة ما رواه ابن الجوزى عن الحسن قال حضر باب عمر (رض) سهيل بن عمرو بن الحرث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرؤوس. وصهيب وبلال وتلك الموالى الذين شهدوا بدراً فخرج اذن عمر فاذن لهم (أى للموالى) وترك أولئك. فقال أبو سفيان لما أرَ كاليوم قط يأذن

لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت الينا. فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا أيها القوم اني والله أرى الذي في وجوهكم ان كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم دُعي القوم ودُعيتم فأسرعوا وأبطأتم فكيف بكم اذا دُعوا على أنفسكم يوم القيامة وتُركتم: وكان هذا شأنه رضي الله عنه مع كبار قريش الذين تأخر اسلامهم الى ما بعد الفتح أخرج أبو الفرج أيضاً عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي حاطب عن أبيه قال قدمنا مكة فاقبل أهل مكة يسعون . ياأمير المؤمنين أبو سفيان حبس مَسيل الماء علينا ليهدم منازلنا فاقبل عمر ومعه الدرة فاذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً فقال ارفع هذا فرفعه ثم قال وهذا وهذا حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أوستة ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه: ومن علم ماهي سلطة أبي سفيان بمكة وكيف كان تحكم قريش فى رقاب الناس علم فضل الاسلام فى تأسيسه قاعدة لمساواة وعدله بين الناس ومحوه آثار التفاضل بالانساب ؟ ومن أخباره فى التأديب مانقله فى العقد الفريد ان عمر (رض) قال لرجل من سيد قومك : قال انا : قال كذبت لو كنت كذلك لم تقله

﴿ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم ﴾

اذا أردت ان تعلم أدب الرجال العظام الذين رفع الله نفوسهم لا بالكبرياء وسودهم على الامم لا بالغطرسة والتجبر وحببهم الى الناس لا بالخيلاء فاسمع ما أخرجه الطبريّ فى تاريخه عن الحسن قال : قال عمر اذا كنت فى منزلة تَسَعُني وتَعجِز الناس فوالله ماتلك لى بمنزلة حتي أكون أسوة للناس

هذا الخليفة العظيم الذى دوّخ ملك فارس والروم وأرهبت سطوته الامم

وامتد ظل سلطانه الى حدود الهند شرقا وأفريقيا الشمالية غربا ومنحه الله هذا الملك العريض والسلطان العظيم لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى رعاياه انّ هذا لهو العدل الذى ليس فوقه عدل ولا جرم فبمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملأ الاذهان خبره حتى عدّه المؤرخون من أعظم رجال الاسلام وحتى اننا لنفخر به على ملوك الارض فرضى الله عنه وأرضاه

ومن تواضعه ماأخرجه الطبريّ عن ابن أبي سليمان عن أبيه : قال قدمت المدينة فدخلت داراً من دورها فاذا عمر بن الخطاب (رض) عليه ازار قطريّ يدهن ابل الصدقة بالقطران

وأخرج عن زهير بن سالم انّ كعب الاحبار قال : نزلت على رجل يقال له مالك وكان جاراً لعمر بن الخطاب فقلت له كيف بالدخول على أمير المؤمنين ؟ فقال ليس عليه باب ولا حجاب يصلي الصلاة ثم يقعد فيكلمه الناس

وفى المناقب عن الحسن (رض) قال كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام فى شئ فقال له الرجل اتق الله فقال رجل من القوم أتقول لامير المؤمنين اتق الله فقال له عمر دعه فليقلها لي نعم ماقال لا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذ لم نقبلها

وليس قول عمر هذا من قبيل التواضع فقط بل هو من قبيل العلم بوجوب النصيحة على المسلمين وبوجوب انتصاح الامام منهم ورضاه بنصحهم وتذكيرهم له بالتقوى والعدل وذكر أرباب السير انّ عمر (رض) كان أيام القادسية شديد التطلع الى أخبار جيوش المسلمين كثير الاهتمام بأمرهم فكان يخرج كل يوم خارج المدينة يترقب الاخبار ويتنسمها ثم يرجع الى أهله فلما لقيه البشير سأله من أين فاخبره فقال يا عبد الله حدثني قال هزم الله العدوّ : وعمر يخب معه

ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين فقال الرجل : فهلا أخبرتني رحمك الله انك أمير المؤمنين وجعل عمر يقول لا عليك يا أخي

وذكروا انّ عمر لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره وخلع نعليه فامسكهما بيده فخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة (رض) قد صنعت صنيعاً عظيما عند أهل الارض (يعني أهل الشام) فصك عمر فى صدره وقال أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة انكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله

وروى الطبري ان عمر لما قدم الشام فى أيام الطاعون اتخذ أيلة طريقاً حتّى اذا دنا منها تنحّى عن الطريق واتبعه غلامه فنزل فبال ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه فلما تلقاه أوائل الناس قالوا أين أمير المؤمنين : قال أمامكم يعنى نفسه وذهبوا الى أمامهم فجازوه حتى انتهى هو الى أيلة فنزلها وقيل للمتلقين قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها فرجعوا اليه (وذلك لانه لما قال لهم أمامكم : وعنى نفسه لم يعرفوه وظنوا انه يشير الى انّ الامير غيره وقد تقدمه الى الامام)

وروى عن مولى لعثمان بن عفان (رض) قال كنت رديفاً لعثمان بن عفّان حتّى أتى على حظيرة الصدقة فى يوم شديد الحر شديد السموم فاذا رجل عليه ازار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الابل يدخلها الحظيرة حظيرة إبل الصدقة فقال عثمان من ترى هذا قال فانتهينا اليه فاذا هو عمر بن الخطاب : فقال هذا والله القويّ الامين

وفى كنز العمال عن الفضل بن عميرة انّ الاحنف بن قيس قدم على عمر بن

الخطاب في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو محتجز[1] بعباءة يهنأ[2] بعيراً من إبل الصدقة فقال يا أحنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فانه من إبل الصدقة فيه حق اليتيم والارملة والمسكين فقال رجل يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا : فقال عمر : يا ابن فلانة وأى عبد هو أعبد مني ومن الاحنف هذا انه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الامانة في المداراة .

تالله انّ هذا الخلق يعلو بصاحبه عن وصف الواصفين ومرتبة لا يبلغها أحد من الخلفاء والسلاطين ومن يعد نفسه عبداً للرعية اذا ملكها وخادماً لها اذا أمرته عليها ويقوم على خدمتها قيام التابع على خدمة المتبوع في جزئيات أمورها وكليات سياستها الجدير به ان يقال هذا ملك كريم لا ملك عظيم وحقيق بمثله الافتخار وعليه البكاء والى مثله الحنين ولا مثل لعمر جباراً على الظالمين رحيماً بالمستضعفين قوياً على الحق كريماً على الناس باراً بالرعية يتعب لتستريح ويسهر لتنام ويجوع لتشبع ويفتقر لتستغني فنسأل الله له الرحمة والرضوان كما نسأله لانفسنا العافية من الظلم والسلامة من عاقبة الجور انه مجيب السؤآل

﴿اهتمامه بأمور الرعية﴾

(وعسسه بالليل)

كان عمر رضي الله عنه من حرصه على راحة الرعية يتفقدهم بنفسه ويهتم بشؤونهم أكثر من اهتمامه بشؤون بيته وبلغ ذلك به ان كان لا ينام عنهم بالليل كما

(١) ملتف (٢) يتحي

كان لا يغفل عنهم ساعة من نهار فليله ونهاره فى خدمة الرعيـة سواء اذ كان أكثر لياليه يعس بالمدينة بنفسـه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم شأن الامراء الذين يعرفون انهم بما فوض اليهم من أمر الهيمنة على القانون خـدام للرعية مسؤلون عن راحة الامة وسعادتها الا ان الرعية خدام لهم عبيد لشهواتهم

روى الطبريّ فى تاريخـه عن بكر بن عبـد الله المُزَنيّ : قال جاء عمر بن الخطاب الى باب عبـد الرحمن بن عوف فضربه فجاءت المرأة ففتحته ثم قالت له لا تدخل حتى أدخل البيت وأجلس مجلسي فلم يدخل حتى جلست ثم قالت أدخل فدخل ثم قال هـل من شيء فأتته بطعام فأكل وعبـد الرحمن قائم يصلى : فقال له تجوّز أيها الرجل فسلم عبد الرحمن حينئذ ثم أقبل عليه فقال : ماجاء بك فى هـذه الساعة يا أمير المؤمنين : قال رُفقة نزلت فى ناحية السوق خشيت عليهم سُرّاق المدينة فانطلق فلنحرسهم : فانطلقا فأتيا السـوق فقعدا على نشز (مرتفع) من الارض يتحدثان فرفع لهما مصباح فقال عمر ألم أنه عن المصابيح بعد النوم : فانطلقا فاذا هم قوم على شراب لهم : فقال انطلق فقد عرفته فلما أصبح أرسل اليـه فقال يا فلان كنت وأصحابك البارحة على شراب : قال وما علمك يا أمير المؤمنـين : قال شيء شهدته : قال أولم ينهك الله عن التجسس : قال فتجاوز عنه

قال بكر بن عبـد الله وانما نهى عمر عن المصابيح لان الفارة تأخـذ الفتيلة فترمي بها فى سقف البيت فيحترق وكان اذ ذاك سقف البيت من الجريد

وأخرج عن زيد بن أسلم عن أبيـه قال : خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة حتى اذا كنا بصرار اذا نار تؤَرّث (تتقد) فقال : يا أسلم اني أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا : فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لهـا وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال

عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء، وكره أن يقول يا أصحاب النار : قالت وعليك السلام : قال أأدنو : قالت ادن بخير أودع . فدنا فقال مابال هؤلاء الصبية يتضاغون :قالت الجوع قال وأيّ شيء في هذه القدر : قالت ماأسكتهم به حتى يناموا .·. الله بيننا وبين عمر .·. قال أي رحمك الله مايدري عمر بكم : قالت يتولى أمرنا ويغفل عنا: فأقبل عليّ (أي على أسلم) فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فاخرج عدلا فيه كبة شحم فقال أحمله عليّ فقلت أنا أحمله عنك قال احمله عليّ مرتين أو ثلاثا كل ذلك أقول أنا أحمله عنك ، فقال في آخر ذلك أنت تحمل عنى وزري يوم القيامة لا أمّ لك : فحملته عليه وانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا اليها فالقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لهـا ذرّي عليّ وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر الى الدخان من خلل لحيته حتى أنضج وأدم القدر ثم أنزلها وقال ابغنى شيئاً : فأتته بصحفة فافرغها فيها ثم جعل يقول اطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتّى شبعوا ثم خلّى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول : جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الامر من أمير المؤمنين : فيقول قولي خيراً انك اذا جئت أمير المؤمنين وجدتني هناك ان شاء الله ثم تنحّى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مربض السبع : فجعلت أقول انّ لك شأناً غير هذا وهو لايكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل عليّ فقال : ياأسلم انّ الجوع أسهرهم وأبكاهم فاحببت أن لا أنصرف حتّى ارى ما رأيت منهم

وفي مناقب عمر للامام أبي الفرج ابن الجوزى عن أنس بن مالك قال : بينا عمر يعس المدينة إذ مر برحبة من رحابها فاذا هو ببيت من شعر لم يكن

بالامس فدنامنه فسمع أنين امرأة ورأى رجلا قاعداً فدنامنه فسلم عليه ثم قال من الرجل: فقال رجل من اهل البادية جئت الى امير المؤمنين اصيب من فضله: فقال ماهذا الصوت الذي اسمعه في البيت قال انطلق يرحمك الله لحاجتك قال عليَّ ذاك ماهو قال امرأة تمخض قال هل عندها احد: قال لا قال (اي انس) فانطلق حتى اتى منزله فقال لامرأته ام كلثوم بنت علي رضي الله عنهما هل لكِ في اجرٍ ساقه الله اليك: قالت وماهو: قال امرأة عربية تمخضُ ليس عندها احد: قالت نعم ان شئت: قال فخذي معك مايصلح المرأة لولادتها من الخرق والدهن وجيئيني ببرمة وشحم وحبوب: قال فجاءت به فقال لها انطلقي وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى الى البيت فقال لها ادخلي الى المرأة وجاء حتى قعد الى الرجل فقال له أوقد لي ناراً ففعل فأوقد تحت البرمة حتى أنضجها وولدت المرأة فقالت امرأته: ياأمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام: فلما سمع (أي الرجل) ياأمير المؤمنين كأنه هابه فجعل يتنحى عنه فقال له مكانك كما أنت فحمل البرمة فوضعها على الباب ثم قال (أي لام كلثوم) أشبعيها ففعلت ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب فقام عمر رضى الله عنه فاخذها فوضعها بين يدي الرجل فقال كلْ ويحك فانك قد سهرت من الليل ففعل ثم قال (اي عمر) لامرأته اخرجي وقال للرجل اذا كان غد فاتنا نأمر لك بما يصلحك ففعل الرجل فأجازه وأعطاه

لله أيّ نفس طاهرة بارة هذه النفس وأيّ حنان خالص من شوائب التصنع هذا الحنان وأيّ خليفة عظيم بعد عمر يحمّل نفسه مثل هذا العناء ويضع نفسه في هذه المرتبة من التواضع والرحمة ويأخذ نفسه بهذا الأدب والاهتمام بأفراد الرعية وهو يحتاج الى التجرد عن شهوات الملك وعظمة السلطان والتنزل عن مرتبة التسلط والكبرياء الى منزلة التساوي بأفراد الرعية وهيهات هيهات

فانّ الجبروت ملكة فى نفوس الملوك لا يمحوها الاّ الرغبة فى الله كرغبة عمر او الرهبة من الشعب كرهبة ملوك الافرنجة من رعيتهم لهذا العهد

﴿ ورعه وزهده ﴾

تقدم معنا في سيرة ابي بكر (رض) ان طريقة الصحابة في الزهد هي العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف وان ليس منهم الاّ من كان له سبيل للارتزاق وعمل اليد سواء كان في التجارة والصناعة وقد كان عمر كما في رواية النخعي تاجراً وانما هو كأبي بكر رضي الله عنهما ترك التجارة لمّا ولي امر المسلمين واقتنع من بيت المال بالكفاف وقال اصحاب السير ان عمر (رض) لما كتب نفسه في العطاء أقام نفسه مقام الاجير وأخرج ابن جرير الطبري في تاريخه وابن الجوزي في المناقب عن نافع عن ابن عمر قال : جمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى اليه فتح القادسية ودمشق فقال اني كنت امرءاً تاجراً وقد شغلتموني بأمركم هذا فماذا ترون انه يحل لي من هذا المال فاكثر القوم وعليّ رضى الله عنه ساكت : فقال ياعليّ ماتقول : قال مايصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الامر غيره : فقال القول ماقال عليّ بن أبي طالب

واخرجا عن اسلم قال : قام رجل الى عمر بن الخطاب (رض) فقال ما يحل لك من هذا المال : فقال ما أصلحنى وأصلح عيالي بالمعروف وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحلة عمر للحج والعمرة ودابة لحوائجه وجهاده

وروى الطبري ان هذا العطاء الذى رضيه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واشتدت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وتشاوروا فى زيادة يزيدونها لعمر فى رزقه من بيت المال فهابوا مقابلته بذلك فاتوا ببنته حفصة وأمروها ان تخبره بالخبر وترى رأيه فيه ولا تذكر له

أسماءهم فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه وقال لها من هؤلاء : قالت لا سبيل الى علمهم حتى أعلم رأيك فقال لو علمت من هم لسوئت وجوههم أنت بيني وبينهم أنشدك بالله ماأفضل ماأقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتك من الملبس (وكانت زوجته) قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع قال فأيّ الطعام ناله عندك ارفع . قالت خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة (١) فجعلناها هشة (٢) دسمة فأكل منها وتطعّم استطابة لها . قال فأيّ مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ (٣) قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا فاذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال ياحفصة فأبلغيهم عني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّر فوضع الفضول مواضعها وتبلّغ بالترجية واني قدّرت فوالله لأضعنّ الفضول مواضعها ولأتبلّغنّ بالترجية (٤) وانما مثلي ومثل صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الاول وقد تزوّد زادا فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى اليه ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما وان سلك غير طريقهما لم يجامعهما

هكذا كان شأن عمر رضي الله عنه في العفة والقناعة والرضى بالكفاف مما يسد الجوع ويستر العري وروى في المناقب عن الحسن قال خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه ازار فيه اثنتاعشرة رقعة . وفي المناقب أيضا عن أبي عثمان النهدي قال رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه ازار فيه اثنتاعشرة رقعة احداهن بادم (جلد) أحمر : وفيها عن قتادة أنّ عمر بن الخطاب أبطأ على

---

(١) قربة السمن الصغيرة (٢) طرية (٣) ألين (٤) قال في القاموس تبلغ بكذا اكتفى به والترجية والرجاء بمعنى واحد وهو ضد اليأس

الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر اليهم فى احتباسه وقال انما حبسنى غسل ثوبي هذا ولم يكن لى ثوب غيره

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال . قالت حفصة بنت عمر بن الخطاب لعمر ياأمير المؤمنين لو لبستَ ثوباً هو الين من ثوبك هذا وأكلت طعاماً هو ألين وأطيب من طعامك فقد وسّع الله من الرزق وأكثر من الخير . فقال اني سأخاصمك الى نفسك أماتذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من العيش . فمازال يذكّرها حتى أبكاها

ومن هذا وغيره من أخبار عمر الكثيرة فى الزهد نعلم انه (رض) انما سلك هذا الطريق من الزهد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي بكر الصديق ولم يكن يرضى لعامة المسلمين بمثل هذا الزهد والتقشف وانما هو كان يحملهم على الطريق الوسط كي لا ينغمسوا فى النعيم ويسترسلوا فى الشهوات فتفسد أخلاقهم وتفتر هممهم ولا ينقطعوا عن العمل ويعرضوا بتاتاً عن نعيم الحياة فتجمد ملكاتهم وتتعطل أمور معاشهم ومن يرى كتابه الذى كتبه الى أبى عبيدة ابن الجراح (وستأتي صورته في باب كتبه) يلومه فيه على شدته فى منع المسلمين عن التنعم يتضح له مذهبه فى حمل المسلمين على طريق الوسط وعدم حملهم على الزهد وانما هو كان يشدّد على العمال فقط في النهي عن التنعم ويحملهم على طريقته في الزهد كي لا يتبسطوا في نعيم الحضارة ويتوسعوا في اسباب الرفاه فيحملهم ذلك على السرف الذي يحتاج الى كثرة المال وربما حملت احدهم حاجة السرف الى تناول المال من غير طرقه المشروعة فتتأذى بهم الرعية ويضطرب نظام العدل الذي لم يكن شيء في الدنيا احب اليه منه

كلمة في بيت المال

علمت مما مر في الفصل السابق ان عمر رضي الله عنه انما سلك في زهده وتعففه طريق النبوة ولم يأخذ من بيت المال الا مقدار الحاجه للمعيشة الساذجة التي تليق بزهده كما ان المسلمين انما راعوا في فرضهم العطاء له حالة معيشته ولما اشتدت به الحاجة رأوا لزوم الزيادة في عطائه ليعادل نفقته فأبى عليهم هذه الزيادة ورعا وزهداً وعمل الصحابة هذا يدل على جواز تناول الامير من بيت المال ما فيه الكفاية له في معيشته بنسبة حاله فيما لو ترقت أصول معيشته اذ ليس في طاقة كل خليفة ان يسلك مسلك عمر وأبي بكر في التقشف والزهد ويتأدب مثلهما بآداب النبوة وليس ذلك بواجب على كل خليفة بل الواجب هو القصد في المعيشة والامساك عن البذل الى حد السرف والتعفف عن فضول أموال الأمة ووضعها في مواضعها المشروعة كما كان ذلك من الخليفة عثمان رضي الله عنه فانه لما لم يستطع المسير على قدم من سبقه جاز له ان يتوسع في المعيشة ويتناول من بيت المال ما يكفيه من غير سرف ولا تقتير

وقد رأيت ان الصحابة رضوان الله عليهم لما تشاوروا في أمر الزيادة في عطاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) انما راعوا حاجته الضرورية التي كانت تناسب معيشته وتقتضي بتلك الزيادة ولم يراعوا نفس المنصب أو يريدوا التوسعة عليه بقبول الاموال كما انه هو لم يرض بتلك الزيادة خشية ان يكون فيها شيء من السرف في الاموال وحبذا لو نظر الخلفاء بعد هذا النظر وراعوا في بيت المال أوامر الشريعة وسنة السلف من الصحابة فان فيهما كل الحكمة وليست في ذاتها بمانعة لهم عن تناول مقدار الحاجة مهما بلغ وانما هي تمنع من تناول الفضول والتوسع في البذل والسرف في المعيشة الى حد الاستئثار

بأموال بيت المال وتبديدها في سبيل الشهوات ووضعها في غير مواضعها المشروعة التي بها قوام الامة كلها الا الخليفة وحده ولقد بلغ تجاوز هذه الحدود المعقولة في دول الاسلام مبلغا يدهش عقول الباحثين وما نظن الا انّا كثر البلاء الذي حل بهذه الأمة والضعف الذي انتابها في العصور القديمة والحديثة ناشئ عن اسراف امرائها وسلاطينها وتبديدهم للاموال في طرق الشهوات وليست هذه الآفة خاصة بدول الاسلام وانما هي عامة في كل دول الارض وانما هي تتفاوت بتفاوت الامم بمعرفة حقوق الرؤساء وحقوقها وتتباين بتباين صفة الحكومة فى كل قوم

وأشقى الامم من هذا القبيل الأمم التى لا حد لسلطة رؤسائها يعرف ولا غاية لسلطانهم توصف وانما هم أرباب اليد المطلقة فى أموال الرعية يأخذون منها ماشاءوا ويمنعون من شاءوا وينفقون الاموال فيما شاءوا ليس عليهم من الامة رقيب عتيد ولا من الوجدان زاجر عنيد وقلّما منيت مملكة بهذا النوع من الحكم وبهذا البلاء من التسلط الآفنى زادها وساء معادها والشاهد على هذا من دول الاسلام سيأتى فى هذا الكتاب وأما من دول أوروبا فيكفى فيه ان يقال ان الامبراطور شارلكان الذى قام فى أوروبا فى أوائل القرن السادس عشر بعد المسيح وملك معظم الديار الاوربية وتسلط على سائر الشعوب والدول لما لم يكن لسلطته حد فى بيوت الاموال جعل ينفق منها فى سبيل سيادته على الملوك فى عصره مالا يدخل تحت حساب حتى اذا أحسّ بالعجز عن سياسة ذلك الملك العريض لفقر بيوت أمواله وانها كه قوى رعيته أنزوى فى دير من الاديرة ولم يلبث ان مات فيه وانكشف بموته عن سماء الممالك الاوربية ظل الاسبانيول واندك أساس ما ابتناه شارلكان لنفسه من الملك الكبير

حتى كأنه ما كان . لهذا لما تنبهت الشعوب الاوربية من سنة الغفلة ووضعوا احداً لسلطة الرؤساء والامبراطرة أخذوا على أيديهم فيما أخذوا التسلط على بيوت الاموال وفرضوا لكل منهم كفايته منه بنسبة حاله فى المعيشة وحال بلاده من الثروة كما كان ذلك على عهد الخلفاء فى صدر الاسلام فكان من ذلك ان عم اليسر خزائن الدول الاوربية وتوفرت على القيام بشؤون الرعية الحربية والعلمية واعتزت بفضول المال بأسباب المنعة والجاه والقوة فبسطت جناح السلطان على معظم ممالك الارض وهذا شأن الحياة فى الامم اذا دب دبيبها فى جسمها ونبهت دورة الدم فى عروقها والعكس بالعكس

ومن عجيب الامور انّ يد الحاكم متى أطلقت فى بيت المال يتفشى الخلل فى سائر فروع الحكومة تفشيا وبيلا بحيث لو أراد الحاكم نفسه ان يتلافى ذلك الخلل لتعذر عليه ذلك بأى سبب من الاسباب ولو مهما كان قادراً وممـلكته غنية وأقرب شاهد نذكره للشرقي هنا ما كان فى عهد المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق فى مصر من الخلل العظيم فى سائر فروع الحكومة المصرية بسبب تسلطه على أموال الحكومة وسرفه فيها وتبديده لها فى الوجوه التى لا تستلزمها حياة الامة ولا الملك حتى كان من ذلك ان بات العامل فى الحكومة والجنديّ فى الثكنة لا يتناولان مرتبهما الأكل بضعة شهور مرة مع غنى البلاد وثروتها ومع ما حملها من الديون التي تزيد عن مائة مليون من الليرات (الجنيهات)

ولمّا أحسّ بالخطر الذي أشرفت عليه البلاد والضيق الذي استحوذ على مالية الحكومة وهب لتلافى ذلك الخطر وأخذ فى تنظيم شؤون البلاد تعذر عليه ذلك مع طول باعه فى السياسة وحنكته فى الامور ووجود رجال يساعدونه على ذلك القصد ثم فشل فشله المعروف فى التاريخ وانتهى الامر بعزله عن امارة

مصر باتفاق كل الدول صاحبات الديون في مصر مع الدولة العلية صاحبة الشأن فيها ولما ولي الامارة ابنه المرحوم توفيق باشا وأقبل منها على أمر جلل لا يقوم به الا العفيف الحازم الرأي وأراد أن ينقذ البلاد من ورطة العوز والحكومة من خلل النظام فأول ما بدأ به أن كف يده عن بيوت الاموال وأمر بتنظيم شؤون الجباية وقيد نفسه بقانون مخصوص من جهة ما يتناوله وأبناء عشيرته من الامراء من مال الحكومة وكان ذلك باشارة بعض مندوبي الدول صاحبات الشأن فى المالية وهو لحسن قصده لم يقاوم رأيهم أو يأبى قبول اشارتهم ومن ثم ظهرت فى الحكومة علائم الاصلاح وبدت فى الحال ثمرة تنظيم الشؤون المالية حتى حدث ما حدث في مصر من أسباب الثورة العرابية واحتلال الدولة الانكليزية فى البلاد ثم مضى الامر لهذا العهد على وجهه واستمر نظام المالية فى نمو وجباية البلاد فى ازدياد حتى بلغت الى هذا العهد عشرة ملايين ونصفا ونيفاً من الجنيهات وانتظمت سائر فروع الحكومة انتظاماً يحسدها عليه كثير من الشعوب الشرقيين وحكوماتهم وكل ذلك نتيجة كف يد الحاكم عن بيوت الاموال وضبط أصول الجباية وحسابات الحكومة والله يوفق من شاء الى ما شاء

هذا وأما واضع بيت المال فى الاسلام فانه أبو بكر (رض) كما مر فى سيرته وانما كان ساذجا تحشر اليه الاموال من الفيء والصدقة ثم توزع فى اماكنها المشروعة وعلى الوجوه التى أمر بها الله فى الكتاب الكريم الذى وضع للمسلمين أصول التوزيع (المعروفة الآن بميزانية الحكومة المالية) وقد مر ذكر ذلك الا انه لم يكن ثمة ضابط ولا قيد فى ديوان وقد رأيت فيما مضي من سيرة عمر رضى الله عنه كيف نهض لوضع الديوان لما كثر الفيء والخراج وازدادت الجباية ضبطاً لامور بيت المال وتقييداً للنفقات وانما كان ديوان بيت المال هو الدفتر الذى

يضبط فيه الحساب ثم مازال يترقى الحال حتى تفرع عن بيت المال عدة دواوين على عهد الخلفاء من بني أمية وبني العباس كافرادهم ديوان العطاء وحده وكذلك ديوان الخراج وديوان الاقطاع وسنستقصيها عند الكلام على رجال هذه الدول ان شاء الله وكل هذه الدواوين كانت تابعة لبيت المال وقد توسع الائمة والفقهاء بعد في وضع الضوابط والقوانين التي تتعلق ببيت المال وكلها كانت استنباطا من أصول الشريعة وعمل الصحابة مثل كتاب الخراج لابي يوسف وما يشبهه من الكتب الواردة في مؤلفات الفقه الاسلامي الا ان أمر بيوت الاموال تقلب بعد ذلك بتقلب الدول الاسلامية وتغير بتغير الزمان وخرجت ضوابطه عن طوق الفقهاء واستأثر بها الامراء قلباً وإبدالاً ومحواً وإثباتاً على مقتضى الظروف والاحوال الى الآن

﴿ حسبته ﴾

أصل الحسبة هي مشارفة السوق والنظر في موازينه ومكاييله ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشرى فيه من المأكول والمصنوع وغيره وتسعير السوق ورفع الضرر عن الطريق ودفع الحرج عن السابلة وتنظيف الازقة وبالجملة هي كل الوظائف المتعلقة بما يعرف الآن بالمجالس البلدية ولها في الاسلام ولاية خاصة تسمى ولاية الحسبة وأول من وضعها على ما يظهر هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد جاء في كنز العمال في حديث أخرجه ابن سعد عن الزهري ان عمر بن الخطاب استعمل عبد الله بن عتبة على السوق : وقال العلماء هذا اصل ولاية الحسبة

ومن ثم ترقت الحسبة في الاسلام ترقيا عجيبا حتى كانت من اهم الشؤون التي عني بها الخلفاء والفقهاء وقد توسع بعض العلماء بتوسع الحاجة في وظيفة والي الحسبة فجعلوها تشمل كل أمر بمعروف ونهي عن منكر ومن هؤلاء شيخ الاسلام ابن

تيمية فقد أجاز التوسع في ولاية الحسبة حتى في اقامة الصلوات الخمس في مواقيتها وتعاهد الائمة والمؤذنين وإلزامهم باداء وظائفهم على مقتضى الشرع وحجته في جواز التوسع بهذه الوظيفة ماقاله عن الولايات في كتاب الحسبة في الاسلام المطبوع حديثاً في مصر ونصه

عموم الولايات وخصوصها وما يستفيده المتولي بالولاية يتلقى من الالفاظ والاحوال والعرف وليس لذلك حد في الشرع فقد يدخل في ولاية القضاء في بعض الامكنة والازمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر وبالعكس وكذلك الحسبة وولاية المال اه

ومن هذا ترى مبلغ عناية القوم بهذه الوظيفة السامية وتوسعهم فيها وإتقانهم لهم حتى اننا رأينا من بعض آثار الحسبة على عهد الفاطميين قطعاً مستديرة من الزجاج ومزيجاً آخر معه على وزن الدينار والدرهم مكتوباً عليها وزن واف اوما هو بمعناه ومثلها للاوزان الخفيفة وكلها كانت تصدر من والي الحسبة او المحتسب على تعبير المتأخرين لاجل ان يضبط بها الناس عيار الدراهم والدنانير والاوزان على مايظن منعاً للتلاعب والغش الا اننا لم تقف على التاريخ الذي الغي فيه اسم المحتسب ولعله منذ أنشئت المجالس البلدية في المملكة العثمانية وسنتكلم عليها في مكان آخر باوسع من هذا ان شاء الله

اما حسبة عمر رضي الله عنه فقد قدمنا انه استعمل لها عبد الله بن عتبة ومع ذلك فقد كان يقوم بنفسه بوظائف المحتسب ويشارف السوق ويراقب المكاييل والموازين ويأمر باماطة الاذى عن الطريق

أخرج الامام ابن الجوزي عن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب جمالاً ويقول حملت جملك مالا يطيق

وفي كنز العمال عن زيد بن فياض عن رجل من أهل المدينة قال دخل عمر بن الخطاب السوق وهو راكب فرأى دكاناً قد أحدث في السوق فكسره

وفيه عن عبد الله بن ساعدة الهذلي قال : رأيت عمر بن الخطاب يضرب التجار بدرّة اذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكك أسلم ويقول لا تقطعوا علينا سابلتنا

وفيه عن علي انه كان يأمر بالمثاعب (١) والكنف تقطع عن طريق المسلمين

وفيه عن القاسم بن محمد انّ عمر بن الخطاب مرّ بحاطب بسوق المصلّى وبين يديه غرارتان فيهما زبيب فسأله عن سعرها فسعر مدّين بكل درهم فقال له عمر : حدثت بعير مقبلة من الطائف تحمل زبيباً وهم يعتبرون بسعرك فاما أن ترفع في السعر واماً أن تدخل زبيبك البيت فتبيعه كيف شئت فلما رجع عمر حاسب نفسه ثم أتى حاطباً في داره فقال انّ الذى قلتُ ليس بعزمة ولا قضاء وانما هو شيء أردت به الخير لاهل البيت فحيث شئت فبع وكيف شئت فبع (أخرجه الشافعى فى السنن)

وله اخبار غير هذه فى الحسبة وقد اكتفينا عنها بما تقدم دلالة على الباقي

﴿ قضاؤه ﴾

كتبنا في سيرة أبي بكر فصلا عن القضاء في الاسلام وكيف كان يقضى ابو بكر وعمر رضي الله عنهما فلا نرى حاجة للمزيد هنا الا بعض أخبار عمر في القضاء فانا نأتي بها إتماماً للفائدة

كان عمر رضى الله عنه يتولى القضاء بنفسه وينيب عنه غيره لما هو معروف من أن القضاء في الاسلام وظيفة من وظائف الامام يجوز له أن يتولاها بنفسه

(١) : مسايل الماء كما فى النهاية

وأن ينيب بها عند الحاجة غيره وكان تحريه للعدالة في انتخاب القضاة كتحريه في انتخاب الولاة لا يراعي في كليهما الا الاهلية والاستعداد والتقوي والعدل ويعلم ان اثم الظالم اذا ظلم على موليه فقصد اخرج ابن الجوزي في المناقب عن عبد الملك ابن عمير قال: قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من استعمل رجلا لمودة أو لقرابة لا يستعمله الا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين

وأخرج عن عمران بن سليم عن عمر قال: من استعمل فاجراً وهو يعلم انه فاجر فهو مثله

وكما كان يتحرى في انتقاء العمال والقضاة التقوى والعدالة يتحرى العلم والمعرفة والذكاء ويبغض خرق العامل وجهله

أخرج ابن الجوزي عن محارب بن دثار عن عمر بن الخطاب انه قال لرجل قاض من أنت قال قاضي دمشق: قال كيف تقضي: قال أقضي بكتاب الله: قال فاذا جاءك ماليس فى كتاب الله قال أقضي بسنة رسول الله: قال فاذا جاءك ماليس فى سنة رسول الله: قال اجتهد رأيي وأوامر (أي أشاور) جلسائي: قال أحسنت: وقال فاذا جلست فقل اللهم اني أسئلك أن أفتي بعلم وان أقضي بحكم. وأسئلك العدل في الغضب والرضى: قال فسار الرجل ماشاء الله ان يسير ثم رجع الى عمر: فقال مارجوعك: قال رأيت الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب: فقال مع أيهما كنت: قال مع القمر: قال يقول الله عز وجل (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) لا تلي لي عملا

وانما عزله لجهله وأبعده عن العمل لسخافة قوله وهكذا كان شأنه مع عماله رضى الله عنه

وكان لا يحب تعجيل الفصل في الخصومة رجاء أن يصطلح الخصمان وتمحى

آثار الضغائن من النفوس فقد جاء في كنز العمال عنه رضي الله عنه انه قال ردوا الخصوم حتى يصطلحوا فان فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس. وأما كلامه في القضاء ووصاياه للقضاة فتظهر من الكتابين التاليين

﴿ كتابه في القضاء الى شريح القاضي ﴾

أما بعد اذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال فان جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها فان جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به. فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الامرين شئت. ان شئت ان تجتهد رأيك وتقدم فتقدم. وان شئت ان تأخر فتأخر ولا أرى التأخير الا خيراً لك اهـ (من كنز العمال)

وأما أقضيته فكثيرة لا يسعها هذا الكتاب فليرجع اليها من أحب في كتب الحديث وقد خالف في بعض أحكامه ما قضت به السنة مراعاة للحال والمصلحة فلم يؤاخذ على ذلك لحسن قصده منها حكمه بتحريم المتعة وقد أحلت في ظروف مخصوصة ومنها حكمه بوقوع الطلاق الثلاث اذا صدر عن شخص مرة واحدة مع ان السنة قضت بوقوعه طلقة واحدة وأراد بهذا قهر النفوس على تجنب الطلاق لما يحصل عند المطلق من الندامة اذا أحس بألم الحكم بوقوع الطلاق الثلاث وغير ذلك من الاحكام النافعة التي أخذ بها بعده كثير من أئمة المسلمين اقتداء بحسن رأيه وجميل قصده فليرجع اليها في مظانها من كتب الأئمة والمحدثين من شاء

﴿ كتابه في القضاء الى أبي موسى الاشعري ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم

اذا أدلي اليك[1] فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له آس[2] بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك[3] ولا يخاف ضعيف من جورك والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم عندما يتلجلج[4] فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم . اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عند ذلك ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي اليه (أي وقتاً محدوداً) فان أحضر بينته أخذت له بحقه والا وجهت عليه القضاء فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر . المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلوداً فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً[5] فى ولاء أو قرابة فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات . ثم اياك والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام (من البيان والتبيين)

وهذا الكتاب على ايجازه هو الذي تدور عليه أحكام القضاء الى هذا العهد

(١) رفع لك الامر وجئ به اليك (٢) اعدل وساو (٣) الحيف الجور والظلم كما فى القاموس (٤) التلجلج التردد فى الكلام كما فى القاموس (٥) هو المتهم بسبب قرابته أو ولائه

﴿ فراسته وذكاؤه ﴾

كان رضي الله عنه حديد الذكاء شديد الفراسة يكاد بفراسته يستطلع خبايا القلوب ويستخرج ماتكنه النفوس وقد ساعده تفرسه في الناس على وضع الشدة في مواضعها واللين في مواضعه حتى أخذ بنواصي الناس واستكانت له النفوس رغبة ورهبة وكان أشد الناس حذراً منه قريش كما كان هو أشد الناس حذراً منهم واستكناهاً لكنه ضمائرهم ليحسن الى محسنهم ويأخذ على يدي مسيئهم لهذا دبت في قلوبهم هيبته وفعلت في نفوسهم فراسته

لما جاء عمرو بن العاص من جيفر وأخبر المسلمين بكثرة من تجمع لهم من جيوش الردة في خلافة أبي بكر تفرق المسلمون وتحلقوا حلقاً وأقبل عمر للتسليم على عمرو فمر على حلقة فيها نفر من المهاجرين وهم علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد فلما دنا عمر منهم سكتوا: فقال فيم انتم فلم يجيبوه فاستطلع طلع بواطنهم وأدرك بفراسته ماهو دائر بينهم من الكلام فقال لهم: انكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب: قالوا صدقت: قال فلا تخافوهم أنا والله منكم على العرب اخوف مني من العرب عليكم والله لو تدخلون معاشر قريش حجراً لدخلته العرب في آثاركم فاتقوا الله فيهم ومضى

ولا يخفى مافي هذا الكلام من المغامز خلا مافيه من الاستخفاف بقوة العرب وانما أدرك ماخامر نفوسهم من أخبار الردة فاراد أن يستفز منهم صدق العزيمة لمضافرة أبي بكر ومكاتفته على استخضاع العرب ويبين لهم انهم قدوة العرب وأئمة الناس فحيثما اتجهوا اتجه معهم الناس طوعاً أو كرهاً وهذا هو الحق الذي تشهد له الحوادث العظمى التي حدثت بعد خلافة أبي بكر وعمر وسيق بها العرب الى ماسيقوا اليه ودخلوا مع قريش الى حيث دخلوا كما هو معروف في

التأريخ وسنيشير اليه في محله ان شاء الله

وحسب عمر من سعة المدارك وبعد النظر والذكاء قيامه ببيعة أبي بكر ومبادرته الى ذلك قبل اخوانه من المهاجرين مع تحققه ان أمر البيعة منوط بالشورى متوقف على اتفاق المهاجرين وغيرهم من أهل الحل والعقد لهذا اعتدها بعد ذلك فلتة وقى الله المسلمين شرها كما سترى في احدى خطبه التي تجيء في باب الخطب وانما عجل ببيعة أبي بكر لما كان يتفرسه في وجوه القوم ويتوقعه من المهاجرين من الاختلاف كما كان ذلك من الانصار ويا ويح الأمة لو حدث من الخلاف بين المهاجرين في ذلك العهد ما حدث في خلافة عثمان وما بعده اذ كان الاسلام غضاً طرياً والناس لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم في اضطراب والعرب على قدم القيام على المسلمين وإنما تلافى هذا الخطر وحال دون ذلك الخلاف عمر رضي الله عنه بمبايعته لابي بكر لعلمه انه أقدم المهاجرين اسلاماً وأكبرهم سناً وأضعفهم عصبية فاذا تعجل بمبايعته قطع آمال المتطلعين الى الخلافة من أولي العصبيات الكبيرة فكانوا باجمعهم عصبية لابي بكر يذودون عن حوضه ويفون بحق طاعته لا سيما وان ليس لاحد منهم غاية بعد تقرير أمر الخلافة الا نصرة الدين والقيام على الحق شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدى حياته وانما هم تزاحموا على الخلافة بعد لاعتزاز كل فرد منهم بعصبيته أو سابقته في الاسلام وكونه يرى نفسه أولى بخدمة المسلمين وأحق بامرة المؤمنين لانهم كما قدمنا في غير هذا المحل كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . أي كلهم أهل للخلافة وجدير بخدمة ذلك المنصب فقيام عمر ببيعة أبي بكر قطع جهيزة قول كل خطيب وجعلهم كلهم راضين بها لعلمهم بسابقته وفضله وعزيمته ولاطمئنان ضمير كل فرد من المتطلعين اليها بصرفها عن الآخر وهذا الذي دعا لارتياحهم

جميعاً الخلافة أبي بكر وإنما كان القائم بها العارف بلزومها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين

ومن عجيب فراسته التي كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ما ذكره ابن عبد ربه في العقد قال: قال أبو بكر بن أبي شيبة كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى عمر بن الخطاب وكان يقدمه على الاكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستعمله قط فقال له يوماً كدت أستعملك ولكن أخشى أن تستحل الفيء على التأويل فلما صار الامر الى علي استعمله على البصرة فاستحل الفيء على تأويل قول الله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تفرس فيه ذلك عمر من قبل

هكذا كان يبلغ فراسة عمر رضي الله عنه خصوصاً في بني هاشم وقد كان يتفرس فيهم القيام يوماً لطلب الخلافة واثارة غبار الفتن والاستحواذ على ذلك المنصب الذي كانوا يرون أنفسهم أحق الناس به على خلاف ما كان يراه جلة المهاجرين الذين يعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم من أن يعملوا له عملا كي لا يحدثوا أنفسهم بشيء من الامارة لانها غير النبوة ومن ذلك ما ذكره في العقد ان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له (ياعم نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها)

وكان عمر لتفرسه فيهم التطلع الى الامارة لا يستعمل أحداً منهم كما لم يستعملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجاهر بظنه هذا فيهم وقد جاهر به لعبد الله بن عباس مراراً ومنه ما تقدم ذكره في باب سياسته اذ قال له: يا ابن عباس اني خشيت أن يأتي علي الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلم الينا ولا هلم اليكم دون غيركم:

ولقد تحققت فراسته في بني هاشم بعدُ اذ قضوا عصوراً طويلة في مكافحة الملوك ومزاحمة الخلفاء على الخلافة وأسسوا عدة دول أضخمها العباسية في بغداد والفاطمية في أفريقيا وأهرقوا سيولا من دماء أشياعهم وأشياع غيرهم في سبيل نيل هذه البغية . وتأتى عن هذه المزاحمة من التشويش في أمور الدول الاسلامية والاضطراب في المسلمين ما الله به عليم : على انهم لو اتعظوا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ صرف أسلافهم عن الامارة وصرفهم لما أقدموا على شيء من ذلك بل لكانوا اذا استمر في نفوسهم شيء من التطلع الى الخلافة سلكوا اليها سبيلا غير ذلك السبيل وجعلوا الأمة بأجمعها طامحة الانظار اليهم ساعية بنفسها لاسناد منصب الخلافة لاهل الجدارة منهم وحسبهم موعظة وذكرى ان علي بن أبي طالب رضى الله عنه على صلاحه وتقواه وسابقته في الاسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهرته بالعدل والورع والزهد (ومن كعلي بعده) لم يتوقف عن جمع كلمة الأمة على الرضى بخلافته لا لقصور فيه معاذ الله وانما هو لما وقر في نفوس الامة يومئذ من ان الهاشميين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينفكون عن الادلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة والناس يومئذ في إبان نشأة الاسلام وعز الحرية وحظيرة المساواة والاخاء التي حشرهم اليها الاسلام بقوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) وبقول النبي صلى عليه وسلم (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) فتوهمُ أن يسلبهم بنو هاشم شيئاً من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم كانوا غير ميالين لاستخلاف أحد منهم يدلك على صدق هذا القول ما ذكره في العقد عن عبد الله بن عباس قال : ماشيت عمر ابن الخطاب يوماً فقال لي يا ابن عباس ما يمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة : قلت لا أدري : قال لكنني أدري انكم فضلتموهم بالنبوة فقالوا ان فضلوا بالخلافة

مع النبوّة لم يبقوا لنا شيئاً وانّ أفضل النصيبين بأيديكم بل ما اخالها الا مجتمعة لكم وان نزلت على رغم أنف قريش (يريد الخلافة)

﴿ نُبَذٌ من فنون اقواله واخباره ﴾

من اخباره في الشفقة ورقة القلب ما اخرجه في المناقب عن الاحنف بن قيس قال وفدنا على عمر رضى الله عنه بفتح عظيم فقال أين نزلتم : فقلت في مكان كذا فقام معنا حتى انتهينا الى مناخ رواحلنا فجعل يتخللها ببصره ويقول : ألا اتقيتم الله في ركابكم هذه أما علمتم انّ لها عليكم حقاً ألا خليتم عنها فأكلت من نَبْتِ الارض : فقلنا يا أمير المؤمنين انا قدمنا بفتح عظيم فاحببنا التسرع الى أمير المؤمنين بما يسره

عن نافع قال دخل شاب قويّ المسجد وفي يده مشاقص (١) وهو يقول من يعينني في سبيل الله فدعا به عمر فأُتي به فقال من يستأجر مني هذا يعمل في أرضه فقال رجل من الانصار : انا يا أمير المؤمنين : قال بكم تأجره قال كل شهر بكذا وكذا قال خذه فانطلق به : فعمل في ارض الرجل اشهراً ثم قال عمر للرجل : ما فعل أجيرنا : قال صالح يا أمير المؤمنين : قال ائتني به وبما اجتمع له من الاجر : فجاء به وبصرة من دراهم : فقال (عمر للرجل) خذ هذه فان شئت فالآن اغز وان شئت فاجلس

وشفقته على هذا الرجل هي من جهة انه رآه قوياً واهلاً للعمل فاعطاه لمن يستأجره كي لا يكون عالة على الناس

ومن جميل اخباره في تأديب الناس على ستر العورات وكتمان ما يمس بشرف الصيانة ما جاء في المناقب عن الشعبي قال اتى عمر بن الخطاب رجل فقال ان

(١) قال في القاموس المشقص كمنبر نصل عريض او سهم فيه ذلك والنصل الطويل او سهم فيه ذلك يرمى به الوحش

ابنة لي كنت وأدتها [1] في الجاهلية فاستخرجناها قبل أن تموت فأدركت معنا الاسلام فاسلمت ثم أصابها حد من حدود الله فاخذت الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برأت ثم اقبلت بعد توبة حسنة وهي تخطب الى قوم افأخبرهم بالذي كان : فقال عمر (رض) اتعمد الى ماستره الله فتبديه والله لئن اخبرت بشأنها احداً من الناس لاجعلنك نكالا لاهل الامصار نكحها نكاح العفيفة المسلمة

ومن أخباره في رفع القصاص عن القاتل دفاعاً عن الشرف والعرض ما أخرجه في المناقب عن الليث عن عبدالله بن صالح قال أتي عمر بن الخطاب بفتى أمرد وجد قتيلا ملقى على وجهه في الطريق فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يعرف له قاتل فشق ذلك على عمر وقال اللهم اظفرني بقاتله حتى اذا كان رأس الحول أو قريباً من ذلك وُجد صبيّ مولود ملقى موضع القتيل فأتي به عمر فقال ظفرت بدم القتيل ان شاء الله فدفع الصبيّ الى امرأة وقال لها قومي بشأنه وخذي منا نفقته وانظري من يأخذه منك فاذا وجدت امرأة تقبله وتضمه الى صدرها فاعلميني بمكانها فلما شب الصبيّ جاءت جارية فقالت للمرأة ان سيدتي بعثتني اليك تبعثي الصبيّ لتراه وترده اليك . قالت نعم اذهبي به اليها وأنا معك فذهبت بالصبي والمرأة معها حتي دخلت على سيدتها فلما رأته أخذته فقبلته وضمته اليها فاذا هي بنت شيخ من الانصار من أصحاب رسول الله فاخبرت عمر خبر المرأة فاشتمل عمر على سيفه ثم أقبل الى منزلها فوجد أباها متكئاً على باب داره : فقال يا أبا فلان مافعلت ابنتك فلانة : قال يا أمير المؤمنين جزاها الله خيراً هي من أعرف

(١) الوأد هو دفن البنات وهن أحياء وكانت عادة الوأد عند العرب في الجاهلية فلما جاء الاسلام أبطلها

الناس بحق الله تعالى وحق أبيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها فقال عمر قد أحببت أن أدخل اليها فازيدها رغبة في الخير وأحثها على ذلك فقال جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين امكث مكانك حتى ارجع اليك . فاستأذن لعمر فلما دخل عمر أمر كل من كان عندها فخرج عنها وبقيت هي وعمر في البيت ليس معها أحد فكشف عمر عن السيف وقال لتصدقيني وكان عمر لا يكذب : فقالت على رسلك يا أمير المؤمنين فوالله لأصدقن : ان عجوزاً كانت تدخل علي فاتخذتها اماً وكانت تقوم في أمري بما تقوم به الوالدة وكنت لها بمنزلة البنت فامضيت بذلك حيناً ثم انها قالت لي يا بنية انه قد عرض لي سفر ولي بنت أتخوف عليها منه از تضيع وقد أحببت أن اضمها اليك حتى ارجع من سفري . فعمدت الى ابن لها شاب امرد فهيأته كهيئة الجارية وأتتني به لا أشك انه جارية فكان يرى مني ما ترى الجارية من الجارية حتى اغتفلني يوماً وانا نائمة فاشعرت حتى علاني وخالطني فمددت يدي الى شفرة كانت الى جنبي فقتلته ثم امرت به فألقي حيث رأيت فاشتملت منه على هذا الصبي فلما وضعته القيته في موضع أبيه فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك : فقال عمر صدقت بارك الله فيك ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج وقال لأبيها بارك الله في ابنتك فنعم الابنة ابنتك وقد وعظتها وأمرتها فقال الشيخ وصلك الله يا أمير المؤمنين وجزاك خيراً عن رعيتك

﴿فنون شتى من أخباره﴾

عن الحسن قال عاتب عيينة عثمان فقال له كان عمر خيراً لنا منك أعطانا فاغنانا وأخشانا فاتقانا

تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى انه ضربه وتعدى عليه فقال : اللهم اني لا أحل لهم اعشارهم ولا أبشارهم (أموالهم وأجسامهم) كل من ظلمه أميره فلا

أمير عليه دوني ثم أقاده منه (أي أخذ له القود)

وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر فقال كان والله له فضل يمنعه أن يخدع وعقل يمنعه أن يخدع

في كنز العمال عن طاوس ان عمر قال أرأيتم ان استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أقضيت ما عليّ قالوا نعم. قال لا حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا

وفيه عن عمر قال : الرعية مؤدية الى الامام ما أدّى الامام الى الله فاذا رفع الامام رفعوا (أخرجه ابن سعد)

وفيه عنه انه قال لا ينبغي أن يلي هذا الامر الا رجل فيه أربع خلال اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف والامساك في غير بخل والسماحة في غير سرف فان سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث

وما اظن ان خليفة اتصف بهذه الصفات من غير تصنع ولا تكلف كعمر رضي الله عنه

وفيه عن قطن بن وهب عن عمه انه كان مع عمر بن الخطاب في سفر فلما كان قريباً من الروحاء سمع صوت راع في جبل فعدل اليه فلما دنا منه صاح يا راعي الغنم فاجابه الراعي : فقال له اني مررت بمكان هو أخصب من مكانك فانّ كل راع مسؤول عن رعيته ثم عدل صدور الركاب (أخرجه الامام مالك وابن سعد)

وتالله ان هذا الاهتمام بشؤون الناس حتى في ارشاد الرعاة الى اماكن الخصب لجدير بأن يقوم به كل خليفة من خلفاء المسلمين اقتداء بسلفهم الصالحين وهيهات هيهات فانّ الشهوات غلابة ومحبة الذات خلابة وليست كل النفوس خيرة كنفس عمر

وفيه عن سعيد بن المسيب انّ عمر بن الخطاب قال في ولايته من ولي هذا

الامر بعدي فليعلم ان سيريده عنه البعيد والقريب وأيم الله ما كنت الا أقاتل الناس عن نفسي قتالا

وأخرج ابن الجوزي في المناقب عن يحيى بن جعدة قال : قال عمر لولا اني أسير في سبيل الله أو أضع جبيني لله في التراب أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب التمر لاحببت أن أكون قد لحقت بالله

وفيه عن ابن سعد قال: قال عمر والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك فان كنت ملكا فهذا أمر عظيم : فقال قائل يا أمير المؤمنين ان بينهما فرقاً قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ الا حقاً ولا يضعه الا في حق وأنت بحمد الله كذلك والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا فسكت عمر

وفيه عن الزهري قال كان جلساء عمر أهل القرآن كهولاً كانوا او شباناً

وفيه عن الاوزاعي قال: بلغني ان عمر (رض) سمع صوت بكاء في بيت ومعه غيره فمال عليهم ضرباً حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها وقال اضرب فانها نائحة لا حرمة لها انها لا تبكي لشجوكم انما تهريق دموعها على أخذ دراهمكم انها تؤذي أمواتكم في قبورهم وأحياءكم في دورهم . انها تنهى عن الصبر الذي أمر الله به وتأمر بالجزع الذي نهى الله عنه

وفيه عن عبد الله بن بريدة قال : ربما أخذ عمر بن الخطاب بيد الصبي فيجيء به ويقول ادعُ لي فانك لم تذنب بعدُ : وفيه عن محمد قال: كان عمر يشاور حتى المرأة

وفيه عن أبي امامة بن سهل قال : كتب عمر الى أبي عبيدة رضي الله عنهما علموا غلمانكم العوم ومقاتلتكم الرمي

ولا يخفى انه أراد بهذا التعليم التمرن على فنون الحرب من حال الصغر وانما كان تعلم الرمي من أهم لوازم الجند بالنسبة لذلك العصر

وأما في هذا العصر فلوازم الحرب كثيرة ومنها تعلم فنون الكيمياء لاجل عمل المواد الالتهابية التي يحتاج اليها المحارب وتعلم الهندسة والميكانيات أي علم صناعة الآلات لاجل عمل المدافع والبنادق والقلاع والمتاريس ونحوها من لوازم القوّة والدفاع وفن الجغرافية لاجل معرفة أطوال البلاد وعروضها وسهولها ونجودها وطرقها وجبالها وأخلاق أهلها وقوتهم وثروتهم وغير ذلك مما يعين على معرفة البلاد وأهلها معرفة تامة قبل مهاجمتها واعلان الحرب على أهلها (ومن الغريب) ان يقوم متدسنتين بعض علماء المسلمين فى مصر معلنين على ملأ الناس ان ادخال أهون هذه العلوم فى أصول التعليم فى الازهر وهو فن تقويم البلدان غير جائز ولا مفيد وهم يقرؤن كل يوم مئات من مثل هذه الآثار والاخبار تدعو الى الحض على العناية بفنون الحرب وصرف الهمم الى مباراة الامم فى مضمار الحياة والقوّة وكأنهم لا يقرؤن من ذلك شيئاً ولا يعلمون فانا لله وانا اليه راجعون

وأخرج الطبريّ عن زيد بن أسلم قال قال عمر كنّا نعد المقرض بخيلا وانما هي المواساة

ومن مأثور كلامه قوله من كتم سره كان الخيار فى يده : أشقى الولاة من شقيت به رعيته : أعقل الناس أعذرهم للناس : ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع : لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفا : مُرْ ذوى القرابات ان يتزاوروا ولا يتجاوروا : قلما أدبر شئ فأقبل : أشكو الى الله ضعف الامين وخيانة القويّ : من لا يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه (عن زهر الآداب وثمر الالباب)

ودخل عديّ بن حاتم على عمر فسلم وعمر مشغول فقال يا أمير المؤمنين انا

عديّ بن حاتم فقال: ما أعرفني بك آمنت اذ كفروا ووفيت اذ غدروا وعرفت اذ أنكروا وأقبلت اذ أدبروا (عنه أيضا)

ومن جميل قوله اياكم والمعاذير فان كثيراً منها كذب: وقوله تعلموا المهنة فانه يوشك أحدكم ان يحتاج الى مهنته (المناقب)

عن قبيصة بن جابر قال: قال لي عمر بن الخطاب انك رجل حدث السن فصيح اللسان فسيح الصدر وانه يكون فى الرجل عشرة أخلاق تسعة أخلاق حسنة وخلق سيء فيغلب الخلق السيء التسعة الاخلاق الحسنة. فاتق عثرات الاشياء:

وفى المناقب عن عبيد أمّ كلاب انه سمع عمر يقول لا يعجبنكم من الرجل طنطنته[1] ولكن من أدّى الامانة وكفّ عن اعراض الناس فهو الرجل

وفيه عن اسماعيل بن أمية قال قال عمر الراحة فى ترك خلطاء السوء: وما أعظمها من حكمة وأفيدها من موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

وعن مسروق قال تذاكرنا عند عمر بن الخطاب الحسب فقال: حسب المرء دينه وأصله عقله ومروءته خلقه

ومن قوله فى بيان فضيلة الكسب ماذكره فى المناقب عن عطاءٍ قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأن أموت بين شعبتي رَحْلٍ (هو قتب الجمل) أسعى فى الارض أبتغي من فضل الله كفاف وجهي أحبُّ اليّ من ان أموت غازياً (كلمة اجمالية فى أخلاقه)

هذا ما أحببنا ايراده من مناقب عمر (رض) وأخلاقه وسيرته ومنه تعلم كيف كان ذلك الرجل العظيم فيتمثل لك فيه صورة من النور وجسم من الفضيلة

(١) صوت صلاته فى الليل

والكمال وعلم من اعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الأمم ويقتدي بسيرتهم أرباب الهمم فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأى كلها أخلاق قلّ ان تجتمع فى عدد عديد من الرجال وقد اجتمعت فى عمر بن الخطاب كما رأيت فيما أوردناه من سيرته وكل أخلاقه هذه تكاد تكون فطرية لا يظهر عليها شيء من التصنع أو التكلف ولو أردنا استقصاء كل أخباره وآثاره لأعجزنا هذا الامر كما أعجز كثيراً غيرنا من الفضلاء الذين حاولوا جمع أخباره وتتبع آثاره فلم يدركوا غايتها ولم يأتوا بمعشارها ومن أحسن وصف موجز وصف به عمر ما روى ان معاوية بن أبى سفيان قال لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب فقال

كان عالماً برعيته عادلا فى قضيته عاريا من الكبر قبولا للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحرياً للصواب رفيقاً بالضعيف غير محابٍ للقريب ولا جافٍ للغريب :

وكان من أخص صفاته الجد المصحوب بالحزم مع التأني في الامور والاستشارة في جليلها وحقيرها لهذا من تتبع سيرته لا يراه فشل في أمر من الامور بل كل تلك الاعمال التي عملها فى خلافته وذلك الفتح العظيم الذي كان على عهده توفق اليه توفيقاً صاحبه من أول عهده بالخلافة الى حين وفاته وسبب هذا التوفيق هو الجد والحزم وعدم التردد فى الامر وتمحيص الاشياء شأن كل رجل عظيم يريد ما يقول وينال ما يريد ولو بحثنا في تاريخ الامم القديمة والحديثة لوجدنا لكل أمة رجلاً أو رجالاً من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم وتعلي ذكرهم ولكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيه كل تلك الخصال السامية والاخلاق الحميدة التي اجتمعت في عمر بن الخطاب . إذن فاذا افتخرت كل أمة

برجالها فنحن لا نبالغ اذا فاخرنا بهذا الرجل العظيم كل الأمم واذا كان هناك مبالغة فى القول أو غلو في الوصف ووقف غيرنا من سير رجال الامم المشهورين على من اتصف بكل صفات عمر فليبينه لنا وهو المتفضل وأنا أضع له خدي في التراب اعترافا بالحق وإقرارا بأفضل ذوى الفضل من رجال العالم

نعم ان من مشهوري الرجال رجالاً أسسوا ملكا عريضا أوسع من ملك عمر وافتتحوا من الممالك مالم يفتتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثيرة فوق ما نال ولكن هل منهم من كان كعمر جبارا غير ظالم كريماً غير مسرف عادلاً لا عن ضعف شجاعا غير متهوّر قنوعا غير شره زاهدا بغير تصنع حليما من غير جبن تقيا غير متنطع كلاّ ما نظن ان أوصافا كهذه تجمع في رجل واحد غيره قط لاسيما اذا نشأ في بيئة كبيئته وبين قوم كقومه حالهم من البداوة معروف والتاريخ حكم عدل وما بسطناه من سيرته في هذا الكتاب خير شاهد أمين وانا والله لنتمنى لكثير ممن مضى من خلفائنا الذين نشأوا في مهاد الحضارة وحنكتهم تجارب الزمان وغذتهم لبان السياسة بعضا من أخلاق عمر يحملون بها الامة على طريق الخير والسعادة ويربونها على الجد ويتنكبون بها طرق المهالك التي ساقتها اليها يد الظلم والاستبداد والجهل باصول سياسة الرعية ولله فى خلقه شؤون

﴿ أولياته ﴾

تقدم معنا كلام طويل على آثار عمر في الخلافة وفى تلك الآثار ما هو من أولياته ونحن ننقل هنا بوجه الاجمال أوليات عمر كما ذكرها السيوطي في تاريخه : فهو أول من كتب التاريخ من الهجرة وأول من اتخذ بيت المال وأول من سن قيام شهر رمضان وأول من عس بالليل وأول من عاقب على الهجاء وأول من ضرب فى الخمر ثمانين وأول من حرم المتعة وأول من نهى عن بيع أمهات الاولاد

وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز وأول من فتح الفتوح ومسح السواد وأول من حمل الطعام من مصر في بحر أيلة (البحر الاحمر) الى المدينة وأول من احتبس صدقة [1] فى الاسلام وأول من أعال الفرائض [2] وأول من أخذ زكاة الخيل وأول من قال أطال الله بقاءك (قاله لعلي) وأول من قال أيدك الله (وقاله له أيضاً) وأول من اتخذ الدرة واول من استقضى القضاة فى الامصار وأول من مصر الامصار وأول من سمي أمير المؤمنين وكان يكتب اولاً من خليفة أبي بكر او من خليفة خليفة رسول الله حتى كتب مرةً الى عامل العراق ان يبعث اليه رجلين جلدين يسألهما عن العراق وأهله فبعث اليه لبيد بن ربيعة وعديّ بن حاتم فقدما المدينة ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقالا استأذن لنا على امير المؤمنين فقال عمرو انتما والله اصبتما اسمه فدخل عليه عمرو فقال السلام عليك يا امير المؤمنين فقال ما بدالك فى هذا الاسم لتخرجن مما قلت فأخبره وقال أنت الامير ونحن المؤمنون فجرى الكتاب بذلك من يومئذ

وهو أول من اتخذ دار الدقيق يعين به المنقطع وأول من وسع المسجد النبوي وفرشه بالحصباء

هذا ما نقله السيوطي من أوليات عمر عن النووي والعسكري وابن سعد ونزيد عليه انه أول من ضرب النقود في الاسلام وأول من استعمل البريد لنقل الرسائل واول من أقام واليا للحسبة وأول من شق الترع واقام الجسور وأول من وضع المرابطة من الجند فى الثغور وسمى الاجناد واول من أمر بالعناية بالمناظير وأول من عين شخصا مخصوصا لاقتصاص أخبار العمال وتحقيق

(١) أى وقف وقفا (٢) أعال من العول المعروف في الفرائض وهي ان تزيد الفريضة في الحساب فتعدل القسمة على وجه معروف عند علماء الفرائض

الشكايات التي تصل الى الخليفة من عماله وهو محمد بن سلمة وربما كان له أوليات أخرى غير هذه وقد تقدم الكلام على كل هذا مفصلاً فيما مر من هذا الكتاب

باب كتبه

١

كتب الى أبي عبيدة حين ولي الخلافة يوليه على جند الشام

أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ماسواه الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات الى النور وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك لا تقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده(١) لهم وتعلم كيف مأتاه ولا تبعث سرية الا في كثف من الناس واياك والقاء المسلمين في الهلكة وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك فاغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها واياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم (هكذا وردت صورة هذا الكتاب في تاريخ الطبري ورأينا صورة غيرها في حقائق الاخبار وهي بنصها

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد وليتك أمور المؤمنين فلا تستحي فان الله لا يستحي من الحق واني أوصيك بتقوى الله العظيم الذي لا يفنى ويفنى سواه الذي استخرجك من الكفر الى الايمان ومن الضلالة الى الهدى وقد وليتك على جند خالد فاقبض الجيش منه ولا تنفذ المسلمين الى الهلاك رجاء غنيمة ولا تبعث سرية الى جمع كثير ولا تقل اني أرجو لكم النصر واياكم والتغرير والقاء المسلمين الى الهلكة واغمض عن الدنيا عينك واله عنها قلبك واياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم واختبرت سرائرهم وبينك وبين الآخرة بيت كالحمام وقد تقدم اليه سلفك فتنتظر سيراً أو سفراً طويلا من دار قد مضت نضارتها وذهبت منها زهارتها فأحزم الناس الخارج الى غيرها واتق الله في سرك ونجواك وتفكر في زاد التقوى وراع المسلمين ما استطعت وأما الحنطة والشعير التي وجدتموها في دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهي للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسلام اه‍.

(١) تختبره



وكتب الى أبي عبيدة يلومه على تركه حصار حلب

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذى لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد فقد ورد كتابك عليّ مع رسلك فسرّني ما سمعت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحي التي قربت من انطاكية فهذا بئس الرأى أتترك رجلاً ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه فما هذا رأى فيضعف رأيك ويعلو ذكره بما صنع ويطمع من لم يطمع فترجع اليك الجيوش وتكاتب ملوكها فاياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فَبُثّ الخيل في السهل والسعة واكففها في المضايق والجبال ومن المعدات الى حد الدروب ومن صالحك منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى جميع المسلمين وقد انفذت اليك كتابي هذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ولرسوله ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال رجال وفرسان والمدد يأتيك متوالياً ان شاء الله تعالى اه



وكتب أبو عبيدة كتاباً الى عمر يخبره فيه بانه لايريد الاقامة بانطاكية لطيب هوائها وبخوف اخلاد الجيوش الى الراحة فأجابه بما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واشكره ملياً (كثيراً) على ماوهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل معيناً لطيفاً وأما قولك انك لم تقم بانطاكية لطيب هوائها فالله عز وجل لم يحرّم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات فقال تعالى في كتابه العزيز (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم) وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون (١) في مطعمهم ويريحون الابدان النصبة في قتال من كفر بالله وأماقولك انك تنظر أمري الذي آمرك به ان تدخل

(١) يتوسعون ويتنعمون

الدروب خلف العدو فانت الشاهد وأنا الغائب والشاهد يرى مالايرى الغائب وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالاخبار فان رأيت الدخول الى الدروب صواباً فابعث اليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم وان طلبوا منك الصلح فصالحهم وأما قولك ان العرب أبصرت نساء الروم فارادوا التزويج فمن أراد ذلك فدعه ان لم يكن له في الحجاز أهل ومن أراد أن يشتري الاماء فدعه وذلك أصون لفروجهم والسلام عليك وعلى جميع من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته

(نقله والذي قبله في حقائق الاخبار عن منشآت السلاطين لفريدون بك)

٤

وكتب اليه كتاباً فقرأه على الناس بالجابية ونصه

من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك أما بعد فانه لم يقم أمر الله في الناس الاحصيف العقدة (١) بعيد الغرة (٢) لايطلع الناس منه على عورة ولايحنق في الحق على جرته(٣)ولا يخاف في الله لومة لائم (كنز العمال)

٥

وكتب الى ابنه ينصحه

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فان من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه ومن شكر له زاده ومن قرضه جزاه فاجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك فانه لاعمل لمن لانية له ولا أجر لمن لاحسبة له ولا جديد لمن لاخلق له (العقد الفريد)

٦

وكتب الى أبي موسى الاشعري يوصيه

بسم الله الرحمن الرحيم أمابعد فان للناس نفرة عند سلطانهم فاعوذ بالله ان تدركني وأياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة فاقم الحدود ولو ساعة من نهار واذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا فان الدنيا تنفد والآخرة تبقى وكن من خشية الله على وجل

---

(١) قوله حصيف العقدة اى محكمها والعقدة بالضم الولاية على البلد او هي من عقد الحبل ربطه وهي كناية عن احكام الأمر بالمعنى الثاني واحكام الولاية بالمعنى الاول (٢) الغرة هي الغفلة (٣) قال في لسان العرب لايصلح هذا الامر الا لمن لايحنق على جرته اى لايحقد على رعيته وفلان لايحنق على جرته اى لايكتم سراً

وأخِف الفساق واجعلهم يداً يداً ورجلا رجلا واذا كانت بين القبائل نائرة (١) وتداعوا بآل فلان فانما تلك نجوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا الى امر الله وتكون دعواهم الى الله والى الامام وقد بلغ أمير المؤمنين أنّ ضَبّةَ تدعو يآل ضَبّةَ واني والله ما اعلم أنّ ضبة ساق الله بها خيراً قط ولا منع بها من سوء قط فاذا جاءك كتابي هذا فانهكهم عقوبةً حتي يفرقوا (٢) ان لم يفقهوا والصق بغيلان بن خَرَشَةَ من بينهم وعُدْ مرضى المسلمين واشهد جنائزهم وافتح بابك وباشر امرهم بنفسك فانما انت امرؤ منهم غير ان الله جعلك أثقلهم حِملا وقد بلغ امير المؤمنين انه فشا لك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها فاياك ياعبدالله ان تكون بمنزلة البهيمة التي مرت بواد خصب فلم يكن لها همة الا السمن وانما حتفها في السمن واعلم ان للعامل مردًّا الى الله فاذا زاغ العامل زاغت رعيته وانّ اشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام (مفتاح الافكار)

٧

وكتب الى معاوية وقيل الى ابي عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فاني لم آلك في كتابي اليك ونفسي خيراً . اياك والاحتجاب وأْذن للضعيف وأَدْنه حتى تبسط لسانه وتجرّئ قلبه وتعهد الغريب فانه اذا طال حبسه وضاق اذنه ترك حقه وضعف قلبه وانما ترك حقه من حبسه واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك القضاء واذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والايمان القاطعة فامض الحكم (مفتاح الافكار)



(كتابه لاهل ايلياء « القدس »)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الامان أعطاهم أماناً لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لاتسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يُضارُّ أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايلياء أن يُعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن

١ قوله نائرة أى عداوة وقوله يفيئوا أى يرجعوا (٢) وقوله حتى يفرقوا اى يخافوا ويفزعوا واذا كانت بتشديد الراء فمعناها يتفرقوا

وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (١) فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الارض قبل مقتل فلان (٢) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على اهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ (تاريخ الطبرى)

٩

(كتابه الى أهل لد)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لدٍّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين أعطاهم أماناً لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص من حيّزها ولا مللها ولا من صُلبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم وعلى أهل لُدّ ومن دخل معهم من أهل فلسطين ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام وعليهم ان خرجوا مثل ذلك الشرط الى آخره (عن الطبرى)

١٠

« كتب الى سعد في اليوم الذي يرتحل فيه من شراف »

أما بعد فاذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عُذَيب الهجانات وعذيب القوارس وشرّق بالناس وغرّب بهم « عن الطبرى »

١١

(وكتب اليه أيضاً جواباً عن كتابه)

أما بعد فتعاهد قلبك وحادث جندك بالموعظة والنية والحِسبة ومن غفل فليُحدثهما «٣» والصبرَ الصبر فان المعونة تأتي من الله على قدر النية والاجر على قدر الحسبة . والحذر الحذر على من أنت عليه وما أنت بسبيله واسألوا الله العافية واكثروا من قول لاحول ولا قوة الا بالله . واكتب اليَّ اين بلغك جمعُهم ومن

«١» وفي رواية واللصوص وهو الظاهر «٢» هكذا في الاصل «٣» هكذا في الاصل والاحداث الابداء فليحرر

رأسهم الذي يلي مصادمتكم فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به اليك قلة علمي بما هجمتم عليه والذى استقر عليه أمر عدوكم فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر اليها واجعلني من امركم على الجلية وخف الله وارجه ولا تدل بشيء واعلم ان الله قد وعدكم. وتوكل لهذا الامر بما لا خلف له فاحذر ان تصرفه عنك ويستبدل بكم غيركم

« وكتب الى سعد وهو بشراف يريد العراق وحرب الفرس ما نصه »

اما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم فيما لديك انك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤوده لبحوره وفيوضه ودآدئه (١) الآن توافقوا غيضاً من فيض واذا لقيتم القوم أو واحداً منهم فابدؤهم الشر والضرب واياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الا ان تجادوهم واذا انتهيت الى القادسية والقادسية في باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغيب خصيب رحيب دونه قناطر وانهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا أحسوك انغضتهم رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فان انتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة رجوت ان تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم ابداً الا ان يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الاخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها اجرأ وبها أعلم وكانوا عنها اجبن وبها اجهل حتى يأتي الله بالفتح ويرد لكم الكرة عليهم (هذا الكتاب وما قبله عن الطبري)

١٢

(وكتب الى سعد)

قد جاءني كتابك وفهمته فأقم مكانك حتى ينفض الله عدوك واعلم ان لها

«١» كؤوده اى صعبه وفيوضه اي مياهه الفائضة والدآدى جمع دأداء وهو الفضاء الواسع وتوافقوا اى تلاقوا: غيضا من فيض أي قليلا من كثير: النقب الطريق يكون في الجبل والثقب وجمعها انقاب ولعل مراده بالانقاب هنا أنقاب القناطر التي على الانهار: والحجر والمدر كناية عن البادية والعمران او المدن والفضاء لان المدر هي المدن والحجر هي قفا الرمل وقوله انغضتهم اى حركتهم

مابعدها فان منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فانه خرابها ان شاء الله (الطبري)

١٣

وكتب اليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ينصحانه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر ابن الخطاب سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذي لا اله الاهو (أما بعد) فانا عهدناك وأمر نفسك لك مهمٌّ فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها يجلس بين يديك الصديق والعدو والشريف والوضيع ولكل حصة من العدل فانظر كيف انت ياعمر عند ذلك وانا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه وتجب (١) له القلوب وتنقطع فيه الحجج بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق داخرون «٢» له يرجون رحمته ويخافون عقابه وانا كنا نتحدث ان أمر هـذه الامة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية اعداء السريرة وانا نعوذ بالله ان تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا فانا انما كتبنا اليك نصيحة لك والسلام

(فكتب اليهما)

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل سلام عليكما فاني أحمد اليكما الله الذي لا اله الا هو (اما بعد) فقد جاءني كتابكما تزعمان انه بلغكما اني وليت أمر هذه الأمة احمرها واسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبتما ان انظر كيف انت ياعمر عند ذلك وانه لاحول ولاقوة لعمر عند ذلك الا بالله كتبتما تحذراني ماحذرت به الامم قبلنا وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد ويأتيان بكل موعود حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة والنار ثم توفى كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب كتبتما تزعمان ان امر هذه الامة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية اعداء السريرة ولستم بذاك وليس هذا ذلك الزمان ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة فتكون رغبة بعض الناس الى بعض اصلاح دينهم ورهبة بعض الناس اصلاح دنياهم . وكتبتما تعوذاني بالله ان أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل في قلوبكما وانما كتبتما نصيحة لي وقد صدقتما فتعهداني منكما بكتاب فلاغنى

---

(١) تخاف (٢) اى اذلاء صاغرون

بي عنكما والسلام عليكما (مفتاح الافكار)

وله كتب غير هذه تقدم ايرادها في غضون أخباره وكتب أخرى كتبها الي عمرو بن العاص وهو في مصر رأينا من تمام الفائدة ان نرجئ ذكرها الى سيرة عمرو بن العاص لان ايرادها في سيرته أنسب لاشتمالها على تبادل المكاتبة بين الاثنين في شؤون خاصة سترى في محلها ان شاء الله

(كلام على وجوب التناصح في الاسلام)

وأنت ترى من هذين الكتابين كيف كان المسلمون يتناصحون بالمعروف عملا بأمر كتابهم وهدى نبيهم ولا يمتنعون عن أداء النصيحة للامام لكونه اماماً له عليهم السلطان بل يرون أن النصيحة به أجرى وله أولى وان له عليهم حق الطاعة كما لهم عليه حق النصيحة والارشاد الى مواقع الخطأ والتعهد بما يقيم الأود ويصلح العمل شأن الأمم التي تعاون رؤساءها على البر وتعتمد في رفع شأنها على قوة التكافل في الحق والتعاون على شؤون الملك وقد انتهت بهم حرية الفكر والانطلاق عن قيود العبودية والقيام على حسن المناصحة أن لا يغفلوا ساعة عن نصيحة الامام وهو من هو : فذ الأمة الاسلامية وفخر الاسلام والمثل المضروب في التقوى والعدل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعنهم أجمعين وقد بلغ بهم الاغراق في حرية الضمائر وعدم الامساك عن الحق ان قال أحدهم لمثل ذلك الخليفة العظيم لما سأله عما اذا ترخص بأمر من أمور المسلمين (لو فعلت لقومناك تقويم القدح) أى تقويم السهم المعوّج كما رأيت ذلك فيما بسطناه في باب سياسته فما ازداد ذلك الخليفة العظيم الا سروراً بقول ذلك المسلم واستبشاراً في أن المسلمين قائمون على شؤونهم رجال في أخلاقهم متمسكون بشرع نبيهم متنبهون لكل خطأ يصدر عن خليفتهم وكان ذلك دأبه مع الناس في استطلاع طلع ضمائرهم من جهته ليعلم مبلغ الحياة فيهم ويسترشد الى عيوبه بجميل نصحهم وصادق قولهم ولم يكن يخطر له على بال أو يمر له في خيال ان استرشاده بآراء ذوى الرأى والبصيرة من المسلمين وانتصاحه بنصائحهم فيه حطة في شأنه أومس لسلطانه لهذا كتب لابي عبيدة ومعاذ لما نصحاه في آخر كتابه (قد صدقتما فتعاهداني منكما بكتاب فلا غني بي عنكما) وقد رأيت فيما مر زجره لمن اعترض على قائل قال له اتق الله ياعمر وقوله للمعترض دعه فلا خير فيكم اذ لم تقولوها ولا خير فينا اذ لم نسمعها اذا تقرر هذا علمنا أن التناصح بين المسلمين واجب لا يستثنى منه أمير ولا صغير بل الأمير أولى بان ينصح ويستنصح بسبب ماوسد اليه من أمور الملك التى ليس من طوق الآحاد

القيام بها الا اذا سلكوا سبيل الأثرة وأطاعوا هوى النفوس فكان الانفراد بالسلطان والتسلط على الرعية والتطوح بمصالح الملك والدولة في مهاوي الهوى أحب اليهم من الانتصاح بنصيحة الاعوان والأخذ على شكائم النفوس الأمارة بالسوء التي يقودها الهوى الى تصور أن الامارة مرتبة لاينبغي لها أن تكون الا في مصاف الملائكة المقربين أو الانبياء المعصومين وحبذا لو تحقق هذا التصور لانسان من أولئك الامراء اذن والله لحكموا الناس بحكم الانبياء وهو هو التناصح الذي يهربون منه والتعاون الذي يترفعون عنه وحسب هذا الترفع آفة انه أودى بدولة بني مروان في ابان شبابها كما أودى بكثير من اضرابها

المناصحة بالمعروف أس من أسس السعادة القومية في كل قبيل وعصر بل هي مدرسة الامة التي تتربى فيها الاخلاق وتنمو الفضيلة وتتطهر الاعراق وتنبت روح الألفة والتعاون وليس لمدرسة مثلها أثر في الاخلاق ومؤثر في نفوس الامة قط اذ تتناول بالتعليم الكبير والصغير عفواً بلا أجر وتسرى روحها بين كل الطبقات مختارة بلا اكراه فيربي الكبير الصغير ويرشد المهتدى الضال وينصح الصغير الامير وكلهم يتبادل العوض مع الآخر بما ينفعه في اخلاقه ويقوم أوده فينتفع الكل بالكل وتعم السعادة والرخاء سائر الناس

أجل هذه هي المدرسة التي ربت مثل معاذ وأبي عبيدة وعمر واضرابهم من عامة المسلمين وخاصتهم فسادوا بالمناصحة والاخلاص على كل الامم وأدهشت سيرتهم انظار الشعوب وامتد ظل سلطانهم على نصف الكرة ونالهم من السعادة والعز والمجد فوق ما رأيت في هذا الكتاب

وهي هي المدرسة التي علمت الشعوب الاوربية حرية الضمائر والافكار ورفعتهم من حضيض الجهالة وسلكت بهم سبيل المجد وسودتهم لهذا العهد على الامم فملكوا ثلاثة أرباع المعمور وقضوا على استقلال الدول الشرقية فمحوا بعضه محواً وجعلوا بعضه صورة في الخيال قد باتت على وشك الزوال كما زالت دول الهند العظيمة وافريقيا الكبيرة والجاوى والقريم وبخارى وسمرقند وما لا يعد من الشعوب والدول الاسلامية

ليس بعجيب أن يصير المسلمون في أسر الدول المتغلبة ويتقلص ظل مجدهم عن الارض بعد اذ كان شأنهم في المناصحة والقيام على الحق ماذكر ثم بلغ ترك المناصحة وانحطاط النفوس والاخلاق بفريق كبير منهم أن صاروا يعدون الناصح بالمعروف

خارجاً عن دينه خارجاً على سلطانه والدين يقول (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) (واذا قلتم فاعـدلوا ولو كان ذا قربى) والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (من لم يحمد عدلاً ولا يذم جوراً فقد بارز الله تعالى بالمحاربة) (١)

ومن البديهي ان مدح العـدل وذم الجور انما يكون بأن يقول المسلم للعـادل المحسن عدلت وأحسنت وللجائر على نفسه أو على غيره جرت وأسأت فاسـتقم كما أمرت وهو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذى وردت آياته البـاهرة في الكتاب الكريم

ومن الاغراق فى الجهالة والتناهي في الانحطاط ان يرى المسلمون بلادهم تخرب واستقلالهم ينتزع وملكهم يزول ودولتهم تدول والاوربيون قد غلبوهم على أمرهم وزاحموهم في ملكهم وتحكموا فيهم وفي دولهم وسبقوهم في العلم والمعارف والاختراع واجلبوا عليهم بالخيل والرجل وسدوا دونهم منافذ الصناعـة والتجارة واذا دعاهم ناصح من اخوانهم غيور من بني دينهم الى النظر في أسباب انحطاطهم وارتقاء غيرهم وتقهقرهم وتقدم سواهم وأبان لهم طرفاً من تلك الاسباب وحكمهم في التفريق بين خطئها والصواب اعرضوا عنه اعراض المريض عن الماء الزلال بل ربما رماه بعضهم بانواع الزور وتقرب بماله واهله ودمه الى ولاة الامور رجاء نيل الحظوة عنـدهم والتزلف اليهم واكتساب رضاهم وان اغضب الله والمروءة والوجـدان وخرج عن الانسانية والدين اذ لاوازع من النفس ينهاه ولا فضـيلة تلوى عنان شهوته عن ظلم اخيه والشواهد على هذا كثيرة في الاشخاص والأعمال سنأتي على بيانهـا فى محالها ان شاء الله لتكون عـبرة يتعظ بها الآتي والحاضر وصورة في التاريخ ترهب قلوب الاشرار وتزعج عن مواطئ الرذيلة اقدام الفجار

باب

خطبه

أوردنا عند ذكر استخلافه اول خطبة خطبها ورأينا في رواية اخرى رواها ابن الجوزي في المناقب عن جامع بن شداد عن ابيه ورواها غيره من المحدثين من طرق

---

١ اخرج هذا الحديث في اسد الغابة في ترجمة المغيرة بن نوفل

اخرى ان اول خطبة خطبها عمر (رض) ان صعد المنبر وحمد الله واثنى عليه وقال (اللهم اني شديد فليني واني ضعيف فقوني واني بخيل فسخني) وقد رأينا هذه الخطبة في العقد الفريد بعبارة اطول الا انها لاتخرج عن هذا المعنى

٢

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال لما ولي عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله واثنى عليه ثم قال

ايها الناس اني قد علمت انكم كنتم تؤنسون مني شدة وغلاظة وذلك اني كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وجلوازه (شرطيه) وكان كما قال الله تعالى بالمؤمنين رؤفاً رحيما وكنت بين يديه كالسيف المسلول الا ان يغمدني او ينهاني عن امر فأكف عنه والا أقدمت على الناس لمكان امره فلم ازل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض والحمد لله على ذلك كثيراً وانا به اسعد ثم قمت ذلك المقام مع ابي بكر الصديق خليفة رسول الله بعد رسول الله وكان من قد علمتم في رغبه ولينه فكنت خادمه وجلوازه وكنت كالسيف المسلول بين يديه على الناس اخلط شدتي بلينه الا ان يتقدم الي فأكف والا اقدمت فلم ازل حتى توفاه الله فكان عني راضياً والحمد لله على ذلك كثيراً وانا به اسعد . ثم صار امركم اليوم الي وانا اعلم انه يقول قائل كان يشتد علينا والامر الى غيره فكيف به لما صار الامر اليه فاعلموا انكم لاتسألون عني احداً قد عرفتموني وخبرتموني وقد عرفت بحمد الله من محمد نبيكم صلى الله عليه وسلم ماقد عرفت وما اصبحت نادماً على شيء كنت احب ان اسأله الا وقد سألته واعلموا ان شدتي التي كنتم ترونها ازدادت أضعافاً عن الاول على الظالم والمتعدي والاخذ للمسلمين لضعيفهم من قويهم واني بعد شدتي تلك واضع خدى الى الارض لأهل العفاف وأهل الكفاف ان كان بيني وبين من هو منكم شيء من أحكامكم أن أمشي معه الى من أحبه منكم فينظر فيما بيني وبينه : فاتقوا الله عباد الله وأعينوني على نفسي بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر واحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم [1]

---

(١) تصرفت تصرفا طفيفا ببعض الالفاظ الواردة بهذه الخطبة لان الناسخ الذى نسخ لي سيرة عمر من تاريخ ابن عساكر من مكتبة دمشق لم يتمكن من ضبط الالفاظ المشوشة والمتشابهة لسقامة خط التاريخ

٣

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر أيضاً عن الشعبي قال: لما ولي عمر بن الخطاب صعد المنبر فقال

ما كان الله ليراني أن أرى نفسي أهلاً لمجلس أبي بكر فنزل مرقاة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: اقرأوا القرآن تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الاكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية. انه لم يبلغ حق ذي حق أن يُطاع في معصية الله «١» ألاَ واني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة وليّ اليتيم ان استغنيت عففت وان افتقرت أكلت بالمعروف

٤

وفي الخراج لأبي يوسف خطبة بهذا المعنى الا أنها أطول وأجمع رواها عن طلحة بن معدان قال

خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال: أيها الناس انه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يُطاع في معصية الله واني لا أجد هذا المال يصلحه الاّ خلال ثلاث أن يؤخذ بالحق ويعطى في الحق ويمنع من الباطل وانما أنا وما لكم كولي اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف ولست أدع أحداً يظلم أحداً ولا يعتدي عليه حتى أضع خده على الارض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق ولكم عليّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم عليّ أن لا أجبي شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم الاّ من وجهه ولكم عليّ اذا وقع في يدي أن لا يخرج مني الاّ في حقه: ولكم عليّ أن لا أزيد أعطياتكم وأرزاقكم ان شاء الله وأسد ثغوركم: ولكم عليّ أن لا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم (أحبسكم) في ثغوركم. وقد اقترب منكم زمان قليل الامناء كثير القراء قليل الفقهاء كثير الامل يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب ألا من أدرك ذلك

«١» يعني بذي الحق نفسه وهو الحق والسلطة الذي لا يتعدى ما أمر الله من العدل الى ما تأمر به النفس وتطلبه السيادة وهو من قبيل قول أبي بكر «رض» في إحدى خطبه اطيعوني ما أطعت الله فيكم فرضي الله عن تلك النفوس السامية ما كان أعرفها بالحق والعدل والزمها الشرعة الانصاف مع الرعية

منكم فليتق الله ربه وليصبر : يا أيها الناس ان الله عظّم حقه فوق حق خلقه فقال فيما عظم من حقه « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون » ألا واني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم فادروا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم ولا تغلقوا الابواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم فاذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك فان ذلك أبلغ في جهاد عدوّكم: أيها الناس اني أشهدكم على أمراء الامصار اني لم أبعثهم الاّ ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيأهم ويحكموا بينهم فان أشكل عليهم شيءٌ رفعوه اليّ اه

هذه الخطبة من أجمع خطبه لانها تمثل عدله وسياسته وعقيدته وتحدد وظيفته وتبين مقاصده وتنبئ عن اخلاصه في خدمة المسلمين وشدته على الظالمين ورأفته بالمظلومين الي غير ذلك مما يدركه القارئ من معاني هذه الخطبة الغراء فرضي الله عنه

٥

﴿ وخطب خطبة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه ﴾

يا أيها الناس اني قد وُلّيتُ عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكفى عمر مهمًّا محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذُها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان فإنّ عمر أصبح لا يثق بقوّة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عزّ وجلّ برحمته وعونه وتأييده (تاريخ الطبري)

٦

﴿ وخطب فقال ﴾

انّ الله عز وجل قد ولاّني أمركم وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم واني أسئل الله أن يعينني عليه وأن يحرسني عنده كما حرسني عند غيره وأن يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به ولن يغيّر الذي وليتُ من خلافتكم من خُلُقي شيئاً ان شاء الله انما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شيءٌ فلا يقولن أحد منكم أن عمر تغيّر منذ ولي : اعقل الحق من نفسي وأتقدّم وأبين لكم أمري فأيّما

رجل كانت له حاجة أو ظِلم مَظلَمَةً أو عتب علينا في خلق فَلْيُؤْذنّي «١» فانما أنا رجــل منكم فعليكم بتقوى الله في سرّكم وعلانيتكم وحُرماتكم واعراضكم واعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا اليّ فانه ليس بيني وبين أحد من النـاس هَوادة «٢» وأنا حبيب اليّ صـلاحكم عزيز عليّ عَنَتُكم وأنتم أناس عامتكم حَضَرٌ في بلاد الله وأهل بلدٍ لازَرْعَ فيه ولا ضَرْعَ الا ما جاء الله به اليه وان الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسؤل عن أمانتي وما أنا فيـه ومُطّلِع على ما بحضرتي بنفسي ان شاء الله لا أَكِلُه الى أحـد ولا أسـتطيع ما بعُد منه الاّ بالامناء وأهل النصح منكم للعامة واست أجعل أمانتي الى أحد سواهم ان شاء الله (تاريخ الطبري)

٧

﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أيها الناس ان بعض الطّمع فقرٌ وان بعض اليأس غِنًى وانكم تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تُدركون وأنتم مؤجّلون في دار غرور كنتم في عهد رسول الله صلى الله عليـه وسلم تؤخذون بالوحي فمن أسرّ شيئاً أُخذ بسريرته ومن أعلن شيئاً أُخذ بعلانيته فأظهرُوا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر فانه مَن أظهر لنا شيئاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننـا به حَسَناً واعلموا انّ بعض الشُّحّ شُعْبة من النفاق (فأنفقوا خـيراً لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحون) أيها الناس أطيبوا مَثْواكم وأصلحوا أموركم واتقوا الله ربكم ولا تلبسوا نساءكم القَباطيّ فانه أن لم يَشِف فانه يَصِفُ «٣» أيها الناس اني لوددتُ أن أنجُوَ كفافاً لا لي ولا عليّ واني لأرجو إن عُمِّرتُ فيكم يسيراً أو كثيراً أن أعمَلَ بالحق فيكم ان شاء الله وأن لا يبقى أحـد من المسلمين وان كان في بيته الا أتاه حقُّه ونصيبُه من مال الله ولا يُعمل اليه نفسَه ولم ينصَب «٤» اليـه يوماً وأصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ولقليلٌ في رِفق خير من كثير في عُنْف والقتل حتفٌ من الحتوف يصيب البرّ والفاجر والشهيدُ

«١» أي فليعلمني وهي من آذنه بالامر أي أعلمه به «٢» الهوادة بالفتح الصلح والاختصاص بالميل «٣» القباطي أثواب مشهورة وشف رق فحكى ما تحته ويصف لعله من الوصف أو من التواصف وهو أن يصفوا الشئ بعضهم لبعض «٤» ولا يعمل اليه نفسه أي لايجهد نفسه اليه أي يأتيه بلا طلب . ولم ينصب أي لم يتعب

من احتسب نفسه واذا أراد أحدكم بعيراً فليعمد الى الطويل العظيم فليضربه بعصاه فان وجده حديد الفؤاد فليشتره (تاريخ الطبري)

٨

﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال ان الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا عن غير مسئلة منكم له ولا رغبة منكم فيه اليه فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته وكان قادراً ان يجعلكم لأهون خلقه عليه فجعل لكم عامة خلقه ولم يجعلكم لشيء غيره ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرضِ وَأَسْبَغَ (١) عَلَيْكُمْ نعمه ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَحَمَلَكُم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بني آدم ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم وليس من تلك النعم نعمة وصلت الى امرئٍ خاصة الا لو قسم ما وصل اليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها وفدحهم (٢) حقها الا بعون الله مع الايمان بالله ورسوله فانتم مستخلفون في الارض قاهرون لاهلها قد نصر الله دينكم فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم إلا أمتان أمة مستعبدة للاسلام وأهله يجزون لكم يستصفون معائشهم وكدائحهم ورشح جباههم (٣) عليهم المؤونة ولكم المنفعة وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة قد ملأ الله قلوبهم رعباً فليس لهم معقل (٤) يلجئون اليه ولا مهرب يتقون به قد دهمتهم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم مع رفاغة العيش (٥) واستفاضة المال وتتابع البعوث وسد الثغور باذن الله مع العافية الجليلة العامة التي لم تكن هذه الامة على أحسن منها مذ كان الاسلام والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد فما عسى ان يبلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين مع هذه النعم التي لا يحصى عددها ولا يقدر قدرها ولا يستطاع أداء حقها الا بعون الله ورحمته ولطفه فنسأل الله الذي لا اله الا هو الذي أبلانا هذا ان يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة الى مرضاته واذكروا

(١) أفاض (٢) اثقلهم «٣» قوله يجزون أي يعطون الجزية : وكدائحهم أى سعيهم أومكاسبهم: ورشح الجباه عرقها (٤) حصن وملجأ (٥) رفاغة العيش سعته وخصبه

عباد الله بلاء الله عندكم واستتموا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثنى وفرادى فان الله عز وجل قال لموسى (أَخْرِجْ قَوْمَكَ من الظُّلُمَاتِ الى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله) وقال لمحمد صلعم (واذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قليلٌ مُسْتَضْعَفُونَ في الارض) فلو كنتم اذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها وتستريحون اليها مع المعرفة بالله ودينه وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة وأثبته بالله جهالة فلو كان هذا الذي استشلاكم(١) به لم يكن معه حظ في دنياكم غير انه ثقة لكم في آخرتكم التي اليها المعاد والمنقلب وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه أحرياء ان تشحوا على نصيبكم منه وان تظهروه على غيره قبله اما انه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة ومن شاء ان يجمع له ذلك منكم فاذكركم الله الحائل بين قلوبكم الاماعرفتم حق الله فعملتم له وقسرتم انفسكم على طاعته وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً لها ولانتقالها ووجلامنها ومن تحويلها فانه لاشيء اسلب للنعمة من كفرانها وان الشكر امن للغير ونماء للنعمة واستجاب للزيادة : هذا لله علي من أمركم ونهيكم واجب (تاريخ الطبري)

٩

﴿ وخطب لما شيع جيش سعد بن أبي وقاص ﴾

ان الله تعالى ضرب لكم الامثال وصرف لكم القول ليحيي به القلوب فان القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله . من علم شيئاً فلينتفع به . وان للعدل أمارات وتباشير فأما الامارات فالحياء والسخاء والهين واللين وأما التباشير فالرحمة وقد جعل الله لكل أمر باباً ويسر لكل باب مفتاحا فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد . والاعتبار ذكر الموت بتذكر الاموات والاستعداد له بتقديم الأعمال . والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق (أي عنده) وتأدية الحق الى كل أحد له حق . ولا تصانع في ذلك أحداً واكتف بما يكفيه من الكفاف فان من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء . اني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد وان الله قد ألزمني رفع الدعاء عنه فأنهوا شكاتكم الينا فمن لم يستطع فالى من يبلغناها نأخذله الحق غير متعتع(٢) (تاريخ الطبري)

---

(١) استشلاه دعاه ليحيه من ضيق أو هلاك (٢) في القاموس تعتعه أي تتله وحركه بعنف أو أكرهه في الامر

١٠

وسمع مرة ان نفراً يقولون لو مات عمر لبايعنا فلاناً اعتماداً منهم على ان بيعة أبي بكر تمت بمبايعة نفر من المهاجرين والانصار فأراد عمر رضي الله عنه أن يبين لهم ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وأن أهليته واستعداده وحرج الموقف الذي وقف به المسلمون يومئذ سوغ تلك البيعة فخطب فيهم هذه الخطبة التي رواها الشيخان فقال .

قد بلغني ان فلانا منكم يقول لو مات عمر بايعت فلانا فلا يغترّن امرؤ ان يقول ان بيعة ابي بكر كانت فلتةً الا وانها كانت كذلك الاّ انّ الله وقى شرها وليس فيكم اليوم من تقطع اليه الاعناق مثل أبي بكر وانه كان من خيرنا حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا في بيت فاطمه وتخلفت الانصار عنا بأجمعها في سقيفة بني ساعدة واجتمع المهاجرون الى ابي بكر فقلت ياأبا بكر انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان فذكر لنا الذى صنع القوم فقالا اين تريدون يامعشر المهاجرين قلت نريد اخواننا من الانصار فقالا عليكم ان لاتقربوهم واقضوا امركم يامعشر المهاجرين فقلت والله لنأتينهم . فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فاذاهم مجتمعون واذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت من هذا قالوا سعد بن عبادة فقلت ماله قالوا وجع فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو اهله وقال (امّا بعد) فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام وانتم يامعشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة (١) منكم يريدون ان تختزلونا من اصلنا وتحضنونا من الامر فلما سكت أردت أن أتكلم وقد كنت زوّرت مقالة اعجبتني أردت ان اقولها بين يدى أبي بكر وقد كنت اداري منه بعض الجد وهو كان احلم مني وأوقر فقال ابو بكر على رِسلك فكرهت أن أغضبه وكان أعلم مني والله ماترك من كلمة أعجبتني فى تزويرى الاقالها في بداهته وافضل حتى سكتُ فقال

اما بعد فماذكرتم من خير فأنتم أهله ولم تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحيّ من قريش هم اوسط العرب نسباً وداراً وقد رضيت لكم احد هذين الرجلين ايهما شئتم . فأخذ بيدي وبيد أبي عبيده بن الجراح فلم أكره مما قال غيرها وكان والله ان أقدّم فتضرب عنقي لايقربني ذلك من ثم احب الي من أن أتأمر على قوم فيهم ابو بكر

(١) الدافة الجيش يدفون نحو العدو : والاختزال : الاقتطاع وتحضنوننا تكفوننا

فقال قائل من الانصار انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا امير ومنكم امير يامعشر قريش وكثر اللغط وارتفعت الاصوات حتى خشيت الاختلاف فقلت ابسط يدك ياأبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الانصار أما والله ماوجدنا فيما حضرنا امراً هو اوفق من مبايعة ابي بكر . خشينا ان فارقنا القوم ولم تكن بيعة ان يحدثوا بعدنا بيعة فاما ان نبايعهم على مالا نرضى واما ان نخالفهم فيكون فيه فساد

١١

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس ما الجزع مما لابد منه وما الطمع فيما لا يرجى وما الحيلة فيما سيزول وانما الشيء من اصله وقد مضت قبلنا اصول ونحن فروعها فما بقاء الفرع بعد اصله انما الناس فى هذه الدنيا اغراض تنتضل (١) المنايا فيهم وهم نصب المصائب مع كل جرعة شرق وفي كل اكلة غصص لاينالون نعمة الا بفراق اخرى ولا يستقبل معمر من عمره شيئاً الا بهدم آخر من اجله وانتم اعوان الحتوف على انفسكم فأين المهرب مما هو كائن وانما ينقلب الهارب في قدرة الطالب فما اصغر المصيبة اليوم مع عظم الفائدة غداً واكثر جنبة الجانب جعلنا الله واياكم من المتقين (مفتاح الافكار)

١٢

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس انه اتى علىّ حين وانا احسب ان من قرأ القرآن انه انما يريد به الله وما عنده ألا وقد خيل الى ان اقواماً يقرؤن القرآن يريدون به ماعند الناس الا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه باعمالكم فانا كنا نعرفكم اذ الوحي ينزل واذ النبي صلى الله عليه وسلم بين اظهرنا فقد رفع الوحي وذهب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانما نعرفكم بما أقول لكم الا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيرا وأثنينا به عليه ومن اظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه اقدعوا (٢) هذه النفوس عن شهواتها فانها طلعة فانكم الا تقدعوها تنزع بكم الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مريء وان

«١» في أساس البلاغة وخرجوا الى النضال وهم يتناضلون وينتضلون : ومعناه يترامون ويتبارون «٢» قوله أقدعوا أى كفوا وقوله نفس طلعة تكثر التطلع الى الشيء

الباطل خفيف وبيء وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة اورثت حزنا طويلا (مفتاح الافكار)

١٣

﴿ وخطب فقال ﴾

انما الدنيا أمل مخترم (١) وأجل منتقض وبلاغ الى دار غيرها وسير الى الموت ليس فيه تعريج فرحم الله امرءًا فكر في أمره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه بئس الجار الغني يأخذك بما لا يعطيك من نفسه فان أبيت لم يعذرك اياكم والبطنة فانها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية الى السقم وعليكم بالقصد في قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة وان العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه (مفتاح الافكار)

١٤

﴿ خطبته بالجابية عند أوبته من الشام الى المدينة ﴾

قال بعد ان حمد الله وأثنى عليه ألا اني قد وُليتُ عليكم وقضيت الذي عليّ في الذي ولاّني الله من أمركم ان شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومَغازيكم وأبلغنا ما لديكم فجندنا لكم الجنود وهيئنا لكم الفروج وبوّأنا كم ووسّعنا عليكم ما بلغ فيئكم وما قاتلتم عليه من شأمكم وسمّينا لكم أطماعكم وأمرنا لكم باعطياتكم وأرزاقكم ومَعاوِنكم فمن عَلِمَ عِلمَ شئ ينبغي العمل به فبلّغناه نعمَلْ به ان شاء الله ولا قوة الا بالله (تاريخ الطبري)

﴿ باب ﴾

﴿ مقتل عمر ﴾

ذكر أرباب السير والمحدثون عن مقتل عمر ان أبا لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة شكا اليه ارتفاع الخراج الذى ضربه عليه مولاه المغيرة وطلب اليه

(١) مخترم اي منتقص وقوله منتقض من الانتقاض وهو التراجع والانتكاث

تخفيفه فمن قائل انه وعده خيراً وعزم أن يلقى المغيرة فى تخفيف الخراج عنه ومن قائل انه سأله كم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال وايش صناعتك قال نحاس نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال فتوعده الغلام وانصرف فقال عمر توعدني العبد

قالوا ولما انصرف عمر الى منزله جاءه من الغد كعب الاحبار فقال ياأمير المؤمنين اعهد فانك ميت في ثلاثة أيام: قال ومايدريك قال أجده في كتاب الله عز وجل التوراة قال عمر الله انك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة: قال اللهم لا ولكني أجد صفتك وحليتك وانه قد فني أجلك: قال وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال ياأمير المؤمنين ذهب يوم وبقى يومان وهكذا مازال يجيئه كل يوم الى مساء اليوم الذي قتل في صبيحته . وممن روى هذا الخبر وذكر فيه قول كعب هذا ابن جرير الطبري في تاريخه رواه عن المِسْوَر بن مَخْرَمَة

وروى فى أسد الغابة عن أبي رافع انّ أبا لؤلؤة لما طلب الى عمر ما طلب قال له عمر اتق الله وأحسن الى مولاك ومن نية عمر ان يلقى المغيرة فيكلمه ان يخفف عنه فغضب العبد وقال وسع الناس كلهم عدله غيري فأضمر على قتله فاصطنع له خنجراً له رأسان وشحذه وسمه ثم أتى به الهرمزان فقال كيف ترى هذا قال انك لا تضرب به أحداً الا قتلته قال فتحين أبو لؤلؤة عمر فجاءه في صلاة الغداة حتى قام وراء عمر وكان عمر اذا أقيمت الصلاة يقول أقيموا صفوفكم فقال كما كان يقول فلما كبر وجاءه (طعنه) أبو لؤلؤة فى كتفه وجاءه في خاصرته وقيل ضربه ست ضربات فسقط عمر وطعن أبو لؤلؤة بخنجره ثلاثة عشر رجلا (ممن حاولوا القبض عليه) فهلك منهم سبعة

وفى رواية ان أحد المسلمين ألقى على أبي لؤلؤة برنساليتمكن من القبض

عليه فلما أحس انه مأخوذ انتحر بخنجره: وفي رواية الطبري وغيره ان عمر لما سقط قال أفي الناس عبد الرحمن بن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدّم فصلّ بالناس : فصلى عبد الرحمن بالناس صلاة خفيفة وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فدعا بعليّ وعثمان والزبير وسعد وأمرهم أن يتشاوروا في أمر الخلافة وقال لهم انتظروا أخاكم طلحة ثلاثا فان جاء والا فاقضوا أحدكم وليشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شيء قوموا فتشاوروا وليصلّ بالناس صهيب: ثم قال لابي طلحة الانصاري يا أبا طلحة ان الله أعز بكم الاسلام فاختر خمسين رجلا من الانصار وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم: وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي اجمع هؤلاء الرهط وقم على رؤسهم فان اجتمع خمسة على رأي واحد وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وان اجتمع أربعة ورضوا وأبى الاثنان فاضرب رأسيهما فان رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فان لم يرضوا بعبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

وفي المناقب عن ابن ميمون قال لما طعن عمر دخل عليه كعب فقال (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) قد أنبأتك انك شهيد فقلت من أين لي الشهادة وأنا في جزيرة العرب وفي تاريخ الطبري ان المهاجرين والانصار جعلوا يدخلون على عمر لما طعن فيسلمون عليه ويقول لهم أعن ملإٍ منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما نظر اليه عمر أنشأ يقول

فأوعدني كعب ثلاثا أعدها ولا شك ان القول ما قال لي كعب
ومابي حذارُ الموت اني لميّتٌ ولكن حذار الذنب يتبعهُ الذنب

وفي رواية أبي جعفر الطبري ان عبيد الله بن عمر قتل بأبيه ابنة أبي لؤلؤة

وقتل جفينة رجلا نصرانياً من اهل الحيرة أتى به سعد بن ابى وقاص ليعلم الناس الكتابة وقتل الهرمزان وان سبب قتله للاثنين الاخيرين ان عبد الرحمن بن ابي بكر قال غداة قتل عمر : رأيت عشية امس الهرمزان وابا لؤلؤة وجفينة وهم يتناجون فلما رأوني ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه وهو الخنجر الذى ضرب به عمر فقتلهم عبيد الله وقال والله لاقتلن رجالا ممن شرك فى دم ابي يعرّض بالمهاجرين والانصار فبلغ ذلك صهيباً فبعث اليه عمرو بن العاص فما زال به حتى اخذ منه السيف ثم ثاوره سعد بن ابي وقاص واخذه وحبسه فى داره

هذه الروايات التي جاءت فى قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن امعن فيها النظر وراجع ما كتبناه عن الهرمزان ونكثه عهد المسلمين قبل اسره المرة بعد المرة وكيف احتال للخلاص من القتل ثم اذا اضاف الى هذا ما ذكرناه فى اخبار نهاوند من ان ابا لؤلؤة فارسى الاصل من نهاوند وقد كان اسره الروم ثم اسره منهم المسلمون ولما قدم سبي نهاوند الى المدينة جعل ابو لؤلؤة لا يلقى منهم صغيراً الا مسح رأسه وبكى وقال له اكل عمر كبدي وان جفينة نصراني وان كعب الاحبار يهودي حديث عهد بالاسلام وان مراجل الحقد على عمر وتدويخه لبلادهم وقهره لهم ولملوكهم كانت تغلى فى صدور هؤلاء الدخلاء فى الدين اتضح لديه ان قتل عمر لم يكن الا عن مؤامرة بين اولئك الدخلاء كما شهد بذلك عبد الرحمن بن ابي بكر وان السبب الظاهر الذى اختلقه ابو لؤلؤة تحته اسباب اهم واعظم وهي الغيظ والحقد على المسلمين وان ابا هريرة كان واقفاً على امر هذه المؤامرة فانذر عمر بالقتل قبل ثلاثة ايام من قتله والا فقوله لعمر انه رأى خبر قتله فى التوراة كلام غير معقول يرفضه العقل بتاتاً وليس عليه دليل كما انه ليس لابي هريرة ان يعلم الغيب وانما علمه عند الله ومن المحتمل ان لا يكون لابى هريرة يد فى هذه المؤامرة الا

انه علمها واراد ان يعرّض بذكرها لعمر رضى الله عنه بالكناية تحذيراً له ولم يشأ ان يصرح له بذلك لامر لا نعلمه الا ان عمر رضى الله عنه لم يعبأ لسلامة صدره بقوله ولم يشدّد عليه فى السؤال وربما لم يخطر له ذلك الامر فى بال لما يعلمه من نفسه من القيام على الحق والعدل وانصاف الناس مسلمهم وغير مسلمهم وعربهم وعجميهم ومن كان هذا شأنه يكون بالطبع آمناً غائلة الناس وغدر الغادرين وخصوصاً عمر بن الخطاب الذى يحكى انه جاءه مرة رسول من قبل ملك الروم فوجده نائماً على الارض متوسداً الحصا فقال: لله انت عدلت فأمنت فنمت. ولكن قُدّر على المسلمين ان يغفلوا عن مضرة وجود امثال اولئك الدخلاء فى المدينة فى مثل عصر عمر الذى كانت فيه جيوشه تضرب في انحاء الارض وتثل عروش الملوك وتزعزع اركان الممالك وتشيد بنيان الاسلام وهذا كله مما يحفظ قلوب الاعداء ويطوى جوانحهم على دغل ويستدعى الانتباه لمثل ابى لؤلؤة والهرمزان وجفينة وامثالهم من الدخلاء ولا ينبغى ان يحسن بهم الظن الا مع الاحتياط والتحذر ريثما يتناسون ثأرهم وتضعف في نفوسهم اسباب الضغن ويسكنون الى سلطان المسلمين ويألفون حكم الاسلام ويوثق باخلاصهم فى الطاعة وامانة الجوار هذا مع ان عمر رضى الله عنه كان يكره وجود الاعاجم فى المدينة فلا ندرى لهذا السبب ام لغيره فقد اخرج فى المناقب عن ابن عمر قال كان عمر يكتب لامراء الجيوش لا تجلبوا علينا من العلوج احداً جرت عليه المواسى فلما طعنه غلام المغيرة قال الم اقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج احداً فغلبتمونى: فربما كان على علم وبينة مما يبطنون الا انه لم يظن انهم يجرأون عليه مادام قائماً فيهم وفي كل الرعية بالقسط هذا ولما طعن عمر قال لابن عباس انظر من قتلنى فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة: قال الصنع: قال نعم: قال قاتله الله لقد امرت به معروفا

فالحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الاسلام ولما حمل الى بيته جزع الناس عليه جزعاً شديداً وكأنهم لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ، أما هو رضي الله تعالى عنه فقد أظهر من الثبات والجلد ماهو معروف به في حال الشدة والرخاء وكان اول همه النظر في أمر الخلافة وتقريرها على وجه يمنع من حصول الفتنة بعدها فرأى ورأيه الحق أن يتركها شورى بين النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ففعل وبلغ به الحرص على دفع الفتنة وتعجيل نصب الخليفة بعده ان امر المقداد بما أمر كي لا يكون بينهم فتنة وان كانت فان تقمع بالسيف

وفي المناقب عن ابن عمر ان عمر دعا بطبيب ينظر في جرحه فجاءه بطبيب من الانصار من بني معاوية فسقاه لبناً فخرج من الطعنة أبيض فقال له الطبيب يا أمير المؤمنين اعهد : فقال عمر صدقني أخو بني معاوية ولو قلت غير ذلك لكذبتك: فبكى عليه القوم حين سمعوا فقال لا تبكوا علينا من كان باكياً فليخرج ألم تسمعوا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب الميت ببكاء أهله عليه

وفيه عن جعفر بن محمد : قال لما طعن عمر اجتمع اليه البدريون المهاجرون والانصار فقال لابن عباس اخرج اليهم فسلهم عن ملاء منكم ومشورة كان هذا الذي أصابني قال فخرج ابن عباس فسألهم فقال القوم لا والله وَلَوَدَدْنَا أَنْ زاد الله في عمرك من أعمارنا

وفي العقد عن ابن عباس قال دخلت على عمر بن الخطاب في أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل ليس عليك بأس : قال لئن لم يكن علي اليوم ليكونن بعد اليوم وان للحياة لنصيباً من القلب وان للموت لكربة وقد كنت أحب ان أنجي نفسي وأنجو منكم وما كنت من أمركم الا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى ان يموت دونها

فهو يركض بيديه ورجليه . وأشدّ من الغريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول ولقد تركت زهرتكم كما هي ما لبستها فأخلقتها . وثمرتكم يانعة في أكمامها ما أكلتها وما جنيت ما جنيت الا لكم وما تركت ورائى درهما ماعدا ثلاثين أو أربعين درهما : ثم بكى وبكى الناس معه : فقلت يا أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وان المسلمين راضون عنك : قال (أى عمر) المغرور والله من غررتموه أما والله لو ان لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع

وفيه عن هشام بن عروة عن أبيه قال : لما طعن عمر بن الخطاب قيل له يا أمير المؤمنين لو استخلفت : قال ان تركتكم فقد ترككم من هو خير مني وان استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول ان سالما ليحب الله حباً لو لم يخفه ما عصاه قيل له فلو انك عهدت الى عبد الله فانه له أهل فى دينه وفضله وقديم اسلامه قال : بحسب آل الخطاب ان يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ولوددت اني نجوت من هذا الامر كفافاً لا لي ولا عليّ : ثم راحوا فقالوا يا أمير المؤمنين لو عهدت فقال : قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم ان أولي رجلا أمركم ارجو ان يحملكم على الحق واشار الى عليّ بن ابى طالب ثم رأيت ان لا اتحملها حياً ولا ميتاً فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم انهم من اهل الجنة وذكر السبعة واستثنى من الشورى سعيد بن زيد وقال عن الستة فليختاروا منهم رجلا فاذا ولوكم واليا فأحسنوا موازرته (اى معاونته) فى حديث طويل سيأتى معنا ما هو بمعناه فى قصة الشورى ان شاء الله

ومن هذا تعلم مقدار حرج الموقف في منصب الخلافة الرفيع حتى ان عمر لم يقبل ان يتحمل مسؤليته بعد الموت كما تحملها في الحياة وانما يعرف هذه المسؤلية من كان له دين يردعه كعمر بن الخطاب رضي الله عنه واخوانه من الخلفاء الراشدين

أخرج في أسد الغابة عن عمرو بن ميمون في حديث طويل ان عمر قال لابنه ياعبدالله بن عمر انظر ما عليّ من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفاً قال ان وفى له مال آل عمر فأدّوه من أموالهم والا فسل في بني عدي فان لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تعدهم الى غيرهم فأد عني هذا المال وانطلق الى عائشة أم المؤمنين فقل لها يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل يستأذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه فسلم (أي عبدالله) واستأذن ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه : فقالت كنت أريده لنفسي ولأوثرت به اليوم على نفسي : فلما أقبل قيل هذا عبدالله بن عمر قد جاء : قال عمر ارفعوني فأسنده رجل اليه فقال مالديك قال الذي تحب قد أذنت : قال الحمد لله ماكان شيء أهم الىّ من ذلك فاذا أنا قبضت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فان أذنت لي فأدخلوني وان ردتني ردوني الى مقابر المسلمين

روي انه لما ثقل عمر قال لابنه عبدالله ضع خدي على الارض فوضعه على الارض فجعل يقول ويلي وويل أمي ان لم يغفر لي ربي ثم مات ولما توفي صلي عليه في المسجد وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم وغسله ابنه عبدالرحمن وصلى عليه صهيب وكان تقدم قبل ذلك عليّ وعثمان للصلاة عليه فقال عبدالرحمن لا اله الا الله ما أحرصكما على الامرة أما علمتما ان أمير المؤمنين قال ليصلِّ بالناس صهيب

قال في أسد الغابة روى أبو بكر بن اسماعيل بن محمد بن سعد انه قال طعن عمر يوم الاربعاء لاربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة أربع وعشرين وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر واحد وعشرين يوماً قال : وقال عثمان بن محمد الاخنسي هذا وهم توفي عمر لاربع ليال بقين من ذي الحجة وبويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة

وتوفي عمر وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل اقل والاول أصح الاقوال فى عمره

(وصيته لمن يخلفه)

أخرج ابن الجوزي وغيره من الحفاظ والمحدثين عن ابن عمر انه قال : دفع الي عمر كتاباً فقال اذا اجتمع الناس على رجل فادفع اليه هذا الكتاب واقرأه مني السلام فاذا فيه

أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين الاولين : الذين أخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله : ان يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالانصار خيراً (الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) الى قوله تعالى : المفلحون : ان يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأن يشركوا في الامر . واوصيه بذمة [1] الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وان يقاتل من ورائهم (اى يحميهم) اه

(١) وهم أهل الذمة من غير المسلمين ويدخل فيها الفرس والكتابيون وكل من رضى بدفع الجزية للمسلمين فصار ذمة له ما لهم وعليه ما عليهم

هكذا انقضت حياة هذا الرجل العظيم نقية طاهرة بعد أن فتح الممالك ورفع منار الاسلام وبسط بساط العدل وبث روح الجد والنشاط فى العرب وأسس لهم ذلك الملك العريض وفلّ بهم جيوش فارس والروم ورباهم على العفاف وكف يد الظلم واحترام العهود والوفاء بالذمة كما أمر به الاسلام وقرّرته شريعة محمد عليه الصلاة والسلام فسعدت بحياته الرعية من سائر الملل ودخل الامم فى طور جديد من الحرية والعدل والأمن والراحة لم يكونوا يعهدونه ولم يكن لأسلافهم أن يروه وبلغ به الحرص على ذلك البذار الطيب الذى بذره فى المسلمين أن أوصى عند آخر نسمة من حياته بتلك الوصية الغراء التى تدل على الهمة العالية والشيم الطاهرة والاخلاق البارة التي اكتسبها عمر من نبيه عليه الصلاة والسلام فكان خير قدوة للمسلمين وذكرى الفخر الخالد لهم بين الناس أجمعين

لما توفى عمر أكثر الشعراء من مراثيه فرثاه حسان بن ثابت وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وكانت زوجه وغيرهما

(صفته)

قال في أسد الغابة كان عمر أعسر يسراً يعمل بكلتا يديه وكان أصلع طويلا قد فرع[1] الناس كأنه على دابة وقال الواقدى كان عمر أبيض أمهق[2] تعلوه حمرة يصفر لحيته وانما تغير لونه عام الرمادة لانه أكثر من أكل الزيت وحرم على نفسه السمن واللبن حتي يخصب الناس : وقال بعضهم انه كان أسمر شديد السمرة وهو الاكثر عند أهل العلم

(١) علاهم (٢) الابيض لاحمرة فيه

باب

(ولده وعماله)

(ولده)

قال ابن قتيبة ولد عمر بن الخطاب هم عبدالله وحفصة أمهما زينب بنت مظعون : وعبيدالله (وهو الذى قتل الهرمزان وجفينة) وأمه مليكة بنت جرول الخزاعية : وعاصم وأمه جميلة بنت عاصم بن ثابت حمى الدبر : وفاطمة وزيد وأمهما أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب : ومجبر واسمه عبدالرحمن : وأبو شحمة (وهو الذى حده أبوه في الخمر فمات) واسمه أيضاً عبدالرحمن : وبنات أخر

وأما الذين أعقبوا من أولاد عمر فهم عبدالله وعبيدالله وعاصم ومجبر وعقب مجبر هذا بادوا ولم يبق منهم أحد

(عماله)

كان عماله على الامصار سنة ٢٣ أى السنة التي توفي بها على مكة نافع بن عبدالحارث الخزاعى . وعلى الطائف سفيان بن عبدالله الثقفى وعلى الكوفة المغيرة ابن شعبة وعلى البصرة أبو موسى الاشعرى . وعلى مصر عمرو بن العاص . وعلى دمشق معاوية بن أبى سفيان . وعلى حمص عُمَيْر بن سعد وعلى البحرين وما حولها عثمان بن أبى العاص الثقفي وعماله فى الحرب من علمنا من القواد الذين مر ذكرهم قبل وكاتبه زيد بن ثابت وكتب له مُعَيْقِيب أيضاً وعلى بيت ماله عبدالله بن أرقم وحاجبه يرفأ مولاه

باب

(الحالة الاجتماعية على عهده)

كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر غيرها على عهد أبى بكر رضي الله عنهما اذ

نوطد على عهد الثانى للمسلمين الملك وشيدت دعائم الدولة وصارت تلك الأمة العربية المشهورة بالانقسام والتفرق والجهل بأمور الدولة والانغماس فى الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر في التاريخ بأنها أعظم الامم وكانت تلك الحياة العربية والجامعة الملية مع انها بادية الظهور تنمو بسرعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث فى أنحاء العالم وتهتز له أركان الدول العظمى يومئذ حيث اندفعت هذه الأمة بقوة الجامعة الاسلامية والاتحاد القومى على أطراف الممالك المجاورة لها وهي فارس والروم فانتزعت من الأولى سلطانها وتغلغلت بجيوشها في أحشاء بلادها وقلبت سرير ملكها وأزعجت قادتها ورؤساءها وألجأت للانكماش الى أطراف البلاد الشرقية والتخلى عن الملك أسرة الاكاسرة من ملوكها وأنقصت من الثانية أطرافها وقلصت عن سورية والجزيرة ومصر ظلها وهي تتقدم فى داخل بلادها وتتهدد بالهجوم عاصمة الامبراطور

تأصلت فى تلك الممالك جزور الاستعباد وتناسى الروم معنى الحرية التى كان يقاتل دونها أسلافهم الرومان ويدافعون عنها يد الامبراطرة والملوك وخنع الفرس للاكاسرة واستعبدوا لاشراف البلاد فألف الفريقان حكم العبودية وفقدوا مبدأ الاعتماد على النفس والاستقلال الذاتى فى الحياة فجاءهم العرب وقد امتزج في دمائهم حب الحرية حتى مايطيقون علو أمير المؤمنين عليهم واستئثاره بشيء من أمورهم دونهم كما رأيت فيما مر فنفثوا فى روعهم روحاً جديدة من حب الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية فهبوا كمن نشط من عقال فوضعوا أيديهم فى أيدى الغالبين علامة الشكر والوفاء وشعروا حينئذ بأنهم بشر لا يحطون فى الحقوق العامة عن مرتبة الامراء وبلغ بهم ذلك ان لما أهين رجل مصرى من

ابن أمير مصر عمرو بن العاص شخص الى مقر الخلافة يشكوه ويطلب انتصافه
منه ولم يعد الا بعد ان استنزل أباه عن منصة إمارته فقدم هو وابنه الى المدينة وأقادا
ذلك الفرد من الرعية بحضور الخليفة كما سبق ايراده فى غير هذا المحل وما نعلم ان
قوما بلغت بهم الحرية الشخصية يوماً مبلغها فى ذلك العصر وتمتعوا بعدل مثل ذلك
العدل وهو حال ما أهناه لتلك الأمم يومئذ من حال رفعهم من حضيض الذل
والعبودية الى ذرى العز والحرية وبشرهم بعصر جديد وسعادة ما عليها مزيد

خالط العرب هذه الامم ودال اليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة
الحضارة واستشعروا بلزوم الحياة المدنية للامم الغالبة وليس لديهم من ذلك الاً
الاستعداد الفطري لقبول الخير والشر والشرع الالهي الذي دعاهم الى الخروج
من ظلمات البداوة فأخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاوريهم فى العادات وبدأوا
يبارونهم فى مضمار الحياة وكان مطمح نظرهم وأول عملهم بالطبع تقليد مجاوريهم
فى الامور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية ليقابلوا القوة بمثلها
ويعدوا لهذه الفتوح عدتها ثم تطرقوا من ذلك الى الامور السياسية والادارية
فوضع الخليفة عمر رضي الله عنه التاريخ ودوّن الدواوين على نحو ما هو موجود فى
الدولتين الرومية والفارسية ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الاعمال
وانتقاء العمال ثم فرض الاعطيات وقرر مصرف الفيء في غير سرف ولا تقتير
ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا اجحاف في حقوق
الرعية ولا غبن للدولة فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران تتجلى فى أنحاء المملكة
وانهال الغنى والثروة على الفاتحين وخطوا خطىً خفيفة الى ميدان الراحة والنعيم
مع الاخذ على الشكائم والتخوشن في المأكل والملبس والتوسط في العيش
والقصد فى الانفاق والامساك عن البذل خوف الاخذ على أيديهم من عمر بن

الخطاب رضي الله عنه كما أخذ على يد خالد بن الوليد اذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من أشراف العرب كما رأيت فى باب سياسته مع العمال

هذا من وجه ومن وجه آخر فان عمر رضي الله عنه لم يدع للعرب بمداد دفع بهم في غمار الحضارة وقذف بهم الى ميدان الحروب وقتاً للاخلاد الى الراحة والايواء الى ظل التنعم والسكون تحت كنف الامصار بل شغلهم عن ذلك بالفتح وألهاهم بادخار المغانم عن التمتع بها ريثما يفل من غرب الدول المجاورة ويأمن غائلة الامم المغلوبة وكان له بهذا مآرب أخرى أيضاً وهي اشغال العرب في الحرب وزجهم في مضمار الفتح ليأنسوا بأصول الاجتماع والحضارة وتتبدل أخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم أسباب التنافر والانتماء الى العصبية الداعية الى الشقاق والفرقة يدلك على هذا ما كتبه لابي موسى الاشعري فى الكتاب عدد ٦ الذي جاء في باب كتبه وأمره فيه بأن يضرب من ينادي بالعصبية بالسيف

استفاد العرب فى حالتهم الاجتماعية من هذه السياسة العمرية لكن اندفاعهم عنهم للفتح وتفرقهم فى انحاء الممالك وتعجلهم فى ذلك الظهور قبل تأصل الدين فى عامتهم نشأ عنه بعد تشويش في الدين والملك منه عدم التمكن من محو آثار الوثنية من البلاد المفتتحة مع دخول أهلها فى الاسلام وانما اختفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر ثانية منصبغة بصبغة أخرى دعت لسرعة تفرق أهواء المسلمين وظهور البدع والمبتدعين خصوصاً بين الاعاجم من المسلمين مما لا محل لتعداده وذكره فى هذا المقام . ومنه سرعة تقهقر الأمة العربية بمقدار سرعة تقدمها في الحضارة والمدنية الى غير ذلك من الامور التى ربما مر معنا ذكرها فى هذا الكتاب ومع هذا فاذا نظرنا من جهة أخرى الى سياسة عمر في تعجل الفتح نرى لها فوائد كبيرة فى حينها وذلك لان دفعه للقوم الى الفتح فى إبان الظهور وحين التحمس

مهد لهم السبيل لقهر الامم وتدويخ الممالك لاسيما وانه كان من ولّيهم جزاه الله عنا وعنهم خير الجزاء يؤدبهم بأدبه ويحملهم على القناعة والقصد ويحبب فيهم الامم ويغل أيديهم عن التطاول الى حقوق الغير ويأمرهم بمحاسنة الناس وحماية أهل الذمة حتى كان من ذلك ان ارتاح لحكمهم الشعوب وسهل عليهم استخضاع الاقوام وبث دعوة الاسلام فلم يخرج على سلطانهم خارج إباء لحكمهم أو تظلماً من سياستهم مع حداثة عهدهم فى الفتح وقلة الحامية منهم بين ظهراني الشعوب الخاضعين لسلطانهم الآمنين في أوطانهم

بسط المسلمون على عهده يد السلطة على الشعوب واستفتحوا أغلاق الكنوز وملكوا ماملكوا من البلاد ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم يغُرهم الغنى والسلطان بالنعيم ولم يبطرهم المال ولم تخط بهم الحضارة الا خطىً قليلة الى الامام فكانوا وسطاً في المعيشة فى كل الامور ذلك لان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يريدهم على البطء فى السير فى طريق الترقي ويحملهم على التوسط فى العيش فلا يمنعهم منعاً ولا يدفعهم دفعاً اللهم الا الامراء والعمال فانه كان يحملهم على طريقته فى التقشف وشظف العيش لحكمة ذكرناها فيما سبق من هذا الكتاب يدلك على هذا كتابه الى أبي موسى الاشعرى الذي يقول له فيه : بلغنى انه فشت لك ولاهلك هيئة فى المطعم والملبس : وينصحه بالتزام القصد . وتأنيبه لسعد بن أبى وقاص على أن سمى داره فى البصرة قصر سعد وغير هذا من أخباره الكثيرة مع العمال ومنها شرطه عليهم ان لا يأكلوا نقياً ولا يركبوا برذوناً الخ ماجاء في باب سياسته مع العمال وأما عامة المسلمين فكان لا يريدهم على هذا الحال ولا يمنعهم عن التمتع بما أحل الله لهم من الطيبات بل يرغب حملهم على طريق الوسط وحسبك دليلاً على هذا كتابه الى أبى عبيدة بن الجراح الذي يلومه فيه

على رحيله من انطاكية لطيب هوائها وتنعم المسلمين فيها

وأما انه كان يريدهم على البطء فى السير فى طريق الترقى فيدلك عليه مارواه عامة أهل السير أن الاحنف بن قيس وفد عليه مرة وتكلم عن أهل البصرة بكلام دل عمر على سعة عقله فاحتبسه عنده حولا وأشهراً ثم سرحه وكذلك فعل مع زياد بن أبيه لما وفد عليه من العراق ورأى فيه قوة العارضة والفطنة وزلاقة اللسان احتبسه عنده ولما سأله زياد عن السبب قال كرهت ان أحمل الناس على فضل عقلك . وانما كان يريد للعرب بهذه السياسة الترقي التدريجي حتى فى المدارك على ان مخالطتهم الامم وسكنى الامصار غير ولا شك من أخلاقهم وألان من طباعهم وزاد فى معارفهم ولا يعقل ان قوما كانوا يظنون الكافور ملحاً أيام فتح المدائن تصير اليهم كنوز الارض بعد ذلك ويسوسون الامم الا باستمداد عظيم في قوى المدارك كمن فى نفوسهم وأظهره الاحتكاك بتلك الامم على وجه خال بالطبع عن كل شائبة من شوائب التصنع والختل المشهور بهما أهل الامصار في ذلك العصر وفى كل عصر فهم اذن كانوا أحسن أخلاقا وأسد عملا على سذاجة فطرتهم وجدة اسلامهم ممن حاربوهم من الامم وهذا شأن لا ينكر على مثل عصر عمر رضى الله عنه الذى دأب فيه هذا الخليفة العظيم على تدريب هذه الأمة على أصول السياسة وتهذيبها على وفق ماجاء به القرآن من آيات الحث والترغيب فى أسباب الظهور على الأمم يدلك على هذا ما رواه الطبرى فى أخبار القادسية ان رستم زعيم الفرس وقائدهم قال يومئذ : أكل عمر كبدي أحرق الله كبده علّمَ هؤلاء حتى علموا وفيه دليل على ان العرب لم يكونوا قبل الاسلام في نظر الفرس شيئاً مذكوراً لبعدهم عن أسباب الحضارة واغراقهم فى الجهالة ولما اجتمعوا على كلمة الاسلام وانكفأوا على مملكتي فارس والروم وظفروا بحسن قيادة عمر

رضي الله عنه بدولتى الفرس والروم عرف رستم وأشباهه من زعماء الدولة الفارسية عظم قدر عمر بن الخطاب وبعد نظره فى السياسة وحسن قيامه على تربية المسلمين وتعليمهم كيف تكون حياة الامم ولهذا قال رستم ما قال ولا جرم فلاخلاص الراعى لله وحبه لرعيته وحسن قيامه على مصالح الأمة دخل عظيم فى تسودهم على الامم وتعززهم بالعلم والقوة والعكس بالعكس

وبالجملة فالحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه على حداثة عهد أهلها فى تسنم ذرى الارتقاء تمثلها لك سيرة هذا الخليفة الجليل في قالب الجد والاستقامة والعزيمة وتظهرها لديك فى مظهر النهوض الى ارتقاء قمم المجد التي انتهى اليها المسلمون فيما بعد بسيرهم سيراً حثيثاً مدة تزيد عن جيلين وقفوا بعدها وقفة المستريح من وعثاء سفر شاق المتلذذ بجنى ثمرات الجد والنشاط والعمل وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجد والنشاط الى فتور واهمال وكان بعد ذلك ما كان من هبوط مستمر بلغ بنا الآن ان فقدنا كل حول وقوة الامن السفاسف والاوهام وكل اشتغال الا بالاباطيل وكل سعى الا وراء الرتب والالقاب التى أضحكت علينا الأمم وأسرعت ببقية الاخلاق الفاضلة فينا الي هوّة العدم: والغربيون يبثون الينا كل يوم بنذير من الرهبوت والقوّة وواعظ من العلم والاعتبار ومنبه من التسلط على الممالك الاسلامية والديار الشرقية ومرشد الى كيف تكون حياة الامم وسيادة الشعوب ونحن سكوت لا يسمعون لنا ركزاً الا فى تهاتر ولا يحسون منا حركة الا الى تدابر وقد امتزج الاستعباد في نفوسنا حتى ما نطيق الحرية ولا نرضى العلم ولا نقبل التذرع الى السيادة والسعى الى المجد وهي حالة يا ألله تمزق غشاء القلوب وتنذر بشق الجيوب فوا غوثاه ووا عمراه

﴿ اعتذار ﴾

هذا جهد ما استطعته فى استقصاء أخبار رجل الأمة العظيم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وانى لأرجو بما بذلته من الجهد وما عانيته من النصب وتعب الفكر في تطبيق الحوادث وجمع الاشباه والنظائر وضرب الامثال وتحقيق الاخبار واستنتاج النتائج واداء النصيحة أن يقابل قومي خدمتي هذه بالقبول ويحملوا كل ماخطه قلمى على محمل الاخلاص فى خدمة الملة والحق والله يشهد اني لاغرض لي أرمى اليه سواه ولا أرغب فى هذه الحياة الا فيه فان أصبت فيما كتبت فذلك ماأتمناه والا فالانسان محل الخطأ وصاحب الفضل من ردّ الي خطأى ونبهني الى غلطى لأصلحه فى الجزء الذي يلي هذا الجزء وحسبي مارأيته من قومى في جميع الاقطار الاسلامية من الاقبال على الجزء الاول من هذا الكتاب تنشيطاً لي ودافعاً لي الى المضى فى عملي والمثابرة على اتمام هذا الكتاب على أسلوبه الجديد مهما عانيت من المشاق ولاقيت من التعب اذ كل شيء سهل بعد رضى قومى عن كتابي هذا . وقد بعث رضاؤهم فى نفسى رجاء عظيما فى تحقيق أمنيتي التى قصاراها تنبيه العقول الراقدة لا الفاقدة الى سير أسلافهم الكرام ورجال الاسلام العظام الذين يمثلون صورة الحياة العالية فى أجلى مظاهر الجد والقوة والنشاط فيقوم منها خيال في النفوس الخامدة يزعجها عن مواطن الخمول والرذيلة وينهض بها الى تناول المجد من قمته الشامخة بوسائل الجد لا بالوسائل السافلة والله ملهم الصواب

هذا وقد كنت وعدت قرّاء الجزء الاول بأن أصدر هذا الجزء مشتملاً على سيرة عمر بن الخطاب ومن اشتهر فى دولته وبهذا عنونت هذا الجزء الآني لما انتهيت من سيرة عمر رضى الله عنه وجدت ان الجزء قد زاد عن الحجم الذى قدرناه له ولو أضيفت اليه سيرة رجال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسعنا الوفاء

بشرط بيع الاجزاء بثمن هين ولخالف ذلك رغبتي في تعميم الكتاب لاسيما وان كثيراً من قراء الجزء الاول سألوني سرعة انجاز سيرة رجل الاسلام عمر بن الخطاب لهذا رأيت ان أصدر هذا الجزء خلواً من سيرة مشهوري الرجال فى خلافة عمر رضى الله عنه وان أرجئها الى الجزء الذي يليه فاسأل القراء المعذرة كما أسأل الله التوفيق انه أكرم مسؤول

﴿ كلمة للجرائد ﴾
(وشكر للمنتقدين)

التمست فى الجزء الماضى من أهل الفضل وأرباب الجرائد الانتقاد على مافي ذلك الجزء من خطأ ربما بدر به القلم لاصلحه فى هذا الجزء فسبق بهذا التفضل من المجلات العلمية كل من مجلة المقتطف والهلال الشهيرتين اللتين خصتا بخدمة المعارف والعلم منذ أنشئتا الى هذا العهد فطلبت اليّ الأولى ان أوسع النظر في تواريخ الغربيين واستقصى منها حالة دولة الروم على عهد الفتح الاسلامى لاتوسع فى بيان العلل والاسباب التى أوجبت قهر تلك الدولة بواسطة الجيوش العربية وفى الحقيقة فان هذا الامر من الامور الجديرة بتدقيق المؤرخين الخليقة بالنظر والتأمل لهذا راجعت أشهر التواريخ الافرنجية التى كتبت عن العرب والروم فى ذلك العهد كتاريخ الامبراطورية الشرقية لادورد جبون الانكليزي وتاريخ العرب للمؤرخ الفرنساوي ديفرجي والذي رأيته فيها وفي غيرهما من التواريخ مالا تخلو منه كل دولة فى مبادئ ضعفها من المفاسد الاجتماعية والسياسية كالظلم وحب الشهوات ونبذ القانون وتجاذب أطراف الرياسة وغير ذلك وزاد عليه في الدولة البزنطية تفاقم خطب المجادلات الدينية التى أودت بحياة القوم السياسية الا أن الامبراطور هرقل كان والحق يقال عضداً عظيماً لهذه الدولة فى حال

ضعفها ذلك لانه من أعاظم الملوك البزنطيين وأشدهم حرصاً على حياة الدولة كما نرى ذلك من وقائعه الشهيرة مع المسلمين ومكافحته لهم بجيوش الروم مكافحة أهل العزيمة والحزم ومهاجمته لهم الكرة بعد الكرة لكن لم يغن عنه ذلك الكفاح شيئاً في جانب قوة المسلمين وكفاءة قوادهم العظام على ان الاطلاع على تاريخ الروم وأخبار دولة الخلفاء الراشدين فى عهد الفتح ولو مجردة عن التعليقات السياسية والقياسية يكفى المؤرخ أن يستخرج العلل والاسباب من ثنايا السطور ومتفرقات الاخبار وقد بذلت فى هذا الجزء جهد المستطاع فى تتبع العلل السياسية والاجتماعية التى دعت اسرعة ظفر المسلمين بدولتى الفرس والروم يومئذ ولم أدع خبراً من الاخبار الا أردفته بما خطر لي من الخواطر الفلسفية أو وقفت عليه من الحقائق التاريخيه لأمثل ذلك العصر فى صورة يراها القارئ كأنما هو فيه خصوصاً فيما يتعلق بدولة الخلفاء الراشدين وسياسة المسلمين فان أصبت فيما قلت وبينت ثمة فذلك هو المطلوب والا فوق كل ذى علم عليم وللمقتطف فى تنبيهى الى ذلك فضل أشكره عليه من صميم الفؤاد

انتقد المقتطف الاغر كلاما آخر من كتابي وسألني بياناً عمن هو المسؤل عن بعض الحوادث التاريخية التى جرت فى بعض أنحاء القطر السورى فى منتصف القرن الماضي والجواب عن هذا الا علاقة له بهذا الجزء وانما هو من خصائص الاجزاء الاخيرة من هذا الكتاب وسيأتي فى محله ان شاء الله

وأما مجلة الهلال الغراء فقد انتقدت عليّ قولي فى الجزء الماضي أن دمشق كانت على عهد الفتح الاسلامى حاضرة بنى غسان وقد أفردت للجواب عن هذا الانتقاد فصلا مخصوصاً فى هذا الجزء فيه البيان الكافي فلا حاجة هنا لغير اسدائها شكرى ومشاركتها فى أجرى لانها كانت السبب فى استقصائي للادلة

التاريخية التي اذا لم تفد في بابها اليقين فانها تكون عوناً للباحثين

وحبذا لو حذت حذو هاتين المجلتين كل المجلات العربية في انتقاد الكتاب وتتبع مافيه من الخطأ أذن والله لزادتني انبهاثاً التحقيق الاخبار وبسط الافكار ونبهتني الى ماربما لم يخطر لي من الحوادث التاريخيـة في بال اذ العلم اجزاء لا يتناولها عقل الفرد والأمة جسم لا يتحرك عضو منه الآ بالاستعانة باخيه فما بال مجلاتنا التي هي عون المعارف وسند الباحثين ومنار المسترشدين لا يفيض من كنوزها على المؤلفين الا قول أحسن وأجاد ألعلها تجهل انّ مدرسة الامة العامة هي الكتب والمؤلفات وان الجرائد هي المسيطرة على هذه المدرسة المكلفة بتعهدها بالنظر والبحث فيما يفسد اخلاق الناس او يصلحها من خير اوشر وحق او باطل

اولعلها تجهل انّ معظم البلاء الذي حلّ بالشرقيين عامة والمسلمين خاصة انما كان منشأوه الكتب التي شحنت بالاباطيل وانتزعت من النفوس ملكات العلم الصحيح فأفسدت الاخلاق وأضعفت العقول وجعلت الحق والباطل في نظر اكثر الناس سواء بل جعلت الحق عند فريق كبير تابعاً للاهواء ان شاءت جعلته باطلاً وضربت به وجوه العلماء

ان جرائد الشرق ولا نكران للحق مصابة بنفس مصاب الأمة لم تستثن من ذلك البلاء لانها لا تحفظ على صفحاتها للمؤلفين غير المدح والاطراء فلا تنبه المؤلفين الى حقيقة ولا تمنعهم من سر باطل

هذا وما خلا المجلات فقد انتقد عليّ بعض الادباء إغفالي تفسير الالفاظ اللغوية التي وردت في كلام القوم في الجزء الماضى على اني لم أغفلها الا اقتصاداً للوقت كما نبهت على ذلك ثمة ومع هذا فقد استدركت هذا الخطأ في هذا الجزء ففسرت الالفاظ اللغوية الا ما كان منها كثير التداول مفهوماً بقرينة المجاورة

فاني لم أفسره اعتماداً على ذكاء القارئ

وقد نبهني بعضهم أيضاً الى غلطات مطبعية غير ما صححته فى آخر ذلك الجزء فعزمت ان أضيفها الى فهرس الخطأ والصواب الذى يلحق بهذا الجزء

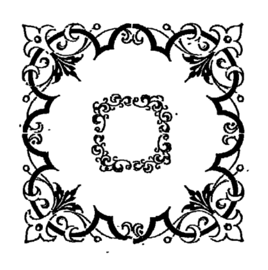
وانتقد علي بعضهم كثرة استعمال الالفاظ الدينية كالدعاء بالصلاة والترضي بحجة ان التاريخ ينبغي ان يكون خلواً من ذلك الحشو اذ يقرأه المسلم وغير المسلم ومن يرى لزوم الدعاء ومن لا يراه

ونحن مع علمنا بأن هذا شيء لم يرد عن لسان الصحابة والتابعين بل اصطلح عليه بعض المحدثين بقصد تعظيم الصحابة وان لهؤلاء من الفضيلة الذاتية ما يغنيهم عن مثل هذا التعظيم وان أكبر المحدثين والمؤرخين كابن جرير الطبري لم يستعمل الدعاء فى تاريخه الا لكبار الصحابة واستعمله بالترحم لا بالترضى وفيه دليل على أن وجوب التعظيم انما هو فى القلب لا فى اللسان والمؤرخ فى الخيار باستعمال أية صيغة من صيغ التعظيم اللفظية أو عدمه

مع هذا كله فاني لم أر بأساً من ايراد ذلك الدعاء اقتداء بالائمة المحدثين الا انى رمزت اليه بحرف (رض) على اصطلاح بعض المتأخرين ليتلوه من شاء ومن شاء فلا : ولا يخفى على فطنة المنتقد ان ذلك العصر عصر ديني أكثر مما هو سياسي والصحابة هم الرجال الذين قام بهم الاسلام وضمير كل انسان يستشعر بشيء من وجوب التعظيم ان لم يكن باللسان ففي القلب عند ذكر كل رجل عظيم من أي قبيل أو ملة كان فكيف بالمسلم عند ذكر رجال أمته العظام وأئمته الكرام الذين رفعوا منار الاسلام وأسسوا ذلك الملك العريض وأعلوا شأن المسلمين

﴿ تنبيه ﴾

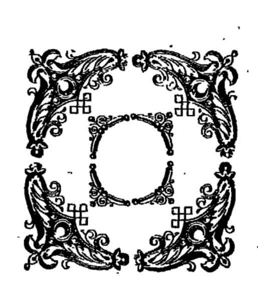
نقلت عن منتخب كنز العمال كثيراً من الاحاديث فى هذا الكتاب ولم أذكر أسماء المخرجين اكتفاء بالعزو الى كنز العمال ليراجعه من أحب معرفة المخرج الذى ذكر فى الكنز فيرجع الى كتابه عند قصد معرفة السند وكذلك نقلت عن السيرة العمرية لابن الجوزي التى جردها من السند أسامة بن مرشد واكتفى باسم الصحابي فقط كثيراً من الاحاديث المتعلقة بسيرة عمر رضى الله عنه وعزوتها الى السيرة ومن أحب معرفة سلسلة سند كل حديث فليرجع الى الاصل ويوجد منه نسخة خطية فى المكتبة الخديوية بمصر



فهرست

الجزء الثاني من اشهر مشاهير الاسلام

﴿ تمت الفهرست ﴾



﴿ اصلاح الغلط الواقع في الجزء الاول والجزء الثاني ﴾

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٨	١٧	وتحملهم علىّ	وتحملهم على
٢٠	٩	واحبار	واخبار
٢٥	٧	مسايح	مسالح
٢٨	١٦	عقلا	عقالا
٤٧	١٤	للحقية	للحقيقة
٥٦	١٠	العالمين	العاملين
٦١	٤	بنطام	بنظام
٠٠	١٣	طائقة	طائفة
٧٤	١٠	فجمهم اليه	فجمعهم اليه
٧٦	١	قاتلت مع النبي	قاتلت النبي
٨٣	٦	برأسى	برأس
٠٠	١٦	السالمة	المسالمة
١٠١	١٣	اشتملوا	اشتغلوا
١٠٤	عدد الصحيفة	١٤٠	١٠٤
١٠٤	٤	عصرة	عصره
١٠٥	٧	ليبرء	ليبرأ
١٠٦	٤	طرء على المسلمين ماطرء	طرأ على المسلمين ماطرأ
١٠٧	١٩	للفوضى	الفوضى
١١٢	٨	لااله اب هو	لااله الاهو
١١٩	١٦	بجيركم	بخيركم
١٢٠	٤	وأمعن فيما	وأمعن النظر فيما
٠٠٠	١٤	الشور	الشورى
١٢٦	٦	بتقوى والاعتصام	بتقوى الله والاعتصام

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٢٧	٣	شر بعد الجنة	شر بعده الجنة
١٣٠	٦	واتباعهأمره	واتباع أمره
١٣٢	١١	دخلت عليله	دخلت عليه
..	١٩	ولميثنى	ولميثن
١٣٨	٨	صدفت	صدقت
١٤٠	٨	معالمسلمين	مع المشركين
١٤٣	١	فىالمدينة	فىالمدنية
١٥١	١٨	وجلسه	وأجلسه
١٥٣	١٥	على الباظل	على الباطل
١٥٤	٢٠	جاءته الحيل	جاءتهالخيل
١٥٥	١	منايا	مناديا
..	١٦	الى أبي بكرد	الى أبي بكر
١٦٨	١٣	فيالبرمون	في اليرموك
١٧١	١٦	بعزله	الى عزله
١٧٩	١٩	المعاهد	والمعاهد
١٨٥	١٦	انشغالاعنها	اشتغالاعنها
١٦٦	١١	بضحيان	بضجفان
١٩٠	١٢	علىلحق	علىالحق
١٩٤	٧	المشكات	المشكاة
..	٨	بباناً	بياناً
..	١٧	والجثمانية	والجسمانية
١٩٦	٦	عن بيعه	عنبيعته
..	١٤	الكفاءة	الكفاءة
١٩٩	١٥	يقعلان فى العقول	يفعلانفىالعقول
٢٠١	٣	وشترط عليهم	واشترط عليهم
..	١١	يتدينون	يدينون
٢٠٥	١٦	لحيانهم	لخيانهم

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٠٠	٢٠	أو نتزعها	أوانتزعها
٢٠٨	٥	غير المسالمة	غيرالمسلمة
٢١٠	٢٢	أسعر لهيها	أسعرلهيبها
٢١١	١	قوة لغلب	قوةالغلب
٢١٢	٦	إذنّ	إذن
٢١٥	١١	لذي يظهر	الذي يظهر
٠٠	١٣	لاسلا	الاسلام
٢١٦	١٢	إن ترضى	أن ترضى
٢١٨	١٥	فطفرت الرو	فظفرت الروم
٠٠	١٦	الحدبية	الحديبية
٠٠	٢١	ابروز	ابرويز
٢٢٤	٢	بمالئة	بمالأة
٢٢٦	١٠	المملك	الملك
٢٢٩	٢٠	وليسوفى	وليسوافي
٢٣١	١٢	ولابعد	ولايبعد
٢٣٣	٧	بالمفسلاط	بالمقسلاط
٢٣٤	١٣	المتوفي سنة	المتوفىسنة
٢٣٥	٦	درجاتالمدينة	درجات المدنية
٢٣٦	١٥	المساين	المسلمين
٢٣٨	٤	هذا الهزر	هذا الهذر
٢٤٥	١٦	وأخوحرامي	وأخو حرام
٠٠	١٨	فأمرالفيقارجلاً	فأمرالفيقاررجلاً
٢٤٦	٧	عمربنالعاص	عمروبنالعاص
٠٠	١١	عم تنفرج	عم تنفرج
٢٥٩	٥	قنسرين فحصن	قنسرين سارالىحاضرحلب فحصن
٢٦٣	٣	وبلغ أبوعبيدة	وبلغأباعبيدة
٢٦٦	١٧	ولا نزهدا	ولاتزهدوا

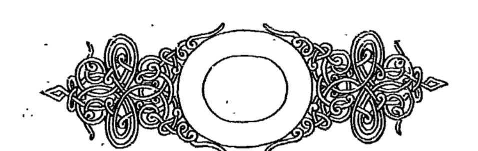
صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٢٧٣	١٠	كان عهد الرومانيين	كان على عهد الرومانيين
٢٧٦	٧	وتوابعهم	وتوابعها
٢٧٧	٧	تداول	وتداول
٢٧٩	٣	تترقى	تترق
٢٨٣	١١	موحود	موجود
٢٨٤	٢	مارأدنا	ماأردنا
٢٨٨	١١	والذمةعن عن	والذمة عن
٢٩٠	١٧	جلودالنمر ٠٠ تزل بالمرحة	جلودالنمر ٠٠ نزل بالمروحة
٢٩٣	١١	الفرات لاخر	الفرات الآخر
٢٩٥	١١	وجرير	وجريراً
٢٩٥	١٨	بشجاعة نسائهن	بشجاعة نسائهم
٠٠	٢١	ويضمن	ويضمدن
٢٩٩	١٢	استعداد مثنى	أستعدادالمثنى
٣٠٠	١٨	على اجادة	على جادة
٠٠	٢٠	تصغيرالفضا	تصغيرالغضا
٣٠٢	١٥	جاحة الزمان	حاجة
٣٠٣	١	بحكم لوسط	بحكم الوسط
٠٠	٦	انهما كهم	انهما كهم
٣٠٥	١٩	الاسد	قالوا الاسد
٣٠٨	٢	وخجهم	وجههم
٣١٥	٢٠	تمحى عن	تمحوعن
٣١٨	٨	احجاف	اجحاف
٣١٩	٨	خمسين ألف شخصاً	خمسين ألف شخص
٠٠٠	١٠	أربعة وعشرين	أربعةوعشرون
٠٠٠	١٣	مليوناً درهما	مليون درهم
٣٢٠	١٠	ثرولة	ثروة
٠٠٠	١٢	إبقائها	إبقاءها

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
للذين	للدين	٢٠	...
جاء	جاد	٢١	..
سراقة	سرافة	٨	٣٢١
أن يعفيه	أن بعفيه	٩	٣٢٣
لايردعليهم	لابُرّدعليهم	١٠	٣٢٤
لم يبق	لم ييق	١٥	...
واتسقت له	واتسقت لة	١١	٣٢٥
وهو السرادق	وهرالسرادق	٧	٣٣٨
فأدركه	فاردكه	٩	٣٣٩
فتح الجزيرة	فتح الجزيزة	٩	٣٤٤
بعضها	بمعضها	٦	٣٤٩
رداءً	رداءٌ	١٨	...
بن أبي جهل	بن جهل	١٠	٣٥٣
آلاف ثلثة	لاف ثلثة	٦	٣٥٧
أيدي العرب	أيادى العرب	٦	٣٥٨
نشرح لك	تشرح لك	٤	٣٦٤
فقرأتها ومواساتهم	فقرأتها ومواستهم	٢١	...
سعادة الحياة	سعادة الحياة	٢٣	...
في الممالك	فى الممالك	١	٣٦٥
فقد قطعها	فقدقعطها	٥	٣٦٦
مباراة	مبارات	٢٠	...
ونحو ذلك	نحو ذلك	٤	٣٦٧
والأمة..لمثل	والأمة ... مثل	٥	...
جزء من الجزيرة	حز من الجزيرة	١٤	٣٧٢
قلوبهم الاسلام	قلوبهم لاسلام	٨	٣٧٩
لقي رجل	لقي رجلا	٤	٣٨١
ابن عساكر	بن عساكر	١٤	..

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣٨٣	٣	امهلتهم	أمهلتهم
٣٨٦	١٠	حذيفة بن ليمـان	حذيفة بن اليمان
٣٨٩	١١	اطراح لا َمه	اطراح لأمة
...	١٥	ولاتجد من الما ل	ولاتجد من المال
٣٩١	٢	بارشارهم	بارشادهم
٣٩٢	٩	وهومن	وهو
٣٩٣	٢	اليعوث ...نهاود	البعوث ...نهاوند
...	١٧	بن جرير	ابن جرير
٣٩٥	١٨	وری الطبری	وروى الطبري
	٨	فتفتنوها	فتفتنوها
٣٩٩	٩	واقلومن الرواية	وأقلوا من الرواية
	١١	بن الجوزي	ابن الجوزي
	١٥	المنهدم	المتهدم
٤٠٠	١١	الاشعت	الاشعث
٤٠١	١٥	نحفت	نخفت
٤٠٢	١٥	الآ نّ	الآنّ
...	١٦	فرق	فرقاً
٤٠٤	١١	بهـا حق	بها حق
٤٠٥	٥	أطيعو الله	أطيعوا الله
...	٢١	تستندد	تستند
٤٠٦	١٧	فاعاده	فاعاد
٤٠٧	١٧	بن عم خالد	ابن عم خالد
...	٢٠	بن العم	ابن العم
٤٠٨	١٢	لاحكم الا الله	لاحكم الا الله
٤٠٩	٩	مرتية	مرتبة
٤١٩	١١	لمساواة	المساواة
٤٣١	٩	يتفشى الخليل	يتفشى الخلل

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤٤٩	٩	عمريفول	عمريقول
٤٥٦	٢٣	ولامن صايهم	ولامن صلبهم
٤٥٧	٢٦	«٢» هكذ	«٣» هكذا
٤٥٨	٢٤	ينفض الله	يفض الله
٤٦٢	٣	نقد بارز	فقد بارز
٤٦٦	٨	احعل	اجعل
٤٧٠	٢٥	يتناناضلون	يتناضلون
...	٢٦	نفس ظامة	نفس طلعة
٤٧٥	٤	وعريهم	وعريهم
٤٧٨	١٠	عمرابن	عمربن
٤٨٢	١٣	جزور	جذور
٤٩١	٩	والبحت	والبحث

وردت لفظة الاردن في هذا الكتاب بتشديد الراء تارة وتشديد النون اخرى والصواب تشديد النون فليتنبه



﴿ ملحق للخطأ والصواب ﴾

قد وقع في هـذا الجزء اغلاط أخرى غـير الاغلاط المبينة في فهرست الخطأ والصواب لم اطلع عليها الا بعد تمـام طبع الكتاب لاني لم أقف على طبع قسم كبير منه لانحراف ألم بصحتي واضطرني الي السـفر ومنها انه جاء في صحيفة ٣٥٣ سـطر ١٤ اسم أشيم وصوابه بن أشيم وفي الصحيفة ٣٦٧سطر ٤ نحو وصوابه ونحو وفي الصحيفة نفسها سطر ٥ مثـل والصواب لمثل وفي الصحيفة ٤٢٩ سطر ١٦ وتقتضي والصواب وتقضي وفي الصحيفة نفسها سطر ١٧ بقبول وصوابها بفضول وفي الصحيفة٤٣١ سطر ٣ منه والصواب منها وفي الصحيفة ٤٣٦ سطر فقصد والصواب فقد وجاء في الصحيفة ٤٣٧ جملة طويلة بعد كتابه الى شريح القاضي أولها وأما أقضيته الخ الجملة وليس هـذا محلها بل هي في ختام هذا الفصل بعد كتاب أبي موسى الاشعري وفي الصحيفة ٤٤٢ سـطر ١٢ جملة لم يتوتف عن جمع كلة الأمة وصوابها يتوفق لجمع كلـة الامة وفي الصيحفة ٤٤٩ سـطر ٩ أم والصواب بن أم في الصحيفة نفسها آخر سطر ١٨ عنوان فصل مخصوص لم يجعل وحده بين سطرين وسقط من الفهرس فلينتبه اليه وفي صحيفة ٤٥٣ سطر ١ سلمه والصواب مسامة وفي الصحيفة ٤٥٨ سطر ٢٤ ينفض وصححت في الفهرس يقض وصوابها ينغض بالغين وفي الصحيفة ٤٦٤ سـطر ٦ للموض والصواب للعرض وفي الصحيفة نفسها ٢٤ وهو الحق والسـاطة وصوابه وهو الحق الذي تعين به حد السـلطة العليا الخ وفي الصحيفة ٤٦٥ سطر ٤ ولا تحمـدوهم والصواب ولا تجمروهم وفي الصحيفة نفسها سطر ٢٣ لذي والصواب الذي وفي الصحيفة٤٦٧ سطر ١٥ مستعيدة والصواب مستعبدة وفي الصحيفة ٤٧٠ سطر٢٥ وخرجوا ان والصواب وخرجوا الى وفي الصحيفة ٤٧٢ سـطر ٣ رأى والصواب أرى وفي الصحيفة نفسها سطر ١٨ وجاء والصواب وجاء بهمزة فوق الالف وفي الصحيفة ٤٧٨ سطر ١٢ ولأوثرت والصواب ولأوثرن والصحيفة ٤٨١ سـطر ٦ الدير والصـواب الدبر والصحيفة ٤٨٤ في سطر ١٣ لفظ عنهم وهو زائد لا محل له وفي الصحيفة ٤٩١ سطر ١٧ سر والصواب سردواهم غلط جاء في هذا الجزء في الصحيفة ٤٧٤ سطر ١٨ وما بعده وهو ابن ابي هريرة بدل كعب الاحبار وهو سهو يدركه القارئ مما قبله وأنمـا جاني عليه تشتت الخاطر وألم المرض ولم ينتبه من وقف على طبع الكتاب له ليصلحه لمـا اني لم أعد نظري عليه حال الطبع لتغيبي خارج القطر فأرجو كل من وقعت بيده نسـخة من هذا الكتاب ان يصلحه بقامه بان يضع اسم كعب الاحبار بدل اسم ابي هريرة وله الفضل . وقد جاء في الفهرست فصل بعنوان بحث في الردة وهو حشو من الطباع اذ ليس في هذا الجزء فصل بهذا العنوان وانما هو في الجزء الاول فليتنبه اليه ومتى نفدت نسخ هذين الجزءين فسنعيد طبعهما بأحسن اتقان ان شاء الله

